اللهُ جلّ جلاله

وُجُودِهِ ۞ عُرفَانه ۞ طريقُ الاتصالِ به

بقلم

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارنة

الله

جلّ جلاله

وجوده ۞ عُرفانه ۞ طريق الإتصال به

بقلم

سليم الجابي

ماجستير في علم الأديان المقارن

الله

جلّ جلاله

وجوده ۞ عُرفانه ۞ طريق الإتصال به

الطبعة الأولى١٩٩٨ - عدد النسخ المطبوعة ٢٠٠٠
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

عنوان المؤلف : دمشق - تلفون : ٧٧٧٤١١٣ - ص.ب : ٥٤٢٥
تصميم الغلاف والتنضيد والإخراج الفني :
النبلاء للخدمات الإعلانية - دمشق - تلفاكس : ٢٢٤٨٠٨٢
الطباعة : مطبعة نضر لفنون الطباعة الحديثة - دمشق - تلفون : ٢٢١٢٣٦٣

▪ صـــدر للمؤلـــف

- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء أول)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثاني)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثالث)
- نظرية جذور الأخلاق . (مترجم الى الفرنسية ويترجم إلى الإنكليزية)
- النظرية القرآنية حول خلق العالم .
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة.
- الرأي في المرأة والحرية والتراث حول حوار د.البوطي و أ.فياض.
- فن الإختزال في القرآن الكريم .
- هل مات المسيح على الصليب ؟ (مترجم الى البولندية)
- في ظلال دلالات سورة الكهف وبمنظور جديد معاصر.
- في ظلال دلالات سورة الاسراء وبمنظور جديد معاصر.
- الصوم في الإسلام.

▪ يصـــدر قـريبـا :

- أصـول تفـسير القـرآن العظيـم
- خلق الإنسـان

كلمة إهـداء وشـكر

أهـدي هـذا "السـفر" الغنيّ بمـا يُـبرز روح الدّيـن الإسـلامي الحنيـف، إلى الله خـالقي ومـالكي وربّ الأربـاب والـذي لـه مـافي السـماوات ومـافي الأرض ومابينهمـا، والـذي إليـه يرجـع الأمـر كلّـه، والذي إليه المصير.

كمـا أشـكر جميـع إخوانـي وأحبّـائي الذّيـن ساهموا في إنجازه تنضيـداً، وطباعـة، وبالتبرّع ماليّـاً. وأدعوه جلّ شأنه أن يجزيهم أحسن الجّزاء.

المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

من المعلوم تاريخيّاً أنّه كان لكتاب الله نزولان وأنّ دعوة الإسلام قد مرّرها الله عزّ وجلّ بدورين ، قبل أن يُكمل مُحمّد بن عبد الله ﷺ تبليغها للنّاس . فقد قدّر تعالى أن يرى النّاسُ وجه الإسلام وهو في دوره المكّي تابعاً لحكومةِ قريشٍ الجاهليّة . كما قدّر تعالى أن يرى العالم هذا الوجه الإسلاميّ ، وفي أيدي أتباعه زمام الحكم ، وله السّيادة ، وهو في دوره في المدينة المنوّرة بعد الهجرة إليها إثر تقبُّل أهلها الإسلام ديناً . ولايُعقل أن يُقدّر الله الحكيم الخبير كلّ ذلك دون حكمةٍ بالغةٍ وهو علاّم الغيوب .

ولطالما فكّرت في هذا الأمر مليّاً . وقد لفت نظري أنّ الدّور المكّي أثبت خلاله كلُّ مَنْ آمن ثباتاً على العقيدة ، وتقديماً لكلّ تضحيةٍ مطلوبةٍ منه ، فلم تحدث ظاهرةُ ارتدادٍ ولاظاهرةُ نفاق. على حين أنّه قد ظهرت في الدّور المدنيّ طبقةٌ من المنافقين وهي في لباس إسلامي .

كما لفت نظري أيضاً أنّ ماأنزله الله العزيز من سور في مكّة المكرّمة كانت مضامينها لاتتناول ماأنزله تعالى في المدينة المنوّرة من مضامين . ولاشكّ أنّ مثل هذا التّصرف لايخلو أيضاً من حكمةٍ تُلفت نظر المُتدبّرين .

والنّتيجة التي استقيتها من ذلك كلّه ، والتي توصّلت إليها، هو أنّ الله عزّ وجلّ قد أراد إعطاء درسٍ عظيمٍ للّذين يرفعون شعاراً في زماننا من أنّ الإسلامّ دينٌ ودولةٌ ويسعون لاستعادة مجد الإسلام وهو أن يتذكّروا هذين الدّورين المكّي والمدنيّ ، وملامحهما التي ذكرناها ، ليُدركوا من خلال ذلك أنّ الدّين الإسلامي الحنيف يشكّل في حقيقة أمره كياناً له استقلاليّته . وأنّه مخلوق ومُصاغٌ من جسدٍ وروح . فالإسلام كدينٍ يُمثّله الدّور المكّي والإسلام كدولةٍ يمثّله الدّور المدنيّ . بمعنى أنّ التّعاليم التي كان الله تعالى قد أنزلها في مكّة هي بمثابة الرّوح لكيان الإسلام . وأنّ التّعاليم التي أُنزلت في المدينة هي بمثابة الجسد لكيان الإسلام . وإنّه لشيءٌ بديهيٌّ أنْ لاقيمة لجسدٍ بدون روح . فلو وعى هؤلاء الّذين يرفعون الشّعار المذكور ويسعون لاستعادة مجد الإسلام هذا الدّرس العظيم وتلك الحقيقة ، لاحتذوا حذو مافعله ربّهم عزّ وجلّ ، ولكانوا سعوا لإحياء تعاليم هذه الرّوح ووفق مشيئة ربّهم ، وليس وفق ماشاؤوه.

وبناءً عليه كان لزاماً عليّ أن أؤلف "سفراً" أي كتاباً كبيراً يُعين المسلمَ البعيد عن العّقل التّقليدي على تبيُّن ملامح تلك الرّوح الإسلاميّة التي نفخها محمد خاتم النبيّين ﷺ في أصحابه في مكّة المُكرّمة ، حتى إذا عاد بإمكانهم حمل مِشعل الإسلام وتقلّد زمام الأمور إذا ما سعى الحُكم إليهم بتقديرٍ من ربّ العالمين .

وأقدمت على هذه الخطوة المباركة ، من بعد أن تبيّن لي خُلوُّ مكتباتنا من كتابٍ مماثلٍ ينظرمؤلّفه بنفس المنظار الذي عاد طوع بناني . والحقُّ أنني وجدّت تأييداً كبيراً من جانب ربّي على هذا الطّريق السّويّ.

وبهذه المناسبة أقول : إنني وقد سبق لي أن تصدّيت للقراءة المعاصرة التي طلع بها الدكتور محمد شحرور على قُرّائه قبل عدّة سنوات . وكان ينبغي أن يقترن ردّي في ذاك الوقت بمثل هذا الكتاب ومن باب أنّ تلك القراءة المعاصرة قد خلت من هذه الرّوح . لكنّ الّذي حدث أنّي كنت ملتزماً بنهجٍ واضح المعالم ، سرتُ عليه إلى آخر هذا الرّد . وانتهيت منه وأنا على مضضٍ وتحفّزٍ لكتابة هذا "السّفر" الغنيّ بالمعلومات ، والذي كان من المستحيل إنجازه في وقتٍ قصيرٍ ، فاكتفيت وقتئذٍ بإبراز معالم ماقام به المذكور من عمليّات تمزيقٍ وتقزيمٍ لكتاب الله ، وإسقاطٍ لأفكار الماركسيّة على آياته عن قصدٍ وعن غير قصد . الأمر الذي أغضب الله تعالى الذي كان أنزل هذا الذّكر ووعد بالمحافظة عليه .

ألا لا ينبغي لأحدٍ أن يغرب عن ذهنه ،بعد الذي ذكرته ، أنّ الله عزّ وجلّ كان غرضه الأساسيّ من إنزال كتابه العزيز ، هو لتعريف عباده على نفسه ،ليتبيّنوا وجه ربّهم الذي لاإله إلا هو، فيتبيّنوا وجه جماله ووجه جلاله وحُسنه وإحسانه، لينجذب الطّالبون إليه فيطلبوا محبّته وقُربه ورضوانه ،ولتتوطّد اللُّحمة مابين العبد وربّه ويصبح من عابديه الحقيقيّين . وليبوء الفاسق بشرّ أعماله ويستحقّ العقاب.

لذلك أدعو إلهنا المحبوب أن يتقبّل ماأقوم به ، وليحقّق مابشّرني به على طريق هذا المسعى ، وإنّه ذو الفضل العظيم . وأنا في السّبعين من عُمري ،ولاحول ولاقوّة لي إلا بما آيدني به من لدنه.

وليعلم القارئ العزيز أنّي التزمت خلال تأليفي هذا السِفر المبارك بمنهجٍ ماحُدْتُ عنه يتحدّد في الأمور التالية :

أولاً : قرّرت ألا أستقي معلومات هذا الكتاب إلا من ضمن النصّوص القرآنيّة نفسها ،وليس من القيل والقال.

ثانياً : وأن ألتزم بأصول تفسير القرآن الكريم ، ووفق معطيات مفرداته وتراكيبه وذلك بالرّجوع إلى مابلغنا من معاجم اللغويّين العرب .

ثالثاً : وأن أقلّل من الاستشهاد والاستدلال بالأقوال من خارج هذا القرآن العظيم، إلا بمايفيد توثيق مصداقيّته .

رابعاً : وأن أتجنّب العقليّة التقليديّة مااستطعت ، ولأكتب بأسلوبٍ علميٍ معاصر.

وانطلاقاً من هذا المنهج المذكور ،فقد رُحت ، وأنا أبرز معالم روح التّعاليم الإسلاميّة الحنيفيّة ، فقسّمت المواضيع إلى ثلاثة بحوث. ففي المبحث الأوّل ألقيت الضّوء على مصداقيّة وجود ذات الله عزّوجل ومصداقيّة كتابه العزيز . وفي المبحث الثّاني تكلّمت عن أهمّ مايساعد المسلم ليتعرّف إلى ربّه عزّوجلّ ، وليساعده على الفوز بمحبّته وقُربه ورضوانه . وفي المبحث الثالث ألقيت الضّوء على تاريخ اتّصال الله تعالى بمخلوقاته. هذا الاتصال الذي حدّده القرآن العظيم ، والذي لن ينقطع في يوم من الأيّام .

علماً بأنّي قسّمت المبحث الأوّل إلى أربعة أبواب . وقد تضمّن **الباب الأوّل** فصولاً ثلاثة اشتملت على مالعقل والفكر من منزلةٍ في كتاب الله العزيز ، وعلى أنّ الوحي قديمٌ ، وقد ناقشت ماوضعوا بصدده من نظريات . كما وضّحت مافي التّوراة والإنجيل المُعاصرين من تحريفات ، الأمر الذي يُسقطهما من الميزان ، فلايُعدّان مرجعاً موثوقاً.

وقد تضمّن **الباب الثاني** أربعة فصول دارت مضامينها حول إثبات مصداقيّة القرآن الكريم كمرجعٍ موثوق للمحقّقين.

أمّا **الباب الثّالث** فقد تضمّن خمسة فصول دارت مضامينها جميعها حول وجود الله عزّوجلّ ، وعلى أدلّة وجوده ، وعلى المنهج القرآنيّ في هذا الخصوص . علماً بأنّي استقيت الأدلة من القرآن الكريم نفسه ، مُتجاوزاً في ذلك الأسلوب التقليديّ المعروف.

وأمّا **الباب الرّابع** فقد اشتمل على فصلين اثنين . فبحثت في الفصل الأوّل فيهما موضوع الشّرك الخفيّ خاصّة ، ومايمتّ إلى هذا الشرك الخفيّ من أمور .

وعلى هذه الشاكلة فقد قسّمت المبحث الثاني إلى أربعة أبواب . **فالباب الأول** منها اشتمل على فصلين . وقد تضمّن الفصل الثاني قوانين المحبة الإلهيّة ، ومقاماتها المختلفة.

وأما **الباب الثاني** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأوّل منها الآثار الرّوحيّة التي تتأتّى عن العبادات . وبحثت في الفصل الثاني منها كيفيّة تحصيل المحبّة الإلهيّة وكسبها. وبحثت في الفصل الثالث مراحل السير الرّوحاني التي يقطعها السالك على طريق التّعرّف إلى ربّه عزّوجلّ والوسائل العائدة إليها.

وأما **الباب الثالث** من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين بحثتُ في الفصل الأوّل منهما موضوع الذكر الإلهي الذي يتطلبه السّير الرّوحاني : تعريفه، فلسفته ،وأشكاله وكيفيّته.

وبحثتُ في الفصل الثاني منهما البركات والثّمار الرّوحيّة التي تنجم عن الذّكر الإلهيّ بالدّعاء.

وأمّا **الباب الرابع** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد عدّدت في الفصل الأوّل من هذه الفصول تلك الصّفات الذميمة التي تحول دون العبد ودون فوزه بمحبّة ربّه عزّوجلّ . كذلك عدّدت في الفصل الثاني من هذه الفصول تلك الصّفات الحسنة التي إذا ماتحلّى بها العبد السّالك درب عرفان ربّه ، تجذب محبّة ربّه عزّوجلّ إليه ، ويفوز بالتالي بمحبّة خالقه وقربه ورضوانه. وقد خصّصت الفصل الثالث من هذه الفصول للكلام عن حُسن الله وإحسانه وجماله وجلاله.

وأخيراً فقد خصّصت المبحث الثالث للكلام عن موضوع الإتّصال بالله تعالى. وقسّمته إلى ثلاثة أبواب :

فالباب **الأوّل** من هذه الأبواب اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأوّل من هذه الفصول إمكانيّة الاتّصال بالله جلّ شأنه . وبحثت في الفصل الثاني من هذه الفصول أسماء الذّات الإلهيّة الحُسنى ،ومضامينها ، وتجلّياتها. وبحثت في الفصل الثالث من هذه الفصول علاقة البشر بهذا الخالق العظيم قبل آدم عليه السّلام وبعده.

وأما **الباب الثاني** من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين . بحثت في الفصل الأول منهما ماواجه المفسّرين من إشكالات بمايتعلّق بموضوع آدم عليه السّلام ،وبخصوص جنّته التي أسكنه ربّه عزّوجلّ فيها ، وكونه أوّل رسول بعثه الله تعالى لنقل البشر نقلةً نوعيّة. وبحثت في الفصل الثاني منهما حقيقة قصّة آدم

عليه السلام الوارد ذكرها في القرآن الكريم ، والمقاصد الهامّة المرجوّة من ذكرها.

وأمّا **الباب الثالث** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ستّة فصول . تناولت في التلخيص في الفصل الأوّل من هذه الفصول ، تلك الحركات المادّيّة التي أعقبت بعثة آدم عليه السّلام . واستعرضت في الفصل الثاني من هذه الفصول حقيقة النقلة النوعيّة التي أسفرت عن بعثة آدم عليه السّلام في حياة الجنس البشري.وألقيت الضوء في الفصل الثالث على كيفيّة بروز روح الشّرك با لله تعالى من بعد بعثة آدم عليه السّلام ، ومراحل تطوّر الشّرك إلى نوعين : شركٌ جليٌّ وشركٌ خفيٌّ . وتناولت في الفصل الرابع من هذه الفصول الكلام عمّا أحدثه ا لله عزّوجلّ في الأرضِ من انقلاباتٍ روحيّةٍ أعقبت بعثة آدم عليه السّلام لمعالجة أنواع الشّرك التي ذكرناها ،ولترسيخ جذور توحيد الذّات الإلهيّة في نفوس البشر ، وأعلامها ورموزها. وتكلّمت في الفصل الخامس من هذه الفصول عمّا يُحدثه ا لله تعالى في وقتنا الحاضر من انقلابٍ روحيّ. وأما الفصل السادس والأخير من هذه الفصول فقد خصّصته للكلام عن موضوع إمكانيّة اتّصال البشر على الدّوام بخالقهم، ومنهجيّته، وطرقه ، ودوامه ، وعلاقته بحقيقة الدّعاء بين يديّ ا لله عزّوجلّ .

وأتوجّه بعد هذا الذي شرحته لأقول لقارئ هذا "السّفر" الغنيّ بالمعلومات ، أن يُطالع مضامينه بإمعان وتدبّرٍ لينظر ويتحسّس ماعلق في نفسه من أثرٍ محسوسٍ يتحسّسهُ في نفسه . فإن تراءت لأعينه من خلاله معالمُ الرّوح الدّينيّة التي اشتمل عليها الإسلام الحنيف، والتي سبق أن ذكرت وقلت أنّ ماعدا هذه الرّوح الدّينيّة من تعاليم سياسيّة واقتصاديّة وغيرها إنما أُنزلت من لَدُنّ ا لله تعالى

لتشكّل جَسَدَ هذا الدّين الحنيف . فإن تراءى لهذا القارئ مصداقيّة ماذكرت ، فليُطالع بعده "القراءة المعاصرة" التي تباهى بها الدكتور محمد شحرور ، ولينظر كيف أنّه من خلالها قد أفرغ الإسلام من هذه الرّوح الدينيّة ، ليُسخّره لصالح ماأسقطه من آراء ماركسيّة على آيات هذا الكتاب المقدّس والمبارك والمتّصف بالنّماء والدّوام.

وبكلمة مختصرة أخيرة أقول : إنّ المسلم المثقّف ، إذا ابتعد عن فهم روح هذه التعاليم التي تناولتها في هذا الكتاب الكبير ، فكراً وسلوكاً ، يكون كالذي يُفرِغُ إسلامه من روحه التي كان قد نفخها محمد خاتم النبيين ﷺ في أصحابه في مكّة المكرّمة . عن تلك الرّوح التي منحتهم ديناميكيّة سادوا من جرّائها على كلّ من واجههم ، وفي كلّ مكان وزمان .

ولا يظنّن ظانٌّ أنّي أدفع بالقارئ ليصبح متصوّفاً ، وليبتعد عن مجال خدمة أمّته ووطنه. كلا ، بل أدفعه ليتسلّح بهذه الرّوح الدينيّة الإسلاميّة التي لولاها مااستطاع محمد عليه السلام توحيد أفئدة أمّته بالرّغم من تفرّقها وتشرذمها في زمانه ، والتي لولاها ماكان باستطاعة أصحابه رضوان الله عليهم من إنجاز ماأنجزوه من بعده.

فالإنسان المسلم إذا كان مهتمّاً أن ينقل أمّته إلى مصّاف الدّول المتقدّمة علميّاً وتقنيّاً ، وفي وقت لايكون فيه متقمّصاً هذه الرّوح الدينيّة الإسلاميّة كما وضّحتها فكراً وعملاً ، ويبدأ على التفكير بأسلوب التّفكير الماديّ ، بعيداً عنها ، وهو يضعُ جُبّة الإسلام على كتفيه ، فإنّي لعلى يقين تامٍّ أنّه لن يُفلح فيما هو ساعٍ إليه ، وسيكون مصيره إلى الخيبة والفشل الذّريع . من منطلق أنّه لايصلُح آخر هذه الأمّة إلا بما صَلُحَ به أوّلها.

ولا ينبغي لأحدٍ أن ينسى أو يتناسى أنّ الله الذي كان ومايزال يسمع ويرى مايجري على هذه الأرض ، يسمع ويرى في أيامنا هذه مايكيده الظّالمون للقضاء على دينه الحنيف . وكان قد أنبأ قبل أربعة عشر قرناً عن ذلك كلّه في أكثر من سورةٍ من سور كتابه العزيز وكنت قد كشفت الغطاء عن تلك الأنباء الرّهيبة في مؤلفي "فن الاختزال في القرآن الكريم" وغيره من المؤلّفات ، من أنّه سيهلك هؤلاء الظّالمين . وهاأنّي وضّحت لهذا القارئ البعيد عن العقل التقليديّ في هذا "السفر" الذي هو بين يديه معالم الانقلاب الرّوحي الذي ابتدأه الله عزّ وجلّ في عصرنا الحاضر . وهو الانقلاب الرّوحي الذي ستمتدّ آثاره المستقبليّة ألوف السنوات إنشاء الله العزيز . وهل يتناسى هذا القارئ المسلم وعد ربّه الذي بشّر فيه وقال :﴿ **والعاقبةُ للمتّقين** ﴾ ؟ فعش رجباً ترى عجباً .

وأخيراً أحمد الله الذي له الأسماء الحُسنى والذي لا شريك له في مُلكه ، أنّه أعانني على كتابة هذه المقدّمة التي قدّمت بها لهذا السّفر الغنيّ بالمعلومات التي تُبرز روح تعاليم هذا الدّين الحنيف إلى الوجود ، وعلى الانتهاء من كتابتها ليلة ذكرى مولد محمد بن عبد الله نبيّ الإسلام وخاتم النبيّين . اللهم صلّ على هذا الرّسول الصادق الأمين كلّما طلعت على هذا الكون من حولنا شمسٌ وكلما غربت ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

١٢ ربيع الأوّل ١٤١٩هـ الموافق ٦ تموز ١٩٩٨

سليم الجابي

المبحث الأول

مصداقية وجود الله عز وجلّ

الباب الأول

المدخل إلـى البحث



تمهيد ضروريّ

في لُغتنا العربيّة، كلمة الحياة نقيض كلمة الممات. فالحيّ ضدّ الميّت. وكلمة الحَيوان مصدرٌ، سُمّي به جنس الحيّ ممّا به حياةٌ وحسّ، كالإنسان والفريس وسواهما من المخلوقات الحيّة، ويُعرّف الكائن الحيوان بأنّه جسمٌ حيٌّ نامٍ حسّاس مُتحرّك بالإرادة أو الغريزة. ويُطلق الحيوان كذلك على ذي الرّوح غير النّاطق، ويُجمع على حيوانات. والنّسبة إليه حَيَوانّي. أمّا الحيوان بمعنى الحياة، فقد قال صاحب الكلّيّات : (الحيوان أبلغ من الحياة، لما في بناء وَزن فَعَلان من الحركة والاضطراب اللاّزم للحياة، والحَيَوان في الجنّة، والحياة في الدنيا.) أي أنّ الحَيَوان يعني الحياة التي لايعقبها موت.

فالحياة إذاً، تعني قوّة مزاجيّة تقتضي الحسّ والحركة. والنسبة إلى الحياة حيويّ. ولذلك نلاحظ أنّ المُنادي إذا كان عربيّاً، ونادى ذا حياة به حسّ وحركة، أراد أن أسرع اليّ، يُناديه أن "هلمّ". وننادي في الأذان "حيّ على الصّلاة"، و "حيّ على الفلاح".

والملاحظ أنّ الإنسان، وإن شابه الفرس من حيث المزاجيّة والحسّ والحركة، فهو يفترق عنه بالفكر والنّطق والإرادة، فالإنسان يتميّز عن سائر مخلوقات الله بهذه المزايا.

دونكم السّبع الذي يسمّونه سيّد الغابة، وهو سيّد الغابة بلا مُنازع. فالملاحظ أنّه كان، ولايزال يتمتّع بهذا اللّقب فلم يؤثّر في منزلته هذه كرّ السّنين، أو تعاقُب الدّهور.

على حين أنّ الإنسان لم تكن له السّيادة على ماحوله من الكائنات في بدء تاريخه، فقد كان يعيش حياةً هي أقرب إلى حياة الحيوانات، بل دون منزلة السّبع، إلا أنّ هذا الإنسان ارتقى وتطوّر، وعاد في عصرنا يُهيمنُ على سيّد الغابة وسائر الكائنات. وعادت له السّيادة على الأنهار وسطوح البحار. وركب

أجواز الفضاء. وعاد يقلّب نظره فيما حوله من عالمنا الفسيح، متسائلاً عن كيفيّة نشأة هذا الكون ومن أنشأه. وعن الكون أهو موجود أزليّاً، أم أنّ له خالقاً أبدعه وأوجده، ومتسائلاً عن وجود الله تعالى نفسه : من هو، وأين هو، وكيف؟

ولابّد أن يلاحظ كلّ فردٍ منّا أنّ جسده قد جُهّز بحواس عديدة، أطلقوا عليها اصطلاح (الحواس الخمس) : السّمع والبصر واللّمس والشمّ والذوق، ولم يُدخلوا العقل ضمن مُصطلحهم المذكور. ذلك أنّهم لاحظوا أنّ العقل يعمل على مستوياتٍ ثلاثة من الزّمن، هي الماضي والحاضر والمستقبل إلى جانب أنه يستقبل معطيات هذه الحواس الخمس التي لاتعمل إلا على مستوىً وصعيدٍ واحدٍ هو الزّمن الحاضر.

والحقيقة، هو أنّ العقل جهازٌ متطوّرٌ في غاية التطور، وهو من ماهيةٍ غير مادية وخالد خلود النفس ولايعمل إلا بعوامل مساعدة ثلاثة تساعده في العمل على تلك الصُّعد، وهذا الأمر شبيه ببقيّة حواس الإنسان، فهي عاجزةٌ عن العمل إلا بمساعدة عوامل مساعدة. فالعين على عظمة تكوينها، فإنّها لاترى إلاّ بمساعدة الضوء. والأذن على عظمة تكوينها، لاتسمع إلاّ إذا توفّر لها الهواء. والأنف بالرغم من عظمة تكوينه، لايشمّ إلاّ بمساعدة الرّوائح، واللّسان على عظمة تكوينه، لايتذوّق إلاّ بمساعدة الأطعمة المختلفة، والجلد بالرّغم من عظمة تكوينه، لايشعر باللّمس إلاّ إذا صادف شيئاً ماديّاً، على هذه الشاكلة، فإنّ العقل على عظمة تكوينه، لايعمل على صعيد الزّمن الماضي إلا بمساعدة اللُّقى القديمة والآثار والمخطوطات والمستحاثات، ولايعمل على صعيد الزمن الحاضر إلاّ بمساعدة ملاحظة الإنسان لما يراه من الأشياء، وبإجراء التجارب على هذه الأشياء، والقيام بعمليّات استنتاج واستخلاص للمعلومات وبدون الاستعانة بهذه العوامل المساعدة يعسر على العقل اتخاذ قرارات صحيحة.

ولايعمل هذا العقل على صعيد الزمن المستقبل، فيما يتعلّق بأمور الغيب وماوراء هذا الكون، إلا بمساعدة وحي السّماء، أي بمساعدة وحي وكلام الخالق نفسه، الذي كلّم ويكلّم به عباده، وإنّه لولا تلقّي الإنسان هذا الوحي الإلهي، ماكان للبشر أن يعلموا عن خالقهم شيئاً، ولاأن يعلموا عن عالم مابعد الموت أمراً يقينيّاً أبداً.

فالعقل والحال هذه، حاسّةٌ سادسةٌ، لكنّها أكثر تطوُّراً من بقيـة حـواس الإنسان. يؤكّـد هـذا دلالتـه اللغويـة أيضـاً. تقـول العـرب : عَقَـلَ الـدّواء بمعنى أمسكه. وعقـل الدّابـة بمعنى ربطهـا. وعقـل الغـلامُ بمعنى أدرك وأصبـح عـاقلاً مُدركاً. وعقل فلانٌ بعد الصّبا : عرف الخطأ الذي كان عليه قبل صبـاه. وعقـل الأمر تدبّـره وفهمـه. وهـذه دلالاتٌ علـى شـاكلة مـاأعطى العـرب الحـواس مـن دلالات. وعليه فما العقل إلاّ حاسّة سادسة، لكنّها أكثر تطوراً مـن بقيّـة حـواس الجسم، وأعظم تقنيّـة وتستعين بمعطيـات الحـواس الخمـس. فهـو أشبه مـايكون بالحاسوب أي الكمبيوتر في عصرنا، وإن جـاء الفـارق مـابين العقـل والحاسـوب كبيراً جدّاً، يكاد لايُقاس.

المهّم من جميع ماذكرته هـو أنّ الإنسـان، وإنّ شـابه السّبع وغـيره مـن الحيوانات، من حيث مزاجيّته وحسّه وحركته، إلاّ أنّ هـذا الإنسـان امتـاز عنهـا بهذه الحاسة السادسة المتطوّرة ذات التقنية الخارقة، التي أطلق العرب عليهـا اسـم العقل[1] .

❀❀❀

[1] ـ سيأتي الكلام عن العقل مفصلاً وعلمياً فيما بعد

الفصل الأول

١ـ منزلة العقل والفكر

والخالق إذ جهّز جسم الإنسان بجهاز العقل، الذي تَميّز به هذا الإنسان على سائر مخلوقات الله عز وجلّ. لم يشرّفه به عبثاً، ودون حكمةٍ بالغة. وأقلّ مايُقال هو أنه تعالى ميّز الإنسان بهذا العقل لينقله نقلة تطوّرٍ، لم تتأتّ لمخلوقٍ آخر سواه في هذا الكون.

ذلك أن الإنسان يأكل ويشرب كما تأكل بقيّة المخلوقات وتشرب، والإنسان ينجب أطفالاً، وسائر المخلوقات تلد، والإنسان يسعى لتحصيل رزقه، كذلك تفعل بقيّة مخلوقات الله تعالى، فمن هذه الظواهر يتجلّى لنا أنّ الله لم يشرّف الإنسان بجهاز العقل بقصد أن يستعمله لتحصيل رزقه وضمان نسله، فهذه أمور غريزيّة تتحصّل للإنسان بالسّعي وتتحقّق للإنسان غريزياً، على شاكلة ماتتحقّق للحيوان غير العاقل، بدليل أن من فقد عقله وأصبح مجنوناً، نلاحظه يسعى إلى غذائه وتحقّق نسله أيضاً وبصورة غريزية. وهذا الأمر يدعونا إلى أن نجزم بالضرورة، بأنّ هبة العقل، قد قُصد بها أن تكون أداةً للإنسان يعي به ماحوله، ويتعرّف به خالقه.

والمُلاحظ أيضاً، هو أنّ البشر لم يختلفوا فيما بينهم في أمرٍ مادّي وعوه من الأشياء من حولهم، فما اختلف الناس يوماً في أنّ الماء يُطفىء العطش مثلاً، هذا وإنّ سرّ إجماعهم هذا، هو في تكوين الأشياء من حولهم، تكويناً مادّياً، مكّنتهم من هذا التوحّد في الإدراك والوعي المادي للأشياء من حولهم فتوحّدت إدراكات البشر جميعاً.

أما الأمر الذي لايزال النّاس فيه في غُمّةٍ واختلافٍ وتبايُنٍ في الآراء والمعتقدات، فهو موضوع وجود الذّات الالهية المقدسة والذي خصّصت كتابي هذا من أجله، من أجل التّعريف بهذه الذّات التي لاتُرى ولاتُنظر ولاتُسمع ولاتُشمّ ولاتُلمس، التّعريف بهذا الخالق الذي بادر من جانبه لإعلامنا بوجوده،

منذ أن اكتمل وعي الإنسان لما حوله من أشياء، وأضحى مُؤهّلاً للتّعرف على خالقه ومعبوده، وقد حمل إلينا مُبادرته جلّ شأنه ودعوته هذه إيّانا للتّعرف عليه والتقرّب إليه، أنبياء الله ورسله، بما أوحي إليهم من شرائع وماأطلعهم عليه من حقائق وأسماء وصفات اتّصفت بها ذاته عز وجل.

أما كيف أوحى الله تعالى إلى الذين اصطفاهم من عباده، وكيف كلّمهم، هذا الأمر سيأتي بيانه في موضعه من هذا الكتاب.

وقصارى القول، هو أن العقل هو أداة الفكر الذي شرّف الله الإنسان به من أجل أن يساعد للتعرّف على خالقه فلا يبذل قصارى فكره، في تحصيل مأكله ومشربه وملبسه واشباع ميوله وشهواته، بل يبذل قُصارى فكره في التفكير في خفايا هذا الكون ومعرفة قوانينه، والتعرّف إلى خالقه والتقرُّب إليه، وإلاّ يكون كمن استعمل أداةً من الأدوات في غير ماصُنعت له، فهو كمن يتّخذ من الصّحن الذي صنع للطعام، أداةً يقاتل فيها ويثير الشّجار، على سبيل المثال.

من هنا ندرك أنّ من واجب كل إنسان تخصيص وقتٍ للتفكير في آيات الإبداع من حوله، وتدبّر مابلغه من وحي ربّه. وإلاّ فهو يُغمط هبة العقل والفكر حقّها ويظلم بذلك نفسه، لأن صلاتنا وصيامنا قد شُرّعا لمساعدتنا أصلاً لدفعنا على طريق التفكّر، وهما أداتان تساعداننا على التعرُّف إلى خالقنا والاتّصال به واكتساب رضاه.

ثم إنّ التّفكر فيما وراء المادة، يستلزم ضرب الأمثال ممّا هو كائن في عالمنا المادّي، ولهذا ورد في البيان الإلهي قوله تعالى في سورة ابراهيم ، الآية (٢٥) : ﴿..**ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون.**﴾. وورد قوله تعالى في سورة العنكبوت ، الآية (٤٢) ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس، ومايعقِلُها إلاّ العالمون**﴾.

علىحين أنّ التفكُّر في الذات الإلهية المقدسة نفسها، لايُجدي فيه ضرب الأمثال المادية، ومن أجل بيان هذه الحقيقة ورد قوله تعالى في سورة الشّورى ، الآية (١٠) : ﴿ **ليس كمثله شيء، وهو السّميع البصير.**﴾. أي أنّ حقيقة ذات الله الخالقة، خافية على الإنسان المخلوق، وإن كان لهذه الذّات من الصّفات مايشابه صفات الإنسان في الظاهر، كالسمع والبصر. فإنّ الفارق بين

صفات الذات الالهية وصفات الإنسان، ممّا لايُقاسُ بمعاييرنا الماديّة، ذلك أنّ ذات الله ليس كمثلها شيءٌ مادّي.

وعليه فإن بحث مؤلّفي هذا، وإن كان يتعلق بوجود الله تعالى، صاحب الذّات التي ليس كمثلها شيء. إلاّ أنني سأكون مضطرّاً أحياناً، للاستعانة بضرب الأمثال الماديّة، لأبرهن من خلال ذلك على ما لله من صفاتٍ وعلمٍ وقُدرات.

ومادام التفكّر في حقائق المادة والكون ووجود الخالق، وهو أسمى مايفعله الإنسان العاقل الذي أنعم عليه ربّه بنعمة عقله وتفكيره، يستلزم ذلك منّا مراجعه دلالات كلمة (فكر) في معاجم اللغويين.

قال صاحب معجم محيط المحيط : فكر في الشيء، معناه أعمل النّظر فيه وتأمّله، والاسم الفكر، ويجمع على أفكار، وقال في الكلّيات : الفكر حركة النّفس نحو المبادىء، والرجوع عنها إلى المطالب والنظر هو ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة. والفِكير، هو كثير التّفكير.

وبمعاني الفكر هذه نزل قول الله تعالى في سورة البقرة (٢١٩) : ﴿**كذلك يُبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾. وقال في سورة آل عمران (١٩١) : ﴿**الذّين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّماوات والأرض..**﴾. وقال في سورة الأعراف (١٧٦) : ﴿ **فاقصُص القصَصَ لعلّهم يتفكّرون.**﴾. وقال في سورة الحشر (٢١) : ﴿**وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتفكرون.**﴾. وهذه الآيات جميعها تشعرنا بما للفكر في نظر الخالق من شأنٍ في طلب الحقيقة وابتغاء الهداية والإيمان، ومن ثمّ كان لابدّ لمُطالع كتابي هذا، من إعمال فكره ماوسعه ذلك، لأني، إنّما أخاطب فيما أكتبه الفكر قبل كلّ شيء، وأنّ ماأطرحه في هذا الكتاب، هو مجرّد أفكار تستدعي من قارئها، تقليب نظره فيها، والعمل على وعيها وإدراك أبعادها، وإنّما يستجيب الذين يستمعون، وموتى النّفوس يبعثهم الله عز وجلّ.

فموضوع كتابي هذا يدور إذن حول الذات الالهية المقدسة وماتتّصف به من صفات، والتي قالوا عنها وبمصطلحنا اللّغوي أنّها ذات غير محدودة بحدود، قالوا ذلك بمقاييس عقولنا، وفي حدود تصوّراتنا، ومهما قالوا، فلا يغيّر هذا من الحقيقة شيئاً فالحقيقة أنّ الذات الإلهية مستقلّةٌ عنا بوجودها على كل حال. وقد

أشكل هذا الأمر على كثير ممّن قالوا مقولتهم هذه، خصوصاً وأنّهم قرؤوا في كتاب الله القرآن الكريم قوله تعالى في سورة (ق) ١٦ : ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.**﴾. فذهب ذهن بعضهم إلى عقيدة وحدة الوجود، على حين أننا نجده تعالى يقول في سورة المعارج (٤) : ﴿**تعرُج الملائكة والرّوح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾.

والعروج هو الارتقاء، فلو صحّت نظريّة وحدة الوجود، ماكان للملائكة من حاجة إلى العروج، ثم إنّ الله عز وجلّ قال في سورة الزّمر (٦٧) : ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة..**﴾، ولايكون في قبضة القابض، إلاّ ماهو مستقلٌ عنه وخارج كيانه.

ولسائلٍ أن يسأل : من أين استقيت معلوماتك حول الذّات الإلهية المقدّسة؟ وأسارع لأجيب السائل وأقول : استقيت معلومات كتابي هذا من مصدرين اثنين : الأوّل ممّا تضمّنه وحي الله القرآني. والمصدر الثاني هو حصيلة عِرفاني للذّات الإلهية وتعاملي معها، أي من حصيلة ماتحقّق لي من صلاتٍ مع خالقي. هذا الخالق القريب على بُعده، والبعيد على قُربه، من خلال محبتي المتولده لذاته عز وجلّ، وانقيادي في طاعته، واستعانتي بقدراته، وتوكّلي عليه جل شأنه. وليس هذا السّبيل في التّعامل مع الذات الإلهية المقدسة بأمرٍ مُغايرٍ لما انطوى عليه القرآن الكريم من علوم وتعاليم. بل هو سبيلٌ من السُّبل الرّئيسيّة المسلوكة للرّاغبين.

وسيلاحظ قارىء هذا المؤلّف، أيّاً كان، أنّني، وإن استقيت أكثر معلوماته من القرآن الكريم نفسه، فإنيّ لم أنهج فيما استقيته من معلومات، نهج المقلّدين لمن سبق من العلماء. بل اتّخذت نهجاً مختلفاً، ذلك أنّي أعمل الفكر في فهم آي الذكر الحكيم، مُستعيناً بقواعد لُغة الضّاد، وبأصول تفسير القرآن، وبما استجدّ على السّاحة من علوم، وقد بذلت جهدي، وعلى نسق أسلوب القرآن الكريم نفسه، ألاّ آتي برأيٍ حتى أسنده إلى دليل وأبنيه على برهانٍ يستسيغه أهل عصرنا، خلافاً لفئةٍ ممّن سبق من المجتهدين.

والمعلوم أنّ عصرنا هذا، هو عصر العقلانيّة والعلم، بعيداً عن الخرافات والأساطير. فلا يتقبّل عاقلٌ معاصر مالا يستسيغه عقله، ولامايُخالف ماتدارسه من علوم، فلا يفاجيء مطالع كتابي هذا إن أكدّت له أنّي استقيت معلوماتي

من كتاب الله العزيز. وليتوجّه بكلّيته متفحّصاً مايحمله كل طرحٍ قرآنيٍ استشهد به، من أدلّةٍ وبراهين.

٢ ـ اسم الذّات الالهية الأعظم :

ومادامت أبحاث الكتاب ستدور حول الذات الإلهية المقدسّة، فلابدّ للمرء أن يتساءل في حديث نفسه : وهل لهذه الذّات الخالقة إسمٌ أعظم تمتاز به عن سائر الأسماء؟

والجواب هو أن وحي القرآن الكريم قد أتى لنا بالاسم الأعظم للذات الإلهية المقدّسة، وهو لفظ الجلالة (الله)، والذي يطالع معاجم اللغويّين العرب، يُدرك أنّ لفظ الجلالة (الله)، هو اسمٌ امتازت باستعماله لغة الضّاد. وهو على القول المُعوّل عليه، اسمٌ غير مشتق، ويحمل في جنباته جميع مأتى به القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى، ودلالاتها على الذات الإلهية المقدّسة، موضوع هذا الكتاب.

❁❁❁

الفصل الثاني
١ ـ قِدَم الوحي والتّوحيد

وقد سبق لي أن قلت، إن الله الخالق هو الذي بادر إلى اصطفاء بعض عبيده، وكلّمهم، وأوحي إليهم بما أتوا للبشر من شرائع وتعاليم، وعلى هذا فقد وجب عليّ أن أعرض هذا الطّرح الفكري مؤيّداً بالأدلّة والبراهين المقبولة عقلاً ومنطقاً وعلماً.

وقد بات معلوماً، من خلال كتابات أصحاب نهج التفكير المادّي في القرنين الأخيرين، أنّهم زعموا أنّ فكرة وجود الله لم تنشأ عند الإنسان عن طريق مبادرة الوحي السّماوي، بل نشأت هذه الفكرة تدريجيّاً لديه.

فالبشر الأوائل في زعمهم، ركعوا أمام مأخافهم منذ بدء تاريخهم، كما يركع الطّفل حين يواجه مايخيفه. وترسّخت على مرّ الأيام وكرّ السنين فكرة الخوف من بعض ظواهر الطبيعة، وانقلبت هذه إلى فكرة تأليه لهذه الظواهر الطبيعية، ومن ثم كانت هذه الفكرة ترتقي وتتطور في أذهان الناس كُلما ازدادوا علماً، فاستُبدلت هذه الفكرة بالاعتقاد بوجود ذوات إلهيّة سامية، اتّخذت لنفسها مظاهر تجلّت في أشياء كثيرة.

ثم أتى طورٌ، على زعمهم، تنزّهت فيه هذه الذّوات الإلهيّة المُختلفة فكرياً في نظر أصحابها، عن مظاهرها المادية، فانتهت البشرية إلى وحدانية الله في الذّات والصّفات، وهكذا تكّونت فكرة الله ووجوده عند الإنسان على هذه الصورة، ولم تتأتّ فكرة وجود الله عن وحي الخالق نفسه كما يزعم المؤمنون بوجوده.

هذه هي خلاصة نظريّة أصحاب الفكر المادّي، ويمكن أن نركن إلى القوا أنّها ارتكزت إلى عُنصرين أساسيين :

أوّلهما : أنّ الخوف شكّل الأساس الأول لنشوء تصوّرٍ عن وجود الله عز وجل.

ثانيهما : أنّ هذا التّصور قد تكامل بالتّدريج.

٢ ـ مناقشة النّظرية المادية منطقيّاً وتاريخيّاً

ونحن إذا افترضنا صحّة هذين العُنصرين، وجب علينا البحث عن أوّل شيء أخاف الإنسان، فدفعه إلى عبادته، ويبدو ببساطة أنّه الحيوان الذي كان يُعايش الإنسان في فجر تاريخه، فهو الوجود الذي أخاف الإنسان منطقياً، على اعتبار أنّ الإنسان لم يكن يملك من وسائل الدّفاع عن نفسه، مايحميه، مما اضطرّه إلى اتّخاذ مسكنٍ يلوذ به من هجمات الوحوش التي كانت مصدر خوفه قبل أن يتحضّر. فالوحوش الكاسرة كانت أخطر ماواجهه الإنسان في بدايات حياته البدائية الأولى.

وإننا إذا تفحّصنا ماكشفت عنه آثار تلك الفترة الزمنيّة من حياة البشرية، فلانجد أن الإنسان ألّه أو عبد الوحوش المفترسة إلا ماندر. بل كانت تغلب عليه عبادة الأفاعي، و لم تكن لعبادة الأسود والذئاب من مكانٍ يُذكر في حياته.

فلو صحّ كلام هؤلاء المفكّرين، أصحاب النهج المادّي، لكان الإنسان الأول قد عَبَد السّباع والذّئاب، فالغضنفر هو أكثر إخافةً للإنسان من الأفعى، على اعتبار أنّه يهاجم فريسته جهاراً ومواجهةً.. بينما تتخفّى الأفعى، متربّصةً لاغتيال فريستها، ثم إنّ للسّبع زئيراً مُرعباً، يوهن الأعصابَ، سماعه. وليس للأفعى إلاّ الفحيح. وجُثّة الغضنفر، مُخيفةٌ ويهلع الإنسان لرؤيتها، وتخور قواه.

ولاتملك الأفاعي أجساماً مخيفةً على شاكلته. وقيسوا على ذلك بقيّة الوحوش، نسبة إلى الأفاعي، كالذّئاب والدّببة وسواها، فهي باعث للإنسان على الجزع والخوف أكثر من الأفاعي.

هذا و لم نعثر في لُقى وآثار الإنسان القديم مايدلّ على أنّ ذاك الإنسان كان يعبد السّباع والذّئاب، بل لاحظنا غلبة عبادته للأفاعي، وهذه المعلومات تُسقط في نظري عنصر الخوف الذي أقام الماديّون عليه حُجّتهم حين زعموا نشوء فكرة وجود الله بالتّدريج.

وإذا عُدنا إلى التاريخ، وجدنا قدماء المصريّين أكثر الشعوب عبادة للحيوان، وكانت الكثرة منهم تعتقد أنّ روح إله الخير المسمّى (أوزيس) توجد في عجل يسمّونه (ألبيس)، لذلك كان العجل من أشهر معبوداتهم. وقد عبدوا لذلك (الثور الأسود)، معتقدين أنّه صورة (أوزريس).

وإذا كان بعضهم قد عبدَ الأسد والذئب، فإنّ ثمّة من عَبَد الكلب والقطّ والماعز والكبش والضأن، وكانوا يحنّطون مايموت منها، فأين عامل الخوف في عبادة المصريّين لهذه الحيوانات؟

وعنصر الخوف هذا قد يؤخذ به مُنطلقاً لهذه النظّرية، لوكان الإنسان قد خُلق على الأرض خلقاً جديداً، وفوجيء بما حوله من المخلوقات، خلافاً لنظريّة النّشوء والإرتقاء، ذلك أنّ ظهوره فجأة بين الوحوش، سيخيفه ولاشك، إنّما كان على هؤلاء الماديّين، إذا صحّ هذا الأمر لديهم، أن يؤمنوا بوجود الله الذي خلق الإنسان خلقاً جديداً، لاعلاقة له بنظريتهم في النّشوء والارتقاء، والتي أتى بها (دارون) وزعم فيها إنّ الإنسان كان قرداً وتطوّر وأصبح إنساناً. فإذا صحّ زعم دارون هذا، فكيف يخاف الإنسان ماحوله من حيوانات، إذا سبق له أن عايش هذه الحيوانات الكاسرة في مرحلة حياته التي سبقتْ صيرورته إنساناً؟ فلو صحّ أن البشر ثمرة تطوّر عن قرد ماكانت السّباع والذئاب والأفاعي، ولا الشمس والقمر والكواكب بأشياء جديدة طارئة على حياته. ذلك على اعتبار أنّه سبق أن رآها وعايشها قبل ذلك، إن صحّ ماأتت به نظريّة دارون من أمور. بل لابد أن القرد كان قد قاتل الأفاعي وسواها أيضاً.

وكيف بإمكاننا التّسليم أنّ هذا الإنسان، قد سيطر عليه الخوف من هذه الحيوانات، بعد ترقيّه وبلوغه مرحلة إنسانيته ونُضجه، فأصبح يخشى جميع ماحوله من الأشياء، فركع بين يديها يؤلّهها ويعبدُها؟ وبهذا التحليل الذي أوردناه، نصل إلى القول ببُطلان نظريّة أصحاب الرأي المادّي التي أوردناها.

ثم إنّ الدّليل الأبلغ والأقوى على خَطَل نظرية هؤلاء، وهو الأمر الذي يبطلُ معه العُنصر الثاني لنظرية الماديّين، من أنّ تصوّر وجود الله تعالى قد تكامل لدى البشر بالتدريج، هو هذا الدّليل الذي يتبلور في أذهاننا، من خلال استقرائنا لتاريخ مُختلف شعوب الكوكب الأرضي.

فالملاحظ هو أنّ اللُّقى والآثار القديمة، بل الغارقة في القدم، والمتعلّقة بمختلف شعوب القارّات الخمس. يلاحظ الباحث والدّارس لها، أنّها لاتؤيّد تدرُّج عقيدة وحدانية الله عز وجلّ. بل إنه ثبت من خلال ماحتوته تلك اللُّقى والآثار القديمة أنه كان بين سُكّان مختلف القارات من كانوا يؤمنون بوجود إله واحد خالق لهذا الكون. وأنّه محيط بهذا الكون أيضاً، وذلك منذ فجر تاريخ هذا الإنسان. بل وكان ثمّة شعوبٌ عريقةٌ في القدم قالت بالوحي السّماوي، واعتقدت أنّ الإله السّماوي كان يوحي لأفراد اصطفاهم من بينهم.

نتناول قبائل قارّة أفريقيا العريقة في القِدم، فمن قبائلهم الشّهيرة، قبيلة (الزّولو) Zulu مثلاً، وهي تعدُّ من القبائل المتوحّشة. وقد كشفت آثار منطقتهم، أنّ أقدم أجدادهم كانوا يعتقدون بوجود إلهٍ غير مرئي، وهو أبٌ لجميع البشر، وكانوا يسمُّونه (أنكو لنكو Inkulunkils)، وهو الذي أوحى إليهم بكونه تعالى موجوداً، وغير مرئيٍ أيضاً.

ونتناول قبائل قارة أستراليا. هذه القبائل التي لبثت مُنعزلة عن العالم، إلى أن اكتُشفت قارّتهم منذ قرون ليست بعيدة.

هذه القبائل الأستراليةً قد تبيّن بعد اكتشاف قارّتهم، أنها كانت على درجة كبيرة من التّوحش والاقتتال فيما بين أبنائها، حتى كادت تنقرض قبائلها بسبب هذا الإقتتال.

فمن هذه القبائل، قبيلة (أرنتا Arinta). وقد تبيّن من آثارها القديمة أنّ الأقدمين كانوا يعتقدون بوجود إلهٍ يقطن السّماء، وأنّه إلـهٌ واحد لاشريك له، وكانوا يسمّونه (ألتجيرا : Altjira) وأنّه كان يتّصف بالحلم، حتى كاد لايُعاقب أحداً من عباده. من كثرة حلمه وقد كانوا لذلك لايرون ضرورة لعبادته، وكانوا يعتقدون أنّه الإله الذي أوحى إلى أقدم أجدادهم.

وهذه قبائل القارة الآسيوية قديماً. فقد تبيّن من آثارها أنّ القُدامى قد اعتقدوا بوجود إله لاتحدّه حدود، وهو عالم الغيب، قادر على كلّ شيء. وكانوا يسمّونه (درونا Drona) فإذا كان ثمّة شخصٌ ماشٍ أو مُختفٍ أو مضطجع أو قائم، أو كان ثمة شخصان يتسارّان، علم الإله مايُسرّه كلٌّ منهما، لأنّه يكون ثالثهم. وهو مالك الأرض والسّماء بفضائها الواسع، وأنّه إذا حاول إنسانٌ تجاوز هذا الكون، فلا يستطيع تجاوز مملكة الإله (درونا) وحدودها.

وفي تاريخ البابليّين، في جوارنا، أنّ أحد ملوكهم كان يدعو دُعاءً يكشف عن اعتقاده بوحدانيّة الله عز وجلّ. وهذه ألفاظ دعائه : (أيّها الملك الأبديّ، مالك جميع المخلوقات، أنت خالقي. أدعوك برحمتك أيّها الملك ياسيّدي ياأرحم الرّاحمين. برحمةٍ ومرحمةٍ جميع مملكتك الواسعة، أكتبْ محبّة عبادتك في فؤادي، وقيّض لي كلّ ماتراه خيراً، لأنّك أنت الذي صنعت حياتي على هذه الشاكلة.).

أعظم به من دُعاء، وماأشبه هذا الدّعاء بدعاء المؤمنين الموحّدين، فكأنه يريد أن يقول : قد أطلب شيئاً فيكون شرّاً عليّ، لذلك هب لي أنت ماتراه خيراً لي.

وهذه قارة أمريكة. فمن المعلوم أنّ شعب المكسيك فيها من أقدم شعوبها. بل تبيّن من خلال الدراسات التاريخية أنّ شعب المكسيك، يُعتبر من أقدم شعوب الكرة الأرضية، وعقائد المكسيكيين متوارثة جيلاً بعد جيل. وقد ثبت أنّهم كانوا، منذ القدم، يعتقدون بوجود الله ووحدانيّته، فقد عبدوا إلهاً أطلقوا عليه اسم : (آوونا ولونا Awona Wilona) وأنّه خالق كلّ شيء في هذا الوجود، ومحيط بهذا الكون وأبو جميع الآباء، وكان هذا الإله، وحيداً، فتخيّل، وتولّد من تخيّله قوة، أخذت تنمو رويداً رويداً، وإذا بها تكُوّن هذا الفضاء الفسيح، ولايلبث أن يتجلّى هذا الإله بنوره على هذا الفضاء، ثم لايلبث هذا الفضاء أن يتقلّص، فتتكوّن منه الشمس والقمر والنجوم.

والآن لنمعن النّظر في هذه الأفكار التي كانت لأقدم المكسيكيّين فيما يتعلّق بوجود الله ووحدانيته، أفلا تشبه أحدث تصّورات إنسان عصرنا حول ذات الله عز وجل : مسيحياً كان أم مسلماً، مع فارقٍ لايُذكر. وهي أقرب ماتكون إلى أفكار أصحاب نظريّة الانفجار العظيم؟

إنّ هذه الشهادات جميعها، تُجمع على قِدَمِ عقيدة توحيد الله، وقدم عقيدة الوحي الإلهي. وهي تنقض بذلك نظرية أصحاب الرأي المادي، القائلة بتولّد عقيدة وجود الله وتوحيده تدريجيّاً، بدءً من سيطرة الخوف على البشر البدائيّين ممّا حولهم من المخلوقات المخيفة، واندفاعهم للركّوع أمامها، ثم عبادتهم إيّاها.

هذه الشهادات وسواها، ممّا عُرف من اللُّقى والآثار القديمة، تثبت ظهور رجال مُلهمين، تلقوا وحي السّماء، في كل أمّة من الأمم الغابرة، وفي مختلف القارّات الأرضية، وفقاً لقول القرآن الصريح : ﴿**وإن من أمّةٍ إلا خلا فيها نذير.**﴾. علماً بأنّ اتصال شعوب هذه القارات بعضهم ببعض، كان شبه معدوم. إذ لم يثبت وجود اتّصال مابين شعوب إفريقية واستِرالية، ولابين الآسيويين والأستراليين.

من هذا ندرك أن الذّين يروّجون النظرية المادية المذكورة، يقيمون أفكار نظريّتهم على أساسٍ من الظّنون والتخيّلات غير العلمية، بعيدين عن مُعطيات اللُّقى والآثار القديمة المكتشفة والمخطوطات، ولذا فإنّ نظريّة هؤلاء لاترقى إلى مرتبة القبول علمياً.

٣ ـ مناقشة النظرية عقلياً

ولنناقش نظرية هؤلاء من وجهة عقليّة، فالقاعدة المسلّم بها هي أن الناس يُقبلون على كلّ شيء جديد، ويؤثرونه عادة على الأشياء القديمة، وذلك بعد أن تتولّد عندهم قناعة به، وهذه القاعدة تقتضي أن يسود التوحيد في عصرنا، ويكون مذهب الشّرك وتعدّد الآلهة قد انقرض منذ زمانٍ بعيد، وذلك إن صحّ أنّ عقيدة التوحيد نشأت لدى الإنسان بالتّدريج.

على حين أنّ اللُّقى والآثار التي أتينا على ذكرها، إلى جانب واقع ملموس لكثيرٍ من شعوب الأرض الحاليّين، يدلّ على عكس ذلك تماماً. فقد دلّ على أن عقيدة توحيد الله تعالى هي قديمة جدٌّ عريقة في تاريخ أمم الأرض.

وهناك البّحاثة (ميكَر Megr) الذي حقّق في تاريخ الصّين، فقد تبيّن له أنّ شعب الصيّن كان موحِداً في فجر تاريخه، على حين لاحظ من جهة أخرى أنّ الصيّن في عصرنا الحاضر، تفوق شعب الهند شركاً وتعداداً للآلهة، وقد سعى "ماوتسي تونغ" أن يمحو فكرة وجود إلهٍ خالق من أذهان الصينيّين أيضاً.

فقد روى لي شابٌ مسلم صينيّ أنّ ماوتسي تونغ ألقى آخر خُطبه في شمال الصّين، فيما يُسمّى بالمنطقة الصّناعية، فأمر قبل القاء خطابه أن يوضع تمثال

في السّاحة العامّة يمثّل الله عز وجلّ، ثم أوعز أن يطلق الجنود نيرانهم على التمثال أمام أعيُن الجماهير الصّينية المحتشدة هناك. وقال إثر اطلاق النّيران على التمثال المذكور : ها نحن أولاء قتلنا عقيدة وجود إله تجاه أعيُنكم، وقتلنا الإله إلى أبد الآبدين، لكنه لم يمض على خطاب ماوتسي تونغ شهر ونصف، حتى حدث زلزال عظيمٌ دمّر المنطقة الصّناعية تلك، تدميراً شاملاً ورهيباً. وأصيب ماوتسي تونغ أثر هذا الزلزال بفالجٍ لم يُمهله طويلاً. فقضى نحبه خلال أشهر. وقد علم العالم بما جرى بعد موته.

فواقع الأمر أنّ الشّعوب التي تعبُدُ في عصرنا آلهة عديدة، هي من أعرق شعوب الأرض قِدَماً ووجوداً. وقد لاحظ الباحثون أنّ هذه الشّعوب كانت موحّدةً في تاريخها المُوغل في القدم. بل كانت تعتقد بوجود الإله الواحد وراء هذا الكون، والذي كان يصطفي من عباده من يُوحي إليهم بتعاليم من عنده.

فلو سلّمنا بنظريّة التدّرج الذي أدّى إلى تبلور عقيدة التوحيد، لكان يَنْبَغي أن يسود التوحيد شعوب عصرنا. فهذا مايقتضيه منطق عقولنا، ولكان نَدَرَ اليوم وجود فكرة تعدّد الآلهة لدى الناس قاطبة.

هذا وقد قُمت بزيارة الهند في الخمسينيات : ولاحظت وجود معبدٍ بوذي وسط مدينة (كاليكت) وسط الهند. وقد رتّب كهنته ثلاثمائة تمثال فوق سطحه القرميدي المتدّرج. وقد أجابني كاهن المعبد، ردّاً على سؤالي عن أسماء هذه التماثيل. فأجاب : إنّها آلهتنا التي نعبُدها.

فما لهؤلاء الهنود المعاصرين يعبدون مئات الآلهة، وقد كان أسلافُهم القُدامى من الموحّدين، كما ثبت ذلك من آثار أجدادهم؟ وهكذا فإنّ الواقع المُعاصر يثبت بُطلان نظرية المادّيين التي تزعم نشوء عقيدة التوحيد بالتدريج.

ونناقش هذه النظرية من زاوية جديدة، وهي واقع أمّتنا الإسلامية المعاصرة، التي قامت تعاليم دينها الإسلاميّ على التوحيد الخالص من شوائب الشّرك، بلا خلاف.

أفلا يلاحظ أحدُنا كيف يبتعد كثير من المسلمين المعاصرين عن الوحدانيّة، من الوجهة العمليّة، حيث يقدّس بعضهم القبور والأشجار والجنّ وبعض النّجوم؟ هذه الظواهر تبدو عمليّاً، لايقرُّها الإسلام ولاتتّفق مع توحيد ذات الله عز وجل.

وإنّ الذي يُلاحظ هذه الظواهر في مُجتمعات المسلمين، لايذهب ظنّه البتّة إلى قدم الشرك عند المسلمين، أو إلى أنّ القرآن الكريم قد حضَّهم على ذلك. لأنّ الدّارس لتعاليم القرآن يجزم، وهو على يقين، أنّ تعاليم الإسلام، قد قامت على التوحيد الخالص من جميع شوائب الشّرك.

فمن واقع المسلمين المعاصرين، وواقع أممٍ كثيرةٍ أخرى عريقةٍ في القدم، نستنتج أنّ عقيدة التّوحيد كانت موجودة دوماً أولاً، ومن ثم تتحول إلى الشّرك، في مُختلف أحقاب التّاريخ، ولم يحدث عكس ذلك، كما يزعم أصحاب نظريّة التدرُّج في ظهور عقيدة التوحيد، هذه النظريّة التي لاتستند إلى وقائع صحيحة، ولاتقوم على أساسٍ ثابتٍ علمي.

❁❁❁

الفصل الثالث
١ ـ الطّرح القرآني

وهذه الحقيقة الـتي أثبتنا صحّتها بمختلف الأساليب والأدلة لم يغفل القرآن عن تناولها بعمق ، وقد طرحها طرحاً واقعياً، فقد صرّح القرآن الكريم بذلك قبل أربعة عشر قرناً، من خلال ماأورده في سورة فاطر (٢٤/٢٥/٢٦) قوله تعالى : ﴿ **إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً، وإنْ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير. وإنْ يكذّبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزّبر وبالكتاب المنير، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير؟**﴾.

كما نبهنا القرآن الكريم في ذاك الزّمان الغابر إلى أنّه لم يأتِ الله على ذكر أسماء جميع رسله وأنبيائه الذين اصطفاهم لأداء رسالاته. مُنوّهاً إلى أن أسماء المذكورين منهم، والوارد ذكرهم في كتاب الله، ماهم إلا أسماء من بعثهم الله تعالى في منطقة الشرق الأوسط، والمتعلقين بسلسلة الهدايات السماويّة الـتي ابتدأت ببعثة آدم عليه السلام وانتهت ببعثة محمد خاتم النبيّين. فهذه الحقيقة نبّهنا إليها ربّنا في سورة غافر (المؤمن) ٧٨، من خلال قوله تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، منهم مَنْ قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصُص عليك، وماكان لرسول أن يأتي بآيةٍ إلاّ بإذن الله، فإذا جاء أمر الله قُضي بالحق، وخسر هنالك المُبطلون.**﴾.

وإضافة إلى ذلك، فنحن إذ نتلو أوّل آيةٍ من آيات سورة الفاتحة، هذه السورة التي لاتصحّ صلاة دون قراءتها في جميع ركعات الصّلاة، وهذه الآية هي : ﴿**الحمد لله ربّ العالمين.**﴾ نتلو هذه الآية الكريمة، وقد وضعنا نصب أعيننا أنّها تشير إلى الحقيقة التي وضحناها آنفاً، والتي يثبت منها بُطلان نظرية الماديين المذكورة، حول تدرُّج ظهور عقيدة التوحيد إلى الوجود. ذلك أنّ كلمة (ربّ) في اللغة العربية تعني الذي يُنشيء الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرتبة الكمال والتمام (اقرب الموارد). وعليه فمعنى (رب العالمين)، الله الخالق الذي انشأ هذا الكون وأبدعه، وهو يطوّره بوحيه وبالشرائع التي يحلمها أنبياؤه ورسله إلى عباده، وهو يطوّر هذا الكون، طوراً بعد طورٍ، ليكمل إنشاءه، ويُتّم إبداعه.

أي أنه لولا إنزال الله القرآن الكريم هدى ورحمة للناس، لظلّت البشريّة تتيه في دهاليز الظلمات التي عرفتها أوربة في القرون الوسطى، كما هو معلوم من صفحات التاريخ.

فهذا هو الطرح القرآني الذي طرحه قبل أربعة عشر قرناً، ولابدّ أن لاحظ القارىء ممّا عُثر عليه من آثار مختلف شعوب الأرض تأييده لهذا الطّرح القرآنيّ. ومن المؤسف حقّاً أن يتجاهل أصحاب النهج المادّي هذه الحقائق. في وقت يزعمون فيه أنّ العقل سبيلهم إلى الحُكم، وأنّ العلم دليلهم إلى المعرفة.

أجل، لم يخالف القرآن الكريم ماعتقده الأقدمون، من أنّ ذات الله تعالى، هي خارج إطار عالمنا المادي، وهي بعيدة عنه أيضاً أمداً بعيداً، هذا الأمر أشارت إليه سورة المعارج، من خلال قوله تعالى : ﴿.. **من الله ذي المعارج. تعرُجُ الملائكة والرّوح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.**﴾ ٤/٣.

كما نبّه القرآن الكريم أذهاننا أيضاً، إلى أنّ الذات الإلهية المقدسّة يستحيل أن يطولها تصوُّرنا ويتبيّنها فكرنا، فالإنسان لم يزوّده خالقه ببصيرةٍ تساعده على الإحاطة بذات الله الخالق عز وجلّ. فإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى في سورة الشورى (١٠) : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.**﴾. وقوله تعالى في سورة الأنعام ١٠٣ : ﴿**لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.**﴾ وقد قصد بالبصر هنا (البصيرة)، وبالإدراك معرفة أو بلوغ أقصى الشيء. وهذا هو سرّ سكوت القرآن الكريم عن الكلام على الذات الإلهية، وسرُّ اكتفائه بالكلام على أسماء الله وصفاته. وسرّ سكوت القرآن عن بيان مالذات الله من صفاتٍ خارج إطار أسمائه الحُسنى، وهي المتعلّقة بعوالم غير عالمنا.

ولاأقصد أننا لانملك أيّ بصيرة على هذا الصّعيد، فنحن نملك من القدرات مايمكن فكرنا وخيالنا بُلوغ إدراك أنّ لذات الله من العظمة مايفوق مدى هذا الفكرو هذا الخيال، وليس أكثر من ذلك، وهذه القُدرات يوفّرها لنا ويطوّرها، التقدّم العلمي ورقيّه على مدى الزّمان. على اعتبار أن الصّنعة تدلّ على صانعها. وأنّ البراعة والحذق في الصنعة، يَدلاّن على عظمة الإبداع عند الصّانع أيضاً. وعليه كان لابدّ لنا من مُتابعة ماكشفت عنه علوم عصرنا من

معارف وأسرار، بل وأن نجدّ لتطوير هذه العلوم والمُكتشفات، وسأحاول تلخيص ماجدّ من معارف وعلوم ذلك مااستطعت إلى ذلك سبيلاً.

في الزّمن الماضي، وفي القرن التاسع عشر بالذّات، دار جدلٌ عقيمٌ حول كوننا: أهو أزليّ أم هو مخلوق. ونظر (نيوتن) العالم الفيزيائي الشهير، بل أبو الفيزياء، إلى عالمنا على أنه يحوي حقائق ثلاثاً، وهذه الحقائق هي المادّة والمكان والزّمان.

فقد وصف (نيوتن) المكان بقوله : (إنّ المكان مُطلقٌ بطبيعة ذاته، ودون علاقة له بأيّ شيء خارج عنه، وهو يظلّ مُتماثلاً وغير متحرّك.) ووصف الزمان بقوله : (إنّ الزمان المطلق والصحيح والرياضي بذاته وبحكم طبيعته، يتدفّق باطّراد، من غير أن تكون له علاقة بأيّ شيء خارج عنه.).

وأهَلّ القرن العشرون بعلومه واكتشافاته، فأطاح بفيزياء نيوتن المذكورة، إذ أنّ نظريّة النّسبيّة الخاصة التي أتى بها آينشتاين قادت علم الفيزياء إلى التخلّي إلى الأبد عمّا زعمه نيوتن وسمّاه حقيقتي الزمان والمكان. بعدما أثبت أن علاقات الزمان والمكان وقوانين الحركة، لايمكن تعريفها، إلاّ بوصفها الموقف الشّخصي للذّي يُراقب الأشياء المادّية، ولظروفها المادّية ذاتها.

وعندما تمّ اكتشاف التّركيب الذريّ، انتهى ذلك بعلماء القرن العشرين إلى التخلّي نهائياً عن فيزياء نيوتن ونظرته الكونية، وبدأ بذلك عصر الذّرة، وتغيّرت نظرة العلم إلى عقل الإنسان نفسه.

فبينما كان علماء القرن التّاسع عشر ينظرون إلى العقل على أنّه يعمل بصورة آليّةٍ ضمن إطار المادة، تبيّن لعلماء عصر الذّرة أن العقل لايعمل عملاً آلياً. وأنّه لايوجد له في الدّماغ مقرٌّ ولامركز. وحتى إرادة الإنسان لامقّر لها فيه أيضاً ولامركز. وثبت أنّ العقل والإرادة مستقلاّن عن الدّماغ، وأنّهما خارجه، أي خارج إطار المادة، وليس داخلها، وهذه الاكتشافات قد أثبتت صحّة الطّرح القرآني.

وعلى صعيد علم الفلك تبيّن أنّ سرعة الضوء تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية، أي أنّ الموجة الضوئية التي تصدر عن الشمس تصلنا بعد ثماني دقائق من انبعاثها عن الشمس، لبعد هذه عن كوكبنا الأرضي مايُقارب (١٥٠) مليون

كم، وعلى أساس ذلك بدأ علماء الفلك يقيسون مابين أجرام السّماء وشموسه ومجرّاته بسرعة الضوء.

وقد اكتشفوا وجود شموس تبعُد عن شمسنا المعروفة أضعاف أضعاف بُعدها عنّا. ولايزال هؤلاء العلماء يكتشفون شموساً ومجرّاتٍ، على قدر ماتكشف عنه مراصدهم الفلكيّة وأجهزة رصدهم.

وقد كاد يُسلّم بعض علماء عصرنا أنّ عالمنا المادي لانهاية له ولاحدود. لولا أن طلع عليهم العالم الفيزيائي (جورج غاموف : georg gamoa) بنظرية الانفجار العظيم التي وضّح فيها، عن طريق الفيزياء النوويّة، أنّ الجُسيمات دون الذّرية قد انتجت في مراحلها الأولى ذات الكون الحديث النشأة، وهكذا أفادت هذه النظريّة أنّ مادة كوننا مخلوقة أيضاً، وأنّ الذي خلقها، إنّما هو عقلٌ مُطلق، وذلك منذ (١٢ ــ ٢٠) مليار عام. لكنّه استحال على صاحب هذه النظريّة تقدير مابقي من عُمُر هذا الكون.

فالعلم قادنا إذن إلى أنّ لعالمنا بداية ونهاية وأنّه مخلوق، وبطل بذلك زعم علماء القرن التاسع عشر من أنّ المادّة أزليّة الوجود. وقد برهن هذا التقدّم العلمي أيضاً على صحّة الطرح القرآني. هذا بالرغم من أنّ الوسائل العلمية لم تمكّنّ العلماء المعاصرين بعد من اكتشاف حدود هذا الكون المادّي الذي نعيش في ظلاله.

والعلم قد أثبت لنا أيضاً، أنّ هذا الكون على سعته ورحابته، خاضعٌ في جميع أرجائه إلى قوانين واحدة، تُجلّي وحدانية الإله الصانع المُبدع.

وهكذا ساعد الرّقي العلمي المعاصر في فهم مضمون الآية الكريمة التي استهلّ الله بها سورة المُلك، وهي قوله تعالى: ﴿ **تبارك الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سماواتٍ طباقاً، ماترى في خلق الرحمن من تفاوُت، فارجِع البصر هل ترى من فطور، ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.** ﴾. ففي قوله تعالى ﴿ **ارجع البصر هل ترى من فطُور؟** ﴾ تنبيه للأذهان العلميّة المعاصرة خاصّة إلى أنّ هذا الكون لابدّ إلاّ أن يكون مُخطّطاً له ومتكاملاً، لاثُغرة فيه ولاصدع.

ثم إن قوله تعالى : ﴿**ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾ ينبّه أذهان هؤلاء العلماء إلى وجود نظام كامل وشامل في هذا الكون، مُنزّه عن كل نقص، يضمُّ سلسلةً طويلة من القوانين المُنسجمة التي لاتتضادّ ولاتتصادم.

وينفي الله تعالى أن يكون قد حدث كلّ ذلك اتفّاقاً ومصادفة. فلا مناص من يشكّل هذا الكون الكامل الشامل الحجّةُ القاطعة التي يثبت منها وجود الله الأحد الخالق لهذا الكون بإرادةٍ وتصميم، وأنّه تعالى لم يخلق هذا الكوان اتّفاقاً وعبثاً، وأنّ ظاهرة الموت والحياة التي تتجلّى في أرجاء هذا الكون، كان القصد منها ابتلاء الإنسان في هذه العاجلة وامتحانه. وهذا ماأشار إليه قوله تعالى في نفس الآية : ﴿**.. الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور.**﴾ أي أنّ الذي أوجد ظاهرة الموت والحياة، أوجدها من مُنطلق كونه الإله الخالق (العزيز) أي الملك الغالب على أمره، والقادر الذي لايُغالب.

وكونه (الغفور) أي ستّار عيوب وضعف عباده وفقاً لقانون الاحتياج العام. فالخالق أخذ على نفسه ستر ضعف مخلوقه، وحثّه بالترغيب والتّحذير على العودة إلى رشده والرّجوع إلى خالقه.

ومن المؤسف أنّ علماء القرن التاسع عشر أصحاب نهج التفكير المادّي، وقد طغت المادّة ومُغرياتها على أفكارهم، وأخذت بمجامع قلوبهم، لم يفكّروا بنهجٍ روحانيّ، بل انطلقوا يشككّون في القصد الأساس لظاهرة وجود الإنسان وموته وحياته، فيزعمون أنّها ظاهرة طبيعيّةٌ من ظواهر المادة، وليست هي جزءاً من نظامٍ كونّي شامل وكامل صادرٍ عن ذاتٍ خالقة ومُبدعةٍ لقانون الموت والحياة ولتحقيق هدفٍ منشود.

وقد تسرّعوا، فزعموا أنّ وجود العقارب والأفاعي والدّواب المؤذية والحشرات والديدان والزلازل وماينجم عنها من كوارث، جميع هذه الأشياء لاتخضع لقانون. وأنّ وجودها عبثٌ، لاصلة له بهدفٍ مقصود لهذا النظام الكوني.

ومايُطمئننا هو أنّ تقدّم العلوم قد كشفت عن زيف هذا الزعمّ والتشكيك. وقد ثبت وجود توازن طبيعيّ، وأنّ ماخلق الله من أشياء إنّما هو

كنوزٌ مُخبّأةٌ لمصلحة البشرية نفسها، ويُستفاد منها حين تدعو الضرورة إلى هذه الأشياء، وعلى قدر تنامي المعرفة وتقدّم العلوم. ومن هذه الأشياء ماأودعه الخالق جوّ الأرض، ومنها ماأودعه باطن الأرض وأعماق البحار. وحتّى الزلازل لها من الفوائد مالا يخطر ببال. ولايزال العلماء يرصدون ماينجم عن هذه الزلازل من آثار. ولست بصدد التوسّع في هذا المجال.

أعود إلى القول إنّ الرقّي العلمّي الذي شهده القرن العشرون كشف عن عظمة صُنع الصّانع، من خلال الكشف عن وحدة القوانين النّاظمة لمخلوقات هذا الكون الفسيح الذي لم ينته العلم من كشف مداه وحدوده بعد. بالرغم من أنّه كشف عن أنّه مخلوق منذ مايقارب (١٢ــ٢٠) مليار عام، كما كشف عن أنّ نهاية هذا الكون آتيةٌ لاريب فيها، وإن لم تتوفّر الوسائل العلمية لتحديد زمان هذه النهاية.

هذا وإنّ (نظرية جذور الأخلاق) التي تضّمنها كتابي، كشفت عن وحدة تركيب أشياء هذا العالم أيضاً، وأنّ كلّ شيء قد تكّون من خليطة خاصة من الذرّات المادية وقواها، ولايُستثنى الإنسان من وحدة هذا التركيب الذرّي، فقد خلقه الصّانع أيضاً من نُطفةٍ أمشاج.

والمهمّ في الأمر، هو أنني قصدت ممّا ذكرته حتى اللّحظة عن هذا الكون وعظمته وتركيبه وقوانينه الناظمة الشاملة، قصدت نقل تصوّرات وتخيلات المرء إلى المدى الذي يُعينه على تصوُّر عظمة ذات الله الخالق قدر إمكاني، هذه الذّات التي هي خارج إطار هذا الكون، الذي لم يكتشف العلم مداه حتى الآن وإنّ ممّا لاشكّ فيه هو أنّ هذه المعلومات تساعد على تبيُّن ماتحمله هذه الذات الإلهية المقدسة من أسماء وصفاتٍ كانت وراء خلق هذا الكون العجيب.

٢ ـ مثالٌ من الواقع

وسبق لي أن ذكرت أن لابُدّ لي من ضرب الأمثال الماديّة الموضّحة لهذا الموضوع الذي يدور كتابي حوله، ليكون قريباً من الأفهام، وها أنّي أضرب للقارىء أوّل مثلٍ مادّي من واقعنا المعاصر، على أن يظلّ في حُسبان المرء أنّه مجرّد مثال مع الفارق الكبير جدّاً بينه وبين ماأردت التّنبيه إليه. ذلك أنّ الله عز وجلّ ليس كمثله شيء.

وقد بات معلوماً لدى كلّ متابع لما يجري في العالم أنّ المؤسسات العلمية في الدّول الكبرى المتقدّمة علمياً، تنافست في مضمار كشف الفضاء بمختلف الوسائل، ومنها هذه المركبات الفضائية التي امتطاها رُوّاد الفضاء.

أو لم نلاحظ أنّ هذه المركبات الفضائية، إنما تقوم برصد كلّ حركة من حركاتها، قيادةٌ أرضيّة على شاشات التلّفاز أمام أعينهم. وقد زوّدوا هذه المركبات بأجهزةٍ تبثّ جميع مايجري داخلها وخارجها وماتكشفه من مشاهد للكواكب المارّة بها؟ دون أن يكون بين القيادة والمركبات أيُّ اتّصال بأسلاك ظاهرة، وفي وقت فإنّ القيادة التي صنعت هذه المركبات قائمة خارج هذه المركبات ترصدها وهي بعيدة عنها ملايين الكيلو مترات؟

هذا المثال الحيّ من واقعنا المعاصر، إن أخذه المرء بعين اعتباره أمكنه أن يَعِ استقلالية الذات الإلهية الخالقة عن ذات هذا الكون المخلوق ومايحتوي عليه من مخلوقات، إنّما ينبغي أن يظلّ راسخاً في ذهن المرء أنّ هذا مجرّد مثال لفتُ الأنظار إليه، وهو مثال مع الفارق الشّاسع بينه وبين الذات الإلهية المشبّهة به. وقد كان القصد من هذا المثال نقل مخيّلة الإنسان ليتصّور عظمة الذات الإلهية التي أبدعت هذا الكون الرّحب الذي لاتُعرف له حدود.

وقد أحاط علماء الأرض بما لدى هذه القيادة الأرضية من خبرات وامكانيات، بل تتسابق الدّول الكبرى شرقاً وغرباً لصُنع المركبات الفضائية الشّبيهة بها، بل تتنافس في قيادتها، وفي إصلاح مايطرأ عليها من أعطال، وهي بعيدة عنهم هذا البُعد الشّاسع. فإذا شئنا أن نتعرّف على الله الخالق الذي يسيّر هذا الكون، فلا نملك من مُعطياتٍ لمعرفة مدى علم هذه الذات الإلهية وقدراتها إلاّ مايفيدنا به هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا، والذي له مصداقيّته.

ثم إنّه إن تاقت أنفسُنا إلى التّعامل مع هذه الذات الإلهية المقدسة، تعامل محبّةٍ وعرفان واتّصال، فلا نملك من مُعطيات علوم ذلك ومبادئه سوى مايخبرنا به هذا القرآن الكريم أيضاً.

كما أنّ الإنسان إذا راح يبحث عن فطرته وتكوينه الرّوحي لإدراك معالمها الحقيقيّة، وطريقة وأسلوب صيانتهما وتطويرهما، ويبحث عمّا يختصّ بعقله وأدواة صيانته، صيانةً تليق بمكانته ومنزلته في مقابل بقية حواس جسم

الإنسان وأجهزته، فلا يملك هذا الإنسان الباحث إلاّ مرجعاً وحيداً مُطمئناً مُعتمداً موثوقاً، وهو هذا القرآن العظيم أيضاً.

ذلك أنّ مالدى البشر من مراجع وكُتبٍ سماويّة، قد فرغ الباحثون من الجزم أنّ الأيدي قد عبثت بها، فحرّفتها. فلم يبق كتاب منها تطمئن نفس الباحث إلى مصداقيّته، على أنّه تنزيلٌ من خالق هذا الكون ومدبّره، فقد ثبتت عدم مصداقيّة هذه الكتب بأدلّة ومُحاكمات، من ضمنها ومن خارجها أيضاً. فلم يُعد أصحاب وأتباع هذه الكتب يملكون أيّ دليلٍ علمي أو عقليّ أو منطقيّ يدعم مصداقية أيّ كتاب من كتبهم الدينيّة.

ولمّا كان على الباحث ألاّ يُلقي كلامه جُزافا، فقد وجب عليّ تقديم أهم ماأملكه من أدلّة تؤيّد كلامي وتثبته، ولو بإيجاز.

٣ ـ التّوراة والإنجيل المعاصران محرّفان

إن الكتاب المقدس، الذي هو بين أيدي المسيحيين واليهود الذي له أصلٌ سماويّ، وهم مايسمونه بالعهدين القديم والجديد. وهو الكتاب الذي يتضمّن في العهد القديم منه تعاليم الديانة اليهودية، وفي العهد الجديد منه تعاليم المسيح وحواريّه. يزعم هؤلاء أنّه كتابٌ سماويّ نصّاً ومعنى، ومنهم من يزعم أنّه معنىً فقط، أي أنّ رجالاً متدينين قد كتبوه.

وأنا أسأل : وماأدراني أنّ تعاليم هذا الكتاب هي حقيقة كما يزعمون؟ يكفيني أن أعلم أنّها لم تُكتب في الأزمنة التي نُسبت إليها هذه الكتب وتعاليمها، لتكون في نظري محلّ ريب وشك. فما نسبه العهد القديم إلى موسى، أقرّ كاتبه ضمن أسفاره، أنّه كتب ماكتبه بعد زمن موسى بقرون عديدة، وليُمعن القارىء نظرة في هذا الدليل المأخوذ من سفر التثنية، وهو السّفر الخامس من العهد القديم، ينسب ألفاظ هذا السّفر إلى موسى نفسه أيضاً. فقد ورد في الاصحاح ٣٤/٧ منه:

(كان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات، ولم تكلّ عينُه ولاذهبت نضارته. فبكى بنو اسرائيل موسى في عَربات مؤاب ثلاثين يوماً. فكمِلّت أيّام موسى.). فهل يُعقل أن يكون هذا النّص قد كتبه موسى، وكُتب في زمنه؟ لايُعقل إلاّ أن يكون قد كُتب بعد مماته.

والسّؤال الأهم هو : هل أن هذا النّص كتبه كاتب بعد موت موسى مباشرة ؟

الجواب عن ذلك يأتي من ضمن الإصحاح نفسه، ذلك أنّ الجملة التي سبقت ألفاظ هذا النّص تقول : (فمات هناك موسى عبد الرّب في أرض مؤاب حَسَبَ قول الرّب. ودفنه في الجِوَاء، في أرض مؤاب مُقابل بيت فغور، و لم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم).

يتساءل الباحث : وأيّ يوم وأيّ تاريخ هو المقصود من (و لم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم)؟ فكم كان قد مضى على موت موسى، وعلى اندثار قبره من قرون، قبل أن يُدوّنَ كاتبُ النّص هذه السُّطور؟ أوليس هذا دليل ضمنيٌّ من العهد القديم نفسه، استقرأناه، وهو شهد أنّ التّوراة هذه لم تُكتب في عهد موسى ولابعد مماته مباشرة، بل كتبه كاتبه بعد مضيّ قرون عديدة من الزمان على موت موسى، وعن غيبٍ وسماعٍ، ودون أيّ سندٍ يمكن أن يشير إليه كاتبه؟

نتناول العهد الجديد، الأناجيل وتعاليمها، المنسوبة إلى المسيح بن مريم، ولنلاحظ مااستهلّ به كاتب إنجيل لوقا، إنجيله المُسمّى باسمِهِ، فقد كتب يقول : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّةٍ في الأمور المُتيقّنة عندنا، كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُدّاماً للكلمة. رأيت أنا أيضاً، إذ قد تتبعت كُلّ شيء من الأوّل بتدقيق أنْ أكتب على التّوالي إليك أيُّها العزيز ثاوفيلُس، لتعرف صحة الكلام الذي عُلّمْتَ به. كان في أيام هيرودس مَلِكِ اليهودية، كاهنٌ إسمه..) ١/١ لوقا.وهذا النّص الذي استهلّ به إنجيل لوقا يشهد ضمناً بالأمور التالية:

الأوّل ـ قوله (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة..) يشهد أنّ الإنجيل وتعاليم المسيح بن مريم لم تُدوّن في حياة المسيح بن مريم نفسه، بل نقشت تعاليمه في ذاكرة أتباعه، فكانوا يروونها الواحد منهم عن الآخر.

ثم إنّ المستوى الوثائقيّ لهذه الروايات، يرتبط بمستوى شخصية الرّواة أنفسهم وبمستوى ذاكرتهم، وبمبلغ علمهم وإخلاصهم للمسيح نفسه، والذي يتبيّن من الأناجيل نفسها أن حواريّ المسيح الإثني عشر كانوا يتراوحون مابين حمّال إلى صياد أسماك، وقد خانه يهوذا الإسخريوطي، وأنكره بطرس فلم يكن بين حواريي المسيح أيُّ مثقّف يُوثق بعلمه وذاكرته وكمال إخلاصه.

الثاني ـ وهذا القول يعني أيضاً أنّ الأناجيل، ومن بينها إنجيل لوقا، هي مجرّد حكايات، استندت إلى رُواةٍ لم تُدرج أسماؤهم في الأناجيل ولاذكر شيء عن سيرتهم الدّينية، ولاأثبت رواة الأناجيل تواتر أخبار تعاليم حكاياتهم بأسلوب علمي. وبألفاظٍ أخرى نقول إنّ هذه الحكايات لم تستوف الشروط الموضوعية التي توثّق ماحَكَوه لنا فيها، ولايكفي الباحث قول كاتب إنجيل لوقا : (إذ قد تتبّعت كُلّ شيء من الأوّل بتدقيق..) فهذا مجرد ادّعاء لم يسنده أيّ دليل.

الثالث : ثم إنّه لايتضّح للباحث من خلال هذه الحكاية، كم من السّنوات مضت على دعوة المسيح التي يُنسب إليه ماورد فيها، ويكفي الباحث قول كاتب انجيل لوقا : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المُتيقّنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُدّاما للكلمة..) تكفي هذه الجُمَلُ ليستدلّ منها أنّ الباحث لوقا لم يكن من جُملة حواريي المسيح، وأنّه جلس يكتب (قصّة)، وأنّه وُجد بعد المسيح بزمان لايُعرف مداه، لقوله: (كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة..) فما هي أسماء الذين كانوا منذ البدء مُعايني وخُداماً للكلمة، وكيف أمكنهم حفظ جميع ماروووه، وكم بين هؤلاء وهؤلاء من وُسطاء؟

والخلاصة، هي أنّ الباحث المدّقق يكتفي بهذين الدليلين اللذين أوردتهما ومن ضمن مُعطيات العهدين القديم والجديد، والبرهنة على أنّ التوراة والأناجيل التي هي بين أيدينا، لاتصلح كمرجع يقينيّ يطمئنّ إليه المرء للتعرّف من خلالها على خالق هذا الكون ومُبدعه، ومعرفة مدى علمه وقُدُراته، بل ولاتصلح أيضاً كمرجع مُطمئِن للإحاطة بتعاليم موسى والمسيح عليهما السّلام.

وبإمكان المرء أيضاً أن يقيس على هذا الكتاب المقدّس المذكور، مالدى بقيّة أتباع الديانات من كُتبٍ يُقدّسونها، لاترقى إلى مستوى مرجع حقيقي موثوق به ومُعتمد، قد أنزله خالق هذا الكون لتعريفنا أسماءه وصفاته.

فلا يعرف الباحثون في عصرنا مرجعاً مُعتمداً سوى القرآن الكريم، والذي خُوطب فيه النّاس جميعهم في أوّل سورة من سوره وهي سورة البقرة (٢٢)، قوله تعالى : ﴿ **ياأيّها النّاس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون.**﴾. فكلمة الناس في هذه الآية وردت مُعرّفة بالألف واللاّم لتشمل جميع البشر. وورد الخطاب نفسه في سورة الأعراف (١٥٨) على لسان

رسول الله (ص) ومأموراً : ﴿ **قل يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السماوات والأرض، لاإله إلاّ هو يُحيي ويُميت، فآمنوا بالله ورسوله النّبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتّبعوه لعلّكم تهتدون.** ﴾. فصيغة إليكم جميعاً، جيء بها للدّلالة على أنّ القرآن الكريم نزل يحمل تعاليم ذات صبغة عالمية، وليست هي بتعاليم قوميّة، وإلى قوم مخصوصين. هذه الصّيغة التي لم يتّسم بها أيّ كتابٍ سماويّ أُنزل قبل القرآن الكريم.

فالذي يتفحّص مضامين العهدين القديم والجديد لايُلاحظ وُرود آيّة صيغة فيهما تُفيد أن موسى وعيسى، بعثهما ربُّهما إلى الناس جميعاً، فكلّ ماسيجده المرء هو أنهما مبعوثان إلى قومٍ بذاته، وهم قوم بني اسرائيل.

فقد ورد في العهد القديم صراحة، في سفر الخروج ٣/٧: (فقال الرّب إنّي قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر، وسمعت صُراخهم من أجل مُسخّريهم. إنّي علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريّين، وأُصعدهم من تلك الأرض إلى أرضٍ جديدة وواسعة.). وهذه العبارات إنّ دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على أنّ تعاليم التوراة لاتتصّف بالصّفة العالمية، بل بالصّفة القومية.

وإذا تصفّح المرء العهد الجديد، تقع عينه في انجيل متّى ٥/١٠ على قول المسيح صراحة : (هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أممٍ لاتمضوا، وإلى مدينةٍ للسّامريّين لاتدخلوا. بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة..). فما معنى أن يوصي المسيح تلاميذه بذلك إن كان الله قد بعثه رسولاً عالميّاً؟

وفي انجيل متى نفسه ١٢/١٥، يذكر لنا أنّ امرأةً كنعانيةً عرضت للمسيح وهو وتلاميذه في طريقهم : (صرخت إليه قائلةً ارحمني ياسيّد يا ابن داوود. ابنتي مجنونة جدّاً، فلم يُجبها بكلمة. فتقدّم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنّها تصيح وراءنا. فأجاب وقال : لم أُرسَلْ إلاّ إلى خراف بيت اسرائيل الضالّة.). فهذا النّص واردٌ حرفياً في العهد الجديد، ثم إنّ (إلاّ) هي أداة حصر في اللّغة العربية، ودلالتها أنّها تحصر رسالة المسيح ببني اسرائيل وحدهم. ولايستفاد من ألفاظ هذا النّص أي معنى آخر، سوى الذي فهمناه.

وزبدة الكلام، هو أنّ البشرية قاطبة، لاتملك في عصرنا مرجعاً سليماً من التّحريف، ومُعتمداً، يُعرّفهم خالقهم الذي يُسيّر هذا الكون من حولهم إلا القرآن الكريم. ومن واجب الباحث، قبل الرّجوع إلى هذا الكتاب السماويّ أن يتدبّر مصداقية هذا الكتاب السماوي بأسلوبٍ علميّ ووفق الأصول التي تضمّنها هذا الكتاب السّماويّ نفسه.

❁❁❁

الباب الثاني

مصداقيّة القرآن الكريم ومرجعيّته

الفصل الأول
١ ـ القرآن ومزاياه كمرجع موثوق

أقول، الذي يشدُّنا ويدفعنا إلى تدبّر مصداقية القرآن بأسلوبٍ علميّ، إعجاز هذا الكتاب وتعدّد مزاياه. هذه المزايا التي يتسّم بها هذا القرآن العظيم. فللقرآن الكريم مزيّتان لاخلاف عليهما وهما :

١ ـ **المزية القرآنية الأولى** : أن القرآن نصّ بين دفّتيه على كونه مُنزلاً من الله تعالى بلسان عربيّ مُبين. فقد ورد في سورة يوسف (٢) قوله تعالى : ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون.**﴾. وقوله (عربيّاً) أي بلغة العرب. والإعراب في الأصل هو الإبانة والإفصاح. والتّعريب هو التبيين.

فقوله تعالى في الآية ﴿ **قرآنا عربيّاً** ﴾، يفيد أنّ القرآن يُعرب عن المعاني والدّلالات إلى حدّ الكمال وغاية الإفصاح، ومُبرّأ من كلّ نقص، هذا ماأفاده صاحب معجم أقرب الموارد. وجاء في المفردات : العربيّ المُفصح، والإعراب البيان. ثم إنّ إضافة كلمة (قرآنا) إلى (عربياً)، أضاف معنى جديداً، وهو أنّ هذا الكتاب السّماويّ أنزله مُنزلّه ليقرأه الناس ويتلوه دوماً في جميع أحوالهم. وهذه مزيّة لم يتسّم بها كتاب سماويّ من قبل. فالتوراة والأناجيل وإن كانت تُطبع بكثرة، فإنّ أتباعها ومريديها لايكادون يقرؤونها بالكثرة التي يُقرأ بها هذا الكتاب السماوي العظيم، للنبوءة التي حملتها إلينا هذه الآية الكريمة المذكورة، بالرّغم من أن القرآن كان آخر الكتب المُنزلة، ولايزال أتباعه أقلّ من سواهم عدداً.

فإذا اتّجهنا إلى رأي الأوربيّين، وهم بأكثريتهم لايدينون بالدّين الذي أتى به هذا المرجع القرآن. فالملاحظ أنّ هؤلاء يغبطون العرب على عظمة ماتتمتّع به لغتهم العربيّة من مزايا.

فالعالم الأوربي (لين بول)، وهو العالم الذي قام بترجمة معجم (تاج العروس) إلى لغته الأوربية، نلاحظه وقد أعلن في مقدّمته وبكلّ حسرة أنه لم يجد بين لُغات العالم قاطبة، لُغةً هي على مستوى اللّغة العربيّة، من حيث سعة مصادرها ومفرداتها ودلالاتها، إضافة إلى بيانها لحكمة دلالاتها وأصولها.

ثم إنّ أدباء اللّسان العربيّ أنفسهم وَعَوْا هذه الحقيقة، وأدركوها. فهذا اللّغوي الشهير (ابن جنّي) تحدّث عن خصائص العربيّة.

وممّا قاله في كتابه الشهير (الخصائص) أنّه روى عن أستاذه أبي علي الفارسيّ أنّ أحرف الكلمة الثلاثية، مهما دارت وتبدّلت مواضعها، فهي تظلّ تدور حول معنى أساسيّ واحد وأصلٍ واحد. وقد ضرب على ذلك مثلاً، الأحرف (الكاف واللاّم والميم) مهما تغيّرت مواضعها وترتيبها، فهي تفيد معنى القوّة في جميع الأحوال، كذلك لفظ (عربّ) وهو المؤلّف من أحرف (العين والراء والباء) مهما تغيّر ترتيب هذه الأحرف، فهي تدلّ على الإمتلاء وغلبة الشّيء.

ومادامت الآية التي ذكرناها، قد ذيّلها مُنزّلها بقوله ﴿ **لعلكم تعقلون**﴾، فقد وضّح لنا بذلك الحكمة من إنزال هذا القرآن بلسان عربّي مبين. أي أنّ حكمة ذلك تتمثّل في سِعة دلالات ألفاظ هذه اللّغة وكثرةً تراكيبها، إذ يساعد هذا عقلاء الناس على الإحاطة بخفايا أحكام الله ودقائق تعاليمه.

وعليه، فلا أكون مُخطئاً إذا نظرت إلى لغة القرآن الكريم على أنّها مزيّة بارزةٌ من مزاياه. ويؤيّد هذا الإتجاه الآية (١٩٥) من سورة الشعراء : ﴿**وإنّه لتنزيل ربّ العالمين. نزل به الرّوح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين**﴾. وصيغة (رب العالمين) قُصد بها إعلامنا أنّ تعاليم القرآن الكريم موجّهة إلى النّاس كافة، هذا الأمر الذي اقتضته ربوبيّة (رب العالمين) وهو أن تختار لتحقيق هذا المقصد اللّسان العربيّ المبين أداةً لنقل هذه التعاليم إلى البشر، من بين لُغات العالم قاطبة، لاتّصاف اللّغة العربية بمزايا الإبانة والإفصاح والسّعة في الدلالة، الأمر الذي لم تتصّف به لغةٌ أخرى سواها، فهي تساعد لعظمتها على إيصال تعاليم رب العالمين إلى البشر كافة، تحقيقاً للمقصد من إنزال هذه التعاليم. ويكفي محمداً (ص) فخراً، وهو الأمّي الذي كان يجهل

لغات العالم في عصره، أن يحمل رسالة هذا التّنزيل، وقد لاحظنا أنّ كلمات العالم الأوربي (لين بول) تصدّق هذه المقولة.

كذلك يؤيّد اتّجاهنا هذا ماورد في سورة الرّعد الآية (٣٧) قوله تعالى : ﴿**وكذلك أنزلناه حُكْماً عربيّاً**..﴾، أي أنّ حُكم الله تعالى ورد عربيّاً، بمعنى مُفصّلاً وفصيحاً ومُبيناً، وليس مُجملاً.

من هنا يدرك الباحث مزيّة هذا المرجع العظيم الوحيد القرآن الكريم، أصدق وسيلة لمعرفة خالق هذا الكون، الذي لم يتوصّل علماء عصرنا بعد إلى معرفته، بالرغم من تقدّمهم العلميّ الكبير.

٢ ـ المزيّة القرآنيّة الثّانية :

والمزيّة الثانية للقرآن كمرجع، أنّ هذا الكتاب السّماوي نصّ في سورة الحجر (٩/٨) على كون الله الذي أنزله قد وعد بالمحافظة عليه إلى أبد الآبدين، من خلال قوله عز وجلّ : ﴿**مانُنزّل الملائكة إلاّ بالحق وماكانوا إذاً مُنظرين. إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾. أي أنّ الله تعالى لايُنزّل ملائكته إلى عباده إلا بالحقّ، وهو الأمر المقضي به من الله عز وجلّ، هذا الأمر الذي يتّصف بالعدل والثبات واليقين. وهذه الصفات هي دلالات كلمة (الحق) لُغةً (أقرب الموارد). ثم إنّ الله تعالى يصف هذا القرآن بصفة (الذّكر). والذّكر لغة يفيد الشرف والرفعة والسّمو. يقول إنّه تعالى أنزل هذا القرآن "الذّكر" بتوسّط ملائكته الذين لاينزّلهم إلا بالحقّ، إشارة إلى أنّ تعاليم القرآن تتصّف بصفات العدل والثبات واليقين، كما يتّصف بالحفظ والصّون، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿**وإنّا له لحافظون**﴾.

هذا وإنّ وعد الله تعالى بالمحافظة على وحي القرآن الكريم وصونه، لاينبغي للباحث أن يتلقّاه بنظرةٍ سطحية تقليديّة، بل ينبغي أن يُقبل عليه بنظرةٍ علميّةٍ فاحصة ولايكفي أن نقف عند تواتر وصوله إلينا سالماً، كما يفعل المُقلّدون، الذين يقولون إنّا وجدنا آباءنا على ملّة، وإنّا على آثارهم مُقتدون.

أوَليس عجيباً بعد هذا، أن يسبقنا إلى هذا الأسلوب العلميّ في البحث والتحقيق، للتوثّق من سلامة وحي القرآن الذي هو بين أيدينا، أن يسبقنا إلى هذا

علماءٌ لايمتّون إلى الاسلام بصلةٍ من الصّلات، وهم من تشحنهم الكنيسة المسيحية أيضاً بنقمةٍ على هذا القرآن بصورة عفويّة؟

لاشك أن المستشرقين، منهم المتطرّفون ومنهم المُعتدلون. والمستشرق البريطاني (سير وليم ميور) من هؤلاء المستشرقين المعتدلين. فقد كان ألّف كتاباً أسماه (حياة محمد) وبلُغته الانكليزية. وإليكم ترجمة بعض المقاطع الواردة فيه، فقد كتب على الصفحة (٣٨) يقول: (بالرغم من احتمال أن يكون محمّد هو الذي ألّف القرآن، فإنّ القرآن الموجود في زماننا هو الذي طلع به محمد على العالم).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(What we now have though possibly corrected and modified himself is still his own.)

وقد كتب على الصفحة (٥٦١) يقول : (إضافة إلى ذلك، فإننا نملك من مختلف الأدلّة، الداخلية منها، والخارجية، مايثبت أنّ الكتاب الموجود لدينا هو نفس الكتاب الذي طلع به محمّد على العالم، وقد كان يعمل بموجب تعاليمه).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(There is otherwise every cecurity. Internal and external that we possess a text the same as that which Mohammad himself gave forth and used).

وكتب على الصفحة (٥٦٢) يقول : (وقد انتهيا إلى النتيجة التي توصّل إليها (وان هيمر)، فإذا لم ننته إليها في سائر جوانبها، ففي معظم هذه الجوانب. وهي ثبوت أنّ القرآن الموجود في زماننا، هو القرآن نفسه الذي جاء به محمّد دون أيّ تحريف. ونحن من ذلك على يقين، كيقين المسلمين أنفسهم، بأنّه وحي الله المقدس، الذي لم يُحرّف ولم يُبدّل.).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(And we conclude with atleast a close approximation to the verdict a Von Hammer that we hold the quran to be as surely Mohammad's Waro as the Mohammadans hald it to be the world of good.)

وأضاف المستشرق ميور على الصفحة (٥٦٣) قوله: (ونحن نصّرح إستناداً إلى أدلّةٍ دافعةٍ، بأنّ كلّ آية من آيات القرآن أصيلة، وقد وصلتنا من محمّد دون أي تحريف.).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(We may upon the strongest presumption offirm that every vere in the quran is genrime and unoclterd composition of Mohammad himself).

هذا ماشهد به مستشرقٌ منصفٌ حول وصول هذا المرجع القرآني إلينا سالماً، بريئاً من أيّ تبديل أو تحريف، بعد أن تقصّى هذه الحقيقة بأسلوبٍ علميٍ رصين، والفضل ماشهدت به الأعداء.

والمستشرق الألماني (نولدكه) كتب يقول أيضاً : (ويمكن أن تكون قد وقعت بعض

الأخطاء الكتابية، لكن القرآن الذي قدّمه عثمان للعالم، هو نفس القرآن الذي جاء به محمّد، بالرّغم من كون ترتيبه عجيباً.

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(S.light clerical errors there may have been but the quran of othan contains more but genuine elements).

مع الملاحظة أنّ الذي يرغب بالإحاطة بترتيب القرآن الموضوعي، بإمكانه مراجعة مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم).



الفصل الثاني

١ ـ دليل من ضمن القرآن على مصداقية القرآن :

ولنعمد نحن، وبأسلوبنا العلمي، لإدراك مدى مصداقية القرآن الكريم. نتناول مانلاحظه فيما نصّت عليه سورة القيامة (١٦/١٧/١٨) من آياتٍ، جسّدت لنا معالم هذا الدليل الداخلي الضمنّي، من القرآن نفسه. فالله تعالى يقول : ﴿**لاتُحرّك به لسانك لتعجل به، إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه.**﴾، وهذه الآيات قد انطوت على وعدٍ إلهي واضح المعالم. وكأن الله عز وجلّ يقول لرسوله الكريم بألفاظٍ أخرى : وهل يستسيغ عقلُك أن نُنبئك عن المستقبل، دون أن نكون قد أعددنا أسباب ووسائل تحقيق هذا المستقبل؟ لذلك فاعلم أننا قد أخذنا على أنفسنا عبء جمع هذا الوحي القرآني الذي نوحيه إليك، وقرآنه على ترتيب تلاوته. فإذا فرغت من هذه التّلاوة ﴿**فاتّبع قرآنه**﴾، بمعنى أنّ مسؤوليّتك مقصورة على تنفيذ نهجنا هذا واتّباع أوامرنا. وهذا ماأفاده تعالى بقوله في مقام آخر : ﴿ **ماعلى الرسّول إلاّ البلاغ.**﴾ المائدة ٩٩ ـ

فهذه معالم دليلٍ ضمنّي من داخل القرآن نفسه. وهو على غاية الأهميّة، بسبب أنّ هذا الدّليل الضّمني وضّح لنا أن هناك وعداً إلهياً بالمحافظة على وحي القرآن الكريم، وهذا الوعد يشمل ترتيب تلاوة القرآن الكريم أيضاً.

وقد بقي السؤال هنا عن حكمة إنزال القرآن الكريم على ترتيبين : ترتيب إنزاله مُنجّماً، وترتيب تلاوته، وهو ماتتوق النّفس إلى معرفته.

ونحن كباحثين، نعثر على الإجابة ضمن القرآن، وفي سورة الفرقان (٣٢) من خلال قوله تعالى : ﴿**وقال الذّين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جُملةً واحدةً، كذلك لنثبّت به فؤادك، ورتّلناه ترتيلاً.**﴾. وكلمة (كذلك) تعني أنّنا أنزلناه مُنجّماً على هذا النّهج ﴿ **لنثبّت به فؤادك** ﴾، أي أنزلناه كذلك لتحقيق مقصدين هامّين : تحفيظُك آيات القرآن على مراحل إلى جانب تعريفك دلالات

هذه الآيات ومعانيها، وتثبيت هذه الآيات في (فؤادك). ذلك أنّه إذا ثبت الشّيء في المكان، دام واستقرّ. وأثبته : جعله ثابتاً، وعَرِفه حقّ المعرفة. (اقرب الموارد)

وإنّ الإنسان الذي يرجع إلى كُتب السّيرة المحمديّة، لابدّ أن يُلاحظ تحقّق هذين المُعْلمين لهذين المقصدين الهامّين. فقد كان محمد رسول الله (ص) يُحدث في شخصيّات أصحابه، التبديل الضّروريّ إجراؤه تبعاً لما كان ينزل عليه من وحي ربّه الذي كان يتلقّاه مُنجّماً أي متفرّقاً. فكان رسول الله (ص) يَعي معانيه ويتدبّرها، ويصّرف أمور الدّعوة على أساس مااستوعبه من معاني هذه الآيات النّازلة عليه. وقد لاحظنا كيف أنّ المستشرق (سير وليم ميور) قد لاحظ ذلك، لذلك قال آخر كلامه الذي اقتبسناه من كتابه (حياة محمد) صفحة (٥٦١)، قوله بحق محمد : (وقد كان يعمل بموجب تعاليمه). Mohammad himself gave forth and used.

على هذه الصّورة أكون قد وضعت بين يدي المرء ملامح دليلٍ من داخل القرآن الكريم، يؤكّد مصداقيّته.

٢ ـ دليل من خارج القرآن على مصداقية القرآن

وأنتقل بالقارىء خطوة أخرى، لأُكمل خُطوتي هذه التي خطوتها، ولأضع بين يديه الدّليل من خارج القرآن الكريم، هذا الدّليل الذي يَثْبُتُ من خلاله تحقّق المقصدين الهامّين اللّذين قصد تحقيقهما الوعد الإلهي الذي تضمنته آية سورة الفرقان. هذين المقصدين اللّذين استدعيا منه عز وجلّ أن يُنزّل وحي القرآن الكريم مُنجّماً.

فمن خلال تقصّينا لتطوّرات الأحداث التي حدثت في فترة نزول وحي القرآن مُنجّما. تتجلّى لأعيننا ظواهر ثلاث قد برزت إلى مسرح الأحداث : الظاهرة الأولى استمرار نزول جبريل عليه السلام بالوحي القرآنيّ مُنجّماً على رسول الله (ص)، وتحفيظه إيّاه ماينزل به من وحيٍ قرآنيّ، بل ومراجعته إيّاه

بجميع مانزل به من وحي بين حين وآخر. والظاهرة الثانية تتجلّى بظهور طبقةٍ من حُفّاظ هذا الوحي النازل مُنجّماً، وبترتيب مايشير به جبريل على محمد رسول الله (ص) ثم إنّ عدد أفراد طبقة الحُفّاظ هذه، قد تجاوز عشرات الألوف من أصحابه (ص). والظّاهرة الثالثة التي تتجلى لأعيننا هو تعيين محمد رسول الله (ص) كتبةً يكتبون له مايوحيه إليه ربّه على فترات، من وحيٍ قرآنيٍ، على الرّقاع والعظام، ووفقاً لما يُمليه عليهم الرسوم الكريم لفظاً وترتيباً.

هذا، وإنّ الباحث الذي أحاط بمعالم مُعطيات الدليل الداخليّ الذي ذكرناه، والمتضمّن الوعد الإلهي، لايستغْرب ظهور هذه الظواهر الثلاث التي لاحظناها. بل ولايخطر بباله أن يعتبرها قد حدثت مُصادفةً واتّفاقاً، بل يربط بين هذه الظّواهر وبروزها إلى سطح الأحداث، وبين الوعد الإلهي المذكور بصورة لاشعورية وتلقائيّة. فيرى من خلالها وجه تدخّل المشيئة والإرادة الإلهيّة التي سبق أن وعدت بجمع القرآن وقُرآنه.

على هذا النّسق نسير ببحثنا العلمي عن مصداقيّة القرآن الكريم، فمن شذّ عن هذا المسار، كان في نظري مُخطئاً، ولاينطلق ببحثه من مُنطلقٍ علميٍ صحيح.

والآن، أقول، والحقّ يُقال، وهو لو أنّنا نُوّنا في ذاك الزّمان، وسط أمّة أميّة، وهي عرب الجاهلية، الأمّة التي اعتمدت ذاكرة أبنائها، لحفظ كلّ ماتراه مناسباً للحفظ من تراثها التاريخيّ وأدب أدبائها وشعرائها. فلو كُنّا في وسط الجوّ المذكور، وكان طُلب منّا أن ننهج أسلوباً علميّاً في حفظ ماكان ينزل من وحي القرآن على قلب محمد رسول الله (ص)، فماذا كُنّا يومئذٍ فاعلين؟

وجوابي كمفكّر وباحث، لاأرى أُسلوباً أرقى من أن نعمد إلى تلك الوسائل الثلاث المذكورة وبصورة علميّة، يوم لم يكن الورق قد اكتشف، ولاكانت وسائل الطّباعة قد ظهرت إلى حيّز الوجود.

فلم يكن متوفّراً بين أيدينا إلاّ أعدادٌ متزايدة من مؤمنين أُميّين، لايملكون من متاعٍ أثمن من ذاكرتهم النّامية بشكلٍ ملحوظ.

فإن كُنت مُخطئاً فيما قُلته وقدّمته من رأي، فليتفضّل الباحثون يُصحّحونه. وإني لأتوق لسماع رأي أصوب مما قدّمت.

وبذلك تتجلّى لي معالم تجليّات الله عز وجلّ الذي أنزل وحي القرآن الكريم، إلى جانب خلقه الأسباب التي أدّت إلى ظهور هذه الظواهر الثلاث التي لاحظنا ظهورها على مسرح الأحداث، وذلك حفظاً منه جلّ شأنه لوحيه، وأسلوباً منه تعالى أيضاً لجمع هذا الوحي القرآنيّ، وقرآنه على ترتيب تلاوته، وهو الوحي النّازل مُنجّماً لتحقيق المقصدين الهامين اللّذين سبق أن فهمناهما من آية سورة الفرقان.

فهذه البيئة الأميّة، وهذا الرسول الأميّ، قد استدعيا من الله عز وجل أن يعد، ويحقّق وعده، بهذه الوسائل الثلاث التي كان يستحيل اعتماد وسائل غيرها، أضف إلى ذلك قيمة وأهميّة أوقات رسول الله (ص)، والتي كان عليه أن يبذلها لتأدية رسالة ربّه. فما كان مسؤولاً عن إضاعة أوقاته في أمور خارج هذا الإطار. فقد تحددت مسؤوليته من خلال قوله تعالى : ﴿.. **ماعلىٰ الرّسول إلاّ البلاغ.**﴾.

والذي نخلص إليه من بحثنا ودراستنا هذه، هو أنّ طبقة حُفّاظ القرآن الكريم، كانت تؤلّف العُنصر الأساسيّ لجمع القرآن وقرآنه. وتأتي الرّقاع المكتوبة في الدّرجة الثانية أهميّةً، فما كانت الرّقاع إلاّ بمثابة صمّام أمان، يُعمد إليه في الوقت الذي يعود الاعتماد فيه على طبقة الحُفّاظ خطراً لا أهميّةً له من الوجهة التوثيقيّة.

هذا على شاكلة ماكان يجري عند العرب بشأن أشعار أدبائهم البارزين، إذ كانت مُعلّقات أشعارهم، ليست هي المرجع الأهم، بقدر ماكان لحُفّاظ تلك المُعلّقات من دورٍ يؤدّونه على هذا الصّعيد. مع فارق مابين المثالين، وأيّ فارق.

❁❁❁

الفصل الثالث
ـ جمع القرآن الكريم

١ ـ واقعة اليمامة وجمع الرّقاع : توفي محمد رسول الله (ﷺ)، ووحي القرآن الكريم يعْمُر أفئدة عشرات ألوف الحُفّاظ، من جهة، وقد دُوّن من جهة أخرى على العُشُب (جرائد النّخل)، وعلى اللّخاف (حجارةٌ بيضٌ رقاق).

وأتتبّع الذي حدث بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، بنفس الأسلوب العلمي. فقد سارت الأمور، في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، على ماكانت عليه في عهد رسول الله (ﷺ).

لولا أن حدثت معركة اليمامة، التي استُشهد فيها مايَنوف على خمسة آلافٍ من حُفّاظ القرآن الكريم، دفعةً واحدة. وتركت هذه المأساة صدىً كبيراً في نفوس كبار مسؤولي الدولة الإسلامية، في المدينة المنّورة، العاصمة آنذاك، وتتجلّى هذه الحقيقة لأعيُننا، من خلال مارواه البخاريّ في صحيحه، وقد دفعت هذه الحادثة هؤلاء المسؤولين الكبار للتفكير بجدٍ وعزيمةٍ ماضية، في أمر معالجة موضوع جَمْع الرّقاع، وترتيبها، وتهيئتها، تحسُّباً من تكرار حادثة اليمامة واستشهاد أكثرية الحُفّاظ، فلا تعود طبقة الحُفّاظ مُعوّلاً عليها في الحفاظ على القرآن الكريم نفسه.

والذي رواه لنا البخاريّ رضي الله عنه قال : (حدّثنا موسى بن اسماعيل عن ابراهيم بن سعد، حدّثنا إبن شهاب عن عُبيد بن السّباق : أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أُرسِلت إلى أبي بكر الصّديق مَقْتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطّاب عنده.

قال أبو بكر رضي الله عنه : إنّ عُمَر أتاني فقال : إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقُرّاء القرآن ـ واستحرّ معناه اشتدّ ـ وإني أخشى إن استحرّ القتل بالقُرّاء بالمواطن، أن يذهب كثيرٌ من القرآن ـ وهذا القول يؤيّد أهميّة ومنزلة وجود الحفّاظ وسلامة كتاب الله من أي تحريفٍ كان ـ وإنيّ أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر ـ والكلام لأبي بكر ـ كيف يفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر : هذا والله خيرٌ ـ ويضيف أبو بكرٍ قوله ـ فلم يزل عُمر

يُراجعني، حتّى شرح الله صدري لذلك ــ يقصد أخذه برأي عمر في ضرورة جَمْع رِقاع القرآن ـ وأضاف :

ورأيت في ذلك الذي رآى عمر ـ والآن يعود الكلام للرّاوي زيد بن ثابت، قال زيد : قال أبو بكر ـ موجّها كلامه إلى زيدٍ بعد أن استدعاه وحضر بين يديه ـ : إنّك رجلٌ شابٌّ عاقل، لانتّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن، فاجمعه. قال زيد : فوالله لو كلّفوني نقلَ جبلٍ من الجبال، ماكان أثقلَ عليَّ ممّا أمرني به من جمع القرآن. قلت ــ والكلام لايزال لزيد ومخاطباً أبا بكر : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال ــ والكلام لأبي بكر ـ : هو والله خير.

ويضيف زيدٌ قوله : فلم يزل أبو بكر يُراجعني، حتى شرح الله صدري للّذي شُرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فتتبّعت القرآن، أجمعُه من العُسُب ومن اللّحاف وصدور الرّجال ــ أي وفقاً لترتيب تلاوته عند حُفّاظ القرآن الكريم ـ حتّى وجدتُ آخر سورة التّوبة مع أبي خزيمة الأنصاريّ، لم أجدها مع أحدٍ غيره : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ماعنتّم..**﴾ حتّى خاتَمَة براءة. فكانت الصُّحف عند أبي بكرٍ حتى توّفاه الله. ثمّ عند عُمر حياته ـ أي طوال حياته ـ ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه.).

هذه الرواية التي رواها لنا البخاري، تُعتبر في نظري من أوثق وأصحّ ماروواه. فهي ألقت للباحث الضّوء المُبهر على هذه الأحداث الهامّة ومجرياتها فيما يتعلّق بالتّبديل الطارىء بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى.

والذي يُستدلّ من هذه الرواية، هو أنّ خشية الله تعالى كانت تعمر أفئدة هؤلاء المسؤولين الكبار في الدّولة الإسلامية. فهذا عمر الفاروق يرى في حادثة مقتل عددٍ كبير من حُفّاظ القرآن خطراً داهماً على القرآن الكريم نفسه. بسبب أنّه كان يعلم يقيناً أنّ طبقة الحُفّاظ، كانوا عماد "جمع القرآن وقرآنه". وبسبب أنّ الأمة المبعوث فيها هذا الرسول الكريم الأمين اشتهرت بكونها أمّةً أميّة لاتكتب ولاتحسب على الورق. ونَدَرَ من يعرف القراءة والكتابة من أبنائها. فقد كانت تستظهر كُل تاريخها وعلومها وأشعارها عن ظهر قلب.

وهذا أبو بكر الصّديق، يرى أخيراً رأي عمر الفاروق، بعد أن شرح الله تعالى صدره لرأيه. فقد كان يُدرك إذن أيضاً أنّ طبقة حُفّاظ القرآن هم

عماد "جمعه وقرآنه". فقد اقتنعَ أنّه لابدّ أن تفعل هذه الحقيقة فعلها، إذا تكرّر في معركةٍ من المعارك ماحدث في معركة اليمامة. لذلك لاحظناه استدعى أحد أبرز الذّين كانوا كُتّاباً لوحي القرآن في زمن نزوله، وهو زيد بن ثابت رضي الله عنه، وكلّفه بمهمّة جَمْع الرّقاع المؤلّفة من العُسُب واللّحاف، أي من جرائد النخل ورقائق الحجارة البيض. يجمعها ويُرتّبها وفقاً لما في صدور حُفّاظ القرآن من ترتيب أيضاً.

وهذا زيد بن ثابت، وقد شرح الله تعالى له صدره لرأي هذين الصحابين المسؤولين العظام، وأدّى مُهمّته على أحسن وجه وبكلّ أمانة. وقد احتفظ أبو بكر الصّديق برقاع هذا القرآن المُدّون، والمرتّب على وفق ترتيب ماحفّظ محمد ﷺ الحُفّاظ إيّاه. أي على ترتيب التلاوة الذي كانوا يتلونه به كُلّ آن في حياة محمد رسول الله ﷺ . وقد تسلّم عمر بن الخطاب رقاع هذا القرآن المُدّون أيضاً، بعد أن تسلمّه من بيت أبي بكر بعد أن توفّاه الله عز وجل. فلّما توفّى الله عمر بن الخطاب، احتفظت ابنته حَفْصة برقاع هذا القرآن المُدّون المرتّب بترتيب تلاوته. علماً بأنّ حفصة رضي الله عنها، لم تكن ابنة عمر وحسب، بل وأمّ المؤمنين.

٢ . نسخ الرقاع في زمن خلافة عثمان (رضي) :

وانتخَب المسلمون عثمان بن عفّان خليفة ثالثاً لرسول الله ﷺ ورئيساً لدولتهم الإسلامية. فلننظُر ماذا حدث زمن خلافته، وكيف تطوّرت الأحداث، وأثرها الذي تركته على طبقة الحُفّاظ وسلامة القرآن الكريم؟

لابُد أن يكون قد رسخ في ذهن القارىء إلى الآن أن دراستنا وأسلوبنا العلمي، قد أوصلانا إلى حقيقة تاريخيّة لاغُبار عليها، هي أنّ القرآن الكريم، الذي يُعدّ مرجعنا الوحيد لتقصّي صفات خالقنا وأسمائه الحسنى قد وصل عهد خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه مجموعاً ومرتّباً وفق ترتيب تلاوته في صدور الحفّاظ، سالماً من كلّ تحريفٍ وتبديل.

هذه الحقيقة تدحض زعم مايزعمه بعض المُغرضين من أنّ الخليفة الثالث عثمان بن عفّان هو الذي جمع القرآن الكريم. فقد ثبت لنا بالأسلوب العلمي وصوله مجموعاً ومرّتباً إلى عهد خلافته، بل وفي يديّ حفصة أم المؤمنين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : ماهي التطورات التي حدثت في عهد هذا الخليفة الثالث، والتي دفعته لنسخ القرآن على سبع نُسخ كما هو معلوم؟ خصوصاً أن أكثر تلك النسخ لاتزال موجودة في متاحف أعظم الدّول المعاصرة؟

إذا كانت حادثة اليمامة التي جرى خلالها مقتل عددٍ كبيرٍ من حُفّاظ القرآن قد استدعتْ ذلك من الخليفة الأول أبي بكر الصدّيق جمع وترتيب القرآن على نفس ترتيب تلاوة الحُفّاظ.

فقد حدثت في عهد الخلافة الثالثة تحوّلات جذرية وتطورات، بالإمكان تتبُّعُها ومعرفة معالمها وأبعادها من خلال ماوصلنا ممّا وثّقه المؤرّخون لتلك الفترة من الزمان، هذه التحولات الجذرية والتطورات هي التي دفعت عثمان بن عفّان رضي الله عنه ليقلِب أو يعكس مُعادلة الحِفَاظِ على القرآن الكريم، التي ذكرناها وتحويلها من الاعتماد على الحُفّاظ، إلى الاعتماد على رقاع القرآن المجموعة والمرتبة بترتيب تلاوتها، فينسخها إلى سبع نُسخٍ ويوزّعُها على الأمصار. وذلك لتحتل النسخة المدونة والمنسوخة هذه المكانة الأولى كصمّام أمانٍ وحسب، ولتحلّ محلّ الحُفّاظ مصدراً لحفظ هذا القرآن العظيم.

نلحظ معالم هذه التحولات الجذرية والتطّورات المستجدّة من خلال أسطُرِ روايةٍ أخرى نقلها لنا البخاري رحمه الله في صميمه. إذ قال : (عن أنس بن مالك أنّ حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشامَ في فتح أرمينيّة وأذربيجان، مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المؤمنين أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنّصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصّحف ننسخُها في المصاحف ونردُّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان. فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام. فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرّهط القرشيّين الثّلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل بلسانهم. ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصُّحُفَ في المصاحف ردّ عثمان الصُّحف إلى حفصة. فأرسل إلى كلّ أُفقٍ بمصحف ممّا نسخوا، وأمَرَ بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحرق.).

ولنتدبّر الآن مضمون هذه الرّواية، وماحملته إلينا من معلومات :

أولاً ـ يتراءى من خلال هذه الرواية أنّ حذيفة بن النُّعمان كان قائداً لجيش المسلمين المُتوجّه لفتح أرمينيّة وأذربيجان، وكان جنود جيشه مؤلّفين من شاميّين وعراقيّين.

ثانياً ـ لاحظ حذيفة أنّ المسلمين من غير العرب يَلحنون في حفظ القرآن الكريم، فلا يحفظونه على نسق وفصاحة الحُفّاظ من العرب. يقول الرّاوي : (فأفزع حذيفةَ اختلافهم في القراءة) ولاشكّ أنّ ملاحظة هذا القائد المسلم التّقي الواعي لمسؤوليّته، كانت في محلّها.

ذلك أن العرب أنفسهم كانوا مختلفين في القراءات، تقرأ كلُّ قبيلةٍ القرآن بلهجتها، فما بالنا بالأعاجم الذين يصعُبُ عليهم إحسان النُّطق بكثير من أحرف العربيّة لاسيّما حرف الضّاد؟ وهذه الملاحظة تقتضي أن يُصبح بين مُتناول أيدي من يُريد تلاوة أو حفظ القرآن قرآنٌ منسوخ على أوراقٍ بين يديه، دفعاً لهذا الاختلاف بين القراءات.

ثالثاً ـ وقد عاد هذا القائد إلى القائد العام خليفة المسلمين عثمان بن عفّان (رضيَ) . وحريٌّ به أن يعود إلى خليفته فيحذّره مما حدث. وقال لعثمان فزعاً : (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنّصارى.). وإنّها لكلماتٌ معبّرةٌ جدّاً. فاليهود والنصارى لم يُسعدهُمُ الحظّ بتوثيق تعاليم رُسُلهم في أزمنة أصحاب هذه التعاليم أنفسهم. فكان نتيجةً لذلك ماكان. وهذه الكلمات تعبّرُ عن ثقافةٍ ناضجةٍ، ووعيٍ لتاريخ الأديان.

رابعاً ـ ماذا كان ردّ عثمان على قائده؟ لم يُجادله، بل وَعى ملاحظته تماماً، وتقبّلها، وأرسل إلى حفصة (رضي) يطلب منها نُسخة القرآن التي جمعها أبو بكر الصّديق (رضي) في حياة خلافته وفق تلاوة الحُفّاظ. ثمّ ألّف عثمان (رضي) لُجنةً من أربعة رجالٍ ثقاتٍ. على رأسهم زيد بن ثابت الذي تمّ جُمع القرآن على يديه من قبل. إلى جانب عبد الله بن الزّبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام. وكان هؤلاء الأربعة من حُفّاظ القرآن أيضاً، كما هو ثابت من التّاريخ. بل كانوا رهطاً من قريش، يتكلّمون بلهجة قريش أيضاً، علماً بأنّ القرآن الكريم نزل بلغة قريش، كما هو معلوم، فلا مجال للخطأ في التّدوين.

ثم إنّ تأليف هذه اللّجنة من هؤلاء الرّجال أنفسهم، يدلّ على حكمة عثمان (رضي) وبُعد نظره. ويزيد رأيه هذا رفعةً وسُمُّواً إشارته على هؤلاء الرّجال بأنّهم، إذا اختلفوا، هُم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن، أن يكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل القرآن بلسانهم، ففعلوا. وقد نسخوا القرآن الكريم على سبعِ نُسخٍ، فأرسل عثمان إلى كُلّ قطرٍ من أقطار الدّولة الإسلاميّة نُسخةً من هذه النُّسخ، لينسخ المسلمون بموجبها، فلا يختلفون في شيءٍ من القرآن الكريم.

خامساً ـ والذي فعله عثمان (رضي)، بعد أن فرغت اللّجنة من أداء مهمّتها (ردّ عثمان الصّحف إلى حفصة (رضي)) سالمة دون زيادةٍ أو نُقصان، ودون أن يحرقَ منها شيئاً (وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ عنده، أو مُصحفٍ أن يحرق) أي أنّه أمر المسلمين أن يحرق كلّ واحدٍ منهم، مااستنسخَهُ من صحيفةٍ عنده أو كتبها من قبل، خشية أن يكون فيها نقصٌ أو خطأ. ولم يأمر بإحراق النسخة الأصليّة التي احتفظت بها حفصة لديها بعد موت والدها عمر بن الخطاب (رضي)، بل أعادها إليها سالمة، على حسب ماورد في الرّواية المذكورة.

وهكذا نكون قد توصّلنا بالأسلوب العلميّ، إلى نفس ماتوصّلَ إليه المستشرق وليم ميور، الباحث المُحايد المُنصف، الذّي أقرّ إقراراً جازماً أنّ القرآن الذي بين أيدينا، هو نفسه الكتاب الذي أنزله الله عز وجلّ على رسوله الأمين.

على هذه الصّورة تطمئن نفوسنا بعد الإيمان، إلى أنّ القرآن الكريم الذي نتلوه ليل نهارٍ، في كلّ مكانٍ، هو مرجعٌ تاريخيٌّ ثقةٌ، بإمكاننا الرّجوع إليه، لنتعرّف من خلال آياته الكريمة ما للذّات الإلهيّة الخالقة لهذا الكون، من

صفاتٍ وأسماءَ حُسنى. ولانكون مُغالين إذا قلنا إنّ هذا القرآن المعتمد الموثوق بـه قد وصل إلينا سالماً، وفقاً لما نصّ عليه قوله تعالى في سورة الحجر :

﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾. هـذا الدليـل الدّاخلـي مـن ضمن القرآن نفسه الذي تأيّد بالدليل الخارجيّ الذي أوردناه.



الفصل الرابع
١ ـ هل اختلق محمّد ﷺ القرآن ؟

فإذا وصلنا إلى هذا الحدّ من البيان، طرح أعداء الإسلام علينا سؤالاً هو: وماأدرانا أنّ هذا القرآن الذي وصلنا عن محمّدٍ ﷺ سالماً هو تنزيل رب العالمين؟ وليس من وضع محمد بن عبد الله نفسه؟

والذي وُلِدَ مسلماً مؤمناً برسالة محمد رسول الله ﷺ، يردّ على هذا السؤال، ويُجيب إجابةً تقليديّة. على شاكلة من سبق أن قالوا : إنّا وجدنا آباءنا على ملّة، وإنّا على آثارهم مُقْتدون.

أما نحن، وقد انتهجنا الأسلوب العلميّ أسلوباً لفهمنا وإدراكنا، فلا سبيل أمامنا إلاّ الإجابة عن هذا السؤال بالأسلوب العلمي، دون الطّريق التقليدي.

والذي أرغب فيه هو الكلام أوّلاً عن الذات البشريّة مجردةً عن أيّ أمرٍ روحي، وبمنطقٍ تاريخيٍ أصيلٍ وثابتٍ وبالأسلوب العلمي.

فالذي يستعرض تاريخ الأفذاذ من الرّجال، هؤلاء الذين تركوا بصماتهم على صفحات تاريخ الإنسان، وبرزوا على مستوىً عالميّ، بين قائدٍ عسكريّ، وفيلسوف، وعالم، في فرعٍ من فروع العلوم. فقد لمعت أسماء الاسكندر المقدونيّ وهتلر ونابليون مثلاً قوّاداً عسكريين.

وبرقت أسماء سقراط وأفلاطون وهيجل والغزالي، مثلاً فلاسفة مفكّرين، واشتهرت أسماء نيوتن وأنشتاين وابن سينا والفارابي علماء في مختلف فروع العلوم.

فإن نحن استعرضنا هؤلاء الأفذاذ من الرّجال فرداً فرداً، لاحظنا نبوغ عبقريّتهم في اتّجاه واحد، وليس على جميع المستويات هذا ماأثبتته عشرات الكتب التي بحثت جوانب حياة هؤلاء الرّجال الأفذاذ. و لم يزعم واحدٌ منهم أنّه تلقّى مواهبه أو علومه من طرفٍ خفّيٍ وطريقٍ غيبيّ. وكانت تتجمّع عوامل مختلفة، وأسباب عديدة، تدفع إلى ظهور هذه الشّخصيات. فمن هذه العوامل،

أن يسبق ظهور هذا القائد أو ذاك مثلاً، دخوله الكُلّية العسكرية، وترقيّه في مختلف مراتبها. فهذه خلفيات القوّاد العسكريّين. كما جرى أن سبق ظهور عالم من العلماء الذين اشتُهروا ولمعت أسماؤهم، دخولهم كلّيةً علميّةً مُحدّدة، وترقّيهم في تلقّي علمهم من خلالها. وذلك بعد أن يمرّوا بمراحل دراسيّة متوالية. فهذه خلفيّات العلماء النوابغ أمثال نيوتن وآنشتاين وسواهما من العلماء البارزين. كما جرى أن يسبق ظهور فيلسوفٍ شهيرٍ لمع إسمه في تاريخ البشرية، متابعته للعلوم الفلسفيّة، وترقيّه إثر ذلك، واشتهار مايطرحه من أفكارٍ مُضافةٍ جديدة. فهذه خلفيّات الفلاسفة في التّاريخ.

والذي يلاحظه المرء من خلال متابعته لسجلّ حياة هذه الشخصيّات اللاّمعه جميعاً، أنّه كانت لاتمرّ فترةٌ من الزّمان إلاّ وتهتزّ صورتهم من جوانب عديدة في أعين الباحثين. بل تهتزُّ كثيرٌ من آرائهم وعلومهم على مرّ الزّمان.

فهذه هي ملامح الذات البشرية المجرّدة عن أيّ دعمٍ روحيّ، ولايختلف في هذا الأمر إلاّ من جانب الأسلوب العلميّ في بحوثه ودراساته.

فمن هذا المُنطلق العلميّ المُبصّر، تعالوا نتناول هذه الذّات البشرية التي طلعت علينا بهذا القرآن العظيم الذي وصلنا عنه سالماً، بلا أدنى تحريف. نتناول ذات محمد بن عبد الله بالبحث والدراسة وننظر : هل يتأتّى أن تكون هذه الذات البشرية هي التي اختلفت هذا القرآن وأبدعته، أم أنّ محمّداً ﷺ قد تلقّى وحي القرآن حقّاً من جهة خالق هذا الكون ومُبدعه، لنتمكّن بذلك من الإجابة على هؤلاء الذّين اعتادوا أن يوجّهوا، على فتراتٍ، مثل هذا السؤال؟

ولست أول من يتصدّى لهذا السؤال ولاأوّل من أجاب. فالمكتبات عامرةٌ بعشرات الكتب في هذا المجال. وإنّ جميع مَن كتبوا من الأصدقاء ومن الأعداء، أجمعوا على أنّ محمداً رسول الله ﷺ كان على رأس عباقرة تاريخ الإنسانية وأفذاذهم، وإن اختلفوا فيما طلع على الناس به من كتاب.

وأنقل بعضاً ممّا كتبه الأب حداد الذي كتب كتابه الضّخم المؤلّف من عدّة أجزاء، محاولاً تحريف الآيات القرآنية عن مواضعها، وتضليل القُرّاء بأحطّ أسلوب. ويدرّس مؤلفه هذا في معهد تخريج الخوارنه في بيروت عاصمة القطر الشقيق لبنان. وقد اضطّر الأب حداد مُكرهاً، وذلك عندما تناول شخصية النبي

العربي محمد رسول الله ﷺ، بالكلام على مزاياه. يُلاحظه القارىء يكتب وفؤاده يقطُر دماً من جرّاء تعصُّبه وعداوته. قال وهو يناقض نفسه ص١٠٦٤: (كانت شخصية محمد بن عبد الله الهاشميّ القرشيّ، النّبي العربي، مجموعة عبقريات، مكّنته من تأسيس أمّةٍ ودينٍ ودولةٍ من لاشيء. وهذا لم يجتمع لأحدٍ من عُظماء البشرية : كان محمد عبقرية دينيّة.. وكان محمد عبقرية سياسيّة.. وكان محمد عبقرية دبلوماسية.. وكان محمد عبقرية عسكرية.. وكان محمد عبقرية إدارية.. وكان محمد عبقرية تشريعية.. أخيراً كان محمد عبقرية أدبية.. فقد كان النبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أدب، قلّما عرف العالم له مثيلاً.). وهل تخرج مثل هذه الأوصاف من قلم عدوٍ إلاّ كرهاً، وإقراراً لواقعٍ لاينكُره إلاّ أعمى أو مجنون؟

وأعود إلى مانحن بصدده، من دراسة هذه الذّات البشرية التي أنجبتها أرضٌ غير ذات زرع، لم تشع فيها من المعارف، اللّهم إلاّ حديث القوم عن الشّعر والتّفاخر.

وهكذا توصّلنا إلى أنّ جميع عباقرة البشر، استندت عبقرياتهم إلى خلفيّات ومعطيات علمية وفلسفية وعسكرية وسواها. ودون هذه الخلفيات والمعطيات العلمية والفلسفية والعسكريّة يستحيل أن ينمو وعي أيّ إنسان كان.

هذه حقيقة تشاهدونها يوميّاً. وهذه الحقيقة الناصّعة هي سرّ تباين مستويات بعضها عن بعض. بل إنّ هذه الحقيقة النّاصعة تشكّل ظاهرة قانون طبيعي أيضاً، لامجال للاختلاف فيه. إذ هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون، بل هل تستوي الظّلمات والنور، أو هل يستوي الصّيف والشتاء، أو يستوي الأخضر واليابس؟

وعلى ضوء هذه الحقيقة النّاصعة، يتناول الباحث بأسلوبٍ علميّ، شخصيّة محمد بن عبد الله ﷺ. فإذا كان هذا الباحث مُنصفاً. يبحث أوّل مايبحث في خلفيّة شخصية هذا الرسّول ومعطياتها العسكريّة والعلمية والفلسفية، فإذا أتمّ هذا الأمر، تساءل أوّل الأمر : هل كان محمّد ﷺ يقرأ ويكتب؟ فإذا كان يقرأ ويكتب، فأين تعلّم ودرج في سُلّم العلوم؟

ولست أدّعي أنّي أوّل من يحاول تتبُّع شخصية محمد رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب العلميّ، وبهذا التّدرج في البحث. فهذا هو الأب حدّادّ وسواه من أعداء الإسلام، قد تتبّعوا الأمر من نفس الزّاوية، وبنفس الأسلوب العلميّ، فَذُهِلوا ممّا تبيّن لهم من حقيقة ناصعة، هي أنّ محمّداً ﷺ كان أميّاً لم يقرأ ولم يكتب ولم ينتسب إلى أيّ معهدٍ علميّ. فقد أذهلهم مع ذلك أن يكون محمد بن عبد الله ﷺ عبقرياً دينيّاً.. وعبقرياً سياسياً.. وعبقرياً دبلوماسياً.. وعبقرياً عسكريّاً.. وعبقريّاً إدارياً.. وعبقرياً تشريعياً.. وعبقرياً أدبيّاً.. فيشذُّ بذلك عن جميع عباقرة التّاريخ، ولايكون لوعيه العظيم هذا خلفيّة علميّة ومعطيات اجتماعيّة وسواها من المُعطيات.

أي أنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء الإسلام، قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمد بن عبد الله، للحقيقة الطبيعيّة المألوفة لنمو الوعي الإنساني وهذا القانون الطبيعيّ. فماذا يفعلون تجاه هذا الواقع الذي لايُنكر تاريخيّاً، ولا قرآنيّاً؟

إنّهم إن سلّموا بحقيقة كون محمد رسول الله ﷺ أميّاً، وجب عليهم الإقرار بأنّ معجزة القرآن هي معجزة سماويّة، ليست هي من صُنع أو عطاء أو إفتراء محمّدٍ نفسه. أمّا إذا أرادوا أن يضلّلوا الناس، ويوهموهم أنّهم درسوا شخصيّة محمّد ﷺ دراسة علميّة موضوعيّة، وتبتت لهم عبقريّته على جميع الصُّعد، فلن يجدوا إلى ذلك سبيلاً. إلاّ قلب الحقائق التّاريخيّة والقرآنيّة، لتضليل الناس، وإقرار مافي قلوبهم من زيغ..

٢ ـ أعداء الإسلام اعتبروا محمّداً ﷺ عبقرياً:

أعود أقول : إنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء محمّدٍ قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمّد للحقيقة الطبيعيّة المألوفة والمتعلّقة بنموّ الوعي الإنساني وهم ممّن تناولوا دراسة شخصيّة محمد ﷺ بالأسلوب العلمي. وقد لاحظ القارىء من خلال ماقتبسته من كتاب الأب حدّاد، اعترافه بعبقرية محمّد ﷺ على جميع

الصّعد. وهذه ظاهرة إعجاز لاتتأتّى بطريق طبيعيّ. فهل يعترف الأب حدّاد بهذه المعجزة الإنسانيّة المنسوب إيتاؤها إلى الله الخالق، ويُلزم بالتّالي الإيمان بنبّوة محمّد بن عبد الله ورسالته. أم يقوم بحركة التفافٍ حول هذه الحقيقة إنقاذاً لسمعته كباحث بالأسلوب العلميّ، فيرضي من حوله من أتباعه وإن تسبّب ذلك في إغضاب الله في عليائه؟ أي أنّه وقع في مأزق من يرفض قطعة النّقود التي أضحت بين يديه أملاً في مبلغ كبير بعيد التّناول منه.

وأقول والأسف يعتصر فؤادي هو أنّ الأب حدّاد حاول الإلتفاف على هذه الحقيقة الطبيعية المألوفة، تضليلاً للنّاس، وتشويهاً للحقائق التاريخ، وساءت عاقبته، وإليكم البرهان على ماقلته وادّعيته :

ذلك أنّ الأب حدّاد هذا، قبل اعترافه بعبقريّات محمد بن عبد الله على الصفحة (١٠٦٤). أي قبل ذلك بصفَحَات، قام، وهو الرّجل المسيحيّ الدّين، الذي يُفترض فيه خشية الله خالقه، والصّدق فيما يكتب ويقول. قام بمحاولة الإلتفاف على موضوع حقيقة كون محمد عبد الله ﷺ أميّاً. محاولاً طرح هذه العَثرة، والصخرة الرّاسية جانباً، والقيام بحركة التفافٍ من حولها ليُكمل طريقه في التّضليل. وكتب على الصفحة (١٠٥٨) وبالحرف الواحد، وتحت شعار (فهل كان محمّدٌ أميّاً؟)، مع ملاحظة أنّ كلمات هذا الشّعار الذي طرحه، يثبت منه تلقائياً أنّ كون محمّد أميّاً لايقرأ ولايكتب، سيكون عقبةً كأداء في طريق بحث الأب حدّاد نفسه.

قال : (وقد آن لنا أن نتخلّص نهائياً من الأسطورة الرّائجة والخُرافة الشّائعة عن أميّة محمّد.) فهو اعتبر هذه الحقيقة التاريخيّة والقرآنية أسطورة رائجة، وخُرافة شائعه. وأضاف يقول : (درج القوم على اسناد تلك الأميّة المزعومة إلى أساسٍ من القرآن مغلوط. حيث يُسمّى محمّداً ـ النّبي الأمّي ـ أعراف ١٥٦).

وأيّ قوم أراد الحدّاد، إلا جميع المسلمين؟ فلم يصّرح بذلك، كي يتجاوز من الناحية النفسيّة، جرح مشاعر المسلمين بصورة مباشرة، وأضاف يقول : (وقد فاتهم ـ أي فات المسلمين أجمعين ومؤرخيهم وعلماءهم ـ أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لابمعناها اللغويّ، بل بمعناها الإصطلاحي الذي

أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز. فكلّ ماعداهم من النّاس "أميّون" أي من "الأمم" الذّين لاكتاب منزّل لهم، فالعرب كتابيّون وأميّون :

﴿**وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين : أأسلمتم.**﴾. آل عمران ٢٠.

لذلك فمحمّد نبيٌّ "أميّ" أي العربي. ويشهد القرآن على سعة ثقافة محمّد واطّلاعه على سائر معارف بيئته. وأسطورة الأميّة روّجها كُتّاب (إعجاز القرآن) ليسندوا إليه معجزة الإعجاز. كأنّ الثقافة والنّبوة لاتجتمعان. وأكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا على ثقافة عالية، وسيّدهم موسى الكليم قد تثقّف قبل بعثته في قصر فرعون بكلّ ثقافة المصريّين. وكذلك محمّد فقد تثقّف بكلّ ثقافة الأرستقراطية القرشيّة، مثل ابن عمّه علي بن أبي طالب تِرْبَهُ في نشأته. والسّيرة النبويّة تشهد بأنّ محمداً قبل بعثته كان تاجراً دوليّاً مابين اليمن والشّام، وتاجراً ناجحاً، ممّا حمل السيّدة الثريّة خديجة على الزّواج منه. وقيادة تجارة كبيرة دوليّة ناجحة زمناً طويلاً تقتضي من صاحبها ثقافة وافرة. والسّيرة تشهد أيضاً بأنّ محمّداً قبل بعثته كان حنيفاً كبيراً يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد، ويطلبها عند أهلها في حلّه وترحاله، ويتحنّف مثل الحنفاء والرُّهبان، يتأمّل في الوجود درب الوجود. وليست هذه حال الأميّين، بل حال أهل الثّقافة والصّوفية. فقد كان النّبي بحّاثة دينيّاً، واسع الإطلاع شامل الإطلاع.).

لابدّ أن يعلم كلّ ضليع في لغة الضّاد، أنّه لايجوز الانتقال باللّفظ من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي أو الإصطلاحي إلاّ بتوفّر قرينة تبرّر ذلك. ولم يأت الأب حداد بأيّة قرينه هنا تنقل لفظ "الأمّي" من معنى لايقرأ ولايكتب، إلى المعنى الاصطلاحي المزعوم. أضف إلى ذلك أنّ كلّ مؤرّخ يعلم بأنّ العرب كانوا "أميّين" بمعنى لايقرؤون ولايكتبون، ولذلك اعتمدوا ذاكرة أبنائهم لحفظ تراثهم الشّعري. ومحمّدٌ ﷺ هو من هؤلاء الأميّين الذي لم يكن يقرأ ويكتب، وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميّن رسولاً منهم..**﴾.

على هذه الصّورة تكون قد أدركنا حركة الالتفاف التي قام بها الأب حداد، حول حقيقة كون محمد بن عبد الله أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة، ولا انتسب إلى أيّ معهدٍ علميّ، زاعماً : (أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لابمعناها

اللّغوي، بل بمعناها الاصطلاحيّ الذي أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز.. فمحمّدٌ نبيٌّ "أميّ"، أي من الأميّين العرب..).

هذه النقطة التي أثارها هذا الأب المسيحيّ الرّوحي، تؤلّف عمليّة التفافٍ وبجرّد ادّعاء، ولاينجح الإلتفاف علميّاً إلا بعد تقديم الدليل القاطع والبرهان الساطع على صحّة الإدعاء. وإلاّ باءت عمليّة الالتفاف هذه بالفشل الذّريع.

والدّليل المطلوب تقديمه هنا، هو تِبيان :

أولاً ـ أنّ كلمة أمّي تعني لُغةً عدم القراءة والكتابة.

ثانياً ـ وأنّ لكلمة أمّي اصطلاحاً لغوياً، أتى على بيانه أصحاب معاجم اللّغة.

ثالثاً ـ وتقديم قرينةٍ لُغويةٍ تنقل لفظ الأمّي في الآية القرآنية من معناه اللّغوي، إلى معناه الإصطلاحي، خصوصاً وأنّ الله الذي أنزل القرآن قال : ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون.**﴾ يوسف ٢ ـ وقد سبق أن شرحت معنى العربيّ أيضاً.

نسأل : هل تنقّل هذا الأب الروحي المسيحيّ خلال هذه الخطوات الثلاثة في بحثه العلمي، أم أنّه تجاوزها، مُفسحاً لنا مجال اتّهامه بالتّضليل، ومحاولة الالتفاف على كلمة "أمّي"، بأسلوبٍ فاشلٍ ودنيء؟

وأقول، والإمتعاض يعتصر فؤادي من هذا الأب حدّاد الذي يواجه الآن في عالم البزرخ ماقدّمت يداه. أقول : إنّه لم يلتزم بهذه الأمور الثلاث المذكورة، بل تجاوزها. وأثبت بتجاوزه فشله الذريع فيما زعمه وادعاه. وهكذا باءت عمليّة التفافه المذكورة بالفشل الذريع المُشين يقيناً. وثبت من خلال ذلك أنّه كان لايحسب لآخرته أيّ حساب. وأنّه كان جُلّ همّه أن يُخاطب بالأب حداد.

وهاقد مضى على طبع مؤلّف الأب حدّاد أكثر من نصف قرن من الزّمان، فلم يأبه له أيّ مفكّرٍ عربيّ مُحايد. حتى طلع علينا صاحب القراءة المعاصرة، ينهج نهجه، بل يُزايد عليه أيضاً. وقد كشفت عن حقيقة ماذهب إليه في الجزء الثاني الذي رددت به عليه.

أقول نهج صاحب القراءة المعاصرة نهج الأب المسيحي في دعواه، دون تقديم دليل قاطع وبُرهان ساطع. ولاندري هل أراد هذا أن يرتدي لباس الإسلام

وحسب، فيكتب ماكتب لغرضٍ في نفسه، فانتحل صفةً ليست له، وخاض غمار مُعترَكٍ لاقِبل له فيه؟

ألا وإنّ الأب حدّاد، قد أقرّ من حيث لايريد، بأنّ كلمة أمّي تعني في اللغة العربية عدم القراءة والكتاب، حين قال : (.. هذه الصّفة هنا، لابمعناها اللّغوي، بل بمعناها الإصطلاحي..) فكأنه قال بألفاظٍ أخرى : إنّ الأمّي لغةً هو الشخص الذي على فطرة أمّه لايقرأ ولايحسب على حسب ماذكر اللغويّون. ولاندري كيف نقل المعنى اللّغوي إلى المعنى الإصطلاحي بلا مبرّرٍ يبرّره؟

والمهمّ من جميع ماذكرناه، هو أنّ الذي أوصل إلينا هذا الكتاب المُنزّل وهو القرآن الكريم، كان رجلاً أميّاً لايقرأ ولايحسب، ومن أمّةٍ أميّةٍ أيضاً، اعتمدت ذاكرة أبنائها لحفظ أنسابها وأشعار أبنائها ورواياتهم، بسبب عدم انتشار القراءة والكتابة بين أبنائها. هذا الأمر الذي أضحى بديهيّةً من المُسلّمات لدى المسلمين، بدليل ماأورده المؤرخون، وماعرفه مَن عايش سُكّان شبه جزيرة العرب من الشعوب المجاورة لهم.

ومادام أصدقاء محمد بن عبد الله وأعداؤه، قد شهدوا بتعدّد عبقرياته، خلافاً لجميع من برز في تاريخ البشر من العباقرة. وأنّ عبقريات محمّد هذه لم تستند إلى خلفيّاتٍ دراسية ومُعطيات علمية، فقد دانتهم شهادتهم هذه الفريدة، فالزمتهم الإقرار بما صرّح به محمد نفسه من أنّ هذا القرآن قد كان يُوحى به إليه من قِبل خالقه، وليس هو من افتراته وإبداعه. إذ لايقبل العلم ولا العقل ولا المنطق أن يبدو محمدٌ ﷺ عبقريّاً في جميع نواحي حياته وعطاءاته، ولاتكون له خلفيّةٌ دراسيّة ومعطياتٌ علميّة قد أكسبتْهُ هذا العلم بل هذا الإدراك الواسع الذي لامثيل له في تاريخ البشر قاطبةً، فمن عَمِيَ أو تعامى عن هذه الحقيقة، لايُسمع له قول، فقد ضلّ في نظر العلماء والباحثين، عن هذه الحقيقة العلمية ذات الشُّعب والأُصول.

وبناءً على ماذكرناه نقول : لم يكن محمد بن عبد الله عبقرياً دينيّاً، ولاكان عبقرياً سياسياً، أو كان عبقرياً دبلوماسياً، وهو لم يكن عبقرياً عسكرياً أو عبقرياً إدارياً أو عبقرياً تشريعياً، أو كان عبقرياً أدبيّاً، بل كان يتيماً، أميّاً، رسول ربّ العالمين. فإذا تجلّت مظاهر هذه العبقريّات على يديه، فبتفضّلٍ من ربّه

عليه، الذي اصطفاه لرسالته، وبتعليم من ربّه الذي أنزل عليه آي الذّكر الحكيم على قلبه. ولاينتقص من ذلك كون محمّد بن عبد الله شُعلةً من الذّكاء، ناضج الرأي، بعيد الغور، كريم الخلق والشمائل، وأنّه القدوة في المروءة.

ونحن لو سلّمنا مع الأب حداد، بسعة اطّلاع محمد على معارف بيئته، وأنّه تثقّف بثقافة بيئته الأرستقراطية القرشيّة، وأنّه تاجَر مابين اليمن والشّام، وكان تاجراً ناجحاً خبيراً، وأنّه كان قبل بعثته حنيفاً متقدّماً، يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد ويطلبها عند أهلها، في حِلّهِ وترحاله، ويتحنّف كما يتحنّف الحُنفاء والرّهبان، ويتأمّل الوجود وربّ الوجود. فجميع هذه الأمور التي ذكرها الأب حدّاد، يستحيل أن تَرْقى بيتيم أمّي إلى مُستوى يكون فيه عبقرياً دينيّاً وسياسياً وديلوماسياً وعسكرياً وإدارياً وتشريعياً وأديباً، أهلاً لأن يأتي بمثل هذا الكتاب المسمّى لقرآن الكريم.

ولاأسوق كلامي هذا دعوى بلا دليل، فلديّ أكثر من دليل قاطع، سآتي به من القرآن نفسه، فلقد احتوى هذا القرآن العظيم على أمورٍ يستحيل أن يأتي بها محمد بن عبد الله ﷺ ولو اتّصف بجميع ماوصفه به الأب حداد وسواه من صفات، ونسب إليه من مؤهّلات.

وقبل تقديم هذه الأدلّة، لابدّ لنا من الرجوع إلى معاجم اللغويين.

٣ ـ مامعنى "عبقريّ"؟

فما معنى عبقريّ؟ قال في الكليات كلّ جليلٍ فاخرٍ من الرّجال والنّساء وغيرهم عند العرب عبقريّ. وقال صاحب محيط المحيط : عبقر موضعٌ زعموا أنّه كثير الجنّ، ونسبوا إليه كلّ شيءٍ تعجّبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوّته، فقالوا عبقري، والأنثى عبقرية.

وعليه فالعبقريّ في اللّغة، هو من بلغ حِذقُه وجَودة صَنعته وقوّته حدّ السّيادة والكمال. هذا وإنّ الأب حداد ومن كان على شاكلته، وقد تملكّتهم الدهشة ممّا تحقّق على أيدي محمد بن عبد الله ﷺ بعد الأربعين من عُمره، ممّا لم يتحقّق على أيديّ أيّ إنسانٍ أو نبّيٍ قبله، وضعهم هذا الواقع أمام خيارين

لاثالث لهما : إما الاعتراف بنبوّة هذا اليتيم الأمّي، وإما الذهاب بعيداً عنها بالالتفاف حولها، بدافع من تعصّبهم المقيت وزيغ قلوبهم عن الحق.

وقد اختار هؤلاء الخيار الثاني، وصرّح الأب حداد بما خطّت يداه، وماسبق أن نقلته للقرّاء : أنّ محمداً كان عبقرياً على جميع الصُّعد، وأنّ هذا (النّبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أدب، قلّما عرب العالم له مثيلاً.). وهو لم يقصد بأوصافه هذه التي وصف بها محمداً، أنّه يؤمن بنبوّته. بل قصد شيئاً آخر وهو أنّ محمداً كان يقرأ ويكتب ويصوغ تعاليم التوراة والإنجيل بلسانٍ عربيّ مبين، وهو نبيٌّ للعرب وحسب.

ويؤيّد قوله على الصفحة (١٠٦٩) من مؤلّفه : (يشهد القرآن العربيّ عن نفسه أنّه نسخةٌ عربيّةٌ عن التّوحيد الكتابي. فالقرآن يقول ﴿**وإنّه لفي زُبُر الأولين.**﴾ شعراء ١٩٦ ـ أي كُتُبهم كالتوراة والإنجيل.) وقد قصد من قوله هذا أنّ محمداً ﷺ عرض عقيدة التوحيد التوراتية بلسان عربّي، فلم يأت بشيءٍ جديد. بينما لاتفيد الآية ماذهب إليه (الحدّاد) من قريبٍ أو بعيد. بل الذي تفيده هو الأنباء عن أنّ زبر الأولين كانت قد أنبأت عن نزول هذا القرآن وحسب. بدليل قوله جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ **أوَلَمْ يكُن لهم آيةً أن يعلمَهُ علماء بني اسرائيل.**﴾. فالعلم في تعريفات الجرجاني : صفةٌ راسخةٌ تدرك بها الكليّات والجزئيات خلافاً للمعرفة. فأنت تقول : عرفت الله، ولاتقول علمت الله. فالعلم ضدّ الجهل. وربّما أُطلق العلم مجازاً على مجموع مسائل وأصول كليّة متعلّقة بموضوعٍ ما، مُرتّبةً على نظام مخصوص : كعلم الكلام والنحو وغيرها. فالآية الكريمة : ﴿ **أوَلَمْ يكن لهم آيةً أن يعلمه علماء بني إسرائيل.**﴾، تفيد أنّ علم علماء بني إسرائيل راسخٌ بنبوءات، كتبهم المتعلّقة بنزول القرآن الكريم، وهو دليلٌ على صدق القرآن من أنّه موحى به من الله الذي سبق أن أنزل التوراة والإنجيل.

فأين مازعمه (الحدّاد)، وأين دلالة الآية الكريمة التي استدلّ بها خطأ؟ لذلك تُعتبر خطوة الحدّاد هذه، محاولة التفاف مكشوفة حول نبوّة خاتم النبيّين ﷺ، ذلك أنّ الإنسان العبقريّ، مهما بلغ من الحذق والقوة وجودة الصنعة، سيادة وكمالاً، فإنّه يستحيل عليه أن يأتي بمثل ماحتواه القرآن الكريم من أمور. فإلى أدلّة مصداقية القرآن الكريم :

٤ ـ أدلة مصداقية القرآن الكريم

١ ـ دليل المصداقية الأول :

سبق لي أن بيّنت أن القرآن الكريم امتاز بلسانه العربيّ المبين، لكنّ هذه المزيّة اقترنت بتحدٍ عظيم يستحيل أن يتحدّاه أيّ عبقري مهما بلغ من السيادة والكمال. اقترن بتحديّ محمد بن عبد الله ﷺ الأنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فهل يستسيغ عقلنا أن يتفرّد محمد ﷺ بعبقريةٍ لُغويّة يتحدّى بها البشر إلى يوم الدّين؟ ولايكون هذا التحدّي في اللّغة وحدها، بل يشمل المضمون أيضاً وفي آنٍ واحد.

أجل، لربّما يستسيغ عقلنا أن سيتحدى محمد ﷺ أهل عصره. أمّا أن يتحدى اللاّحقين بهم إلى يوم الدين أيضاً، فإنّ مثل خطوته هذه، لايمكن أن تأتّي إلاّ ممّن اطّلع على غيب المستقبل. ولايتحدّى بمثل هذا التحدّي من قال : ﴿ **إنما أنا بشرٌ مثلكم..**﴾. وهذا التحدّي قد ضمّ اللّغة والمضمون معاً، وهو مانصّت عليه الآية (٨٨) من سورة الإسراء : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ فأبى أكثر الناس إلاّ كفُوراً.**﴾. فقد شمل التحدّي أن يأتوا ﴿.. **بمثل هذا القرآن..**﴾ فصاحة وبلاغة ومعاني. لخُلوّ النّص وسياقه من أيّ قيدٍ يقصرُه على اللّغة وحدها.

والمعلوم هو أنّ القرآن الكريم بحث المعتقدات وأسماء الله الحُسنى وتجليّاتها والعبادات والأخلاق والمعاملات وفلسفاتها جميعاً. كما تطرّق إلى بحث القوانين المدنية والاقتصادية والسياسية وماوراء الطبيعة والحياة الآخرة وماشابه ذلك من معارف وعلوم. وقد شرحها القرآن جميعها شرحاً مستفيضاً، وجاء منها بما يصلح لكلّ زمان ومكان. مع بيان الفوائد المرجوة منها. فمن أراد التّصدي للتحدّي القرآني، وجب عليه الجميع بين فصاحة اللّغة وبلاغتها، وتقصّي العلم وكمال المعرفة.

فكيف استساغ عقل الحداد ومن على شاكلته، والحال هذه، أن ينتحلوا لمحمّد اليتيم الأمّي صفة العبقريّ، وهم يعلمون أنّ العبقري هو من كان حاذقاً في

صنعته، مجيداً لها إلى حدّ الكمال. وقد عاش محمد بن عبد الله ﷺ لايعرف القراءة والكتابة، و لم تكن تعاليم التّوراة والإنجيل صالحة لكل زمان ومكان، حتى يصوغها صياغةً عربيّةً ويعرضها بمثل هذا الحذق؟ إلاّ أن يكون الأب حدّاد ومن على شاكلته قد حاول بهذا الوصف الذي وصف به محمداً ﷺ، أن يقوم بمحاولة التفافٍ حول معجزة القرآن نفسها، قاصداً إجهاضها أيضاً.؟

ومن المؤسف أن تعمى أبصار هؤلاء الأعداء عن كلمة (قل) التي استُهلّت بها آية التّحدي التي أوردناها. فكلمة (قل) استُعملت هنا بمعنى تلفّظْ. أي أنّ (قل) نبّهت أذهاننا إلى أنّ مايتلّفظه محمد رسول الله ﷺ، ليس من إبداعه وصياغته، على حسب ماوضّح ذلك صاحب معجم محيط المحيط. أي أنّ التحدّي الذي تضمّنته آية سورة الإسراء، لم ينسب إلى محمّدٍ نفسه، بل نُسب إلى سواه. وهل ينسبُ عبقريٌّ ماأنجبته عبقريّته إلى سواه؟ وماجدواه من مثل هذه الخطوة، إلاّ أن يحصد نقمة الله ونقمة العباد؟ وهل تتفّق مثل هذه الخطوة، وحذقَ الإنسان لصنعته؟

وعليه، فما دامت مزيّة القرآن الكريم أنّه مصوغٌ بلسان عربي مبين. ومادامت هذه المزيّة قد قُرنت بهذا التحدّي : اللّغة إلى المضمون، فذلك في حدّ ذاته دليلٌ قاطعٌ على أنّ القرآن الكريم لم يكن من افتراء محمد ﷺ نفسه، بل كان تنزيلاً من ربّ العالمين، الذي بعث محمداً رسول الله داعياً بإذنه وسراجاً منيراً. وليس القرآن الكريم دليل عبقريّة هذا الرّسول العظيم.

٢ ـ دليل المصداقية الثاني :

وسبق أن بيّنت أنّ القرآن الكريم امتاز بكونه وصل إلينا سالماً من كلّ تحريفٍ وتبديل. فلو فرضنا والعياذ بالله أنّه من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو العبقريّ لوقعنا في تناقضٍ رهيب. فأنّى لعبقريّ اختلق كتاباً مثل القرآن الكريم وتحدّى به الإنس والجان، أنّى له أن يقول بلسان ربّه : ﴿ **إنّ علينا جمعه وقرآنه**..﴾ ثم يترك هذا الكتاب مُوزّعاً على رقاعٍ من صحف النّخيل ورقيق الحجارة؟ فكيف يكون عبقريّاً، ويترك هذه الثّلمة في أمر جمع الرّقاع في كتابٍ

منسوخ عنها؟ هذا الأمر الذي أنجزه عثمان بن عفان؟ خصوصاً وأنّه واثَقَ أصحابه على ألاّ يقدموا على أمر لم يفعله رسولهم الكريم؟

أوَلَمْ يخطر على بال هذا "العبقري" إمكان أن يضيع القرآن من بعده، إذا هو أهمل القيام بجمعه وقرآنه؟

أقول : مادام هذا الرسول العظيم قد ترك رقاع القرآن الكريم دون استنساخ لها رضوخاً لقول ربّه ﴿**وماعلى الرسول إلاّ البلاغ**﴾ وقول ربّه أيضاً : ﴿**إنّ علينا جمعه وقرآنه..**﴾ إنّ خطوة محمّد ﷺ هذه فيها كلّ الدّلائل القاطعة على أنّه ﷺ لم يختلق القرآن و لم يبتدعه من عند نفسه، بل كان يتلقّاه عن طريق وحي ربه عز وجل، وأنه ﷺ كان من اليقين بوحي ربّه بحيث قعد عن استنساخ القرآن الكريم على شكل كتاب، يستنسخ عنه جميع المسلمين. ويُعدُّ موقفه ﷺ هذا في حدّ ذاته دليلاً قاطعاً على أنّ القرآن لم تبتدعه عبقريّة محمد بن عبد الله إطلاقاً.

٣ . دليل المصداقية الثالث :

ثم تعالوا إلى هذا القرآن الكريم الذي طلع به علينا محمد اليتيم الأمّي، فإذا كانت جميع بحوثه ومضامينه لاتتجاوز علوم ومعارف عصره ﷺ، فلابدّ لعلوم عصرنا، وقد تقدّمت تقدُّماً ملحوظاً، أن تناقض وأن تخالف معطياتها، مُعطيات القرآن، فيبدو هذا القرآن باهتاً، لاحياة فيه. ويميل إنسان عصرنا حينئذٍ إلى اعتقاد أنّ القرآن قد يكون من نسج محمد ﷺ نفسه.

ونحن لوعُدنا إلى سنوات عصر النّبوة المحمديّة، أي إلى ماقبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وسألْنا ورقة بن نوفل الذي ترجم بعض صحف الكتاب المقدّس المؤلّف من التوراة والإنجيل. كما سألنا بُحيرا الرّاهب الذي يزعمون أنّ محمّداً استقى منه كثيراً من علوم القرآن الكريم. أقول: لو أننا عُدنا فسألناهما سؤالاً مُحدّداً، وهو بيان ماذكَرَته التوراة حول خلق هذا العالم؟

فسيتناول أحدهُما أو كلاهما أوّل سفرٍ من التّوراة، وهو سفر التكوين، ليَجدا فيه، ومن أوّله الجواب، فيتلوانه بكل وقارٍ وجلال لتقديسهما إيّاه، ليجدا فيه : (في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربةً وخاليةً،

وعلى وجه الغَمْر ظُلمةٌ، وروح الله يرفّ على وجه الماء. وقال الله ليكن نورٌ فكان نور. ورآى الله النّور أنّه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظّلمة دعاها ليلاً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً واحداً.).

وهُنا يتذكّر كل واحدٍ من النّاس أنّ ألفاظ هذا النصّ التوراتي قد أتت في الكتاب المقدّس المطبوع في عصرنا. هذا النّص الذي يُغاير ماكشف عنه العلم، بل وسخر منه العلماء المعاصرون، بما حققّوه من اكتشافاتٍ معاصرة. فلا يُفيدنا هذا النّص التوراتي في شيءٍ عن كيفيّة خلق الله لهذا العالم الذي نعيش في ظلاله، إذ ورد هذا النصّ مُجملاً ومُغايراً للعلم أيضاً.

ويستوقفنا قوله : ﴿ **وروح الله يرفّ على وجه الماء..**﴾، فقد فصل هذا النّص بين ذات الله وروحه بلا مبرّر. كما يُذكّرنا هذا النص بما أورده بعض المفسّرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : (كُن فيكون). فما فسّروه بسذاجة، كانت أوحت لهم به التوراة إذن. فهذا النصّ يقول : (وقال الله ليكُن نورٌ فكان نور). فمن جهةٍ كانت (روح الله ترفّ على وجه الماء). ومن جهة أخرى أبرز النصّ التّوراتي الله بذاته وروحه فجأة، ودون مقدّمات ليقول : (ليكن نورٌ فكان نور.).

فالإله التّوراتي تلفّظ من جهته بأمرٍ، فتحقّق هذا الأمر مرّةً واحدة ودون توسّط قوانين ناظمة، وفي غفلةٍ من ملائكة الله، ودون خلق شمس يصدُر عنها هذا النّور : (وفصل الله بين النّور والظُّلمة) أي أنّ النور الذي وُجد بأمره، اختلط بالظُّلمة التي كانت (على وجه الغَمر)، فعمد الإله التّوراتي إلى الفصل بين النّور والظّلمة هاتين. أمّا كيف قام بعمليّة الفصل هذه بين النّور والظّلمة، فلا شأن ـ كما يبدو ـ للتوراة ببيان ذلك من قريب أو بعيد. (ودعا الله النّور نهاراً، والظُّلمة دعاها ليلاً).

فنور النّهار اليوم إذاً ليس هو من عطاء ضوء الشّمس التي نشاهدها في كبد السّماء. هذا النّور الذي يطلع مع طلوعها ويغرب مع غروبها، بل إن هذا النّور على حدّ زعم سفر التكوين، هو كما أورده لنا حرفيّاً، هو النّور الذي صدر عن أمر الإله التّوراتي وهذا يُناقض ماأثبته العلم.

ونستزيد الرّاهب بحيرا وورقة بن نوفل علماً عن خلق العالم. فلا يحيران جواباً، بل يميلان لتكفيرنا أيضاً، إن نحن ناقشناهما فيما أسمعانا إيّاه من سفر التكوين.

فإذا كان محمد بن عبد الله اليتيم الأمّي قد صاحب الرُّهبان قبل بعثته، فأنّى لهؤلاء الرُّهبان أن يزيدوه علماً عمّا ذكرناه؟ وحتى إذا سألنا رأس الكنيسة (البابا) اليوم في روما، فأنّى لهذا البابا أن يزيد على هذا النّص التوراتي شيئاً من عنده؟

فإذا قام محمد ﷺ اليتيم الأمّي يصوغ القرآن من عند نفسه، في ذاك التاريخ، على أساس ماسمعه من بحيرا ونوفل وغيرهما، فلن يزيد النّاس علماً، فوق ماأتت به التّوراة، ممّا ذكرناه.

وَهَبْ أنّنا كُنّا في أزقّة مكّة، نسمع من يتلو بعضاً من آيات سورة الأنبياء التي نزلت في مكّة (٣٠ ـ ٣١) : ﴿**أوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً، ففتقناهما، وجعلنا من الماء كُلّ شيء حيّ، أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون. وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾. ورحنا نتدبّر ألفاظ هذه الآيات الكريمة، فبدا لنا أنّ الفَتْق ضدّ الرّتق، أيّ أنّ السماوات والأرض لم تُخلق على ماهي عليه الآن، بل كانت كُتلةً واحدةً ماديّة. ولم تذكُر الآيات جميعها وزنها أو شكل كُتلتها. فتكون هذه الآيات قد زادتنا معلومة جديدةً هامة لم يأت بها النّص التوراتي المذكور فنتساءل بالبداهة : من أين استقى محمد اليتيم الأمّي هذه المعلومة العلمية الهامّة التي تتفق مع نظرية الانفجار العظيم؟

ونلاحظ أيضاً قوله: ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ**﴾ وهذه معلومة أخرى لانجد لها أصلاً في التّوراة. ثم إنّ الدّواب التي تدبّ على وجه الأرض وتحت الماء، لايبدو لنا من ظاهرها المادّي أنّها من أصلٍ مائي، بل من أصل ماتأكله من النباتات واللّحوم.

فما هي حقيقة هذه المعلومة الثانية التي نصّت عليها هذه الآيات ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ، أفلا يؤمنون.**﴾. وهذه المعلومة الثانية ـ كما

يبدو من ألفاظ الآية ـ قد كشف عنها قائلها، ليجذب النّاس للإيمان، فهذا مادلّ عليه قوله (أفلا يؤمنون؟).

ونلاحظ من خلال تدبُّرنا لهذه الآيات معلومة ثالثة يفيدها قوله : ﴿**وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم**..﴾.

أي أنّ الأرض كان مُنبسطةً قبل ظهور الجبال الرّواسي فوقها، والتي كان المقصود من إحداثها، منع الأرض أن تميد بالنّاس، أي التّخفيف من تعرُّضها للزلزال نتيجة ثوران الكتلة اللاهبة الكبيرة في بطن الأرض.

والمعلومة الرابعة التي نلاحظها من خلال تدبّرنا قوله : ﴿**وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون**.﴾ هو أنّ توزيع الجبال الرّاسيات، وتقسيم الأرض إلى قارات وإلى مشارق ومغارب، وترك فجاجٍ وأوديةٍ وممّرات جبليةٍ بينها ليفسح المجال للنّاس للتنقّل بينها من مكان إلى آخر ومن أقطارٍ إلى أخرى، كانت نابعةً من مشيئة الله وإرادته وتخطيطه شأناً في ذلك كلّه.

والمعلومة الخامسة التي نلاحظها من خلال تدبُّرنا قوله : ﴿**وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون**.﴾ هي معلومة جديدة وهامّةٌ جدّاً. فالذي خلق هذه الكرة الأرضية جعل من حولها سقفاً محفوظاً من قبله لتأدية مُهمّةٍ مُحدّدة. كما يُعتبر هذا السّقف المحفوظ في حدّ ذاته آيةً ودليلاً على عظمة من أنشأه. وأنّ النّاس في غفلةٍ يومئذٍ عن عظمة وشأن وتبيُّن هذا السّقف المحفوظ. وها أن علماء عصرنا قد اكتشفوا وجود هذا السقف المحفوظ، وهو طبقة الأوزون التي تصون سكان الأرض من خطر أشعّة الشّمس فوق البنفسجيّة. وهو السّقف الذي أشار إليه حديث رسول الله ﷺ والوارد في تفسير ابن كثير تحت هذه الآية بالذات وهو قوله : (موجٌ يكُفَكَفُ عنكم).

فهذه المعلومات القيّمة أفادتنا بها هذه الآيات من سورة الأنبياء، والتي استمعنا إليها تُتْلى في أزقّة مكّة المُكرّمة على ألسنة أُناسٍ ملأ قلوبهم الإيمانُ بكون هذه الآيات وحي الله وليس من افتراء محمد اليتيم الأمّي ﷺ، وقد شعّ الهُدى من أعين هؤلاء وبَرَق، وكأنّه مصابيح تُنير الطّريق. فمن أين استقى محمد اليتيم الأمّي هذه المعلومات ياأصحاب العقول إن كُنتم من المُتفكّرين؟

وإذا عُدنا إلى الرّاهب بُحيرا، نستوضحه أمر هذه المعلومات، فلن يجد لها أساساً في التوراة التي بين يديه، فإذا قرأ على مسامعنا الاصحاح الأوّل من سفر التكوين بأكمله، لم نلحظ فيه شيئاً ممّا سمعناه من آيات هذا القرآن وعلمناه في أزقّة مكّة.

ثم إذا عمد الرّاهب بحيرا إلى الاصحاح الثاني، يقرأ لنا ماجاء فيه، لتلا علينا : (فأُكْمِلَتِ السّماوات والأرض وكُلّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عَمِل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عَمِل. وبارك الله اليوم السّابع وقدّسه. لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي عَمِلَ الله خالقاً. هذه مبادىء السّماوات والأرض حين خُلِقَتْ. يوم عَمِلَ الرّب الإله الأرض والسماوات، كُلُّ شجر البريّة لم يكن بعد في الأرض، وكلّ عُشب البريّة لم يُنبت بعد..).

ونكتفي هنا بما تلاه وماطّلعنا عليه ممّا أوردته التوراة عن خلق العالم. ويُراودنا في ذلك سؤالٌ هامٌ، هو : مادام قد جاء في التّوراة : (قال الله ليكُن نورٌ فكان نور) أي أنّ الله لايحتاج إلى بذل جهدٍ من نوعٍ ما، لإيجاد أو خلق شيء من الأشياء، حتى ولا إلى مساعدة ملائكته، ولا إلى أيّ شيءٍ آخر، فكيف تنصُّ التوراة نفسها فتقول : (فاستراح في اليوم السّابع) وبين القولين تناقضٌ رهيب؟

فإذا عُدنا من فورنا إلى أزقّة مكّة، لنصت إلى مايُتلى فيها من آياتٍ قرآنية، سمعنا من يتلو علينا آيةً من سورة ق (٣٨)، فنعلم أنّ (ق) مختزلةٌ من قادر، ثم نستمع إلى قوله تعالى ﴿**ولقد خلقنا السّماوات والأرض ومابينهما في ستّة أيّام ومامسّنا من لُغوب فاصبر على مايقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل الغروب ۞ ومن اللّيل فسبّحه وأدبار الغروب.**﴾. وإذا تبيّنا معنى كلمة (لُغوب) وجدنا أنّ لَغَبَ الرّجل لُغوباً، بمعنى تَعب وأعيا أشدّ الإعياء. فادهشنا أن ينفي القرآن الكريم ماأوردته التّوراة من أنّ الله استراح في اليوم السّابع. فكيف خالف محمد اليتيم الأمّي مااستقاه من توراة على يد الرّاهب بحيرا وسواه، إذا كان قد افترى هذا القرآن الكريم؟ أوليس المعقول أن يكون التّنزيل العزيز، قد جاء يصحّح ماعبثت به الأيدي في نصوص التوراة؟

وهنا نتمنّى على الله أن يُصلح المُسلمين، فكيف قصرّوا في تدبّر القرآن، وتركوا لمسيحيّي أوربة وأمريكة أن تزدهر على أيديهم مختلف العلوم؟

ولْنَقُم برحلةٍ إلى بلاد الغرب، نستطلع ماتوصّل إليه علماؤهم من معلومات في زماننا، خلافاً لتعاليم التوراة التي هي لاتزال بين أيديهم، والتي يدّعون أنّها كانت هي نفسها بين أيدي ورقة بن نوفل والرّاهب بحيرا وسواه، في عصر نبوّة محمّد وأيّام ظهور دعوة الإسلام، فماذا نجد؟ نجد أنّ العالم الفيزيائي جورج غاموف طَلَع عليهم بنظريّة الانفجار العظيم، فوضّح لهم عن طريق الفيزياء النووية أنّ الكون بأجمعه كان قد نشأ عن تمدُّد مادّةٍ أوليّةٍ مضغوطةٍ، حدث لها ماسمّاه بالانفجار العظيم. وأنّ عالمنا هذا قد تولّد في أعقاب تمدُّدٍ هائلٍ في المادّة، منذ حُقبة تُراوح بين (١٢ ــ ٢٠) مليار عام. وأنّ مادّة هذا الكون كانت مُخبّأةً آنذاك في مساحةٍ أصغر كثيراً، من الحيّز الذي يُشغله بروتون واحد. وأنّ كثافة مادة العالم كانت في تلك المرحلة تهول الخيال. فتمدّدت تلك المادّة بالانفجار العظيم الذي حدث لها. وقد ثبت لدى بعض العلماء ومن خلال رصدهم الكواكب والسّيارات أنّها لاتزال تتمدّد. فتتباعد النجوم بعضها عن بعض بما لايتصوّره خيال الإنسان. فيدهشنا هنا أن نسمع تفسيراً علميّاً مُعاصراً، لِما سمعناه من آي القرآن في أزقّة مكة : ﴿ **أولَم يَرَ الذين كفروا أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما..**﴾. فما الانفجار العظيم إلاّ عمليّة فتق لمادة السّماوات والأرض التي كان الله تعالى قد خلقها مضغوطةً هذا الضّغط الذي يفوق الخيال. أمّا كيف جعلها تنفجر، فتتكوّن منها السماوات والأرض؟ فهذه أسئلة، جاء في القرآن الكريم بشأنها قوله تعالى في سورة الكهف (٥١) : ﴿**ماأشهدتهم خَلْقَ السماوات والأرض ولاخَلْقَ أنفسهم، وماكُنت مُتّخِذَ المُضلّين عَضُداً.**﴾.

وقد تبيّن لنا أن العلماء في أوربة اكتشفوا غلافاً غازياً يُحيط بالأرض غير سميك. وهو يتألّف من ذرّات غاز الأوزون.

وأنّ هذه الطبقة الغازية المُحيطة بالأرض، تحمي سُكّانها من أشعّة الشمس فوق البنفسجيّة، هذه الأشعّة المؤذية لأنسجة أجسامهم. ولم يستطع أي عالم من هؤلاء حتى الآن أن يهتديَ إلى طريقة تكوّن هذه الطبّقة الأوزونيّة حول جوّ الأرض، وأصلها ومنشئها. ولا لاحظوا وجود مثلها حول جوّ أي من أجواء الكواكب الأخرى التي اكتشفوا وجودها. وقد أضحى وجود هذا الغلاف

الأوزونيّ آيةً كونيّةً مدهشةً لعقولهم، ولِما توصّلوا إليه من علوم. ووجدنا فيما قرأناه في أوربة تفسيراً لِما كان يُتلى من آي القرآن الكريم في أزقّة مكّة المكرّمة، وهو قوله تعالى :

﴿**وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾. فانظر ياقارئي العزيز إلى الذين كفروا بهذا القرآن وزعموا أنّه من افتراء محمد اليتيم الأمّي، كيف أيّدت كشوفهم العلمية ماأتى به محمد رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ممّا لاأساس له في جميع صُحُفهم المقدّسة وغير المقدسة ماضياً وحاضراً، والتي كان يتداولها الرّاهب بحيرا وأمثاله من الرُّهبان.

فهاهم أولاء الذين كفروا يَرَوْن نفس مابيّنه القرآن المُبين، ومع ذلك يزعم هؤلاء أنّ عبقريّة محمّد الدينيّة قد افترت هذا القرآن وأبدعته. وهل يصحّ في اللّغة أن يُسمّي من أوتي مثل هذه المعارف قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، أن يُسمّى "عبقريّاً".

والعبقرية تعجز عن أن تتنبّأ، فتصدق نُبوءاتها، كما تصدق نبوءات الرسّالة السماوية. وهي تعجز عن أن تفسّر كلّ ماضمّنه الرّسالة من معارف. وإذا لم تؤدّ العبقرية ماأدّته الرسالة، فقد بطلت تسميته محمّد ﷺ بالعبقريّ، ولم يبق إلاّ أن يكون الرّسول المُوحى إليه.

ولنُعد إلى ماأوردته الآية (٥٣) من سورة السّجدة، قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند غير الله، ثم كفرتم به، من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد. سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ، أولَمْ يكفِ بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد.**﴾. فالخطاب هنا في هذه الآية الكريم موجّهٌ إلى الذّين يكذّبون برسالة محمد اليتيم الأمي وبنبّوته وبرسالته، وزعموا أنّ القرآن الكريم الذي طلع به محمد ﷺ على العالم، افتراءٌ من عند نفسه، وسرقةٌ من تعاليم التوراة والإنجيل، وليس من عند الله عزوجلّ.

والخطاب في هذه الآية الكريمة ينبيء أيضاً عن أنّ التطورّ العلميّ الذي سيبلغُه علم هؤلاء المكذبين، سيكشف لهم عن صدق آيات القرآن المبين، وإعجاز قوله تعالى وصُنعه في الآفاق وفي أنفسهم يوماً بعد يوم، وسنةً بعد سنة،

حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ. ليثبت لهم أيضاً أن الله جل شأنه على كل شيءٍ شهيد. صدق الله العظيم.

فهذا هو دليلنا القاطع من آي القرآن المبين نفسه، نردّ على الذين يسألوننا أوليس القرآن من افتراء محمد ﷺ نفسه.

٤ً ـ دليل المصداقية الرّابع :

ومادامت التوراة المُتداولة في عصرنا، هي نفسها التي كان يتداولها الرّاهب بحيرا وسواه من قبل، فلا حاجة بنا إلى أكثر من أن نتصفّح ماأتت به هذه التوراة عن قصّة آدم التي تحدثّ عنها القرآن الكريم، ثمّ نحكم بعد ذلك : هل صاغ محمّد اليتيم الأمّي ماحتوته التوراة حول موضوع آدم بلسانٍ عربيّ مبين؟

ففي السّفر الأول التكوين، الإصحاح الثاني ورد : (وجبلَ الرّب الإله آدم تُراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حيّة. وغرس الإله جنّةً في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الربّ الإله من الأرض كلّ شجرةٍ شهيّةٍ للنّظر وجيّدةٍ للأكل. وشجرةَ الحياة في وسط الجنّة وشجرةَ معرفة الخير والشرّ.. وأخذ الرّب الإله آدم ووضعه في جنّة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الربّ الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنّة تأكل أكلاً.. وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها. لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت. وقال الرّب الإله ليس جيّداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له مُعيناً نظيره.. فأوقع الرّب الإله سُباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدةً من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. وبنى الرّب الإله الضّلع التي أخذها من آدم امرأةً واحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي.. وكانا كلاهما عُريانين آدم وامرأته وهما يخجلان.).

ولابدّ أن تأخذنا الدّهشة ممزوجةً بالأسى حين نرى ماستُهلت به التوراة المعاصرة من التناقضات. فكيف يُقال إنّ الله جبل آدم تُراباً من الأرض؟ فهل كان إله التّوراة فنّاناً نحّاتاً، يجبل التراب طيناً، وينحت من الطّين كهيئة إنسان، ثم ينفخ فيه نسمة حياة؟ وإذا كان الإله قد نحت آدم فجعله أبيض اللّون، فمن نحت

العرق الأصفر والأحمر والأسود من البشر؟ فهل يستسيغ العلم أن تأتي هذه العُروق المُختلفة من عرق أبيض بذاته؟

ثم هل من المنطّق أن يخلق الله آدم قبل أن يُهيّيء له مسكناً يؤويه، ومزرعة يأكل منها؟ فالنصّ التّوراتي يعكس هذه المعادلة : جَبَلَ آدم ثم غرس له جنّة. وأين قُدرة الله التي تجلّت من خلال قوله (ليكُن نورٌ فكان نور.)؟ فلِمَ لم يقل هنا "ليكن آدم ومزرعته، فيكون آدم ومزرعته، دون كدّ من الإله التّوراتي أو عناء؟

وأغرب من هذا وذاك أن يزرع إله التّوراة شجرة معرفة الخير والشّر، وينهي آدم وحواء عن الاقتراب منها والأكل من ثمرها، ثم يمضي فيهدّدهما بقوله : (لأنّك - ياآدم - يوم تأكل منها موتاً تموت).

ولايأبه آدم لوصية ربّه، ولاحوّاء ويأكلان من هذه الشّجرة، فيتبيّن لهما أنّهما عريانان كما خلقهما ربّهما (فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.) هذا هو ماروته التوراة. بل أضافت التوراة أنّه بعد زوال العمليّة الإلهيّة المزعومة، عاد الرّب الإله فصنع لآدم وامرأته (أقمصةً من جلدٍ وألبسهما) ٣/٢٠. فهل كان إله التّوراة مَعْنيّاً بأن يظلّ آدم وحوّاء عريانين أصلاً، فمنعهما من أن يأكُلا من ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ؟ ولو إلى حين.

والتّوراة هذه تصوّر لنا الإله الرب عاجزاً عن خلق حوّاء، حتّى اضطر لتخدير آدم، واستئصال أحد أضلاعه، ولاندري كيف صاغ حوّاء من هذا الضّلع الذي لايزيد عن سنتيمترات؟ فهل يستسيغ عقلنا وعلمُنا أن تُصنع حوّاء من ضلع آدم، وأضلاع آدم تُرى كاملةً على مرّ العصور؟

ونحن إذ نكتفي بما كشفنا عنه من قصّة آدم وحوّاء التوراتيّة، وعن مجموعة التناقضات التي انطوت عليها هذه القصّة بل الأسطورة، التي لاترقى إلى منطق أو علم. هذه القصّة التي زعم الأب حداد ومن على شاكلته أنّ عبقريّة محمدٍ اليتيم الأميّ الدينيّة صاغتها في القرآن المبين بلسان عربيّ مبين.

ونحن إذ نكتفي بما أوردناه منها، ننتقل إلى آيات القرآن الكريم نتدبّرها وننظر : هل ثمّة وحدة لما يزعمون، أم أنهمّ يهرفون بما لايعرفون؟

ولنبدأ بالآية (٣٣) من سورة آل عمران. قال تعالى : ﴿ **إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.**﴾ فمنطوق هذه

الآية الكريمة يُناقض القصّة التّوراتية التي تُصوّر آدم أنّه أوّل مخلوق من بني البشر. ذلك أنّ فعل اصطفى واستصفى إصفاءً واستصفاء ، معناه أخذه صفوةً واختاره، على حسب ماأورد صاحب معجم محيط المحيط. ثم إنّ هذه الآية لاتفرّق بين آدم وبين نوح وآل ابراهيم وآل عمران من حيث اصطفاء الله تعالى هؤلاء جميعهم أي أنّ القرآن المبين يعتبر آدم نبيّاً من أنبياء الله الكرام، وليس أوّل إنسانٍ مخلوق. بل ويعتبره أوّل نبيٍ من حيث ترتيب ذكره في الآية القرآنية.

فشتّان مابين ماأوردته التّوراة عن آدم، وبين مابيّنه القرآن الكريم؟ فهذه أوّل معلومةٍ أساسيّةٍ يختلف القرآن بها عن بيان التوراة.

ونأتي إلى الآية (٣٠) من سورة البقرة : ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفك الدّماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال إنّي أعلم مالا تعلمون.**﴾.

وقد استعمل القرآن في هذه الآية لفظ (خليفة). ولايكون الإنسان خليفة إلاّ إذا وُجد بين الذين يُستخلف فيهم، أي كان هناك بشرٌ واستخلف آدم من بينهم. ثم إنّ قوله : ﴿**إنّي جاعل**﴾ لايفيد خلق آدم من حيث دلالته، بل جعله خليفةً على البشر الذين اصطفاه الله منهم. وهكذا تكون الآية قد أتت بما يغاير ماأفادته التوراة من معلومات.

أضف إلى ذلك أن هذه المعلومة القرآنية اقترن بها ذكر الملائكة للدلالة على وجود المملكة السّماوية، على حين لم تأت القصّة التوراتيّة على أيّ ذكر لملائكة الله عز وجلّ. وكأن الله خلق آدم بمعزلٍ عن علم ملائكته.

والأمر اللاّفت لنظرنا، هو أنّ القرآن الكريم لم يأت على ذكر كلمة حوّاء في جميع آياته، وكلّ ماأورده هو : ﴿ **ياآدم اسكن أ نت وزوجك الجنّة..**﴾ دون الكلام عن خلق زوجة آدم أو اصطفاء الله إيّاها من بين النّساء. الأمر الذي يعني أنّ المقصود هو أمر الله تعالى إيّاه أن يتّخذ مسكناً، وأن يبدأ تأسيس نظام أسرويّ. أي أنّ البشر قبل آدم، ماكانوا يعلمون عن هذين الأمرين شيئاً. والأغلب أنهم كانوا يقطنون الكهوف قبل بعثة آدم عليه السّلام.

ونحن إذ تدبّرنا هذا القرآن، وأدركنا أنّه اعتبر آدم أوّل نبيٍ، وليس أوّل بشر. كما أدركنا أنّه أتى بمعالم نظامٍ له معالمه وحدوده.

نتوقّف عن الاستمرار في بحثنا هذا، وتكفينا هذه الفروق الجوهريّة التي تبيّناها، هذه الفروق الجذريّة التي يخالف بها القرآن الكريم هذه التّوراة المعاصرة، والتي كانت بين يديّ الرّاهب بحيرا وسواه زمن بعثة محمد رسول الله ﷺ.

ونكون بذلك قد أثبتنا أنّ محمّداً لم يعمد إلى المعلومات التوراتية فيصيغها بلسان عربي مبين، على حسب مازعم الأب حدّاد وسواه من القساوسة المُتعصبيّن، بل أتى محمد اليتيم الأمّي بما لم يأت به الأوّلون، وبوحي من الله ربّ العالمين، الله الذي سبق أن بعث آدم وأنزل عليه هذه التّعاليم التي تطابق المُعطيات العلمية التي كشفت عنها آثار تاريخ البشر الحضاريّ في هذه المنطقة من العالم بالذات.

٥ ـ دليل المصداقية الخامس:

ولنتناول موضوع الذّات الإلهية وصفاتها، على حسب ماتناولته التوراة. ولنقتطف بعضاً من نصوصها بهذا الخصوص. فقد ورد في سفر التكوين ١/٢:

(قال: الله ليكن نورٌ فكان نور.). كما ورد: (وقال الله لتجتمع المياه تحت السّماء إلى مكان واحدٍ لتظهر اليابسة، وكان كذلك.) ٩/١ وقال (وقال الله لتُنبت الأرض عُشْباً وبقلاً يبذر بذراً وشجراً ذا ثمر، يعمل ثمراً كجنسه، بذره فيه على الأرض، وكان كذلك.). ١١/١.

يُستفاد من هذه المقتطفات الأمور التّالية:

أولاً ـ أنّ لله قُدرةً سحريّةً فوق تصور الخيال.

ثانياً ـ أنّ ماأقدم الله على فعله، يُنافي ماكشف عنه العلم المعاصر، من أنّ هذا الكون لم يُخلق و لم يتبلور على شكله الحالي، إلاّ بعد مرور مليارات الأعوام.

ثالثاً ـ وأن خلق الله لجميع الأشياء لايحتاج منه إلى جهدٍ وقوانين.

وتبدأ التناقضات التّوراتية من خلال هذه المقتطفات، وماتلاها. إذ جاء في التّوراة بعد ذلك: (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.. فخلق الله الإنسان على صورته.. ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم، أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض وأخضعوها.) تكوين ٢٦/١ (فأكملت السّماوات

والأرض وكلُّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عمل.) تكوين ٢/١/٣.

ويُستفاد من هذه النّصوص الأمور التالية:

أولاً ـ أنّ الله يستعمل قدرته السّحرية تارة، ويجهد نفسه تارة أخرى.

ثانياً ـ وأنّ الله قد يجهد نفسه في عمله، ويتجنّب قدرته السّحرية، فيحتاج بعدها للرّاحة.

ثالثاً ـ وأنّ صورة الإنسان شبيهة بصورة الله خالقه، مع اختلافهما في القُوى.

ونلاحظ كيف تصوّر لنا التوراة الله مُتخلّياً عن قدرته السحرية، ويعمل بيديه: (وجبل الرّب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمةَ حياة، فصار آدم نفساً حيّة..) تكوين ٢/٧.

وهذا النصّ يستفاد منه أنّ الله في التّوراة "فنّان" قد حذَقَ النّحت، كما يحذقه الفنّانون. ويزيد عليهم قدرته على نفخ نسمةِ حياةٍ في أنف ماينحته من طين.

وقد ورد في التوراة قبل قليل : (فخلق الله الإنسان على صورته.. فأكملت السّماوات والأرض وكلّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح..). فعمد النّص الجديد إلى الدّخول في تفاصيل خلق الإنسان، فهل حدث هذا قبل اكتمال خلق السّماوات والأرض، واستراحة الله من عمله، أم أنّ عمليّة خلق آدم حدثت بعد فترة راحة الله واستجمامه؟ فالأمر هنا مُهم ومُتداخل.

المهمّ هو أنّ التوراة قد صوّرت للقارىء أنّ الله خلق الإنسان على شبهه. وآدم هو إنسان، فهو على شَبَه الله إذاً. فلم يقل الله ليكن آدم وحوّاء، بل نحت آدم وعمل من ضلعه حوّاء (وأنبت الرّب الإله من الأرض كلّ شجرة شهيّة للنّظر وجيّدةٍ للأكل. كما أنبت شجرة الحياة في وسط الجنّة وأنبت شجرة معرفة الخير والشرّ.) تكوين ٢/٩ ويتساءل أحدنا بعد أن يُطالع هذا النّص:

أولاً ـ مادامت الجنّة أرضية، فأين شجرة معرفة الخير والشرّ وأين شجرة الحياة؟

ثانياً ـ هل أنبت إله التوراة هاتين الشّجرتين عبثاً ولهواً ليستدرج آدم وحوّاء لفخ نصبه لإيقاعهما في المعصية، أم لمقصدٍ أسمى من ذلك؟

وتمضي التوراة فتصوّر لنا الحيّة تُغوي حوّاء. وحوّاء تُغوي آدم. ويأكلان من شجرة معرفة الخير والشرّ. ويعصيان الله ولايلبثان أن يريا نفسيهما عريانين. وتروي التوراة عن آدم وحوّاء، في حديثها عنهما فتقول : (وسمعا صوت الرّب الإله ماشياً في الجنّة عند هبوب ريح النّهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرّب الإله في وسط شجر الجنّة. فنادى الرّب الإله آدم وقال له : أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك في الجنّة، فخشيت لأنّي عُريان، فاختبأت. فقال الرّب الإله : من أعلمك أنّك عُريان؟ هل أكلت من الشّجرة التي أوصيتُك ألاّ تأكلُ منها؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرّب الإله للمرأة : ماهذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة : الحيّة غرّتني فأكلت. فقال الرب الإله للحيّة : لأنّك فعلت هذا، ملعونةٌ أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البريّة. على بطنك تسعين وتُراباً تأكلين كلّ أيّام حياتك. وأضع عداوةً بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها..) تكوين ٣/٨ـ١٥.

ويُستفاد من هذا النّص الأمور التالية :

أولاً ـ أنّ مايؤكد شَبَه الإنسان بإله التّوراة المعاصرة، هو أنّه كان يمشي ويسمع آدم وقع أقدامه.

ثانياً ـ وأنّ الإله التّوراتي لايعلم الغيب، ولاتخترق رؤيته الحُجُبَ، بدليل أنّه لم يستطع رؤية آدم وحوّاء وهما مختبئان.

ثالثاً ـ وأنّ صوت الله يختلف عن صوت آدم، لكنّ لغته لاتختلف عن لُغته.

رابعاً ـ وأنّ إله التّوراة المعاصرة كان يؤثر أن يرى آدم وحوّاء وهما عريانان. وأنّه كان يأمل أن يظلّ الإنسان عُريانا طوال حياته، بدليل غضبه على آدم وحوّاء أنّهما أكلا من شجرة معرفة الخير والشرّ، وأدركا أنّهما عُريانان. وقد خاطا أُزراً من ورق التّين ليستترا عن أعين الإله الذي عملهما من تراب. وبدليل غضب إله التوراة أيضاً على الحيّة التي أغوت حوّاء بذلك.

خامساً ـ وأنّ الحيّة ماكانت تمشي على بطنها، قبل أن يلعنها الذي صنعها أيضاً.

سادساً ـ وأنّ هناك عداوة بين الحيّة ونسلها والمرأة ونسلها، لانتبيّن معالمها في عصرنا الحاضر.

وأغرب ممّا ذكرناه جميعاً، هو أنّ التّوراة قائلةً على لسان الإله الرّب الذي عرضته لأنظارنا، وعلى حسب ماعرضته لأنظارنا، كما عرضته على مسامع محمد بن ا لله اليتيم الأمّي بوساطة بحيرا الرّاهب وسواه، حسب مزاعمهم تضيف قائلة : (هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منّا عارفاً الخير والشرّ. والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرّب الإله من جنّة عَدْن ليعمل الأرض التي أُخذ منها..) تكوين ٣/٢٣.

ويُستفادُ من هذا النّص الأمور التالية أيضاً :

أوّلاً ـ أنّ إله التوراة كان عنده سرّ شجرة الحياة الأبديّة التي كان غرسها في جنّة عَدْن. وأنّه لم يغرس تلك الشجرة، إلاّ بقصد أن يأكل هو منها وحده، ليحيا حياةً أبدية. وضنّ بذلك على آدم وحوّاء.

ثانياً ـ وأنّ إله التّوراة ماكان باستطاعته إيجاد سورٍ يحمي به شجرة الخُلد المزعومة. لذلك طرد آدم من جنّة عَدْن التي هي على سطح الأرض. بدليل ماسبق أن ذكرت التوراة بقولها : (وكان نهرٌ يخرجُ من عدن ليسقي الجنّة. ومن هناك ينقسم إلى أربعة رؤوس : اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحُويلة حيث الذّهب. وذهبُ تلك الأرض جيّد. هناك المُقل وحجر الجَزعْ. واسم النّهر الثاني جيحون. وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النّهر الثالث حِدّاقل، وهو الجارّي شرقيّ أشور. والنهر الرابع الفرات.) تكوين ٢/١٠.

ثالثاً ـ وأن جميع ماتضمّنه هذا النّص يُخالفُ معطيات العلم وواقع عصرنا. فلاأثر هناك على سطح الأرض لجنّة الخُلد وعند منبع نهر الفرات. ولاأثر أيضاً لشجرتي الخلد ومعرفة الخير والشر. ولادليل لدينا على العداوة بين الحيّة والمرأة، وماجاء من نسلهما.

رابعاً ـ وأن التوراة المعاصرة تزعم أنّ الإنسان الذي يموت دون أن يأكل من ثمر شجرة الخُلد، يموت ويفنى ويعود إلى أصله الترابي : فلا حياة ثانية، ولاحياة خلود.

خامساً ـ ولرّبما رسخ هذا الفهم أو الاعتقاد عند بولس الرّسول، فاندفع يبتدع عقيدة فداء المسيح والخلاص وحكاية قيامة المسيح من بين الأموات.

هذه العقيدة التي تُنافي أبسط مُستلزمات العدالة. فهل تستسيغ العدالة أن تقوم حوّاء بالإقدام على جريمة معصية الإله الرّب. فلا يعاقبها الإله الرّب، بل يُرسل ابنه الوحيد ليُعذّب بدلاً عنها، فيكون ذلك منه كفّارة عن خطيئتها وخطايا جميع من توالد من نسلها من العباد؟

وخلاصة القول، فيما استخلصناه حتى الآن ممّا اقتبسناه من النّصوص التّوراتية، والتي يزعمون أنّ محمّداً اليتيم الأمّي اطّلع عليها في زمنه، هو أنّها أقوالٌ متضاربة مع بعضها، ومع مُعطيات العلوم، تصوّر لنا الإله تارةً قادراً على كل شيء. وتارة أخرى عاجزاً عن كلّ شيء. وتارة ثالثة أنّه بحجم الإنسان وشَبَهُهُ، ويمشي على سطح هذه الأرض، وأنّ لأقدامه وقعاً عليها أيضاً.

والآن فلننظُر : ماالذي أتى به محمد اليتيم الأمّي : أصاغت عبقريّته المعلومات المُتناقضة المذكورة بلسان عربي مبين، أم عمد هو إلى هذه المعلومات فصّححها بوحي من ربّ العالمين، وأتى بما لم يأت به موسى أو سواه من أنبياء بني اسرائيل من قبل؟ وهل جاء ماصاغه من معلومات مُتفقاً مع العلم ومع واقع عصرنا بالذات، أم جاء يُنافيه ويُضادّه؟

ولنعمد الآن إلى الرّبع الأخير من سورة البقرة، الآية (٢٥٥) وهي أوّل سُور القرآن ترتيب تلاوة وأطولُها وأكثرها آيات، في مقابلة سفر التكوين الذي هو أول أسفار التوراة. ولنتدبّر معاً، مانتلوه ونقرؤه فيما يتعلّق بذات الله وصفاته عز وجل. قال تعالى: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتي يومٌ لابيع فيه ولاخُلّةٌ ولاشفاعة ، والكافرون هم الظّالمون. الله لاإله إلاّ هو الحيُّ القيّوم لاتأخذه سِنَةٌ ولانومٌ له مافي السّماوات ومافي الأرض، مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلمُ مابين أيديهم وماخلفهم، ولايُحيطون بشيءٍ**

من علمه إلاّ بماشاء، وَسِعَ كرسيُّه السماوات والأرض، ولايؤُدُه حفظهُما وهو العلّي العظيم.﴾.

ولنلاحظ كمال وصف الله تعالى لنفسه في هذه الآيات الكريمة، وتسلْسُل كلامه المنطقيّ والموضوعيّ، فسنصل في نهاية تدبُّرنا وملاحظتنا هذه إلى أنّ الطّرح القرآني يختلف اختلافاً جذريّاً عمّا طرحته التّوراة التي زعموا أنّ الرّاهب بحيرا قد تلاها على مسمع من محمد رسول الله اليتيم الأمّي ﷺ.

ذلك أنّ الله تعالى نبّه في سورة البقرة، إلى نبوءة موسى والأنبياء من بعده وعن بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم. ووضح للناس نهج التّقوى الذي أتى به هذا القرآن. وأكّد، بعد أن استعرض تاريخ البشر، على أهميّة الدّعاء الإبراهيمي المُستجاب. هذا كلّه في سورة البقرة. ومن ثمّ توجه بخطابه في الآية (٢٥٤) إلى الذين آمنوا، فحثّهم على الإنفاق ممّا رزقهم من مال وحسن التصرّف بما أنعم الله عليهم من قوة، وزودهم به من علم، مذكّراً النّاس أنّ عالمهم هو عالم ابتلاء وامتحان، وأنّه سيأتي عليهم **﴿يومٌ لابيع فيه ولاخُلّة ولاشفاعة﴾** محذّراً كلّ من ينكر هذا من الإساءة إلى نفسه وظُلمها، لكفرانه بهذه الحقيقة الكونية قائلاً : **﴿والكافرون هم الظّالمون.﴾**.

ثم يكشف الله للنّاس عن وجوده وعن صفاته، ويجلّي ذلك بتعابير مُبيّنة وبتسلسل منطقي ونهج علمي موضوعي ويقول :

أولاً ـ ﴿الله لاإله إلاّ هو﴾ أي الله لاسواه، فهو وحده صاحب السُّلطان، لاشريك له في ألوهيّته وسلطانه.

ثانياً ـ ويُضيف أنّ الدّليل على ذلك مُضمرٌ في كونه **﴿الحيّ﴾**. والحيُّ مُعرّفاً بالألف واللاّم يعني الدّائم الوجود والذي لايفنى وكامل الحياة، فلا بداية له ولا نهاية. وهو واهب الحياة ومُحيي النفوس.

ثالثاً ـ والدليل الثاني على ذلك مُضمرٌ في كونه **﴿القيّوم﴾**. والقيّوم مُعرّفاً بالألف واللاّم هو القائم الدائم بذاته والقيّم على كلّ شيء، فلا ابتداء له (اقرب). فهو الحافظ لجميع أشياء هذا الكون، وهو الواهب مالها من قوام (مفردات الرّاغب).

ثم إنّ دلالة القيّوم، من الوجهة العلمية على الله الذي وهب جميع الأشياء قواها. هذه القوى التي تجمع بين ذرّاتها وأجزائها مايساعد على

تحقيق المقصد المرجوّ من إيجادها. إشارة إلى قوى الذرة وقوانين الجاذبية وما إليها، وهو جلّ شأنه إذ قدّم هذين الدليلين (الحيّ القيوم) بقوله تعالى : ﴿**لاتأخذه سِنَةٌ ولانوم**﴾. فالسِنة من الوَسَن أي النّوم الثّقيل. والنّصب والتّعب هو الذي يتسبب بضرورة النوم. فهو تعالى لفت أذهاننا إلى أنّه لايشبه حاله حال الإنسان، فهو لايمسّه نصبٌ ولا لُغوب وهو ليس كمثله شيء. فهيهات أن ينقطع رجاء المؤمن منه أو يفقد تأييده في لحظةٍ من اللّحظات. فالله هو الحافظ الرّقيب الذي لايغيب عمّا يحفظه، فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.

خامساً ـ فإن تصوّر امرؤ أنّ عبادته لغير الله قد تُقرّبه زُلفى من الله تعالى. فقد حاد عن جادّة الصّواب. فهو تعالى أضاف قوله : ﴿**له مافي السّماوات ومافي الأرض.**﴾ أي أنّ ملكيّته وسعت كلّ شيء، فلا سبيل لأحدٍ أن يزعم السّيادة والألوهيّة من دونه عز وجلّ.

سادساً ـ فإن مال امرؤ لتصوّر وجود من يشفع له بين يديّ الله تعالى، يسمع قوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه**﴾ أي لايملك الشّفاعة من دونه إلاّ من يأذن الله له بها في حينه.

سابعاً ـ فإن تساءل أحد عن سبب ذلك، يجد الجواب في قوله تعالى : ﴿**يعلم مابين أيديهم وماخلفهم**﴾ أي لايخفى على الله حال إنسان، وكُلٌّ يُجزى الجزاء الذي يستحقه.

ثامناً ـ ويربط الله عزّ وجلّ التّطور العلمي بمشيئة ويقول : ﴿**ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.**﴾.

تاسعاً ـ فإذا تساءل أحد عن حدود علم الله وحدود قُدُراته، يجيبه الله عز وجل بقوله: ﴿**وسع كرسيّه السماوات والأرض**﴾ أي لايغرب عن علمه وقدراته، ولايُعجزه شيء في السماوات ولافي الأرض.

عاشراً ـ فإن تساءل أحد أخيراً : أ؟ الله هو المُهيمن القابض الباسط المستغني عن الخلق بقدرته؟ ويجيبه الله عز وجلّ بقوله : ﴿**ولايؤُدُه حفظهُما**﴾ أي أنّ إدارة السّماوات والأرض لاتُعجز علم الله وقدراته كيف لا ﴿**وهو العليُّ العظيم**﴾ فهو تعالى من السمّو والعلاء والعظمة بما لايطاله خيال الإنسان، ولاتحدّه حدود.

ولنقارن الآن بين ماأتت به "آية الكرسي" هذه وأفادتنا به عن وجود الله وصفاته. وبين ماقدّمته التّوراة في سفر التكوين من معلومات في هذا الصّدد. يتّضح لنا جليّاً أنّ محمداً رسول الله اليتيم الأمّي مااستقى معلوماته هذه عن الرّاهب بحيرا أو سواه، حتى يصوغها بلسان عربّي مبين. فلو كان قد فعل ذلك، لاستحال عليه أن يأتي بما انطوت عليه آية الكرسي هذه، ومافيها من إحكام بيان ووصف لذات الله وصفاته من علوم.

ولابدّ أن لاحظ القارىء العزيز أنّي لم أبالغ في استنباط مااستنبطه من دلالات هذه الآية الكريمة. علماً بأن سورة الحشر عمدت إلى بيان هذه المعاني مفصّلة. حيث أوردت آخر آياتها قوله تعالى : ﴿**هو الله الذي لاإله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يُشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر، له الأسماء الحُسنى، يسبّح له مافي السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.**﴾.

وهكذا يكون قد ثبت أن القرآن الكريم ليس هو من إبداع محمّد ﷺ اليتيم الأمّي أو من تأليفه وافترائه، ولامن نتاج عبقريّته الدينيّة المزعومة. بل هو كلام الله الذي بعث محمداً بالحقّ، وهو رب العالمين.

٦ ـ دليل المصداقيّة السّادس :

وأتناول الأحكام الشرعيّة التي أتت بها التوراة والإنجيل، ومأتى به القرآن الكريم من أحكام. لنرى أبَدَت مُتطابقةً مُتقاربةً، أم أتت مُختلفةً مُتباعدة؟

لنأخذ فاحشة الزّنا والخيانة الزوجيّة في التوراة على سبيل المثال، ففي سفر العدد ٥/١١: (وكلّم الرّب موسى قائلاً : كلّمْ بني إسرائيل وقل لهم : إذا زاغت امرأةُ رجلٍ وخانته خيانةً، واضطجع معها رجلٌ اضجاع زرعٍ، وأُخفي ذلك عن عيني رجُلها واستترت وهي بخسه، وليس شاهدٌ عليها، وهي لم تؤخذ. فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست بخسه.

يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقُربانها معها، عُشْر الإيفة من طحين شعير لايَصُبُّ عليه زيتاً، ولايجعل عليه لُباناً، لأنّه تقدمَةُ غَيرةٍ، تقدمة تذكارٍ ذنباً. فيقدّمها الكاهن ويُوقف أمام الرّب. ويأخذ الكاهن ماءً مقدّساً في

إناء خزفٍ، ويأخذ الكاهن من الغُبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الربّ، ويكشف رأس المرأة ويجعل في يديها تقدمة التّذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماءُ اللّعنة المُرّ. ويحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجلٌ، وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسةٍ من تحت رَجُلِك، فكوني بريئةً من ماء اللّعنة هذا المُرّ. ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجُلك وتنجسّت وجَعَلَ معك رجلٌ غير رجلك مضجعه، يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللّعنة ويقول الكاهن للمرأة : يجعلك الرّب لعنةً وحَلْفاً بين شعبك بأن يجعل الرّب فخذك ساقطةً وبطنك وارماً. ويدخُلُ ماء اللّعنة هذا في أحشائكِ لِوَرَمِ البطن ولإسقاط الفخذ، فتقول المرأة آمين آمين. ويكتب الكاهن هذه اللّعنات في الكتاب، ثم يمحوها في الماء المُرّ. ويسقي المرأة ماء اللّعنة المُرّ، فيدخُلُ فيها ماء اللّعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمَةَ الغيرة، ويُردّدّ التّقدمة أمام الرّب ويقدمّها إلى المذبح، ويقبض الكاهن من التّقدمة تذكارها، ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجسّت وخانت رجُلها، يدخل فيها ماء اللّعنة للمرارة، فيرمُ بطنُها، وتسقط فخذها فتصير المرأة لعنةً في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجسّت بل كانت طاهرة تتبرّأ وتحبَلُ بزرع. هذه شريعة الغيرة.).

ونحن نستخلص من هذا النصّ الأمور التّالية :

أولاً ـ يبدو لنا حكم الزّنا في التوراة عشائرياً وبدائياً، وليس حضارياً، فهو لايصلح ليكون أساساً لنظامٍ عالمي.

ثانياً ـ والحكم التوراتي هذا يمتهن المرأة، ولايحسب لكرامتها أيّ حساب. ولايُسوّي بين الرّجل والمرأة على صعيد الزّنا والخيانة الزوجيّة. فهو لم يُعط المرأة حقّ دفع زوجها إلى الكاهن إن هي ارتابت بخيانته لها، أو لاحظت ارتكابه فاحشة الزّنا.

ثالثاً ـ وهذا التعليم يتنافى والنظافة أيضاً، ذلك أنّ الغُبار، وإن جُمع من مكان مقدّس، فهو وسخٌ ومأوى للجراثيم على كلّ حال.

رابعاً ـ ولايُعقل أن يتّحد الغبار الوسخ بماء ممزوج بمادة المرّ، ويشكّل من امتزاجهما "أكسيرا" لكشف الزّانية من البريئة، إنّما يقدم على مثل هذا الأمر المشعوذون. وتُستخدم مثل هذه الأساليب لتخويف الأطفال.

خامساً ـ ثم إنّ هذا الماء الممزوج بوسخ، إن آذى المعدة قد يُورمها، ولكن الغريب أن يُقال أنّه يُسقط فخذ المرأة، ولايُسقط فخذيها معاً. وماهي العلاقة العلميّة الموضوعية بين هذين الأمرين؟ أم أنّ لِكَهَنةِ اليهود قوّةً سحريّة لايمتلكها الإنسان؟

سادساً ـ وهل يستسيغ عقل الإنسان أن يفعل هذا الشّراب الوّسخ، فِعله في امرأة، ولايترك نفس الأثر في امرأةٍ أخرى؟ فالواقع يكذّب مثل هذا الزّعم وهذا الادّعاء.

سابعاً ـ والملاحظ هو أنّ مايُمكن أن يُنسب إلى النّص من عيب أو نقيصةٍ، إنّما يُنسب إلى "الرّب التوراتي" الذّي شرّع هذا النّص بالقول : (وكلّم الرّب موسى قائلاً : كلّم بني اسرائيل وقل لهم..).

هذا ماأتت به تعاليم التوراة حول فاحشة الزنا والخيانة الزوجية. وذلك استناداً لإحدى الوصايا العشر التي تلقّاها موسى على جبل الطّور، وإحداها : (لاتزن).

ولنأت إلى الانجيل. فقد أضاف المسيح أمراً جديداً، حينما قال في انجيل متى ٥/٢٧: (قد سمعتم أنّه قيل للقُدماء لاتزنوا. وأمّا أنا فأقول لكم : إنّ كُلّ من ينظر إلى امرأةٍ ليشتهيها فقد زَنَا بها في قلبه. فإن كانت عينك اليُمنى تعثُرُك، فاقلعها وألْقها عَنك. لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم. وإنّ كانت يدك اليمنى تعثُرك فاقطعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم.).

أتى المسيح بهذا التّعليم القاسي الذي يستحيل على المرء العمل به حتّى في عصر المسيح نفسه، ولم نسمع أو نقرأ أنّ مسيحيّاً قد اقتلع عينه اليمنى لمجرد أنّه نظر بشهوة إلى إمرأةٍ من النّساء. ومن يتدبر قول المسيح هذا، يتصوّر أنّ المجتمع المسيحيّ سيبلغ درجة من العفّة لاتضاهى، ومُستوى من الطّهارة والشرف لايُدانى. على حين أنّه قد بلغ من التّردي والاستهانة بالعِرض حدّاً لايُحسد عليه في هذه السنوات من القرن العشرين.

ونستخلص من هذا النّص الإنجيلي الأمور التالية:

أولاً ـ إنّ الإضافة التي أتى بها المسيح، تُعدّ في حدّ ذاتها دليلاً على أن تعاليم التوراة كانت في نظرة ناقصة لابدّ من استكمالها. فهاهو ذا يعتبر النّظر إلى المرأة بشهوة من الزنا، ويجعل له عقوبة هي اقتلاع العين.

ثانياً ـ ولاندري لماذا أوجب المسيح اقتلاع العين اليمنى وحدها. فالمرء لاينظر إلى امرأة ليشتهيها بعينه اليمنى وحدها دون اليسرى.

ثالثاً ـ ثم إنّ المسيح يخاطب الرّجل وحده. وكأنّ المرأة لاتنظر إلى الرّجل لتشتهيه أصلاً ـــ فهذا التّفريق بين الجنسين من هذه الناحية، يخالف الواقع والمنطق العلميّ. فالرّجل والمرأة في هذا الأمر سيّان.

رابعاً ـ وإننا، ومن خلال قول المسيح المزعوم: (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك. ولايُلقى جسدك كلّه في جهنّم.) يذهب ذهننا إلى أنّ المسيح كان يعتقد أنّ الأجساد ستُبعث يوم القيامة، وبها ينزل العذاب.

ونُجمل الآن جميع ماستخلصناه من هذين النّصين : التوراتيّ والإنجيلي، المتعلّقين بموضوع الزّنا والخيانة الزّوجية، فنقول : مادام هذان النّصان غير جديدين، وأنّه كان على حسب زعمهم قد اطّلع عليهما محمد اليتيم الأمي، مما قبسه من بحيرا الراهب وسواه من الرُّهبان، وعلى حدّ زعم الأب حدّاد خاصة وأمثاله، فأين مايقابل تعاليم هذين النّصين في القرآن الكريم باللّسان العربيّ المبين؟ فقد كان المُفترض أن تأتي تعاليم القرآن، إن صحّ زعمهم هذا، ولهذه التعاليم القرآنية صفة العشائرية أيضاً: تمتهن حقوق المرأة، فتعطي الزّوج حقّ الغيرة والارتياب في عفّة زوجته متى شاء، وتحرم المرأة من هذا الحقّ، وألاّ يُحاسب الرّجل على زناه وخيانته الزّوجية. إذ لايحقّ لزوجته أن تدعوه إلى الكاهن متى مالارتابت في عفّته. وأن يُعطِ القرآن الكريم طبقة الكهنوت منزلة لاتكون لأحد سواهم، ولايجعل للزّناة محاكم شرعية يُحاكمون بها، وأن يقترح على طبقة الكهنوت استعمال هذا "الإكسير" المزعوم، المركّب من ماء وأوساخ ليساعدهم على كشف الزّناة، فيورّم مِعَدَ الزُّناة ويُسقط أفخاذهم، كما كان ينبغي للقرآن أن يوجب نفس ماأوجبه المسيح باقتلاع عين النّاظر، إذا نظر إلى امرأةٍ بشهوة، وأن تقوم بهذه العمليّة مؤسّسات مُختصة .

والذي يُطالع القرآن الكريم يبرّىء هذا الكتاب من جميع هذه الأمور التي تضمّنها النصّان التوراتي والإنجيلي. الأمر الذي يعني بألفاظٍ أُخرى أنّ محمداً ﷺ اليتيم الأمّي لم يتلقّ هذه الأمور عن الرّاهب بحيرا وسواه.

وإذا صحّ أنّه اطّلع على مثل هذه التعاليم، فقد كان عليه ﷺ ألاّ ليستسغها، بل أن ينبذها ويُعرض عنها. بدليل أنّه لم يَصُغها بلسانٍ عربي مبين.

٧ ـ فروق مابين تعاليم القرآن ومابين تعاليم التوراة والانجيل

وهانحن ننتقل خطوة أخرى نتدبّر الفروق الجوهرية التي افترقت بها تعاليم القرآن الكريم عن تعاليم التّوراة والإنجيل.

فالفرق الأوّل الذي نُلاحظه، هو أنّ التوراة من حيث التّوصية والتّعليم، لم تزد أن أوردت في وصاياها العشر أمر الربّ (لاتزن). في حين أنّ التّعليم القرآني أورد هذه الوصيّة والتّعليم بأسلوبٍ مُغاير تماماً. فلم يأت القرآن الكريم بلهجة الآمر المُطلق فيقول (لاتزن)، دون توطئة ولاتمهيد أو تعليل. بل قال تعالى فيه : ﴿**ولاتقربوا الزّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً.**﴾ الاسراء (٣٢). فالملاحظ هو أنّه تعالى استعمل فعل (لاتقربوا) الذي يعني لاتدنوا. وهو أسلوب التّحذير من شيءٍ مؤذٍ وضار جدّاً. ذلك أنّ مجرّد اقتراب الإنسان من الفاحشة، يكاد يوقعه فيها. وقد عمدت الآية إلى توضيح مانُهي عن الدّنو منه وحكمته حين أضاف تعالى يقول فيها: ﴿**إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً.**﴾. والفاحشة في اللّغة ماعظمُ قُبحه من الذّنوب والمعاصي، كما في النهاية لابن الأثير. ثم إنّ الفاحشة على حسب ماقال في التّعريفات، هي الذّنوب التي تُوجب الحدّ في الدنيا والعذاب في الآخرة. من هنا ندرك أنّ الله تعالى لم ينهج منهج التّوراة في إصدار أوامر جافّة، دون تمهيد أو تعليل بذكر الحكمة، بل نهج نهجاً مُختلفاً جدّاً، وهو أسلوب النّهي، مع بيان حكمة هذا النّهي، وهو أنّ الزّنا فعلٌ قبيحٌ في نظر الخالق ويستوجب إقامة الحدّ على فاعله في الدّنيا ردعاً له. فإن أصرّ على فعلته واجه يوم القيامة عذاب النّار. وقد علّلت الآية حكمة قُبح هذا الفعل أيضاً، حين ورد في آخرها ﴿**وساء سبيلا**﴾. بمعنى أنّ فعل الزّنى يُعتبر سلوكاً وخيماً من حيث العواقب التي تتأتّى عنه. فهذه هي دلالة (ساء سبيلا).

وهكذا يتجلّى لنا الفرق الواسع مابين تعاليم التّوراة وتعاليم القرآن الكريم.

والفرق الثاني الذي نلاحظه، هو أنّ التعليم التّوراتي، في حين ورد مصطبغاً بصبغةٍ عشائريّة ضيّقة، أتى التعليم القرآني عالميّ الصّبغة مترفّعاً عن تلك النظرة الضّيقة التي لاتصلح كتعليم عالميّ. لذلك نجد القرآن الكريم يُطالب المؤمن فيه ببيعته ويلزمه التقيّد بها طوال حياته.

ولافرق أن يكون هذا المُبايع رجلاً أو امرأة أو أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر. ولافرق أن يكون عربيّاً أو أعجميّاً. فهاكم سورة الممتحنة (١٢) والخطاب فيها موجّه للمرأة المؤمنة: ﴿**يأيّها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يُبايعنك على أن لايُشركن بالله شيئاً، ولايسرقن، ولايزنين، ولايقتُلن أولادهُنّ، ولايأتين ببهُتان يفترينهِ بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولايعصينك في معروف، فبايعهُنّ واستغفر لهنّ الله، إن الله غفورٌ رحيم.**﴾.

فهاهي ذي المرأة تُخاطب في هذه الآية كالرّجل، على حدٍ سواء، وتُسأل عن تصرُّفها، وتُطالب بمبايعة الله ألاّ تقرب الزنى الذي هو فاحشة وساء سبيلاً. وهكذا يتجلّى لنا الفرق الثاني مابين التعليمين التوراتي والقرآني.

وهناك فرقٌ ثالث. ففي حين أنّ التعليم القرآني قد كرّم المرأة وسواها بالرّجل، واشترط توفّر أربعة شهود تؤيّد التّهمة الموجّهة إليها. بل أوجب معاقبة من يتهمها دون احضار هؤلاء الشهود. فإنّ التّعليم التوراتي قد حطّ من كرامة المرأة، وسمح لزوجها أن يتّهمها متى شاء، وأوجب عليها الحضور بين يدي كاهن، والكشف عن رأسها، وسقايتها شراباً مراً ممزوجاً بالغبار والأوساخ بلا وازعٍ من ضمير أو احتياطٍ من تعليمٍ سماويّ.

وهاكم سورة النور (٢ـ٣)، ولنستمع لما ورد فيها من تعليم راعى المساواة بين الرّجل والمرأة في الأحكام: ﴿**الزّانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة، ولاتأخذْكم بهما رأفةٌ في دين الله، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين. الزّاني لاينكح إلا زانيةً أو مُشركة، والزّانية لاينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك، وحُرّم ذلك على المؤمنين. والذّين يرمُون المُحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدةً، ولاتقبلوا لهم شهادةً أبداً، وأولئك هم الفاسقون، إلاّ الذين تابعوا من بعد**

ذلك وأصلحوا، فإنّ الله غفور رحيم. والّذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شُهداء إلاّ أنفسُهم، فشهادة أحدهم أربع شهاداتٍ بالله إنّه لمن الصادقين. والخامسة أنّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربعَ شهاداتٍ بالله إنّه لمن الكاذبين. والخامسة أنّ غضب الله عليها، إن كان من الصادقين.﴾.

فالواضح من هذه الآيات الكريمة أنّ الزّانية والزّاني سيّان في إقامة الحدّ عليهما. والمجتمع في نبذهما سواء. وقد فتح الله لهما فُسحة إصلاح نفسيهما، من بعد إنزال الحدّ بهما، ذلك أنّ الله غفورٌ رحيم. وهكذا يتجلّى لنا الفرق الثّالث مابين التعليم التوراتي والتعليم القرآني.

وفرقٌ رابع، نلاحظهُ هو أنّ الله تعالى ربط في كتابه القرآن الكريم آثار فاحشة الزّنا بعلاقة المحبّة مابين الله وبين عباده المؤمنين. منددًا بطُرُق الخيانة بصورة مُطلقة، سواء منها الخيانة الزوجيّة أو خيانة الوطن والدّين وخيانة الأصدقاء. ذلك أنّه تعالى اعتدّ طرق الخيانة بكافة أنواعها، سببًا مباشراً يقطع من جرّائه محبّته وتأييده للخائن، ويفصم مابينهما من وشائج.

فقد قال تعالى في سورة الحجّ (٣٨) : ﴿**إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحبُّ كلّ خوّان كفور.**﴾ منبّهاً هنا إلى أنّ بين المحب ومحبوبه تعاطفاً وتواصلاً وتعاوناً. فلا يكاد المحبّ يرى مصيبة تنزل بمحبوبه حتى يُسارع إلى نجدته ونصرته وتأييده. ومادام المؤمنون الصّادقون مقرّبين من الله الذي آمنوا به وعبدوه، فهم أحقُّ بنُصرته وتأييده. فهذا مأفاده قوله تعالى هنا ﴿**إنّ الله يدافع عن الذّين آمنوا**﴾ مستدركاً قوله : ﴿**إنّ الله لايحبُّ كُلّ خوّانٍ كفور.**﴾ بمعنى أن تأييد الله ونصرته هذه يفوز بها المؤمنون، مالم يخونوا عهودهم، ويدخل في ذلك عهد الزوجيّة وسواه. فمن خان فإنّ عليه خيانته. وهذه الخيانة أوّل ماتقتضي خسران نُصرة الله لهذا الخائن لعهوده، ومحبّته إياه.

وقد نبّه القرآن الكريم في الوقت نفسه المؤمن والمؤمنة في سورة غافر (١٩) إلى أنّ ربّهم الخبير العليم والمحصي البصير ﴿**يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصّدور**﴾ أي ماتخون به الأعين حين تُسارقُ النّظر إلى مالا يحلّ. وقد جاء هذا التّنبيه لأذهان المؤمنين، ليظلّوا يقظين للفرق التّاسع الذي هو أيضاً مابين المحبّ في الله والمحبّ في غير الله. فالمحبّ في غير الله قليلاً ماينتبه إلى خائنة الأعين

وماتُخفي الصّدور. أما المُحبّون في الله يتملّكهم اليقين التّام في كلّ لحظة من حياتهم من أنّ محبوبهم الله ﴿يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصّدور.﴾.

وهذه الحقيقة قد أغفلها التّعليم التّوراتي، بينما وضّحها التعليم القرآني. فالتوراة تركت باب الغيرة والشّك مفتوحاً على مصراعيه أمام الزوج، كأنه وزوجته لاتربطهما رابطة إيمان بالله ولامحبّة ولا احترام. وكأنّهما لايدريان أنّ الله يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصّدور، ولاقيمة في نظرهما لنصرته وتأييده ومحبّته.

وهذا الفرق الرّابع الذي لاحظناه مابين التعليم التّوراتي، والتعليم القرآني، كان من العسير جدّاً على محمد اليتيم الأمّي أن ينتبه إليه من نفسه ويُبرزه للعيان في القرآن المبين، لولا أن كان قد تلقّاه عن طريق وحي ربّه، ربّ العالمين.

والفرق الخامس المُلاحظ مابين تعليمي التوراة والإنجيل، والتعليم القرآني هو مايُستدل عليه من النّص الإنجيلي الذي سبق أن أوردناه، وهو قول المسيح : (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم.).

إذ يُستدل من هذا النّص أنّ الإنجيل يقول ببعث الأجساد التّرابيّة نفسها يوم القيامة. على حين يُستدل من التعليم القرآني أنّ هذه الأجساد عارضةٌ زائلة وآيلةٌ إلى تُراب. وأنّ الأنفس ستُبعثُ يوم القيامة بأجسام غير هذه. وقد وضّحت هذه الحقيقة في مؤلّفي (الرأي) ص١٩٦، وفي مؤلفي (النّظرية الكونية) ص١٠٤ فليُرجع إليهما.

والعجيب أن تسكت التوراة والإنجيل عمّا ستؤول إليه النّفس البشرية بعد الموت. وقد أتى القرآن الكريم في هذا المجال بما يُدهش العقول النيّرة من معارف مؤيّدَة بالأدلّة العلمية والبراهين السّاطعة، وهل يُعقل أن تأتي عبقرية محمد اليتيم الأمّي بمثل هذه المعلومات، من دون مددٍ وحيٍّ أمدّه به ربّ العالمين الذّي ستؤول إليه أنفس عباده؟

ونحن نكتفي بالكشف عن هذه الفروق الجذّرية مابين التعليم التوراتي والتعليم القرآني، في موضوع الزنا والخيانة الزّوجية، بعد أن أثبتنا استحالة التّسليم بما زعمه الأب حدّاد وسواه، زعمهم أنّ محمداً اليتيم الأمّي قد استقى

أحكام دينه الإسلام ممّا تلقّاه على أيدي الرُّهبان الذين عاصروه كالراهب بحيرا وسواه من الرُّهبان، وأنّه صاغ ماتعلّمه من هؤلاء الرّهبان في القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍ مبين.

فشتّان مابين تعليمٍ عشائريٍ مخصوصٍ بقومٍ بعينه. ومابين تعليمٍ عالميٍ لايفرّق بين قومٍ وقوم، أو لونٍ ولون، وبين صاحب لسانٍ ولسان، أو بين رجلٍ وامرأة، من حيث كونهما انسانين من طينةٍ واحدةٍ ونفسٍ واحدة.

وشتّان مابين تعليمٍ يُصدر أوامره جافّة، تُلزم الآخرين دون إقناع، ومابين تعليمٍ لايُكره نفساً على أمرٍ من أوامره، وإنّما يطالبه إذا آمن أن يُبايع الله تعالى يتقبّل مايلحقه به من عقاب.

هذا الأمر القائم على أساسٍ من عقد التّراضي مابين الله وعبده المؤمن وأن يتلقّاه هذا المؤمن مُعلّلاً بالأسباب والحكمة منه، مع تقديم الأدلّة العقلية والعلمية المُقنعة بصحّته.

وشتّان مابين إهمال التعليم التوراتي تعرّضه من قريبٍ أو بعيدٍ إلى الآثار التي تتركها فاحشة الزّنا والخيانة الزوجية على علاقة العبد بربّه. ومابين تعرُّض التعليم القرآني لبيان هذه الآثار، إلى جانب تنبيهه إلى مابين المحبّ في الله وفي غير الله من فروق.

وشتّان مابين تعليمٍ توراتيٍ وانجيليٍ يقول ببعث الأجساد التّرابية بعد موتها : كأن يُبعث الأعمى أعمى، والأعرج أعرج، والمفقود العين أعوَر، ومابين تعليم القرآن الذي ينبّه إلى أنّ هذه الأجساد الترابيّة هي مجرّد أداة لخلق نفس الإنسان وتطويرها وربطها بخالقها. مع بيان الأدلّة القاطعة التي تؤيّد ذلك في كلّ مقامٍ تعرّض القرآن الكريم فيه لهذا الموضوع.

وهكذا نكون قد توصّلنا، بما بسطنا القول فيه بأسلوبٍ علميٍ، إلى أنّ عبقريّة محمد بن عبد الله ﷺ الدينية المزعومة، يستحيل أن تأتي بهذه الفروق التي وضّحناها في مجال أحكام الزّنا والخيانة الزوجية.

إلا أن يكون قد أمدّه الوحي الذي أنزله القرآن على قلبه ﷺ هدى ورحمة للعالمين. وهو الله الذي خلق الذكَر والأنثى من نفسٍ واحدةٍ، وجعلهما سواءً في الحقوق والواجبات. والله هو الذي يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور. فهو المحاسب الحقيقيّ، فلا يحقّ للزّوج اتّهام زوجته لمجرّد الغيرة والظّن

ودون تقديم دليلٍ قاطعٍ وجليّ، فكيف يُعقل أن يكون التعليم التوراتي الذي أوردناه سماوياً أو منطقيّاً، في مقابل هذا التعليم القرآنيّ السّماوي المُسلّم به؟

٧ً ـ دليل المصداقية السّابع :

ونتناول في دليلنا السّابع هذا قضيّة منهاج الحياة العلميّ، فنقول : إنّ الباحث في التوراة والإنجيل المعاصرين، لاتتراءى له معالم أيّ منهجٍ علميّ للحياة في كليهما. بينما يتراءى له معالم هذا المنهج في أوائل آيات سورة البقرة، وهي أوّل سورةٍ قرآنية من حيث ترتيب تلاوة القرآن الكريم.

والمعلوم لدى العقلاء الباحثين هو أنّ منهج الحياة، لايُطالبُ به إلاّ الذين بلغوا سنّ رشدهم وتجاوزوا طفولتهم. وهذا الأمر ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد. فالوالد الذي يخاطب أطفاله، يأمرهم بالإلتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه. يأمرهم بالصّدق والأمانة وعدم الاعتداء.

وهاأنّ موسى عليه السّلام وقد تلقّى الوصايا العشر على جبل الطوّر : ﴿**لاتقتل. ولاتزن. ولاتسرق. ولاتشهد على قريبك شهادة زور. ولاتشته امرأة قريبك. ولاتشته بيت قريبك. ولاحقله. ولاعبده. ولا أمته ولاثوره ولاحماره ولاكلّ مالقريبك.**﴾. تلقّى هذه الوصايا التي ذكرتها التوراة وأضاف بعدها : (هذه الكلمات، كلّم بها الرّب كلّ جماعتكم في الجبل من وسط النّار والسّحاب والضّباب وصوتٍ عظيم، ولم يزد.) تثنيه ٥/٢٢.

إن ألفاظ (ولم يزد) تدّل دلالة صريحة وقاطعة على أنّ الله تعالى الذي حين كلّم موسى، كان ينظر إلى عشيرة بني إسرائيل على أنّ أفرادها لايزالون أغراراً يُمضون دور طفولتهم العقليّة. فلم يكونوا قد بلغوا سنّ رشدهم بعد. لذلك لم يطالبهم ربُّهم بانتهاج منهجٍ للحياة يلتزمون به. وعليه فإنّ الوصايا العشر لاتزيد على كونها نظام سلوكٍ بشريّ. وقد ركّزت الوصايا على الأعمال، ولم تلحظ منهج العقائد والإيمانيات التي تَمُتُّ في الأصل إلى الفلسفات والنظريات بصلة من الصّلات.

من هنا، إن نحن استعرضنا الفترة التي استوطن فيها بنو اسرائيل أرض كنعان، لاحظنا أنّهم لم يتركوا فيها أيّ تُراثٍ علميّ. بل كانوا في معارفهم عالة على الأمم من حولهم كالفينيقيّين وسواهم. فقد استعانوا بمن حذق فنّ البناء من

الفينيقيّين على سبيل المثال، لبناء المعبد الّذي شاده سليمان الحكيم. كما اعتمدوا القوّة العسكرية نهجاً للدّفاع عن كيانهم وأنفهسم. فلم تتولّد على أيديهم علوم، ولازودّوا العالم من حولهم بزادٍ علميّ. فلم يُعرفوا إلاّ باهيمنة وسفك الدّماء.

وهذه الحقيقة التاريخية التي وضّحتها آنفاً، لم تأت عن اجتهادٍ شخصيّ. بل أقرّ بها مؤرّخو اليهود أنفسهم. فقد كتب كوهر في دائرة المعارف العبريّة ص٣٥ (Berry : Religion of the Word p35) يقول : (إنّ اليهودية ليست عقيدةً أو نظاماً من العقائد يتوقّف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل. وكلّها نظام للسلّوك البشريّ، وناموس البرّ الذي يتحتّم على الإنسان إتباعه. ويقرّر الفكر اليهودي بناء على ذلك أنّ الجزاء يكون حسب الأعمال، لاحسب الاعتقاد.).

وهذه الحقيقة التاريخية أقرّ بها اليهود أنفسهم، حسبما دلّ عليه كلام اليهودي المؤرخ كوهلر. وهذه الحقيقة دفعت المؤرّخ (ول ديورانت) ليكتب في مؤلّفه الضّخم "قصّة الحضارة"، معتبراً هذه الحقيقة تكمن وراء سكوت التوراة عن الكلام عن الآخرة والبعث والحساب (قصّة الحضارة ج٢ ص٣٤٥).

وهذه الحقيقة التاريخيّة هي التي اضطرت المؤرّخ (آرثر هيرتزبرغ Arthur Hertyberg) أيضاً، ليكتب في مؤلّفه (Judaism) ص٢٠٥ : (إنّ الكتاب المقدّس نفسه يعتبر الحياة الدّنيا وحدها، هي عالم الإنسان، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعثٍ وجنّةٍ أو نار.).

هذا ولم يكن الناس يعلمون في هذه المنطقة أكثر مما أورَدتْه التوراة والأناجيل من أوامر ونواهٍ وأنظمةٍ للسلوك البشري. يوم طلع محمد اليتيم الأمّي على الناس بهذا القرآن العظيم، الذي احتوى على نهجٍ حياتي علمّي. مُتجاوزاً بذلك مرحلة أنظمة السلوك البشري. حدث هذا لاكتمال عقل الناس، وتأهّلهم في نظر الخالق لتلّقي مثل هذا المنهاج القرآني المُختلف جذرياً عمّا أتت به تعاليم التوراة والإنجيل.

وكما سبق أن قلت، فإنّ هذا المنهاج الحياتي العلمّي تضمنّته الآيات الأوائل من سورة البقرة من خلال قوله تعالى : ﴿**ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتّقين. الذين يؤمنون بالغيب. ويقيمون الصّلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك على هُدىً من ربّهم وأولئك هم المُفلحون.**﴾. ومن خلال هذه الآيات الكريمة

ومااشتملت عليه من منهاج ودلالات أحدث القرآن الكريم ماعجزت عن إحداثه تعاليم التوراة والإنجيل من تغيير وتبديل وتطوير في حياة الناس أجمعين. فما معنى قوله تعالى : ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾؟

الإيمان من حيث دلالته اللّغوية، يشمل النظريّة والتطبيق، الاعتراف بشيء والتصديق به والعمل على مايستلزمه هذا الإيمان. أمّا الغيب في اللّغة، فهو كلّ ماانستر عن الحواس وغاب عن علم الإنسان. وكلّ مكان لايدري الإنسان مافيه فهو غيب. كذلك فإنّ كلّ ماوراء أيّ موضع أو مكان من الأمكنة فهو غيبٌ أيضاً. وعليه فإنّ الغيب، على حسب ماورد في معاجم اللّغويّين يشمل أولاً : كلّ مالا يقع تحت الحواس، ولاتقتضيه بداية العقول. كالحقائق الثابتة التي تحدّث عنها القرآن الكريم وهي الفطرة والنّفس البشرية والقوانين القدريّة وحياة مابعد الموت. فهذه حقائق نبّه القرآن الكريم المؤمنين إلى ضرورة الإيمان بها كحقائق ثابتة، من قبيل الغيب، الغائب عن الحواس. فلا يكتمل إيمان المسلم إلاّ بإيمانه بوجود هذه الحقائق، والاهتداء بتعاليم القرآن الكريم المتعلّقة بهذه الأمور الغيبيّة.

هذا الكتاب الذي برهن على وجود هذه الحقائق الغيبيّة بمختلف الأدلّة والبراهين. فمن يتابع تدبّر آيات القرآن من هذا المُنطلق المنهجيّ. تتراءى له علومٌ لم يسبق أن عرفتها البشرية من قبل نزول القرآن. وحتى إن البشريّة لاتزال دون مستوى معرفة تلك العلوم من نفسها يقيناً.

فهذا مادلّ عليه قوله تعالى : ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾. وقد شاء الله عز وجلّ أن يُنبّهنا إلى أنّ الإيمان بالغيب، إنما هو أساس العروج إلى الله والتقرّب منه. لذلك نلاحظ أنّه أضاف قوله : ﴿**ويقيمون الصّلاة**﴾. والصلاة في اللغة هي الدّعاء، وقد أتى الإسلام بالدّعاء بصيغة حركات الصلاة المعروفة وقراءاتها وأدعيتها. فجعل هذا هو الأسلوب المُعتمد في التوسّل بين يدي الخالق، وعلى أساس من الإيمان بالغيب. فالصّلاة هي معراج المؤمن إلى ربّه وعماد دينه. والإسلام قد نسخ بهذا التعليم نظام الكهنوت الذي كان اليهود والنصارى قد التزموا به من قبل نزول القرآن الكريم. وقد جُعلت الأرض للمسلم نتيجةً لذلك مسجداً وطَهوراً. بعد أن حُذفت وساطة الكهانة مابين العبد الدّاعي وربّه. ولم يكن ذلك ممكناً زمن موسى وعيسى وبقيّة أنبياء بني إسرائيل. وقد أحدث القرآن

الكريم بهذا النهج التّقوويّ للحياة إنقلاباً جذرياً في تاريخ الأديان السّماوية. فلم يكن ماأتى به القرآن الكريم اختلاقاً من قبل محمد اليتيم الأمي والعياذ بالله، وإنّما حقّق هذا التّبديل الجذريّ تعليم ربّ العالمين.

من هذا لابد أن يكون القارىء قد أدرك سرّ بُطلان الصلاة دون التلاوة فيها بفاتحة الكتاب. فلم يعد هناك من محلّ للدعاء الإنجيلي : (أبانا الذي في السّماوات. ليتقدّس أسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السّماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولاتدخلنا في تجربة. لكنْ نجّنا من الشرير لأنّ لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين) متى ٦/٩.

أقول : لم يعد لهذا الدّعاء الإنجيليّ من مكان بعد نزول قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**ويُقيمون الصلاة**﴾ لأنّ مشيئة الله التي اقتضيت تعليم الناس منهاجاً حياتياً ينهجونه ويعرجون به إليه تعالى، قد باتت كذلك على الأرض. فقد أتى ملكوت الله الذي أُنبيء عن نزوله في التوراة والإنجيل. ولم يعد للبشر من داعٍ يدعوه إلى الدّعاء، بألفاظ الدّعاء الإنجيليّ، من بعد طلب القرآن الكريم الذي طلبه من المؤمن إقامة الصّلاة الإسلامية. فهذه الصلاة الاسلامية عادت طريق التوسّل والتضرّع بين يدي الله عز وجلّ. هذه الصّلاة التي شُرّعت لتشكّل صلة الإنسان الضعيف المتعبّد، بالله الخالق القوي الرحيم. فعادت الصلاة جزءً من خصوصيات الأمة الإسلامية ومن مُقوّمات وحدتها وتماسكها.

وقد صيغت الصلاة الإسلامية على هيئة وقوفٍ متأدّب ودعاء بدعاء سورة الفاتحة. وركوعٍ تجاه عظمة الله وتنزيهه بالقول سبحان ربّي العظيم. وسُجودٍ بين يديّ الله عز وجلّ، وتنزيهه بالقول سبحان ربّي الأعلى. فهذا المعراج الإسلامي قد صيغ على الصورة التي ذكرناها بأسلوبٍ علميّ، جوهره التوسّل والتضرّع بطلب الإهتداء إلى سبيل الذين أنعم الله عليهم بقربه وهدايته ووصاله من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين. فشتّان مابين دُعاء الإنجيل، ومابين الدُّعاء القرآني. وقد جاء في الحديث الشريف (مَثَلُ الصّلوات الخمس كمَثَلِ نهرٍ جارٍ غَمْرٍ على باب أحدكم، يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرّات.).

ولمّا كان معراج المؤمن إلى ربه لايكتمل دون الإحسان إلى عباد الله تعالى ومخلوقاته ومحبّتهم، لذلك أتبع الله عزوجل ذلك قوله : ﴿**ومما رزقناهم**

يُنفقون﴾. والرزق في اللغة العربية يُراد به كلُّ ماينتفع المرء به من مالٍ وعلمٍ وصحّةٍ ومتاع لمصلحة جسمه ونفسه ودنياه وآخرته.

وليس المقصود بالرزق هنا الطعام والشراب والأنعام من حيث أصل دلاله هذا اللفظ، وإن استُعمل الرزق للمطر النازل من السّماء على سبيل الاستعارة. فهو تعالى عندما قال: ﴿**في السّماء رزقكم وماتوعدون﴾**، لم يقصد بقوله هذا الطعام والشّراب والأنعام وخيرات الطبيعة على أنّها مجموعةً في السّماء لتوزيعها. إنّما أراد أن أسباب توفّر هذه الأرزاق، يكمن في السّماء، وفيما تفيضُه به السماء على الأرض. إشارةً إلى تدخّل المشيئة السّماوية في أمر توفير هذه الأسباب.

والذي يؤيّد هذا المعنى، ملاحظتنا أنّه تعالى أقسم بعده مباشرة وقال: ﴿**فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثل مـاأنّكم تنطقون.﴾** أي أنّ لربوبية خالقكم دخلٌ في كل ماينزل من السّماء من خير. أي أنّ أسباب رزقكم مفاتحه بأيدي ربوبيّته عز وجل.

وزبدة الكلام في معنى قوله تعالى :﴿**الذّين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومّما رزقناهم ينفقون﴾**. هو أنّ الله عز وجلّ، وقد بلغت البشرية دور رُشدها وتكاملها، فقد بعث محمداً ﷺ اليتيم الأمّي بهذا النّهج العلمي للحياة، هذا النهج الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، تنبيهاً لأذهان النّاس، إلى أنّه قد مضى زمن تلّقي أوامر السّماء المتضمّنة نظام سلوكٍ بشريّ، وآن للناس أن يتفكّروا في خلق السّماوات والأرض، وأن يتلّقوا منهاجاً للحياة علميّاً، قد أُسّس على نظريّات وفلسفات. وقد أوجز خالقنا هذا المنهاج في أوّل سورةٍ من كتابه القرآن، يدعوهم فيه للإيمان به والانطلاق في حياتهم اليومية على ضوئه ومن مُعطياته، هذا المنهاج الذي ارتكز إلى شُعَبٍ ثلاث هي الإيمان بوجود حقائق ثابته لاتُدركها حواسُّهم، بل تحتاج منهم لتدبّر مانزل بشأنها من تعاليم في هذا القرآن. وهي هذه الفطرة التي فطرهم خالقهم عليها، ونفسهم البشرية التي لابدّ من تطويرهم إيّاها، وهذه الحياة الآخرة التي ينبغي لهم أن يؤمنوا بوجودها ويضعوها في اعتبارهم، في كلّ مايقومون به ويُقدمون عليه من عملٍ أو تصرّف. عاقدين العزم على التقرّب من خالقهم الذي هداهم إلى هذا المنهاج، فضلاً من

ربوبيّته عليهم ومنّه ونعمة مقيمين هذه الصّلاة التي هي الدّعاء والتضّرع بين يديه عز وجلّ.

مُتّخذين منها معراجاً لهم يعرجون به إلى الله عز وجلّ. باذلين كلّ ماتفضّل الله عليهم به من مال وعلم وجهدٍ وطاقة، على مخلوقات الله وعباده من بني الإنسان، وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟

وإنّ الذي يؤكّد مانبّهت إليه الآية من أمر هذا المنهاج الذي طرحه القرآن الكريم هنا، هو أنّه جلّ شأنه، بعد أن أنبأ بعد ذلك عن أنّ النّاس سينقسمون بعد إنزال هذا القرآن إلى فريق مؤمن، وآخر منافق وثالث كافر به، توجّه بخطابه إلى النّاس كافة يدعوهم للأخذ بمنهج الحياة العلمّي هذا، ليكونوا من المُتقيّن الذين يحذرون عواقب مايقومون به من أعمال، قال : ﴿**ياأيّها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم، لعلّكم تتقّون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً، وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.**﴾ البقرة (٢١). وأكّد لهم بعد ذلك أنّه تعالى لم يخلقهم عبثاً، بل ليعبدوه ويتقرّبوا إليه بهذه العبادة، وذلك بقوله تعالى :﴿**هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السّماء فسَواهُنّ سبعَ سماواتٍ، وهو بكلّ شيء عليم.**﴾ ٢٩.

والعدد (سبع) لايقصد به رقمه، وإنّما الكثرة فقد نبّه صاحب معجم لسان العرب إلى أنّ رقمي سب وسبعون يستعملهما العرب لمجرّد الكثرة عموماً. والمعنى أنّه تعالى فتح لعباده المُصلّين آفاق سموّ لاتقف دونها حدود.

فهذه هي معالم "نهج المُتقّينّ الجديد الذي طلع به على الناس التعليم القرآني، وبشرّ به محمد اليتيم الأمّي. فهو نهجٌ قائمٌ على الإيمان بالغيب، وعلى معراج الصّلاة، وعلى البذل ممّا رزق الله تعالى المؤمن من مال وعلم وجهد.

فأنّى لمحمّد اليتيم الأمّي أن يأتي بهذا من عنده أو يبتدعه؟ ولو فُرض أنّه اطّلع على تعاليم التوراة والإنجيل من رُهبان عصره وبيئة، فشتّان مابين مُعطيات التوراة والأناجيل التي لم تتجاوز تعليم الإنسان اليهودي أكثر من مبادىء نظام سلوك بشريّ، ومابين مُعطيات هذا القرآن الذي أتى بمنهاجٍ قائم على أساس إيمان بأمورٍ غيبيّة لاتدركها حواس الإنسان. إضافة إلى أنّه فصّل هذا المنهاج وشرحه، وبما يتعلّق بهذه الحقائق الغيبيّة تفصيلاً لاتغيب عنه منها شاردة

ولاواردة. وقد أثبتت الأيّام صحّة ماأتى به القرآن بشأن ذلك من عظاتٍ روحيةٍ وتعاليم.

وهل كان بإمكان عبقريّ دينيّ، مهما بلغ شأن عبقريته، أن يتحولّ بنظامٍ سلوكي ما، إلى منهاجٍ ينطوي على مالا تدركه حواسه؟ إلى منهاجٍ لم يأت به إنسانٌ سواء أكان هذا الإنسان عالماً أو صالحاً أو نبيّاً إلاّ عن طريق وحي ربّه الذي يعلم السرَّ وأخفى؟

وهاهم أولاء اليهود والنّصارى، وبين أيديهم تعاليم التوراة والإنجيل، قد أنجبوا في القرن التاسع عشر من أسموه عبقريّ زمانه، ظنّاً منهم إحاطته بعلم غيب النفس البشرية، وهو العالم اليهودي (فرويد). فهم هلّلوا يومذاك لكُتُبه وصفّقوا لها تصفيقاً طويلاً صاخباً. لكنّه مـاإن أهّل عليهم القرن العشرون، حتى أدرك باحثوهم خطأ جميع ماأتى به (فرويد) من تأويلاتٍ وتفسيراتٍ للنفس البشرية. فعاد هذا اليهودي باحثاً عادياً في أعين أهله وقومه، بعد أن تبيّن لهم أنّ أشياء هذا الكون ماهي بمادّة محضةٍ، بل تحتوي على عُنصرٍ روحّيٍ غيبيّ، غاب عن أعين الناس وحواسّهم، وقد بسطْتُ القول في ذلك ضمن كتابي (النظرية القرآنية الكونية) فليرجع إليه.

ومادام البشر لم يحيطوا علماً حقيقياً بحقائق الغيب حتى عصرنا هذا. فكيف يزعم الأب حداد ومن على شاكلته من أعداء الإسلام أنّ محمّداً قد صاغ معلومات التوراة والإنجيل بعبقريّته الدّينية الفذّة وبلسان عربيّ مبين؟

ثم إنّ الباحث المتدبّر لايلاحظ معالم منهج الحياة العلمي هذا في التّعليم القرآني وحسب. بل يلاحظ إلى ذلك اقترانه بمنطلقاتٍ نظريّةٍ مدهشةٍ، لابدّ من اعتمادها والتّركيز عليها لتوحيد العالم، على أساس هذا المنهج الرّوحي. فقد جاء بعد آية المنهج المذكورة قوله تعالى: ﴿**والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وماأُنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدىً من ربّهم، وأولئك هم المفلحون.**﴾ أي أنّ القرآن الكريم أمر، إلى جانب ضرورة الأخذ بمنهج الحياة العلمي هذا، أمر بالإيمان بما أنزله الله قبل ظهور الإسلام، والاعتراف والتصديق بجميع مانزل من كتبٍ سماوية وتعاليم على أيدي الأنبياء والمرسلين. على اعتبار أنّ جميع ماأنزله الله من قبل كان يشكّل حلقاتِ توطئةٍ وتمهيد وإرصاد لنزول

هذا القرآن العظيم. فهذا النهج، وبهذه المنطلقات بالإمكان توحيد عالمنا، وعليه يرتكز تقدّمه وترقيّه.

وقد كان هذا الإنجاز الذي حقّقه القرآن الكريم في تاريخ البشر، قفزةً فريدةً مُتميّزة، مَنحَته سِمَةَ العالمية. ورسخت في أذهان البشر عقيدة وجود الخالق ربّ العالمين. كما أثبتت هذه القفزة من جهةٍ أخرى أنّ بعثة محمد اليتيم الأمي ﷺ كانت رحمةً للعالمين.

فشتّان مابين هذا الذي جاء به القرآن، وماجاءت به التّوراة والإنجيل على هذا الصّعيد، ففي الوقت الذي أتت التوراة فيه بتعاليم نظام سلوكٍ بشريّ، لايتعدى مجرّد الأمر والنهي (لاتقتل، لاتزن.. الخ) دون منهجٍ أو بيانِ حكمةٍ لهذه الأوامر أو النّواهي. أتى هذا القرآن الكريم بنهجٍ علميّ للحياة ومبادىء لتوحيد العالم بأسره، على أساس وجود إله واحد خالق هو ربّ العالمين. مارّاً مرور الكرام على ماأوردته التوراة في سفر الخروج ٢٠/١-١ : (أنا الرّب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر بيت العبوديّة، لايكن لك آلهةٌ أخرى أمامي.) هذا الكلام الذي يستشعر المرء من سماعه أنّ الربّ الإله مُختصٌّ ببني إسرائيل. وكأنّ ثمّة آلهة أخرى سواه، لأممٍ أخرى غير بني إسرائيل، ساكتاً عن وجود ربّ العالمين.

والسؤال هو: هل يصحّ أن تكون عبقرية محمد اليتيم الأمّي قد قويت على تجاوز الحواجز العنصرية والإقليمية من نفسها، وعلى ابتداع هذا النهج العلمي للحياة لمجرّد اطّلاع محمد رسول الله على مالدى رُهبان عصره من نصوصٍ توراتيّة وانجيليّة، أو لمجرّد إفادته ممّن لقي من أناسٍ خلال متاجرته بمال خديجة : يهوداً كانوا أو نصارى؟

أقول : لايستطيع عاقل، أيّ عاقل، التّسليم بهذا الزّعم وهذا الإدّعاء. إذ ليس في إمكان محمد وعبقريّته أن تطّلعا على ماغاب عن الحواس. وأيّ داعٍ يدعوه إلى مؤاخاة الرّومي والفارسّي، وقد كانا أمّتين تستهينان بالعرب والعربيّة، وتطمعان بالهيمنة على شبه جزيرة العرب؟

ألا إنّ هذا الطّرح المنهجي الذي لم يسبق لأحدٍ في تاريخ البشر أن طرحه. وهذا الأساس المتين الذي استعان به لتوحيد شعوب الأرض، ماكان ليأتي في الآيات الأوائل من هذا القرآن، إلا بتخطيطٍ من الله الخالق، ليكون

هذا المنهج والأساس، دليلاً قاطعاً على أنّ محمّداً ﷺ اليتيم الأمّي لم يفتر هذا القرآن على ربّه. بل كان هذا الوحي القرآني تنزيلاً ورحمةً من ربّ العالمين.

❀❀❀

٨ـ دليل المصداقية الثامن :

والدليل الثامن والقاطع الدّلالة على أنّ محمداً رسول الله ﷺ لم يفتر هذا القرآن من عند نفسه، هو مُعجزة الأذان الاسلامية.

نتساءل عن سرّ امتياز الإسلام بهذه الوسيلة الإعلامية؟ وتتبيّن حكمة ذلك من خلال ماسلف أن أوردناه في دليلنا السّابع. وهو أنّ تعاليم التوراة المعاصرة خاطبت عشيرة بني اسرائيل الذين كانوا لايزالون في دور طفولتهم العقليّة والعلمية، لذلك أتت تلك التعاليم مجرّد تعاليمَ لنظام سلوكٍ بشريٍ لطائفة محدودة من البشر حصراً، لاتتجاوزهم في الدعوة إلى الخلق عامة.

هذا وإنّ قرع النواقيس والنفخ في البوق دعوةً للمصلّين، شكلّت يؤمئذٍ الأداة البدائية الصالحة لمن كان في المراحل الأولى من الوعي، وهذه الوسائل الإعلامية البدائية، تُعدّ في حدّ ذاتها الدليل الواضح الذي يُنبّه أذهاننا إلى أنّ الله تعالى لم يبعث موسى وعيسى بدعوةٍ وتعاليم عالميةٍ، بل كان بعثهما إلى خراف بني اسرائيل الذين استعبدهم فرعون مصر. خصوصاً وأنّه تعالى أطلعنا على ذلك في القرآن الكريم من أنّ قوم موسى كانوا مُستضعفين عند فرعون. كما أخبرنا أنه كان أرسل رسوله عيسى بن مريم إلى بني اسرائيل تكملةً لما جاء به موسى والأنبياء من بعده.

فهذا الفرق الحادث مابين الإعلامين: الإسرائيلي والإسلامي يدلّ دلالة واضحةً على أنّ محمداً اليتيم الأمّي لم يتتلمذ على أيدي الراهب بحيرا ولا على أيدي سواه من الرُّهبان. خصوصاً وأنّ الأذان الإسلامي الإعلامّي لم يوح به إلى محمّدٍ ﷺ نفسه، بل أوحي به إلى صحابيين من أصحابه، وأحدهما عمر بن الخطّاب الصّحابيّ المشهور.

والآن لنمعن نظرنا في كلمات الأذان نفسه. ابتداءً مما أورده أصحاب المعاجم في مفرداته . قال صاحب محيط المحيط : أذّن المؤذّن بالصّلاة : أعلم بها. وأذّن الأمر: أكثر إعلامه. والأذان معناه الإعلام مُطلقاً. والأذان في الشّرع : إعلامٌ على وجه مخصوص. وبناءً عليه فالأذان يعني الإعلام. وهو بذلك يشكّل وسيلة إعلاميّة متحضّرة لاتُشبه وسيلة الإعلام البدائي، المتمثّل بقرع أجراس الكنائس، كما تُقرع أجراس المدارس لتنبيه الطلاّب.

والذي يُريد إعلام جماعة متعبّدة، إعلاماً واعياً، ليذكّرهم فيه بعبادة ربّ العالمين، لابدّ له أن يُخاطبهم مخاطبة ذات دلالة، وهكذا الحال في كلّ أمرٍ هام يراد إبلاغهم ايّاه قال تعالى : ﴿**فلّما جهّزهم بجهازهم، جعل السّقاية في رحل أخيه، ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيّتها العير إنكّم لسارقون.**﴾ يوسف (٧٠) فقد عمد يوسف عليه السّلام إلى الأذان لإخبار القوم بأمرٍ هام. وقد كانت وسيلته هذه وسيلةً مُتحضّرة.

وكان الصّحابة قد تشاوروا قبل فرض الأذان على أن ينصبوا علامةً يعرفون به وقت الصّلاة. فأشار بعضهم بالناقوس. فقال الرسول هو للنّصارى وأشار بعضهم بالبوق. فقال الرسول هو لليهود. وأشار بعضهم بالدّف، فقال الرسول هو للرّوم. وأشار بعضهم بإيقاذ النار، فقال الرسول ذلك للمجوس..

فقام رسول الله ﷺ مُهتمّاً بهذا الأمر، فرأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة في تلك اللّيلة في نومه ملكاً علّمه الأذان والإقامة. فأخبر النبي ﷺ بذلك، وأردف على ذلك عمر بن الخطّاب (رضى) أنّه رأى مثل مارأى زيدٌ في منامه. فقال رسول الله ﷺ لقد شرّع الله تعالى لنا الأذان إعلاماً وتذكيراً. وحديث عبد الله بن زيد بن ثعلبة هذا مشهور.

والذّي سنّه لنا رسول الله ﷺ هو أن ندعو به بعد سماع الأذان: (اللّهم ربّ هذه الدّعوة التّامة، والصلاة القائمة، آتِ مُحمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته.). ليدعو المسلم بهذا الدُّعاء مُنطلقاً بذهنه من أنّ الأذان هو (دعوة تامّة). أي دعوة إعلامية احتوت على لُبّ لُباب التعاليم الإسلامية، وصيغت وسيلة دعوةٍ إعلاميّة تامّة، ناطقة، حسنة البيان، بليغة الإيجاز. فلا تحتمل أن يُنقص من ألفاظها لفظاً واحداً، أو يُستبدل كلمةً بأخرى، أو يُزاد على ألفاظ الأذان ألفاظاً وجُمَلاً. لأن الأذان جاء (دعوة تامة)، على حسب التّعريف المنصوص عليه في هذا الدُّعاء المسنون والمتواتر عن محمد رسول الله ﷺ.

وهذا الأذان يُنبّهنا إلى حقيقة أنّه مُعجزةٌ إعلاميّة، وتمثّل إحدى تجليّاتِ ربّ العالمين. فهذا هو مايُستدل من الدُّعاء المسنون: (اللهم رب هذه الدعوة

التامّة). وقد أتت هذه الوسيلة الإعلامية متحضّرة وعامة، على مستوى كمال التعاليم التي أتى بها الدّين الإسلامي.

نتبيّن، على أساس من هذا الفهم، علاقة مُعجزة الأذان الإعلامية بعمليّة جمع المؤمنين للصّلاة بين يدي خالقهم ومعبودهم كما نتبيّن أن هذه الوسيلة الإعلاميّة، يبدو إعجازها أيضاً، من خلال اختراقها لجميع الحواجز الماديّة على صعيد الواقع. فهي تقرع بالتّذكير أسماع أعتى جبابرة الأرض بطشاً وتجبُّراً، بإيجاز بليغ جامع مانع. إلى جانب أنّ مُعجزة الأذان هذه اعتبُرت في ديننا الإسلامي شعيرةً من شعائره نصّاً ومعنى.

فإذا انطلقنا الآن نتفهّم الأذان على أساس من تعريفه الذي نصّ عليه دُعاء مابعد الأذان (اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة..) وعلى أنّه دعوةٌ تامّةٌ وإعلامٌ وتذكير ونداء جاء في كمال البلاغة والإيجاز. فلابدّ أنّه احتوى على مقدّمة ومضمون وخاتمة. ذلك أنّ هذه الأمور من علامات كمال مثل هذه الدّعوة التّامة، وعليه أنطلق في شرح الأذان من هذا المُنطلق الموضوعي.

ومادام الأذان في غاية البلاغة والإيجاز، فلابُدّ أن تُعدّ أوّل جُمَلِهِ (الله أكبر) مقدّمة لمضمونه. وأن تُعدّ آخر جُمَلِهِ (لاإله إلاّ الله) خاتمةً لهذا المضمون. ومابين جملتي المقدمة والخاتمة مضمون الأذان نفسه.

من هذا المُنطلق، نتدبّر جُملتي المُقدّمة والخاتمة، بنهج علمّي قائم على أساس من الملاحظة. فالذي نُلاحظه هو أنّه في حين تبتدىء جُملة المُقدّمة بلفظ الجلالة (الله)، تنتهي جُملة الخاتمة بنفس اللّفظ (الله). ونستنتج من ذلك أنّ مضمون الأذان إعلامٌ حول وجود (الله) عز وجلّ.

ونلاحظ أيضاً أنّه في حين ورد لفظ (الله) في المقدمة مُعرّفاً بصفة (أكبر). وأكبر صيغة تفضيل، أي أنّ فهم الناس وإدراكهم مهما عظُم واتّسع، فلا يتّسع للإحاطة بعلم ذات الله، على اعتبار أنه تعالى أكبر من كلّ كبير يعرفونه، فقد لاحظنا أن جُملة الخاتمة: (لاإله إلا الله) أوردت لفظ (الله) على أنّه لاإله في الوجود إلاّ هو أي لاوجود مستحقٌّ من الإنسان المحبّة والعبادة إلا الله عز وجل. على اعتبار أن لفظ (إله) اشتق من الوَلَه. وهذا الأمر ينطق بقدرة الله وعظمته وسعة علمه وإحاطته ورحمته.

وعليه، ومن خلال هـاتين الملاحظتين، نكـون قـد استنتجنا أنّ مقدّمة الأذان، وخاتمته قـد تناولتا وأوجزتا مضموناً واحداً، إنّما مـن زاويـتي نظـر مُختلفتين. قد أوجزتا أنّ تعاليم الإسلام تـدور جميعهـا حـول ذات الله المقدّسـة، وكبريائها وعظمتها.

ثم إنّ هذا الإسم (الله) الذي نادى الأذان إليـه، هـو إسـم جـامدٌ ذاتـي تفرَّدَتْ اللغة العربية به، ولم يورده أيّ دين غير الإسلام. فـالله هـو الإلـه مُعرّفـاً، وكأنّ هذا الإسم قد خُصّ بذات الله جلّ ذكره.

ونتناول مضمون الأذان، أي مابين جُملتي مُقدّمة الأذان وخاتمته. وهـو: (أشهد أن لاإله إلا الله، وأشهد أنّ مُحمّداً رسول الله، حيّ علـى الصـلاة، حـيّ على الفلاح، الله أكبر.). علماً بأنّ كلّ جملة منها يكرّرها المؤذن مرّتين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: مـاالدّاعي ليقـول المـؤذّن (أشـهد)، أي ماالداعي لشهادة المؤذن نفسه ضمن هذه الوسيلة الإعلامية؟

ونجـد الإجابـة علـى هـذا التسـاؤل فيمـا أفادتـه دعـوى جملتـي المقدمـة والخاتمة، وهي الإعلان عن وجود الله وكبريائه وعظمته، فهي دعـوى احتـاجت إلى دليل وإثبات. وقد جيء بشهادة المـؤذّن إثباتـاً لصحّـة هـذه الدّعـوى وتكـرّر مرّتين أيضاً. فالمؤذّن يقدّم نفسه في هذه الحالـة كشـاهد إثبـات، علـى أنّـه بحث وآمن وتعرّف إلى الله أيضاً.

وقامت شهادة المـؤذّن علـى إثبـات أمريـن اثنـين تـدور حولهمـا تعـاليم الإسلام هما (أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله) كـأوّل جُمُـلٍ مضمون الأذان.

وسؤال آخر يطرح نفسه: مادلالة أن يُنادي المؤذّن (حيّ علـى الصـلاة) وهو يلتفت بوجهه نحو يمينه؟

ونجد الإجابة في كتاب الله القرآن نفسـه، الـذي اصطلـح علـى تسـمية المؤمنين بأهل اليمين. فالمؤذّن يلتفت إلى ميمنته كرمز يوحي من خلاله أنّـه يحـثّ المؤمنين للاجتماع للصلاة. ثم إن القرآن الكريم اصطلح لغير المؤمنـين اسـم أهـل الشّمال. والمؤذّن يلتفـت إلى شماله كرمـز يوحـي مـن خلالـه أنّـه يحـث المؤمنين للتحقيق في أمر الإسلام وتبيّن أنه طريق الفلاح. فالمؤذّن يقدّم نفسه شـاهداً حيّـاً على تبنّي الصّلاة الإسلامية من جهة، وتبيّنه بصورة عملية طريق الفلاح.

وكأن المؤذّن يقول بألفاظٍ أخرى: إن الحياة الدّنيا تتأرجح مابين حياة خُسران وحياة فوز وفلاح، وأنّ الإيمان بالله وبرسوله وتبني تعاليم الإسلام عمليّاً هو طريق الفوز والفلاح.

ويُنهي المؤذّن مضمون أذانه بجُملة (الله أكبر) أي لامرجعيّة للإنسان في حياته ولاسبيل لنجاته وفلاحه إلاّ الرّجوع إلى الله الذي لايفوقه في عظمته ووسيلة هدايته أي عظيم دونه. على اعتبار أنّ (أكبر) هي صيغة تفضيل.

هذه هي دلالات ألفاظ وسيلة الأذان الإسلامية المُعجزة ورموز حركات المؤذّنين. فإن أمعن المرء فيما يتركه الأذان من آثار في نفوس سامعيه، فسيعلم أنّ ألفاظ الأذان تُحرّك عقولهم، وتهزُّ أوتار أفئدتهم هزّاً عميقاً، لايهزُّها شيء آخر مثله.

وهكذا فإنّ الأذان، وعلى الصّورة التي وضّحتُها، يُعدُّ دعوةً تامةً موجهة إلى النّاس كافة، له مقدّمته ومضمونه وخاتمته.

فهو كتابٌ إعلاميّ موجّه إلى المؤمنين وغير المؤمنين في آنٍ واحد، وضمن خطّة إعلامية مُتّصفةٍ بصفة العقلانية والمنطقية والحضارية.

الأذان خطّة عقلانية، لأنّها بألفاظها تقرع القلوب وتمضي إلى الأفئدة تحمل إليها نَسمات الإيمان والهداية.

والأذان خطّة منطقيّة اقتضتها دعوة الإسلام الشاملة للناس كافة، والأذان خطّة حضارية، على اعتبار أنّها تمثّل تعاليمَ منهجيّة علميّة مؤيّدة بالأدلّة والبراهين، وتصل هذه التعاليم بالإنسان مرحلة الهداية واليقين الجازم أيضاً. وعليه فقد أتت معجزة الأذان الإسلامية مؤثّرة فعالّة ومُشوّقةً وجذّابة تخترق الآذان، وتنحدر إلى القلوب، في وقت صيغت فيه سهلةً على الأفهام والسّماع، وإلى جانب مااحتوته من جدّةٍ وحكمةٍ بالغة.

والآن فهل يستسيغ عقل مفكّر أن يُوحى إلى شخصين في ليلةٍ واحدةٍ بألفاظ هذا الأذان الإسلامي، وعن طريق رؤى رآها هذان الشّخصان ويكون لمحمد اليتيم الأمّي دخلٌ في ذلك؟ فمن أين لهؤلاء الأميّين أن يبتدعوا وسيلة إعلاميّة حضاريّة وبهذه المتانة الموضوعيّة أيضاً؟

ولِمَ لم تخطر آيّة وسيلة إعلامية مثلها لأذهان جميع أنبياء بني اسرائيل؟ وهم الذين اعتبروا أنفسهم الشّعب المختار (ليهوه) الإله الرّب كما تسمّيه هذه التوراة المعاصرة والتي كانت نفسها بين يدي (بُحيرا) وسواه؟

فمن أين كان لمحمّد اليتيم الأمّي أن يَدُلّه الراهب بُحيرا على هذه الوسيلة الإعلامية (الأذان)؟ ومن أين كان لهذا الرّاهب أن يبتدعها، وهي خارج إطار تعليم دينه؟ وكيف يزعم بعد ذلك الأب حدّاد ومن على شاكلته أنّ محمدا رسول الله اقتبس تعاليم التوراة والإنجيل عن رُهبانهم وصاغها بلسانٍ عربّي مبين؟

ونخلص من هذا كله للقول: إن مُعجزة الأذان الإسلامية الإعلامية هي في حدّ ذاتها الدليل القاطع على مصداقية القرآن ومصداقية نبيّه محمد ﷺ اليتيم الأمي. هذا القرآن الذي أنزله الله على قلبه ليكون رحمة للعالمين.

٩ً ـ دليل المصداقية التاسع:

والدليل التاسع على مصداقية القرآن الكريم، وإثبات أنّه لم يكن من تأليف محمد اليتيم الأمّي، هو نزوله مصدّقاً لنبوءات التوراة والإنجيل، بالرغم من كون هذين الكتابين مُحرّفين.

هذا، وإنّ الذي يدعو للدهشة، هو أنّ القرآن الكريم لفت أنظار الباحثين إلى هذا الدليل، وذلك في أوّل آيةٍ منه، من خلال قوله تعالى: ﴿ آلم. **ذلك الكتاب، لاريب فيه، هُدىً للمُتقيّن.**﴾. أفلم نلاحظ كيف أن الله تعالى استبدل إسم الإشارة للقريب بإسم الإشارة للبعيد، فلم يقل في هذه الآية المذكورة (هذا الكتاب) بل قال (ذلك الكتاب). والمعروف في علوم اللغة العربية أنّ حكمة هذا الإستبدال، فيه الإشارة إلى عظمة شأن القرآن الكريم، إظهاراً لحقيقة مُحتواه. وإنّه لأسلوبٌ بيانّي سديدٌ وبليغ.

فماهي ناحية العظمة لشأن هذا القرآن التي أشار إليها هذا الاستبدال في هذا المقام؟ ونجد الجواب في حكمة تعريف لفظ (الكتاب) هنا بالألف واللاّم. فلم يقل الله عز وجل (هذا كتاب لاريب فيه) بل قال ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه**﴾. فالألف واللاّم العهدية التي عُرِّفت بها كلمة (كتاب) هنا، كان المقصود بها نقل ذهن القارىء إلى أمرٍ معهود في أذهان اليهود والنصارى قبل نزول

القرآن، وهو أنّ الله تعالى سيبعث نبيّاً مُشرّعاً مثيل موسى ويُنزل عليه كتاب تشريع أيضاً. فهذا الأمر المعهود في أذهان اليهود والنّصارى هو ماأنبات عنه التّوراة والإنجيل. وعليه فإن المقصود من تعريف كلمة (كتاب) هنا كان الإعلان أنّ هذا القرآن الذي نزل على قلب محمد اليتيم الأمي ﷺ قد جاء تصديقاً لتلك النّبوءات. لذا فهو كتابٌ ذو شأن عظيم.

وقد زادنا الله عز وجلّ إدراكاً لعظمة شأن هذا القرآن حين أضاف قوله تعالى: ﴿**لاريب فيه هُدىً للمُتّقين**.﴾. أي أنّ عظمة شأن هذا الكتاب المعهود نزوله ذهنياً عند اليهود والنصارى يتأتّى أيضاً من كونه ﴿**لاريب فيه**﴾ هو مُتّصفٌ بكمال الصنعة لُغةً ومضموناً. كذلك فإنّ آياته مُبَرأةٌ عن أن يأتيها الباطل والشّك من حيث صياغتها ومن حيث دلالاتها.

وإضافةً إلى هذا وذاك فإنّ هذا الكتاب ﴿**هدىً للمُتقين**﴾. أي أنّه احتوى على نهجٍ للحياة علمي خاطب عقول المؤمنين. على اعتبار أنّ البشر أمسوا مُؤهّلين لتلقّي مثل هذا النهج الفلسفي، متجاوزين بذلك مرحلة التّعليم التوراتي الذي كان أتى على شكل نظام سلوكٍ بشري، وفقاً لاحتياج البشر من بني اسرائيل في زمن إنزاله، علماً بأني وضّحت معالم هذا النّهج في الدليل السّابع سابقاً.

على هذه الصورة، ومن خلال هذا الفهم، وتجاه هذا الدّليل الذي قدّمه القرآن الكريم في أول آيةٍ من سورة البقرة إثباتاً لمصداقيّته، نجد أنفسنا مُلزمين بالعودة إلى مضامين التوراة نفسها باحثين فيها عن هذه النبّوءات. وإن كُنا مُوقنين أنّ التوراة المعاصرة لاتزيد عن كونها مجموعة أسفار قصصيّة، وأنّها تعرّضت للتحريف، لكن من واجبنا أن نعترف في الوقت نفسه بفضل هذه التوراة، من حيث أنّها زوّدتنا بمعلوماتٍ قيّمةٍ عن سير حياة أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم على وجه التقريب.

والذي نلاحظه هو أنّ التوراة تبتدىء بسفر التكوين، هذا السّفر الذي يحكي لنا قصّة خلق العالم وخلق آدم، ومأنجبه من أولاد حتى بعثة نوحٍ وإبراهيم، وانتهاءً بقصّة يوسف عليه السّلام.

والسّفر الذي يأتي بعد سفر التكّوين، هو سفر الخروج، ويحكي لنا قصّة يوسف وولادة موسى في بيت فرعون ونُبوّته، وخروجه من مصر ببني

إسرائيل، وتخليصه إيّاهم من عبوديّتهم، وانتقاله بهم إلى صحراء سيناء. كما يحدّثنا سفر الخروج عمّا أوصى موسى قومه بعد الإنتقال بهم إلى هناك.

والسّفر الذي بعد الخروج هو سفر اللاّويّين. ويحتوي على الوصايا الّتي أوصى بها موسى قومه عند جبل سيناء. وسفر اللاّويين هو عبارة عن قصّةٍ أيضاً يرويها كاتبها، بدليل أنّه أنهاها بقوله: (هذه هي الوصايا والأحكام الّتي أوصى الرّب بها موسى إلى بني إسرائيل في جبل سيناء).

ويأتي بعده سفر العدَد، ليُكمل به هذه الوصايا. حيث يقول كاتبه عند نهايته: (هذه هي الوصايا والأحكام الّتي أوصى بها الربُّ إلى بني اسرائيل، عن يد موسى، في عربات مؤاب، على أُردن أريحا).

ويأتي بعده سفر التثنية، ويقصُّ فيه كاتبه ماحدث في أواخر أيّام موسى. كما يروي أنّ موسى عاش مائة وعشرين سنة ومات في أ رض مؤآب، وأنّ آثار قبره كانت قد ضاعت، حين كتابة الكاتب هذا السّفر. أي أنّ كاتب سفر التثنية، كتبه بعد مُضيّ عدّة قرون على وفاة موسى. والذي يؤكد ذلك أيضاً، قول الكاتب نفسه قبل انتهائه من كتابه سفر التثنيّة المذكور: (ولم يُقم بعدُ نبيٌّ في إسرائيل مثلُ موسى الذي عرفه الرّب وجهاً لوجه..).

والذي يُهمُّنا نحن هو البحث عن نُبوءاتٍ جَعلت بفضل الله في بُطون هذه الأسفار التوراتية، مؤكدةً لنا صحّة الدّليل الذي قدّمه القرآن الكريم في أوّل آية من آياته، تدليلاً على مصداقيّته.

ويدفعنا منطق البحث حثيثاً، لنبحث عن هذه النّبوءات في سفر التثنيّة، بصورة خاصة. على اعتبار أنّه يحكي لنا قصّة آخر أيّام موسى مع قومه. والمنطق يقتضي أيضاً أن يكون النّبي موسى قد تلقّى في آخر أيام دعوته نبوءات عن مُستقبل أمّته، وبما يتعلق بنزول القرآن الكريم خاصة وعن بعثة محمّدٍ سيّد المُرسلين. فهذا الأمر يهدي إليه منطق الأحداث وسير الأمور.

والحقّ أننا إذا تصفّحنا سفر التّثنية، ووصلنا إلى الإصحاح الثامن عشر منه، حيث يروي لنا الرّاوي وصايا موسى الموجّهة إلى قومه والتي كان ينبغي لهم أن يعملوا بها عند اقتحامهم لأرض كنعان، واستقرارهم فيها. فإنّنا سنجد عند الجملة (١٥) أنّ موسى أوصى قومه قائلاً: (متى دخلت الأرض الّتي يُعطيك

الربّ إلهُك، لاتتعلّم أن تفعل مثل رِجْس أولئك الأمم.) وقد قصد بأولئك الأمم الكنعانيين الذين كانوا على الوثنيّة في تلك الأيّام.

وهُنا يُضيف الرّاوي أنّ موسى قد تلقّى نبوءةً في تلك الأيّام، استجابةً من الله لطلبه الذي طلبه في منطقة حوريب التي مات فيها ودُفن. وأنّ هذه النّبوءة تتعلّق بمستقبل قومه بني اسرائيل. وهذه هي ألفاظ النّبوءة كما رواها كاتب سفر التّثنية: (لاأعود أسمع صوت الرّب إلهي، ولاأرى هذه النّار العظيمة أيضاً لئلاّ أموت.) ويُجيبُه ربّه قائلاً: (أُقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلَك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لايسمع كلامي الذي يتكلّم به بإسمي أنا أُطالبه، وأمّا النبيّ الذي يُطغي، فيتكلّم بإسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهةٍ أُخرى، فيُقتل[1] ذلك النبي. وإن قُلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب؟ فما تكلّم به النبيُّ باسم الرّب و لم يحدث، و لم يَصِرْ. فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب، بل بطُغيان تكلّم به النّبي، فلا تخف منه). سفر التثنية ١٨/١٨-٢٢.

وإنّها لنبوءةٌ عظيمة الشأن حقّاً، تفضّل بها علينا راوي التّوراة، فوثّقها لنا لاشتهارها في زمنه يقيناً بين أفراد بني اسرائيل. فقد كانت هذه النّبوءة العظيمة التي بشّرتهم ببعثة نبيّ مُشرّعٍ من إخوتهم من بني إسماعيل، كانت نبوءة معهودة في أذهانهم على الدّوام، لذلك تلقّاها راوي التّوراة ووثّقها في سفر التثنية المذكور.

وقبل أن أعمد إلى شرح هذه النّبوءة لأثبت أنّها هي المشار إليها ضمن أوّل آيةٍ من آيات القرآن المُبين.

أعود بكم بادىء ذي بدء إلى قصّة ابراهيم عليه السّلام. فهو الأب لهاتين السّلسلتين من ذريّته: اسحاق وإسماعيل. وأعود بكم إلى ألفاظ الروايات التوراتية نفسها، على حسب ماوردت، وأرجو أن يُلاحظ القارىء هُنا أنّ أحداً من رواة التّوراة أو الإنجيل لم يزعم أنّ كتابه السّماوي هو آخر الكتب السّماوية. أو أنّ أنبياءه كانوا آخر الأنبياء المرسلين. بل العكس هو الصحيح. ذلك أنّ نبوءة سفر التّثنية التي نحن بصددها تؤكّد حقيقة أنّ أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم،

---

[1] ملاحظة: هذا لفظ الطبعة التوراتية ماقبل عام (١٨٧٠)م، وقد حرّفوها فاستبدلوها بكلمة (يموت) بعدها

باعترافٍ من موسى عليه السّلام نفسه، لم تكن آخر التّعاليم ولاآخر الأنبياء. فالذي يعلمه كلّ دارس لتاريخ الأديان هو أنّه لم يبعث الله تعالى من بعد موسى وأنبياء أمّته أيّ نبيّ مُشرّع ومعه كتاب تشريع إلا القرآن الكريم ومحمداً خاتم النبيّين.

ويظنّ بعض السّطحيين خطأً أنّ عيسى كان نبيّاً مُشرّعاً. وكيف يكون كذلك وهو الذي قال في إنجيل متّى ٥/١٧-١٩ بالحرف الواحد: (لاتظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ماجئت لانقض بل لأُكمِل. فإنّي الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السّماء والأرض، لايزول حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدة من النّاموس، حتى يكون الكُلّ، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصُّغرى وعلّم الإنسان هكذا، يُدعى أصغَر في ملكوت السمّاوات.). فالمسيح بقوله هذا قصد بالنّاموس شريعة موسى ووصاياها ونبوءاتها. وأنكر أن يكون ربُّه قد بعثه بشريعةٍ جَديدة. مؤكّداً أنّ بعثته تُكمل تعاليم التوراة ووصاياها ونبوءاتها.

وأعود إلى سفر التكوين لأنقل منه قبساً ممّا أوحاه الله تعالى إلى ابراهيم عليه السّلام. فقد ورد في الإصحاح ١٥/١٨: (في ذلك اليوم قطع الرّب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النّهر الكبير، نهر الفُرات.).

وروى هذا السّفر عن هاجر زوجة إبراهيم في الاصحاح ١٦/١٠، أنّه ظهر لها ملاكُ الرّب، وقال لها: (هاأنت حُبْلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه اسماعيل، لأنّ الرّب قد سمع لمذلّتك.. فولدت هاجر لأبرام ابناً. ودعا أبرامُ اسم ابنه الذي ولدته هاجر، اسماعيل وتكلّم الله معه قائلاً: أمّا أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يُدعى اسمك بعد أبرامَ، بل يكون اسمك إبراهيم، لأنّي أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأُثمرك كثيراً جدّاً، وأجعلك أُمَماً، وملوكٌ منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبديّاً.) ١٧/٥ (فقال الله بل سارة امرأتُك تلد لك إبناً وتدعو اسمه إسحاق، وأُقيم عهدي معه عهداً أبديّاً لنسله من بعده، وأمّا اسماعيل فقد سمعت لك فيه، هاأنا أُباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جدّاً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أُمّةً كبيرة.

ولكن عهدي أقيمه مع اسحاق الذي تلده لـك سـارة، في هـذا الوقـت في السّنة الآتية..) ٢١/١٧.

ونلاحظ أنّ الرّاوي في سفر التكّوين يروي لنا أنّ هاجر وابنها اسماعيل سكنا منطقة مكّة المُكرّمة. فقـد قـال: (وكـان الله مـع الغُـلام فَكَـبُرَ وسـكن في البريّة. وكان ينمو رامـي قـوس. وسـكن في بريّـة فـاران.) وهـذا الكـلام متعلّـق باسماعيل عليه السّلام، كما يدلّ على ذلك سياقُ الكلام. علماً بأنّ منطقـة مكـة المكرّمة أُطلق عليها وماجاورها منطقة "فاران" وذلك لفرار هاجر واسماعيل إليهـا بأمر ربّهم عز وجلّ. فقد كان مُقدّراً أن يبعـث الله تعـالى مـن نسـلهما مُحمّـداً رسول الله ﷺ، ويُنزلَ القرآن الكريم على قلبه ليكون للعالمين نذيراً.

وأنتقل من هذا التمهيد الذي مهّـدت بـه، والـذي كـان ضروريـاً جـدّاً ليُعطي القارىء فكرةً عن تسلسل الأحـداث القديمـة، انتقـل منـه إلى نبـوءة سفر التثنية العظيمة التي نقلت لكم ألفاظها حرفياً، شارحاً هذه النّبوءة بتفحّص وتدبّر.

والحقيقة أن هذه النّبوءة قد احتوت على أمور عديدة، وعلامات كثيرة. فكلُّ لفظٍ من ألفاظها مُفعـمٌ بـالدّلالات. علمـاً بـأنّ اليهـود والنّصـارى يعـترفون بوجود هذه النّبوءة كما أوردها سفر التثنيّـة المذكـور. لذلـك تُعتـبر هـذه النّبـوءة حجةً قاطعةً تُدينهم جميعهم أمام الله، وتجاه عباده المفكّرين.

وأول ماورد في النبّوءة: (أُقيم لهم من وسط إخوتهم نبيّاً مثلك.). والحقّ أن الذي ترجم أسفاره التوراة إلى اللغة العربية، ترجمها ترجمةً حرفيّةً، بأمانة، فهـو لم يستعمل هنا كلمة (أبعث) أو (أصطفي). بل استعمل كلمة (أُقيم لهم) . وأقام من قام بمعنى انتصب. فأقام معناه نصّب وأدام هذا التنصيب. ذلك أنّ فعل أقـام، يحوي ضمناً معنى الدّوام، فأنت تقيم جـداراً لالتهدمـه، بـل ليظـلّ يحمـل سـقف البناء. فجملة (أُقيم لهم نبيّاً مثلك.) تعني أنّ الله تعـالى سـيبعث لهـم نبيّـاً مشـرّعاً مثْلَ موسى عليه السلام، وتدوم نبوّته أيضاً بمعنى أنّه يكون خاتم النبيّين.

ويتساءل الإنسان هنا بداهةً عن القوم الذي سـيصطفى الله تعـالى أحـد أفراده مصداقاً لهذا الوعد المنصوص عليه في هذه النبـوءة مصـداق (.. مـن وَسَـطِ إخوتهم..) فمن هم إخوة بـني إسـرائيل؟ هـم الفـرع الثـاني لنسـل ابراهيـم عليـه السّلام، وهو نسل إسماعيل، أي أنّ الله تعالى وعـد أنّـه سيُقيم نبيّـاً مُشـرّعاً مـن وسط نسل إسماعيل عليه السلام، مثلَ موسى ويأتي معه تشريع، وهذه إشارة إلى

هذا القرآن الكريم نفسه الذي أنزله ربُّنا على قلب محمّد بن عبد الله ﷺ الصادق الأمين.

وتضيف النّبوءة: (وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به.) وكأنّ هذه الألفاظ تعني أن هذا النّبي المشرّع لاينطق عن هواه ولامن نفسه، بل ينقل إلى النّاس مايُوحى إليه من ربّه حرفيّاً. وهذا الأمر يفسّر لنا حكمة ابتداء نزول القرآن الكريم بآية (اقرأ) بمعنى احملْ هذه الرسالة السّماوية وبلّغها إلى الناس كافّة. على شاكلة قولك: أقرأ منّي فُلانا سلامي. وهذه الجملة من النبوءة تفسّر لنا حكمة قوله تعالى، ﴿**ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين، فما من أحدٍ عنه حاجزين.**﴾.

المهمّ أن جملة: (وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به.) تعني صراحةً أن هذا النّبي المشرّع الموعود به، سيتلقّى من ربه وحياً لفظيّاً، ويؤمر بتبليغه للناس حرفاً بحرف، وهو أمرٌ لم يسبق أن حدث في تاريخ جميع الدّيانات السّماوية. وبذلك يكون هذا النّبي المُشرّع مأموراً بوضع حجر أساس تكوين أمّةٍ جديدة غير قوم بني إسرائيل. وهذه الأمة الجديدة مُكلّفة بحمل رسالة الله تعالى إلى الناس كافة إلى أبد الآبدين.

وتضيف النّبوءة: (ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه.). ولم تستثن هذه الكلمات أفراد بني اسرائيل من مسؤولية الاستجابة لصوت هذا الوحي الجديد. ولم تعفهم من مسؤولية واجب الإيمان به. بل (ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه.). فقد ورد لفظ الإنسان مُعرّفاً ليفيد الاستغراق، وليشمل جميع النّاس بما فيهم "بنو إسرائيل".

ثمّ إنّ جمله (أنا أطالبه) تفيد أنّ من يكفر بهذا النّبي وشرعه وماينزل عليه من وحي لابدّ أن يلقى عقاباً من ربّه. كذلك جملة : (الذي يتكلّم به باسمي) تعني أنّ هذا الوحي الجديد يبتدىء عموماً ببسم الله. وهذه ظاهرة اختصّ بها الوحي القرآني. ذلك أنّ جميع سور القرآن ابتدئت ببسم الله الرحمن الرحيم باستثناء سورة التوبه التّابعه لما قبلها.

وأضافت النّبوءة : (وأمّا النّبي الذي يَطْغى، فيتكلّم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهة أخرى، فيقتل ذلك النّبي.) يعني أنّ

النّبي المشرّع المُنبأ عنه، سيعصمه الله من القتل ويحميه. فلن تنجح مؤامرة في قتله والقضاء عليه.

وهذا الأمر يُذكّرنا بوعد الله تعالى محمداً رسول الله في القرآن الكريم : ﴿**والله يعصمك من النّاس**﴾. والمعلوم لكلّ إنسان هو أن الله تعالى عصم محمداً وحماه ومكّنه من أداء رسالته كاملة، ليقول في حُجّة الوداع : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**.﴾.

وقد أضافت النبوءة: (وإن قلت في قلبك : كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب. فما تكلّم به النّبي باسم الرّب و لم يحدث و لم يَصِر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرّب، بل بطغيان تكلّم به النّبي، فلا تخف منه.). وقد وضحت لنا هذه الجمل بجلاء تطابق هذه النبوءة وماجاء في القرآن الكريم، ومن تلقّى هذا القرآن بكلّ صراحة وقوّة.

ذلك أنّ القرآن الكريم احتوى على مئات النّبوءات التي تحقّق منها ماتعلّق بأزمنتها، وسيتحقّق فيها مايتعلّق بالأزمنة القادمة إن شاء الله العزيز. لذلك ينبغي لليهود والنّصارى أن يعوا ويُدركوا دلالات ألفاظ هذه النّبوءة، ويخافوا أن ينزل بهم عذاب الله، أكثر ممّا نزل بهم حتى الآن، فالله شديد العقاب. وأن يُذعنوا لما دلّتهم عليه ألفاظ نبوءه سفر التثنية هذه، فيؤمنوا بالله ورسوله وبالقرآن الكريم الذي نزل معه ليكونوا بذلك من النّاجين ومن المُنعمين.

وأعود لأشير إلى أن دلالات هذه النبوءة التوراتيّة يستحيل أن تنطبق على أيّ نبيّ إسرائيلي أو على المسيح بن مريم الذي لم يك نبيّاً مشرّعاً، ولاجاء لينقض التوراة، كما صرح بذلك هو نفسه.

بل أقول : إنّ المسيح نفسه أكّد على نبي اسرائيل وحواريه في انجيل يوحنّا ١٢/١٦ بقوله: (إنّ لي أموراً كثيرة لأقول لكم، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنّه لايتكلّم من نفسه، بل كلّ مايسمع يتكلّم به، ويُخبركم بأمور آتية).

فلينظر القارىء كيف اعترف المسيح أنّ قومه في زمنه لم يكونوا على مستوى تلقّي شريعة كاملة، وكيف أنبأ عن بعثة من سمّاه (روح الحق) الذي سيرشد إلى جميع الحقّ. أي أنّ المسيح بن مريم قد أنبأ عن بعثة هذا النّبي المشرع

والذي ستمثّل تعاليم شريعته (روح الحق) فلا يتكلّم من نفسه. أي لايأتي بشيء من لدنه. بل كل مايتكلّم الله عز وجل به يصدع له ﴿**إنّما هو وحيٌ يوحى**﴾. كما أُمر المسيح بن مريم أن يُعْرِضَ عن الجاهلين، وأنّ هذا النّبي الموعود به (يُخبركم بأمورٍ آتية) أي أنّ وحي كتابه حافلٌ بالنّبوءات.

على هذه الصّورة يتبيّن لكل ذي عين بصيرةٍ أنّ الدّليل الذي أتت به نبوءة سفر التثنية التوراتية، يُعتبر حُجّة ودليلاً قاطعاً على مصداقيّة القرآن الكريم. وهي نبوءةٌ تُدين اليهود والنّصارى معاً ومايعتقدونه.

١٠ً - دليل المصداقية العاشر :

لابدّ لهذا الدليل من تمهيد. ذلك أنّي سأقدّم فيه اثنتي عشرة نبوءةً قرآنيّةً مجتمعة في سورةٍ واحدةٍ، مصداق نبوءة انجيل يوحنا ١٢/١٦ (.. ويخبركم بأمورٍ آتية.) أي ينبئكم بنبوءات كثيرة. وتتأتّى ضرورة هذا التّمهيد ممّا اشتملت عليه نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ من أنّ النّبي الذي يطغى يُقتل. فلابدّ لي في هذا الدليل العاشر من إثبات أمرين اثنين: الأوّل أنّ موت محمد رسول الله ﷺ كان موتاً طبيعياً، وقد عصمه الله ربّه من الهلاك. والأمر الثاني تقديم نماذج من نبوءات قرآنيةٍ مستقبلية انطوى عليها هذا القرآن الكريم.

والحقيقة هي أنّ القرآن الكريم لم يُنكر على اليهود والنّصارى هذين المعيارين لاثبات صدقه وصدق محمد ﷺ الذي أُنزل عليه. بل وأضاف القرآن الكريم إلى هذين المعيارين، معياراً ثالثاً، وهو أنّ اليهود والنّصارى الذين يكذّبون هذا القرآن وهذا الرسول ﷺ لن يفلتوا من عذاب ربّهم الذي سيُنزله بهم نتيجة لتكذيبهم إياه مصداق نبوءات كتبهم التي يقدسّونها.

وهذه المعايير الثلاثة تضمّنها قول الله عز وجلّ في سورة الأنعام (٢١): ﴿**ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً، أو كذّب بآياته، إنّه لايفلح الظالمون.**﴾ وهذه الآية التي احتوت على هذه المعايير الثلاثة، وردت في مواجهة أهل الكتاب ومعايير كتبهم أيضاً. فقد قال تعالى في سياق الآية : ﴿**الذّين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم، فهم لايؤمنون**﴾ أي أنّ اليهود والنّصارى وقد دُعوا للإيمان، بهذا القرآن وهذا الرسول، يعرفون صدقه

كما يعرفون أبناءهم، لانطباق نبوءات كتبهم المقدّسة (التوراة والانجيل) عليه وعلى من أُنزل عليه انطباقاً كاملاً.

ذلك أنّ بين الآباء والأبناء صلات عاطفيّة أصيلة، فقد وُجدت كذلك بين نبوءات كتب اليهود والنّصارى وبين هذا الكتاب وهذا النّبي صلاتٌ عاطفيّة أصيلة. وهم إذ يتنصّلون من هذه المعرفة وهذه الصّلة، يكونون من ﴿ **الذّين خسروا أنفسهم**﴾. كخُسران الوالدين لأبنائهما. هذا إذا كان اليهود والنصارى يحسبون لعاقبتهم حسابها. أما الذين لايحسبون لها حسابها، ولايسعون للتوثّق من هذه الحقيقة وقبولها ﴿ **فهم لايؤمنون** ﴾ أي لايُستغرب كُفرهم وتنكّرهم لهذا القرآن وهذا النبي ﷺ.

وهذان المعياران النّابعان من نصوص نبوءات كتب اليهود والنصارى التي يُقدّسونها، المُتعلّقان بهما خاصّة، لايؤخذ بهما إلاّ في حال اعتقاد المرء بوجود الله عز وجلّ، وتدخّله في أمر مدعيّي النّبوءة الكاذبين ممّن لم يوح الله إليهم بشيء. لذا كانت شهادة الله بحقّهم هي الأساس في الموضوع.

لذلك فقد مهّد الله تعالى لهاتين الآتيين اللّتين ذكرناهما من سورة الأنعام بقوله: ﴿ **قل أيّ شيء أكبر شهادة، قل الله** (وقف اجباري) **شهيد بيني وبينكم** (وقف اجباري) **وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به، ومن بَلَغَ، أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهةً أخرى، قل لاأشهد، قل إنّما هو إلهٌ واحد، وإنّني بريءٌ ممّا تُشركون.**﴾. وقد لفتت هذه الآية الكريمة الأنظار إلى ضرورة احترام شهادة الله تعالى من جهة، ونددت بعقيدة تأليه النّصارى للمسيح من جهةٍ أخرى، ومهّدت بذلك لتقديم هذين المعيارين المذكورين.

وقد سبق أن قال الله تعالى قبل آيات التمهيد والمعايير هذه ﴿**وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.**﴾ والقاهرة من قَهَره يقهره قهراً: غلبه. والقهر مصدر قهر. فالقاهر هو الغالب جبراً واضطراراً. ومن أسماء الله "القهار" على وزن فعّال للمبالغة. فالآية تعني أن من يفتري على الله كذباً وينتحل صفة نبّي. لاينجو من عقاب الله وقهره إيّاه خصوصاً وأنّ الله تعالى حكيم وخبير، يُعاقب المفترين هؤلاء ويقهرهم بحكمته وخبرته.

ثم إنّ مايؤكّد الذي ذهبنا إليه من دلالات هذه الآيات، قوله تعالى قبلها مباشرة أيضاً: ﴿**وإن يَمْسَسْكَ الله بُضرٍ، فلا كاشف له إلاّ هو، وإن يمسسك**

بخير فهو على كلّ شيء قدير.﴾ وألفاظ هذه الآية الكريمة مهّدت لجميع ماأعقبها من آيات. فهي أشهرت وجود الله عز وجلّ القادر على كلّ شيء ويرقب الذين ينتحلون صفة نبيّ والذين لاينتحلون.

وزبدة القول هو أننا إذا كنّا قد اثبتنا في دليلنا العاشر هذا موت محمد رسول الله ﷺ موتاً طبيعيّاً. وأنّ الله قد حفظه من جميع مادبّره أعداؤه له من مكائد ومؤامرات لقتله والقضاء عليه وعلى دعوته. وإذا كنّا كذلك قد قدّمنا نبوءات كثيرة أتى بها محمد ﷺ من الوحي القرآني وفق نبوءة الإنجيل (ويخبركم بأمور آتيه) وتحققت هذه النبوءات أيضاً. أقول إذا تحقّق لنا هذان الأمران، نكون قد أحكمنا دليلنا العاشر إحكاماً ظاهر الدلالة على مصداقيّة القرآن الكريم.

أمّا ماتعلّق بموت محمّدٍ ﷺ موتاً طبيعيّاً، فيكفي أنّ الأحداث في حياته ﷺ توالت وفق ماوعده الله عز وجل في قوله: ﴿ **والله يعصمك من الناس.**﴾. وهذه الأحداث انتهت في حُجّة الوداع يوم أن خاطب محمد ﷺ الناس قائلاً ومودّعاً: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً..**﴾. ومن ثم تُوفّي محمد ﷺ وفاةً طبيعيّة، ولم يُقتل على أيدي أحدٍ من أعدائه. وهذا الأمر لايتطلّب منّا مزيد الشّرح أصلاً.

والذي يتبقّى علينا إثباته، هو أنّ القرآن الكريم أخبر بأمور كثيرةٍ آتية وفق (ويُخبركم بأمورٍ آتية). أي يتبقى الكشف عن النبوءات القرآنيّة المستقبليّة اللاّفتة للأنظار، المدهشة للعقول، بل التي تِفحُم اليهود والنّصارى بشكلٍ واضحٍ لايقبل الجدال.

ولابدّ من التّنويه هنا إلى أنّ مؤلّفي (فن الاختزال في القرآن الكريم) قد احتوى على تعداد نبوءاتٍ كثيرةٍ قرآنية تحققت جميعها. وأضيف هنا إيراد اثنتي عشرة نبوءة تضمّنتها سورة التكوير. لعلاقة هذه السّورة بزماننا المعاصر وماأتى به من تطّورات. ويزيد نبوءات سورة التكوير هذه عظمةً نزولها في مكة المكرمة، يوم كانت دعوة الإسلام في أوائل مراحلها، وقبل أن يشتدّ عودها، يوم كان يستحيل على محمد رسول الله ﷺ نفسه أن يفكّر في مستقبل أمّته، وماستمرّ فيه من أدوار.

وسورة التكوير هذه اشتمل عليها الجزء الأخير من القرآن الكريم. فهي جزء من خلاصة القرآن المُوسّعة. وهي أنبأت عن عصر انحطاط المسلمين وتخلّفهم وتخاذلهم في العمل على تعاليم الإسلام، وأنبأت عن علاماتٍ تتحقّق في الوسط الإسلامي والوسط غير الإسلاميّ، إلى جانب التبشير بزوال ذلك وعودة المسيرة الاسلامية وانتصارها اليقينيّ.

وجاءت سورة التكوير مبدوءة كل آية من آياتها الأوائل بالظّرف (إذا). وهو ظرف للمستقبل متضّمن معنى الشّرط. أي أنّ الموضوع المطروق مشروطٌ بما اشترَط وقوعه الظرف (إذا). وقد ابتدأ هذا الموضوع أصلاً في سورة التكوير بقوله تعالى: ﴿ **فلا أقسم بالخُنّس. الجوار الكُنّس، والليل إذا عسعس. والصّبح إذ تنفّس**﴾. وقد أوجز تعالى في هذه الآيات الكريمة الحال الذي سيؤول إليها عصر تخلّف المسلمين زمن تحقّق النبوءات المبتدئه بالظرف (إذا). فمضمون هذه الآيات فيه تبشيرٌ أيضاً (والليل إذا عسعس. والصّبح إذا تنفّس) أي لن يستمر ليل المسلمين بل ويتنفّس الصّبح بعده أي بعد اكتمال ظهور جميع هذه النّبوءات الاثنيّ عشرة المبدوءة بالظرف (إذا).

ولقد أكّد الله تعالى بعد ذلك على كون جميع ماأنبأ عنه سيتحقّق يقيناً. ذلك أنّه اصطفى رسولاً ذو قوّةٍ عند ذي العرش مكين. مُطاعٍ ثَمَّ أمين. وماصاحبكم بمجنون. ﴿**ولقد رآه في الأفق المبين.**﴾ أي كشف الله تعالى عليه جميع ماأنبأت عنه هذه الآيات المبدوءة بظرف (إذا) الشرطيّ. وأنّ ربه ﴿**ماهو على الغيب بضنين**﴾ على هذا النّبي الكريم.

وحين انتهى جلّ شأنه من تنبيه أذهان البشر إلى مصداقيّة هذا القرآن الكريم الذي اشتمل على جميع هذه النبوءات الغيبة، عاد فتوّجه بالخطاب إلى أهل العصر الذي ستتحقق فيه جميع هذه النّبوءات يؤكّد لهم وجوده، ويهزهم بقوله تعالى : ﴿ **فأين تذهبون. إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم. وماتشاؤون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين.**﴾ أي أنّ ربوبيّة الله تعمل لصالح مصداقية القرآن ومصداقيّة هذا النّبي. خصوصاً وأنّه تعالى أنزل هذا القرآن ذكرى وموعظةً لجميع الناس على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم. ولامجال لي هنا لزيادة التّفصيل والشرح في هذا المقام.

لذلك أعود لألقي الضّوء على الآيات الأوائل المبدوءة بالظرف (إذا) والمتضمنة نبوءات غيبيّة مستقبليّة. علماً بأنها قسمان: نبوءات تتعلّق بواقع مسلمي عصرنا وظواهر تخلُّفهم. ونبوءات تتعلق بأحداث هذا العصر وتطوراته.

فالآيات الأوائل: ﴿ **إذا الشمس كُوّرت. وإذا النّجوم انكدرت. وإذا الجبال سُيّرت.**﴾ متعلقة بواقع المسلمين المعاصرين، وبالأسباب الرئيسيّة لتخلُّفهم وانحطاط مجتمعاتهم. والخطأ الذي وقع فيه أكثرية المفسرين هو أنّهم حملوا ألفاظ هذه الآيات الكريمة على معانيها المتبادرة للأذهان. فلم تكن لديهم مُعطياتٌ علمية صحيحة تساعدهم على الانتقال منها إلى معانيها المجازية كنبوءات. ذلك أنّ الشمس المعروفة لاتكوّر. والنجوم المعروفة لاتنكدر. والجبال الرّواسي لاتُسيّر. هذا مبلغي من العلم. فكيف تُسيّر الجبال؟ وإلى أين؟ ثم إن الشمس نجمٌ من نجوم السّماء أصلاً، ولقربها من كوكبنا الأرضي الذي يدور حولها تبدو بهذا الحجم وهذا الضيّاء. ثم إنّ الشمس والنجوم جميعها مفاعلات تتحوّل العناصر ضمنها بطريقةٍ معجزةٍ لتؤدّي دوراً هاماً لصالح وجود الإنسان. فلا تنكدر ولاتتكوّر بل تفنى إذا اختل توازن تفاعلاتها الكيميائية.

والمراد من الشّمس هنا مجازاً هو شمس الإسلام وأنوار سيد المرسلين. أما قرأنا قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية (٤٥): ﴿ **ياأيّها النّبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مُنيراً.**﴾؟

فالنّبي ﷺ سُمّي (سراجاً منيراً). بينما سُمّيت شمس كوكبنا الأرضي (سراجاً وهّاجاً) النبأ ١٣ ـ ومعنى أوهج النّار: أوقدها. فالشمس سراجٌ وهّاجٌ أي جُملةُ عناصر ماديّة مُتّقدة لها حرُّها شديد الوهج، فلا تتكوّر، والنّبي ﷺ هو سراج منير بمعنى مجازيّ، أي أنّ تعاليمه التي احتوى عليها هذا القرآن الكريم تنير عقول الذين يعملون عليها ويستوعبونها. وعليه فالمقصود من ﴿**إذا الشّمس كُوّرت**﴾ هذا الإنباء عن زمان قادم يعود فيه العمل بتعاليم القرآن الكريم من باب النافلة، لا الفرض والواجب وذلك في نظر أتباعه.

وهذه إشارةٌ إلى زماننا بالذّات حيث عاد الإسلام اسماً والقرآن رسماً والمساجد عامرة ولكنّها خرابٌ من الهُدى. ولايصلح هذه الأمّة إلا بما صَلُحَ به أوّلها.

كذلك فليس المقصود من ﴿**وإذا النجوم انكدرت**﴾ تناثر نجوم السّماء الحقيقية. فلو تناثر أي نجم لاختلّ النظام الكوني بأجمعه. والنّجوم شموسٌ حقيقية. فقد كان يكفي القول ﴿**إذا الشمس انكدرت**﴾ ليدلّ بذلك على يوم دمار هذا العالم.

وإنما المقصود هنا فالمعنى المجازيّ للآية الكريمة. على اعتبار أنّ استحاله انكدار النجوم يعتبر قرينةً لغوية تلزمنا بالمعنى المجازي وليس الحقيقي. وعليه فالمقصود من ﴿**وإذا النّجوم انكدرت**﴾ هو الإنباء عن زمان يأتي يعود يندر فيه وجود علماء حقيقيّين. أما لاحظنا قول رسول الله ﷺ (أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم.). فهو ﷺ اصطلح على تسمية أصحابه نجوماً مجازاً. ثم إنّ انعدام وجود علماء حقيقيين يؤدّي أصلاً إلى جهل النّاس بتعاليم دينهم جهلاً يؤدي بهم إلى التخلّف والانحطاط.

كذلك فليس المقصود من ﴿**وإذا الجبال سُيّرت**﴾ تسيير أوتاد الأرض ورواسيّها، فهي لاتُسيّر، بل تُنسف ويجعلها ربّي قاعاً صفصفاً إذا شاء. فهذه الاستحالة قرينة لغوية تنقل لفظ الجبال هنا من المعنى الحقيقي المُتبادر للذهن، إلى المعنى المجازيّ. حيث يُقال للسيّد في قومه جبل. وهذه نبوءة متعلّقة بزعماء مسلمي عصر الانحطاط السيّاسيين ووجهائهم أنّهم لايعودون مستقلّي الشخصية بل يغدون مُسيّرين من جهات خارجةٍ عنهم. لذلك يفقدون بفقدانهم الحريّة في اتّخاذ القرارات، مصداقية الإخلاص. وهكذا تكون هذه الآيات الثلاث قد أنبأتنا عن صورةٍ قاتمةٍ تدور حول تخلّف المسلمين المعاصرين وأسبابه.

وقد أنبأ جل شأنه في بقية الآيات المبدوءة بالظروف (إذا) عمّا سيطلع زمن تخلّف المسلمين به من اكتشافات وتقنيّات وأحداث.

وأوّل هذه النبوءات تضمنّه قوله تعالى : ﴿**وإذا العشار عُطّلت**﴾. والعشار هي النّوق الحوامل. والنّوق سُميّت قديماً بسفن الصحراء. بمعنى أنها الوسيلة الأساسية للتنقّل عبر الصّحراء. وعطّل الشيء: تركه ضياعاً. وعطّل الإبل: خلاّها بلا راع يرعاها. ولايُهمل الإنسان هذه الوسيلة الطبيعيّة للتنقّل في الصحراء خاصّة إلاّ في حال توفّر وسائل أفضل منها لديه. من هنا ندرك أن في قوله تعالى : ﴿**وإذا العشار عُطّلت**﴾ الإنباء عن اكتشاف وسائل أفضل من

النوق للحمل والتنقّل. وفي هذا الإنباء الإشارة إلى اختراع السيارة والقطار والطيارة والسّفن البخارية. فهذه جميعها وسائل نقل أفضل من العشار، بل وعطّلت العشار عن مكانتها الطبيعية التي خلقت لها. وقد اكتشفت هذه الوسائل زمن انحطاط المسلمين.

وثاني هذه النّبوءات تضّمنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الوحوش حُشرت**﴾ والوحوش هي حيوان البرّ، أو مالا يُستأنس من دواب البرّ (أقرب الموارد) وحشَرَ الوحوش: جَمَعها. ويأتي الحشر بمعنى الموت كما جاء في الصّحاح.

من هذه المعاني ندرك أن هذه الآية ﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾ أنبأت عن ظاهرة من ظواهر عصرنا، وهي هذه الحدائق التي تُخصص لحشر أي جمع مُختلف أصناف الحيوانات البريّة مايُستأنس منها ومالا يُستأنس، وبأعداد محدودة، والقصد من حدائق الحيوان هذه أن تُحفظ فيها هذه الأعداد من الحيوانات، خشية انقراضها، إلى جانب أغراض أخرى. والمعلوم أنّه لاتوجد دولة متحضّرة في عصرنا إلا ويوجد لديها حديقة للحيوان. بل وتسعى جميع الدّول إلى تقليدها. وظاهرة حدائق الحيوان هذه لم يسبق في تاريخ البشر أن عمدت حكومة من الحكومات إلى التفكير فيها قديماً. فهي ظاهرة معاصرة، لعصر انحطاط المجتمعات الإسلامية.

وثالث هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى : ﴿**وإذا البحار سُجّرت.**﴾. والبحر في اللّغة خلاف البرّ. وكل نهر عظيم. وكل مُتوسّع في شيء. فالرّجل المتوسّع في العلم بحرٌ، والفرس المتوسّع في جريه بحر (أقرب الموارد) ويُجمع البحر على أبحر وبحار وبُحور، وكلمة سُجّرت، تقول سجّر الماء فجّره وسجّر التّنور ملأه بالحطب ليحميه. (أقرب الموارد).

من هذه المعاني ندرك أنّ هذه الآية: ﴿**وإذا البحار سُجّرت**﴾، قد أنبأت عن توسّع كبير في المساحات المزروعة من الأراضي البور إشارة إلى شقّ قنوات منتظمة من مختلف الأنهار الكبيرة في العالم والتي يصّح تسميتها بالبحار، وعلى مستوى لم تعرفه البشريّة من قبل. كنتيجة طبيعية لتقدم العلوم الزراعية.

ورابع هذه النّبوءات تضّمنه قوله تعالى: ﴿**وإذا النّفوس زُوّجت.**﴾. من زوّج النّفوس: قرنها ووصلها بعضها مع بعضها الآخر.

من هذا نُدرك أنّ هذه الآية: ﴿**وإذا النّفوس زُوّجت**﴾. قد أنبأت عن الاكتشافات والاختراعات التي تقرن أي تصل النفوس بعضها مع بعضها الآخر، بالرّغم من بعد مسافات الواحد عن الآخر. والحقّ أنّ هذه الاختراعات تميّز عصرنا بالذات. فهي الإشارة إلى اختراع جهاز الهاتف والبرق وماإليهما، ممّا يمتّ إلى الخطوط السلكية واللاسلكيه بصلات. وقد أصبح العالم صغيراً جدّاً بسبب هذه الأدوات.

وخامس هذه النبوءات، تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الموءودة سُئِلت. بأيّ ذنبٍ قُتِلت.**﴾. والموءودة من وأد ابنته يئدها وأداً: دفنها في القبر وهي حيّة وأثقلها بالتراب، فهي موءودة (أقرب الموارد).

إن مضمون هذه الآية الكريمة دفع بعض المفسّرين الذين لم يتدبّروها حقّ تدبُّرها، إلى اعتبار مضمونها مشيراً إلى ماسيحدث للموءودة يوم القيامة. و لم يسألوا أنفسهم: وهل تُسأل الموءودة أصلاً عمّن قتلها وبأيّ ذنبٍ قُتِلت؟ فالمقتول المجني عليه لايُوجّه إليه سؤال عن سبب قتله. بل إنّ قاتله هو المسؤول في المحاكم ويوم القيامة.

فما معنى إذن ﴿**وإذا الموءودة سُئِلت. بأيّ ذنبٍ قُتلت.**﴾؟ أقول: إنّ ماذكرته يُعدّ قرينة لغوية تنقل أذهاننا من المعنى المتبادر لها إلى معنى آخر مجازيّ. وهو الإشارة إلى أنّ عصر انحطاط المسلمين سيكون عصر المطالبة بتحرير المرأة من وضعها الذي آلت إليه، نتيجة انحراف المسلمين المعاصرين عن تطبيق تعاليم الإسلام المنصوص عليها في القرآن الكريم، وإخضاعهم المرأة لحجابٍ هو أشبه بوأد الفتاة وهي حيّة. والحقّ أن عصرنا يمكن تسميته بحقّ عصر تحرير المرأة من الذين يئدونها وهي ماتزال تنبض بالحياة. فلا يفسحون لها مجالاً أن تحتلّ مكانتها كنصف المجتمعات، وأنْ تؤدي رسالتها السّامية في مُجتمعاتها. فالمرأة من هذا النّوع تُسأل في الصّحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام: ﴿**بأيّ ذنبٍ قُتلت**﴾ أي أنّ وضعها المُعاصر كالمُذنبة التي حجرها المسؤولون وحالوا دون نشاطها الاجتماعي.

وعليه فلا علاقة لمضمون هذه الآية الكريمة بوأد إحدى القبائل الجاهلية بناتهم خشية العار. ولاعلاقة لهذه الآية أيضاً بالآخرة ويوم الحساب.

وسادس هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الصُّحف نُشرت**﴾. ونشر الخبر: أذاعه (أقرب الموارد). والصُّحف جمع صحيفة، وهي قِرطاس مكتوب (محيط المحيط). ومنه اشتُق لفظ (المُصحف) كاسم مفعول أي القُرطاس المكتوب المجموع والمشدود بين دفّتي الكتاب القرآن، حتى صار هذا الإسم كالعلم له.

على ضوء هذه المعاني ندرك أنّ المفسّرين الذين ذهبوا في رأيهم إلى أنّ هذه الآية الكريمة تتعلّق بيوم الدّين، ماكانوا قد تدبّروها حق تدبُّرها، ولاربطوها بالتسلسل الموضوعي خصوصاً وأنّ مُعطيات عصورهم لم تكن لتساعدهم على إدراك مراميها.

والحقُّ يُقال إن عصرنا الحاضر هو عصر الطّباعة والصّحافة وإذاعة الأخبار. أي أنه عصر صحفٍ وإعلام. هذا وإنّ الإنسان عاد يرى الصّحف معلّقة ومنشورة في كل مكان يرتحل إليه. وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى إنباءً عن عصر انحطاط المسلمين وإشارةً إلى ماسيرافقه من ظواهر ومُخترعات، وهو: ﴿**وإذا الصُّحف نشرت**﴾.

وسابع هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا السّماء كُشِطَتْ**﴾ والكشط معناه رفع الشيء عن شيء قد غشّاه وتنحيته عنه. وكلُّ ماعلاك فهو سماؤك. وكيف تُكشط السّماء فوقنا إلاّ أن يعني ذلك ترقي علم الفلك إلى درجةٍ يعود المرء معه ينظر إلى السّماء وكأنها كشطت ورفع من دون أبصارنا ماكان قد غشاها وحجب معالمها الحقيقيّة عنّا؟

من هذا ندرك أنّ هذه الآية ﴿**وإذا السّماء كُشطت**﴾ انبأت عن تقدم علوم الفلك في عصر انحطاط المسلمين، تقدُّماً ملموساً، لم يبلغ مستواه عصر من العصور السابقة، وهل يختلف أحدٌ من النّاس معنا في هذه الحقيقة التي نبّهنا إليها؟

وثامن هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الجحيم سُعِرّت**﴾. والجحيم هي النّار الشديدة التأجّج، لذلك يستعمل هذا اللفظ لجهنّم أيضاً. فالجحيم إسمٌ من النّار. وسُعِرّ اشتُقّت من سعرّ النّار والحرب أوقدهما وأشعلهما وهيّجهما (أقرب الموارد).

من هذا ندرك أنّ هذه الآية الكريمة ﴿**وإذا الجحيم سُعِرّت**﴾ لاعلاقة لها بالآخرة أيضاً. فلا تُسعّر نار الآخرة ولاتخفّض حرارتها، والأمر فيه إنباءٌ عن

عصرنا أنّ حروبه وفتنه ستكون كثيرة جداً. وأنّ هناك أطرافاً يثيرون هذه الفتن والحروب ويشعلونها ويهيّجونها. وهذا الأمر أضحى ظاهرة طبيعية من ظواهر عصرنا أيضاً.

وتاسع هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الجنّة أُزلفت. علمت نفسٌ ماأحضرت.**﴾. وأزلفت الشيء معناه قرّبه (أقرب الموارد).

فمن خلال معنى كلمة (أُزلفت) أي قُرّبت، نستدل على أنّ نبوءة هذه الآية تتمثّل في أنّها أعطت فكرةً عن حصيلة تأثير جميع النّبوءات السّابقة في نفوس المفكرين، وتجذبهم بالتالي إلى ربّهم من جديد.

وتبدأ بذلك صحوةٌ إسلاميّة ودينيّة وسعيٌ لنيل الجنّة التي أُعدّت للمتقّين. فكأن الجنّة بتحقق هذه النبوءات قُرّبت من الناس. وبالتالي فقوله: ﴿**علمت نفسٌ ماأحضرت.**﴾ المقصود من (نفس) الوارد فيها نفس كلّ مهملٍ لواجباته الدينيّة. وأنّ كل مقصّر سيدرك ويعلم مدى ماأحضرته نفسه لآخرته.

إلى هنا أكون قد كشفت الغطاء، بفضل الله تعالى، عن اثنتي عشرة نبوءة تضمنتها سورة التكوير مُجتمعة. هذا وإنّ سُور جزء (عمّ) مليئة بالنبوءات المذهلة للعقول، بالرغم من قلّة عدد آيات كل سورة من سوره.

وإنّ ماكشفتُ عنه من نبوءات، يصدّق ماأنبأ عنه المسيح بن مريم في انجيل يوحنا ١٢/١٦: (ويخبركم بأمور آتية.).

ألا إنّ سورة التكوير قد أنبأتْ عن تخلّف المسلمين زمن تقدم العلوم والاكتشافات على أيدي أعدائهم، وقبل أربعة عشر قرناً من الزّمان. فهل يتعامى اليهود والنصارى عن هذه الحقيقة التي حملها إليهم هذا الدليل العاشر الذي قدّمناه تأكيداً لمصداقيّة القرآن الكريم، ومصداقيّة رسالة النّبي محمد اليتيم الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم ومُنبأً عنه في كُتبهم المقدّسة؟

ولو فرضنا جدلاً أن محمداً ﷺ كان كاذباً في نبّوته، وكان القرآن من افترائه واختلاقه، ومع ذلك مات موتاً طبيعيّاً ووفق وعد ربه ﴿**والله يعصمك من النّاس**﴾. وأتى كتابه بهذه الأنباء الكثيرة عن المستقبل أيضاً. وتحققت نبوءاته أيضاً. يثبت بالتّالي المعيار الذي قدّمته التوراة في أمر تمييز النّبي الكاذب من النبي الصّادق على كلّ حال.

فيا أسفاً على من يتعامى عن هذه الحقيقة، ويكون عن قبول الحقّ من المُعرضين. وينبغي لهؤلاء أن يعلموا أن سورة الأنعام أشركت المُنكرين ضمن إنذارها الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً، أو كذّب بآياته، إنّه لايفلح الظالمون.**﴾ صدق الله العظيم.

وهكذا نخلص من هذه الأدلّة العشرة التي قدّمناها، إلى التّسليم بمصداقية هذا الكتاب السّماوي، الذي سمّاه الله تعالى "قرآناً عربياً"، وفرقاناً يُفرق به بين الحقّ والباطل. نخلص إلى التسليم بهذا الكتاب العظيم "مرجعاً" لنا في موضوع تعرُّف ربّنا، ربّ العالمين.

١١ً. خلاصة مضامين أدلّة المصداقية:

وهكذا انتهينا إلى أنّ المستشرقين المُنصفين أقرّوا، بعد بحثٍ وتمحيص علميّين، ومن خلال الأدلّة التي عثروا عليها، داخليّة وخارجيّة (أن القرآنَ الموجود في زماننا هو القرآن نفسه الذي جاء به محمّد دون أيّ تحريف.) سير وليم ميور "حياة محمد" ص٥٦.

بل أضاف سيرميور قوله: (ونحن من ذلك على يقين، كيقين المسلمين أنفسهم، بأنّه وحي الله المقدّس الذي لم يُحرّف ولم يُبدّل).

ونحن، وبأسلوبنا العلمي قد انتهينا إلى أنّ القرآن الكريم وقد وصلنا سالماً. وقد تحقّقنا سلامة نصوصه، وأنّه وحي يُوحى بنفس الأسلوب. تحققنا ذلك من خلال مايتمتّع القرآن الكريم به من مزايا، لايُضارعه فيها كتابٌ سماويّ آخر. كما تحقّقناه من ملاحظة مُجريات الأحداث في صدر الإسلام، زمن تكامل نزول هذا الوحي السّماوي، وقامت الأدلّة على أن هذا القرآن قد نزل بترتيبين لم يختلط أحدهما بالآخر، وأنّ تحفيظ القُرآن، كان يُركّز على ترتيب التّلاوة، وفق توجيهٍ من جبريل عليه السلام نفسه، كما قامت الأدلّة على أن القرآن الكريم كان مُدّوناً على الرّقاع من العُسُب واللّخاف طوال حياة الرسول الأعظم ﷺ، وأنّ الرّقاع هذه وإن كانت موثوقةً معتمدةً، إلاّ أنّ وضع العرب الأُميّين قد اقتضى أن يُعطى المحفوظ من قبل جمهرة حُفّاظ القرآن الكريم المنزلة الأولى من الوُثوق، نسبةً إلى الرّقاع. وتحقّقنا أنّ حادثة اليمامة في عهد الخلافة الأولى، دفعت المسؤولين من كبار الصّحابة إلى جمع الرّقاع وترتيبها بترتيب تلاوة

حُفّاظ القرآن الكريم. وأنّ هذا الأمر دام حتى الخلافة الثالثة، حيث اختلط العرب بالأعاجم، فقلّ عدد الحُفّاظ، وصَعُب على الأعاجم حفظ القرآن الكريم دون لحنٍ أو خطأ. فدعا ذلك عثمان بن عفّان (رضي) أن يبادر إلى استنساخ سبع نسخٍ، من النُّسخة المجموعة والمرتّبة على أيدي زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله ﷺ، ويوزّع هذه النُّسخ على الأمصار، ليستنسخ عنها المسلمون ماشاؤوا، واحتفظ عثمان (رضي) بنسخة القرآن الأصلية التي اعتمدها في النسخ، ثم أعادها إلى حفصة أمّ المؤمنين، وأمر أن يُحرَقَ كلّ ماهو خارجٌ عنها.

فبهذا الأسلوب العلمي لتقصّي الحقائق، ثبت لنا أنّ القرآن الكريم وصلنا سالماً خالياً من أيّ تحريفٍ، وعلى مانزل به من ترتيبت تلاوته التي كان يتلوها به رسول الله ﷺ نفسه بتوجيهٍ وتعليم من جبريل عليه السّلام.

ولابدّ أن يكون القارىء قد لاحظ أنّنا لم نكتف بما حققناه بالأسلوب العلميّ، من مصداقيّة القرآن الكريم ومرجعيّته، بل أدلينا إلى ذلك بعشرة أدلّة من داخل القرآن الكريم نفسه. أثبتنا بها استحالة أن يكون القرآن من اختلاق محمد ﷺ. هذا فضلاً عن أنّنا توصّلنا من خلال هذه الأدلّة العشرة القاطعة، باليقين الجازم إلى أنّ هذا القرآن الكريم، إنّما هو وحيٌ وتنزيلٌ من رب العالمين.

ففي الدليل الأول أثبتنا وجود تحدٍ إلهيٍّ للعرب والعجم أن يأتوا بمثل هذا القرآن من حيث اللّغة ومن حيث المضمون في آن واحد، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وأنّ هذا التحدّي الإلهيّ للنّاس كافة لايزال قائماً وإلى يوم الدين. وقد عجز الإنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن إلى يومنا هذا أو أن يضارعوه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وفي الدليل الثاني أثبتنا أنّ وصول القرآن الكريم سالماً إلى زماننا الحاضر، لم يحدث اتّفاقاً ومصادفةً. بل تأتّى وفقاً لوعدٍ إلهيٍ تضمّنه القرآن الكريم نفسه. هذا بالرّغم أنّ محمداً ﷺ لم يأمره الله عز وجلّ بأكثر من تدوين القرآن على الرّقاع دون الطلب منه أن يجمعها ويرتّبها، إلى جانب اعتماد طبقةٍ موثوقة من حُفّاظ هذا الوحي السّماوي العظيم. فما كان على الرّسول إلاّ البلاغ.

وفي الدليل الثّالث أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى خلال حديثه عن موضوع خلق العالم بكشوف علميّة، قلب فيها جميع مُعطيات التوراة والإنجيل. وقد جاء تطوّر العلوم ظهيراً لها مؤيّداً لمُعطياتها. بل تلاقت مع نظريّة الانفجار العظيم. ويستحيل أن تتأتّى مثل هذه الكشوف العلمية المتعلّقة بخلق العالم، عن علم محمّدٍ اليتيم الأمّي. بل لابُدّ أن تكون صادرةً عن عالم الغيب والشّهادة رب العالمين.

وفي الدليل الرابع أثبتنا أنّ القرآن الكريم قد أتى في موضوع خلق آدم بما يُغاير مُعطيات التّوراة. فقلب مفاهيمها رأساً على عقب، ونبّه إلى أنّ آدم عليه السلام، لم يكن أوّل إنسان مخلوق من البشر، بل كان أوّل نبيّ بعثه الله تعالى على رأس سلسلةِ الأنبياء التي انتهت ببعثة محمّد خاتم النبيين ﷺ.

وفي الدليل الخامس أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى فيما يتعلّق بذات الله وصفاته بما لم تأت به التّوراة. أتى بحقائق مُدعّمة بالحجج والبراهين، الأمر الذي يثبت منه أنّ هذه العلوم يستحيل أن تصدُر عن رجلٍ أمّي كمحمد بن عبد الله ﷺ. فهي صادرة عن الله تعالى نفسه، الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

وفي الدليل السادس أثبتنا أنّ القرآن الكريم قد تحوّل بأحكام نظام الحياة إلى أحكام مرنةٍ تصلح لكلّ زمان ومكان. فتعالى بأحكام الإسلام عن أن تكون أحكاماً مخصوصةً بقومٍ أو عشيرةٍ بذاتها.

كما ساوى بين الرّجل والمرأة في الحقوق والواجبات. وقرن كُلّ حكمٍ شرعيٍ بالحكمة منه مع بيان فلسفته. وإنّ هذا التحوّل البيّن في الأحكام ومستواها وصلاحيّتها، يستحيل أن يكون من وضع رجلٍ أمّي كمحمد بن عبد الله ﷺ، الذي لم يكن يملك مثل هذه المُعطيات من أيّة جهةٍ من الجهات.

وفي الدليل السّابع أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى بمنهجٍ علميٍ للحياة، استند فيه إلى حقائق لم تتعرّض لها تعاليم التوراة ولا الإنجيل، من قبل. بل لم تبلغ البشريّة مستوىً سليماً علمياً يُدانيها حتى عصرنا هذا. وهذا المنهج يستحيل أن يأتي به رجلٌ أمّيٌ من عند نفسه، مهما كان عبقريّاً، دون سابق مُعطيات، إلا أن يكون قد صدر هذا المنهج عن الله علاّم الغيوب.

وفي الدّليل الثامن أثبتنا أنّ القفزة الإعلاميّة الرّائعة، وهي مُعجزة الأذان التي أتى بها النّبي الأمي ﷺ قد كشفت عن دعوة الإسلام السّامية التي قامت

على أُسس علميّة، وقد أتت مضارعةً للطّور الذي بلغه البشر، من حيث بُلوغ نُضجه العقليّ. وهذا الإبداع الإعلاميّ، إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أنّ القرآن الكريم لم يكن من وضع محمد بن عبد الله اليتيم الأمّي يقيناً. بل هو من عطاء ربّ العالمين.

وفي الدليل التّاسع أثبتنا تطابُقَ نبوءات التوراة والإنجيل، مع مانزل به وحي القرآن وبعثة محمد ﷺ سيّد الأنبياء. وهكذا جاء تكذيب اليهود والنّصارى القرآن ونبيّه الكريم، يُعدّ في حدّ ذاته تكذيباً لما جاء في كُتبهم المقدّسة نفسها، ولما احتوته من نبوءات.

وفي الدليل العاشر أثبتنا احتواء القرآن الكريم على عشرات النّبوءات الغيبيّة التي تحقّقت. الأمر الذي يجزم بأنّ الذي أنبأ بهذه النّبوءات جميعها هو الله علاّم الغيوب، ويستحيل أن تصدُر هذه النّبوءات عن محمّد نفسه. فأنّى له، وهو إنسان، أن يملك قوىً خارقةً تكشف له عن المُستقبل وعمّا سيحدث فيه؟ وقد جاء تحقّق هذه النّبوءات جميعها تصديقاً لما أشار إليه المسيح بن مريم في إنجيله حين أنبأ عن بعثة النّبي "روح الحق" الذي سيأتي بعده. قائلاً (ويخبركم بأمورٍ آتية.) يوحنا ١٢/١٦.

وها نحن أولاء لخّصنا جميع ماتضّمنه الباب المتعلّق بإثبات مصداقية القرآن الكريم ومرجعيّته، لم نَدَعْ مجالاً لشكٍ أو ريبٍ في ذلك كُلّه. وقد عاد من واجبنا بعد هذا الذي قُمنا به، أن نعود إلى القرآن الكريم، نستنطق آياته الكريمة لتُدلي لنا بالمعلومات التي يتطلّبها مؤلفي هذا. ونستوضحها عن الأدلّة القاطعة على وجود الله عز وجلّ وماتضّمنه القرآن الكريم من معلومات مُتعلّقةٍ بصفات الله وأسمائه الحسنى. ليكون كلّ ذلك عوناً لنا على تعرُّف الله تعالى ووسائل الإتّصال به والتقرّب إليه مادام ربّنا حيّاً قيّوماً.

وهانحن ننتقل إلى الباب الثالث الذّي خُصص للكلام على وجود الله تعالى، ومأأسعفنا القرآن الكريم به من معارف على هذا الصعيد.

❀❀❀

الباب الثّالث
أدلّة وجود اللّه عزّ وجلّ

الفصل الأوّل:
١ ـ النّهج القرآني في التّدليل على وجود الله تعالى:

سبق لي أن أشرت في الباب الأوّل من هذا الكتاب إلى أنّ فكرة وجود الله تعالى لم تتولّد عند البشر تدريجيّاً، كما يزعم أصحاب نهج التفكير المادّي الفارغ من كلّ عُنصرٍ روحيّ، بل إنّ الله عز وجلّ نفسه هو الذي بادر إلى مخلوقه، فأطلعه على وجوده، وذلك عن طريق أنبيائه ورسله الكرام. وقد أثبتُّ صحّة هذه المقولة استناداً إلى ماجاء في القرآن الكريم نفسه الذي أثبتنا مصداقيّته ومرجعيّته. ومن خلال ماعُثر عليه من اللّقى والآثار القديمة التي خلّفتها أقدم شعوب الأرض.

ومن هنا لم تعد حاجة بالقرآن الكريم إلى تقديم الحجج والبراهين التي تثبت وجود الله عز وجلّ، مادام أنّ كلّ أمّةٍ على سطح الكرة الأرضية تؤمن بوجود الله عز وجلّ من جراء ذلك، ولاخلاف بينهم إلاّ في التّفاصيل. ومادام أن زُمر المُلحدين بوجود الله تعالى لايؤلّفون نسبةً يُعتّد بها خصوصاً زمن نزول القرآن الكريم.

ومالاختلاف الحاصل في عقيدة وجود الله تعالى في التّفاصيل إلاّ من جرّاء موجات التخلّف والانحطاط التي أتت على مُختلف الأمم، على فترات متقطّعة. وإلاّ فقد كانت شعوب الأرض مُوحدّةً الله تعالى في فجر تواريخها. وهذا أمرٌ أثبتّ صحّته بالأدلّة والأمثلة من واقع وتاريخ أقدم شعوب الأرض.

وإلى جانب وجود هذه الحقيقة، فإنّ الإنسان الباحث الذي يتدبّر آي الذّكر الحكيم، لابدّ أن يرى مارأيت من أنّ الله تعالى، وبسبب اختلاف هؤلاء جميعهم في التّفاصيل، أتى بنهج جديد واضح المعالم في البرهنة على وجوده عز وجلّ. هذا النّهج لم يُناف الأسلوب العلمي في الاستدلال والإثبات.

كما راعى الله تعالى عند أخذه بهذا النّهج مُختلف مستويات الأفهام والإدراك عند البشر. فهو تعالى لم يدع طبقة من الناس إلاّ خاطبها على قدر فهمها وإدراكها، وألقى إليها بالحُجّة القاطعة المُقنعة أيضاً.

ولنوجز معالم هذا النهج القرآني في الاستدلال على وجود الله تعالى، نقول: قدّم القرآن الكريم أدلّةً تدرّجت من دليلٍ بسيطٍ يحتوي على عنصر واحد، إلى دليلٍ مركّبٍ من عناصر عديدة. وكانت المناسبة والتسلسل الموضوعي يتحكّمان في نسق هذه البراهين.

وقد جاءت الأدلة بمجموعها على نَمَطَين، الأوّل يصل بالمرء إلى مرحلة ترجيح وجود الله عزّ وجلّ. والنّمط الثاني من الأدلّة ينقل الإنسان إلى مرحلة الجزم واليقين في أمر وجود خالقه ومولاه. بحيث ينتفي لديه في هذه المرحلة كلّ شكّ وريب بوجود خالقه. على صورة يعيش هذا الإنسان بعدها حياة الاطمئنان الكامل بوجود ربّه في جوٍ من السّكينه واليقين الحازم، فلا يعود له همٌّ إلاّ التشوّق إلى تعرّفه تعالى والتّحرُّق إلى وصاله.

وأدلّة النّمط الأول من هذه الأدلة قسمان: الأوّل من النّوع الذي يستدلّ بالبراهين الذهنية القائمة على أسس من الملاحظة والاستنتاج العلميّين. والقسم الثاني من الأدلّة من النّوع الذّي يستدلّ بالمحسوسات، أي يستدلّ بالوقائع والأحداث على إثبات وجود الله تعالى مُسبّب الأسباب.

أمّا أدلّة النمط الثالث فهي أدلة من النوع السلوكي التجريبي، يعتمد التجربة الشخصيّة أساساً علمياً للانتقال منها إلى الجزم بوجود الله عز وجلّ.

ولرُبّ سائلٍ يسأل: ومافائدة الأدلّة التي يقف بها الإنسان عند مرحلة الترجيح وحسب. وفي الجواب أقول: المعلوم هو أنّ الله تعالى لاتدرك الأبصار ذاته عزوجل، وليس كمثله شيء. وطبيعة البحث عن وجوده اقتضت أن يُقدّم للباحث عن وجوده تعالى نَمَطين من الأدلّة: النّمط الأول أدلّةٌ ترجيحيّةٌ مستمدّةٌ من صلب قوانين العالم المادي، وهي تتناسب مع مُختلف مستويات الأفهام والإدراك.

حتّى إذا خطا الإنسان المحقّق هذه الخطوة، فرجَحَ لديه وجود خالقه وخالق هذا الكون من حوله. استعدّ لقبول النّمط الآخر، وهي الأدلّة التي لاتقوم

على أساسٍ نظري، بل تقوم على أساسٍ من السّلوك والتجربة الشخصية. هذه الأدلة التي تنقل هذا الإنسان المحقّق إلى مرحلة اليقين والاطمئنان.

فطبيعة البحث عن وجود الله، والبرهنة عليه، هي التي اقتضت هذا النّهج المتكامل في أسلوب إقامة البُرهان، وهو النهج الذي أتى به القرآن الكريم.

والمؤسف حقّاً أن تغيب هذه الحقيقة وأبعاد هذا النهج وطرفا معادلته. عن كثيرٍ من علماء الأمّة الإسلامية المعاصرين.

وقد ساعد ذلك على استمرار تخلّف الأمم الإسلامية وتفرُّقها عن باقي أمم الأرض. بل ازدياد تردّي أحوالها وتمزّقها وانقسامها على نفسها، وتفرُّقها إلى مذاهب وتيّارات فكريّة مُختلفة، وتقطّع مابينها وبين الله عز وجلّ وافتقاد نُصرته وتأييده. وسأبسط القول في ذلك في المقام المناسب إن شاء الله العزيز.

وبهذه المناسبة أرى أنّه من الضروري لي أن أُلفت نظر المسلم الباحث إلى أنّ سورة الفاتحة تشكّل خلاصة موجزة لجميع ماتضمّنه القرآن الكريم من مواضيع. فهي أمّ الكتاب من هذا المنظار.

الأمر الذي يُلزم كل باحثٍ بالرجوع إلى آيات سورة الفاتحة هذه، واستلهامها مدى صحّة فهمه وإدراكه لأيّ موضوع قرآنيّ يبحثه، محاولاً تبيّن معالمه. ذلك أنّ الفاتحة على حدّ فهمي واعتقادي، هي المفتاح لوجود كلّ موضوعٍ قرآنيّ، وهذا الأمر يلزمني بالتّالي أن أعمد في نهاية بحثي إلى التوفيق بين ماقدّمته من معلومات، وبين مادلّت عليه وتكشّفت عنه آيات سورة الفاتحة.

٢ ـ قدْ دِينَ الإلحاد بأقلام أصحابه :

يزعم الملاحدة أنّ الشرائع السّماوية والإسلام خاصة، أغفلت موضوع الإلحاد، فلم ينقده القرآن ولم يدحضه. هذا بالرّغم من أنّ موضوع الإلحاد من أخطر الدعوات المناهضة للدّين.

ويضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا، أنّ هذا النّقص في الشرائع السّماوية، مرجعه إلى عدم ذُيوع مبادىء الإلحاد في العصور الغابرة.

كما يزعمون أنّ القرآن الكريم أغفل هذا الموضوع، فلم يوله أيّ اهتمام، لأنّ محمّداً ﷺ قد ترعرع في بلادٍ لم يظهر فيها مُلحدٌ واحد من النّاس.

ويضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا أنّ القرآن الكريم قد شنّ حملةً شعواء على الشّرك والمشركين ولاريب، بسبب أنّ المشركين كانوا يعايشونه ويحيطون به من كلّ جانب. على حين أهمل القرآن موضوع الإلحاد، بسبب عدم ذيوع مبادئه في البيئة التي نشأ فيها محمد رسول الله ﷺ.

ويخلص الملحدون من ذلك كلّه إلى القول: إنّه لو كانت الأديان مُنزلةً من عند الخالق عالم الغيب، لَمَا كانت قد أغفلت موضوع الإلحاد هذا الإغفال الفاضح، وأهملته هذا الإهمال المبيّن.

وأنا بحكم إسلامي أُعلن بصراحة: إنّه لظُلمٌ بيّنٌ وتجنٍ آثم أن يُفترى على القرآن الكريم مثل هذا الافتراء، فيُوجّه إليه مثل هذا الاتّهام.

فنحن إذا سألنا رموز الملحدين أينما وُجدوا: ماهو الإلحاد؟ فسيكون جوابهم: إنّ هذا الكون الذي هو من حولنا بما فيه، هو مادّة وحسب. وإنّه كذلك من الأزل وإلى الأبد، فهو أزليٌّ أبديّ.

وإجابتهم هذه اشتملت على عُنصرين: الأوّل كون هذا العالم مادّة وحسب. والعنصر الثاني هو استمرار وجود هذه المادّة من الأزل إلى الأبد. وتعني هذه الإجابة بألفاظٍ أخرى إنكار وجود خالق لهذا الكون. وإعطاء موضوع إشباع رغبات المرء وماتهوى نفسه، المقام الأوّل في حياته، لتصبح هذه الرّغبات معبوده وإلهه الذّي عليه أن يسعى وراء الانقياد له وتحصيل رضاه. ذلك كان حال أهل أوربا والاتّحاد السوفيتي السابق. فالناس هناك كانوا ولايزالون لايعرفون إلاّ تلبية ماتهوى أنفسهم وماتدفعهم إليه ميولهم وشهواتهم. فلاهمّ لهم هناك إلاّ عيش الرّفاهية وتحصيل نعيم الدّنيا.

وقد سبق أن قلت في بداية هذا الفصل إنّ القرآن الكريم أتى بنهج خاص في موضوع الاستدلال على وجود الله الخالق. وهذا النّهج يقرّ ضمنا بوجود الملحدين. وإلاّ لم يكن للقرآن الكريم داعٍ يدعوه لاتّخاذ هذا النّهج وماحتوى عليه من مُختلف أنماط الاستدلال على وجود الله عز وجلّ.

أمّا لماذا لم تتوجّه آي الذّكر الحكيم إلى مخاطبة الملحدين مُواجهة تُفرزُهم عن سواهم من الكافرين والمشركين، فذلك لأنّ الإلحاد في حقيقته هو ضربٌ من ضروب الشرك. هذا مادلّت عليه لغة الضّاد. فقد قال صاحب معجم مفردات الرّاغب مانصّه بالحرف الواحد: (الإلحاد ضربٌ من الشّرك بالله). وإنّ

كون الإلحاد شُعبةً من شُعب الشّرك أدّى إلى الكلام على الشّرك عامة، وهو يشمل الإلحاد.

نُلاحظ معالم هذه الحقيقة التي ذكرناها، ممّا تضمّنه قوله تعالى في سورة الجاثية (٢٣ ـ ٢٤): ﴿**أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكّرون، وقالوا ماهي إلاّ حياتُنا الدّنيا نموت ونحيا، ومايُهلكنا إلاّ الدّهر، ومالهم بذلك من علم، إن هم إلاّ يَظنّون**﴾. فقد جعل القرآن الكريم الإلحاد وأهله هنا مُشركين، إذا اتّخذ الواحد منهم إلهه هواه.

ويؤيّد ذلك ماجاء في الآية وهو: ﴿**ومايُهلكنا إلاّ الدّهر.**﴾ والدّهر إذا ورد مُعرّفاً بالألف واللاّم، كما هو في هذه الآية الكريمة، فلا يعني إلاّ الزّمان الأبد، بلاخلاف، على حسب ماأورده صاحب معجم محيط المحيط. وقال في التّعريفات للشّريف الجُرجاني: (الدّهر هو الآن الدّائم الذي هو امتداد الحضرة الإلهية وهو باطن الزمان، وبه يتّحد الأزل والأبد.). وقال في الكليّات: (الدهر في الأصل اسمٌ لمدّة العالم منذ مبدأ وجوده إلى انقضائه.).

وعليه فالله تعالى يشير في هاتين الآيتين الكريمتين إلى الإلحاد والملحدين من طرف خفيّ. هؤلاء الذين يُقيمون أفكارهم على أساس من الظنون، وليس على أساسٍ علميّ. فهم يتّخذون هواهُم إلههم، وقد ولعوا بإشباع هذا الهوى، وماتتطلّبه نفس أحدهم من تحصيل الرفاهية والملذّات. وهكذا يُعتبر اتّباع الهوى في نظر كتاب الله القرآن ضرباً من الشّرك بالله تعالى. إذ لايتّبع هواه ويتّخذه إلهاً له إلاّ من قادته ظنونه، واعتقد أنّ العالم أزليٌّ أبدي، لاينتهي، ولاحياة ثانية من بعده.

وبناءً عليه نقول: إنّ اتّهام الملحدين للقرآن الكريم بأنّه أهمل موضوع الإلحاد، فلم يتطرّق إليه، وأثبت من خلال إهماله هذا أنّه لم يصدر عن الله عالم الغيب، وأنّ القرآن بالتّالي من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو الذي أمضى حياته في جوٍ ماوُجدَ فيه حوله مُلحدون.

إنّ اتّهامهم هذا، من خلال مابيناه، هو اتّهام باطل. وهو إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على جهل أصحابه بوجود نهجٍ قرآنيٍ في الاستدلال على وجود الله تعالى والردّ بهذا الاستدلال على المُلحدين.

كما يدلّ على جهلهم بدلالات الألفاظ العربيّة أيضاً، التي أدخلت الشرك فرعاً من الإلحاد. فالشّرك لغةً ينطوي على الإلحاد لأنّ الإلحاد هو في حقيقته ضربٌ من ضروب الشرك. ومثاله إشراك المُلحد الذي يتّخذ إلهه هواه.

وعندما قلت: إننا إذا سألنا رموز الملحدين عن مفهوم الإلحاد من منظارهم. كنت أشير إلى ماذهب إليه (هربرت سبنسر) مؤسّس مذهب الإلحاد في العالم. بالرّغم من أنّه لم يدّع هو نفسه أنّه رأس الملحدين.

وسبنسر هذا كان طرح مبدأً عاماً وقال: (إنّ مايتّفق عليه العالم أجمع، لايجوز تخطئته. إذ لابدّ أن يوجد وراء هذا الاتّفاق شيءٌ من الحقيقة.) وقد صدق في المبدأ المطروح. ذلك أنّ الناس لايُجمعون إلا على حقيقةٍ تبيّنوها جميعاً. كالماء مثلاً، إذ تبيّن للناس أجمعين أنّه يطفيء العطش. فلابدّ أن يكون في إجماعهم هذا نصيب من الحقيقة.

ولقد أقرّ القرآن الكريم هذا المبدأ العام، وطرحه دليلاً، يثبت عن طريقه وجود الله عز وجلّ. وبإمكاننا تسمية هذا الدليل، بدليل الإجماع العام.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ مؤلفات سبنسر وداروين وفرويد ونيوتن وكارل ماركس، كانت قد أخذت بمجامع أفئدة الأوربيّين في القرن التاسع عشر. لكنْ حدثت كشوف علميّة جديدة طلع بها القرن العشرون على العالم، غيّرت هذه الكشوف وجهة نظر علماء الغرب. الأمر الذي دفعهم دفعاً إلى تحطيم حواجز الإلحاد تلك التي وضعها في طريقهم مؤسّسوه، وعاد هؤلاء العلماء ينظرون إلى هذا الكون على أنّه مخلوق، بتأثير ماطلع به عليهم العالم الفيزيائي (غاموف) بنظريته فيما سُمّيَ بنظرية الانفجار العظيم.

واعتقادنا هو أنّ القرآن الكريم الذي أنزله ربُّنا منذ أربعة عشر قرناً من الزّمان. كان الله تعالى قد أنزله للنّاس كافة، من أجل أيّ زمان أو مكان وُجدَ النّاس فيه. من هنا كان لابدّ أن يكون القرآن الكريم قد تعرّض لما طلع به علماء أوربة وأمريكة في القرنين الأخيرين. إثباتاً منه جلّ وعلا على أنّه عالم الغيب والشّهادة العزيز الغفور.

الفصل الثاني :
الأدلّة على وجود الله تعالى
أولاً : الأدلّة الترجيحيّة الذهنيّة
١ ـ دليل الإجماع العام :

والحقّ الذي لامراء فيه، هو أننا بعد تدبُّرنا آيات سورة فاطر، تبيّن لنا أنه تعالى قدّم في هذه السورة دليلين واضحي المعالم من القسم البسيط والمركّب العناصر، في مجال التّدليل على وجوده عز وجلّ، وقد استند الدليل الأول إلى مبدأ الإجماع العام الذي سلّم به روبرت سبنسر وسواه من أئمة الإلحاد. وقد ورد الدليل الثاني بالأسلوب العلمي المعاصر في التحليل والاستنتاج، وهو سمة أبحاث علماء القرن العشرين من الأوربيّين. وقد اصطلحنا له اسم دليل اختلاف الألوان. علماً بأنّ هذين الدليلين وردا في سورة فاطر مُتتابعين ضمن الآيات التالية: ﴿**إن أنت إلاّ نذير. إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً، وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير. وإن يكذّبوك فقد كذّب الذّين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزُّبر وبالكتاب المنير. ثم أخذت الذّين كفروا فكيف كان نكير. أَلَم تَرَ أنّ الله أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مُختلفاً ألوانُها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدّواب والأنعام مُختلفٌ ألوانُه، كذلك إنّما يخشى الله من عباده العلماءُ، إنّ الله عزيز غفور**﴾ (فاطر ٢٣ ـ ٢٨).

نتناول بالبيان الدليل الأول، وهو الدّليل المؤسّس على مبدأ الإجماع العام الذي طرحه روبرت سبنسر في مؤلّفه الإلحاديّ. فقد تضمنه قوله تعالى: ﴿**وإنّ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير.**﴾. وكأنه تعالى يقول هنا بألفاظٍ أخرى: يامن تحترمون مبدأ الإجماع العام على أمرٍ من الأمور، ولاتُخالفونه مُعطياته هاكم سيحوا في طول الأرض وعرضها فلا تجدون إلاّ وأنّ جميع شعوب الأرض تؤمن بوجود الله خالقها، ولايختلفون فيما بينهم إلاّ في تفاصيل مايتعلّق بوجوده. فهل يُعقل أن يتأتّى هذا الإجماع تلقائيّاً وبالتّدريج؟

فاعلموا أن الله تعالى هو الذي كشف نفسه على عباده وأنبأهم بوجوده. وهو تعالى ماترك أمّة من الأمم إلا وبعث فيها نذيراً من طرفه يبشّرهم

وينذرهم. وأبقى وأسعد الذين آمنوا دوماً. أمّا من كذّبوا بوجوده وبرسله فقد قال عنهم: ﴿ **ثم أخذتُ الذين كفروا فكيف كان نكير.** ﴾.

هذا وإني سبق أن أثبتّ أنّ كلّ أمّة من الأمم القديمة كانت موحدةً في بادىء أمرها. وكانت كلّما ابتعدت عن زمن النبيّ الذي دعاها إلى الله خالقها، دبّت في عقائدها الانحرافات والتّفسُّخ، وانتهت إلى وضعٍ من الشّرك مأساويّ، وإن كان الشّرك بالله لايخرج عن نطاق الاعتقاد بوجود الله عز وجلّ.

وهكذا فإنّ قوله عز وجلّ: ﴿**وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير**﴾ أشار من طرف خفيّ إلى إجماع أمم الأرض نتيجةً لذلك على الاعتقاد بوجوده تعالى.

وهذا الإجماع الملاحظ لايعني أن فكرة وجود الله تولدت عند الناس تدريجياً، بأي شكل من الأشكال. فهذه آثار الأمم التي تركوها تدل أقدم تواريخ هذه الأمم على أنّهم اعتقدوا بالإله الواحد الموجود خارج هذا الكون والذي بعث برسله موصياً إياهم التبليغ بوجوده وبرسالاته. وقد أثبتّ ذلك من قبل.

وعليه فإنّ قوله تعالى: ﴿**وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير**﴾ أتت بدليل الإجماع العام الذي طرحه روبرت سبنسر، فهل للذّين يحترمون مؤسس الإلحاد المذكور أن يحترموا بالتالي هذا الدليل الذي يدلي به القرآن الكريم لإثبات وجود الله عز وجلّ؟

وقد أفضت إلينا ألفاظ هذه الآية الكريمة وبأسلوبٍ متميّز، دليلاً من النّمط الذهني البسيط ترجّح لنا من خلاله وجود الله الخالق. وهو دليلٌ تتقبّله مُختلف مُستويات الأفهام. ولايحتاج من الإنسان إجهاد نفسه كثيراً للإلمام بمعطياته. وقد جاء هذا الدّليل يُفحم ببساطة واضحة رموز الإلحاد، بل ويدينهم بما خطّته أقلامهم أيضاً.

٢ ـ دليل التّعدد اللّوني:

ولمّا كان في علم الله تعالى أنّ أوربة ستجود في القرن العشرين بفئةٍ مختلفةٍ عن هؤلاء الملحدين من علمائها، سيتبيّن لهم عن طريق مابلغوه من رقيٍ علميّ، أنّ هذا الكون ليس بأزليٍ أبدي، بل هو كونٌ مخلوقٌ قبل (١٢ ـ ٢٠) مليار عام تقريباً. إشارةً إلى نظرية الانفجار العظيم.

أقول: لمّا كان في علم الله الغيبيّ ذلك، أدلى جل شأنه إلى جانب دليل الإجماع العام الذي أتينا على ذكره، بدليل آخر متعدد العناصر، وبأسلوب بحث هذه الفئة من العلماء الأوربيين العلمي القائم على أساس من الملاحظة والتحليل والاستنتاج. وقد احتوى هذا الدليل الثاني الذي اصطلحت له اسم "دليل التعدّد اللّوني"، احتواه قوله تعالى في نفس سورة غافر، وبعد آيات الدليل الأوّل مباشرة: ﴿ **أَلَم تَرَ أن الله أنزل من السّماء ماءً، فأخرجنا به ثمرات مُختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدّواب والأنعام مختلفٌ ألوانه، كذلك إنّما يخشى الله من عباده العلماء، إنّ الله عزيزٌ غفور.** ﴾. والجُدَد تعني الخُطط والطّرائق في الجبال. وبيضٌ إشارة إلى كونها كلسيّةً بيضاء اللون.

وحُمرٌ إشارة إلى الجبال الرملية التركيب وحمراء اللّون. وغرابيب سود إشارة إلى الجبال البركانيّة سوداء اللّون. فالغرابيب جمع غربيب، أي حالك السّواد، وسودٌ هنا بدل من غرابيب، لتأكيد كونها حالكة السّواد. علماً بأنّ توكيد الألوان في اللّغة العربيّة لايتقدّم عليها.

والآن وبعد أن شرحت معاني ألفاظ هذه الآيات الكريمة التي اشتملت على دليل التعدّد اللّوني. أرى لزاماً عليّ إعطاء القارىء فكرةً واضحةً عن أسلوب علماء أوربا المعاصرين في البحث والتحليل والاستنتاج العلميين، ليُعينهُ ذلك على تفهّم الأسلوب الذي انتهجه القرآن من خلال طرحه لهذا الدّليل الثاني متعدّد العناصر. إثباتاً منه عز وجلّ لوجوده. فقد كان في علم الله الغيبيّ، كما ذكرت، أنّ القرآن الكريم وآياته ستمرّ من أمام أعين العلماء الغربيين أصحاب الأسلوب المخصوص بهم وفي القرن العشرين خاصة.

وإنّه بينما غلب على علماء القرن التّاسع عشر الأوربيين الإلحاد والتفكّير بنهج مادّي بحت. إذ راحوا يفسّرون ظواهر الطبيعة وأشياءها على أساس عُنصرين هما الضرورة والمصادفة. فقد لُوحظ أنّ علماء القرن العشرين الأوربيين تجاوزوا هذه المرحلة الإلحادية عموماً، فتجاوزوا عنصري الضرورة والمصادفة إلى ماوراءهما، بعدما تبيّن لهم أنّ العالَم ليس بمادّةٍ وحسب، وأنّه مخلوق، ولربّما تمّ خلقه منذ (١٢ ـ ٢٠) مليار عام.

دونكم أسلوب العالم الفيزيائي الشّهير (هنري مارجينو)[1] في البحث والتّحليل العلميّ. فقد كتب هذا العالم يقول: (فإذا كانت المُصادفة والضّرورة كلتاهما عاجزتين عن تفسير الجمال في الطبيعة، فلابُدّ من وجود شيء غير هذين العُنصرين.. تأمّل لحظة حِرفيّاً يصنع سكّيناً لتقطيع الخبز لاستخدامه الشّخصي، من الجليّ بالضّرورة أن تكون للسكّين الجديدة هذه شَفْرة، إذ لايستطيع الحرفيّ تقطيع الخبز دونها. أمّا تصميم مقبض السّكين المزخرف والمُرّصع، فلا نستطيع عَزْوَهُ إلى الضرورة. لأن السّكين قادر على أن يقطع الخبز بنجاح، دون حاجة إلى أيّ زخرفةٍ على الإطلاق. والحرفيُّ يختار بمحض إرادته أن يزيّن أداته بالزّخارف. ففي وسعه أن يُضيف الزّخارف أو لايُضيفها. فإذا اختار إضافتها، توفّرت له جُملةٌ من التّصاميم ينتقي منها مايشاء.

فزخرفة السّكين تقبل البدائل، ومع ذلك فهناك سببٌ لوجودها، وهو أنّ الفنّان لايريد سكّيناً ماضية فحسب، بل يُريدها جميلةً كذلك، فالزخرفة إذاً ليست نتاج المصادفة والضرورة، بل هي تصرُّفٌ يتّسم بحريّة الاختيار. والعقل يختار بحرّية، إذن هو الطّريق الوسيط بين المصادفة والضّرورة. وعلى هذا النّحو، فمادام الجمال بالغ الوفرة في الطبيعة، فلايمكن أن يكون ناشئاً من مُصادفة، فلابُدّ له إذاً من سبب ولكنّ هذا السّبب لايمكن حصره في نهجٍ واحد. إذن ليس هناك من ضرورة مُطلقه تقتضي أصلاً وجود الجمال في الحيوان والنّبات والجماد.

وعلى ذلك يبدو أنّ الجمال المشاهد في الطبيعة ناشيءٌ عن علّةٍ لاتحكُمها الضرورة، ولكنّ لديها مع ذلك سبباً يفسّر تصرُّفها. وهذه العلّة هي "العقل"، ومن ثمّ فإنّ هناك عقلاً مسؤولاً عن جمال الطبيعة، وهذا العقل القائم وراء الطّبيعة، يُطلق عليه النّاس جميعاً اسم "الله".

ودونكم العالم الأوربي (أمِرسون)[1] قد أقنعه منطق العالم (هنري مارجينو) الذي ذكرناه. وبعد أن أبدى قناعته برأيه، أدلى بالنّصيحة التالية، تأكيداً لِما ذهب إليه زميله بشأن الجمال، إذ قال: (إيّاك أن تُفوّت أيّ فرصةٍ

---

[1] العلم في منظوره الجديد ص٧٧ (عالم المعرفة العدد ١٣٤)

[1] المرجع نفسه

لمشاهدة أيّ شيء جميل، لأنّ الجمال خُطَّ بيد الله. إنّه قُدّاسٌ يُقام على جانب الطريق. لذلك رَحِّبْ بالجمال في كلّ وجهٍ حسن، وفي كلّ سماءٍ صافية، وفي كلّ زهرةٍ جميلة، واشكر الله على ذلك، إنّه كأس بركة.).

وهكذا يدرك المرء أنّ علماء القرن العشرين الأوربيين، وليس ساسَتُهم، راحوا يَلحظُون يد الله تعالى في ندفة الثّلج، وفي غروب الشّمس، وفي مروج الأعشاب. وأنّ عظمة الجمال الطبيعي وجلالَه يحملان توقيع الله الخالق الذي لاشُبهة في وجوده عز وجلّ. ذلك أنّ النظرة الجديدة لهؤلاء العلماء إلى الكون وأصله، وبُنيته الجمالية أفضت بهم إلى أنّ الله الخالق موجود. أمّا كيف قفزوا هذه القفزة الرائعة، فقد قفزوها بعد أن هجروا كُتب سنبسر وداروين وفرويد ونيوتن وكارل ماركس. قفز هؤلاء العلماء الجُدد من فوق أكداس مؤلفات هؤلاء الضّخمة، بعد أن أعملوا فكرهم في البحث عمّا يمكن أن يُتّخذَ سبباً غير الضرورة والمصادفة، لِما يتّصف به كل موسوم بالجمال في هذا الكون الجميل الأخّاذ كُليّاً وجُزئياً بجمال يخلُبُ الألباب. فهؤلاء العلماء الغربيون الجُدُد، والذين نَجَوا بأنفسهم من إسار الإلحاد الذي ضربه المُلحدون حول عقل الإنسان وتفكيره، اتّسع أفق رؤيتهم للأشياء، فبدت معالم الطريق أمامهم جليّةً بيّنةً لتنقلهم رؤيتهم هذه إلى تعرّف وجود الله عز وجلّ. وقد عاد هؤلاء العلماء الآن بأمسّ الحاجة إلى القسم الثاني من الأدلّة السّلوكية، التي تنقل الإنسان إلى مرحلة الاستيقان بوجود الله عز وجلّ، حيث تنتفي في تلك المرحلة الشكوك وتنجلي ظُلماتُها. فيندفع الباحث إلى يقين جازم، يخلد فيه القلب وادع النفس، هادىء البال، كطفلٍ ظفر بوالديه بعد ضياعٍ طويل فوجد فيهما سكينته ومأمنه، فهؤلاء العلماء الجدد بحاجةٍ الآن إلى من ينقل إليهم القسم الثاني من الأدلّة السّلوكية التي أدلى بها القرآن الكريم. فهم بحاجةٍ إلى صُحبةِ هؤلاء الأبرار الذين قطعوا هذا الشّوط السّلوكي فحنوا ثماره وليعودوا عمّا كانوا يتشدّقون به، بما لايعرفون.

إنّ علماء أوربة المعاصرين الذين تدرّجوا في سُلّم الأدلّة الموصلة إلى حقيقة وجود الله الخالق من البسيط إلى الدليل المركّب متعدد العناصر. عندما ينظُر هؤلاء إلى المُجتمعات الإسلامية المعاصرة ومايجري فيها من تعصُّب وتنافُر وتعادٍ وتقتيل. يصدُّهم ذلك الواقع، فيحول بينهم ودون تقبُّل الإسلام ودونَ

الإيمان بكتابه القرآن الكريم. ذلك أنّهم لايعثرون في هذه المُجتمعات المتخلّفة على أسوةٍ حسنةٍ حيّةٍ، تجسّم لأعينهم ثمار هذا الدين القويم، ومُعطيات هذا القرآن العظيم.

ألا إنّ النّهج القرآني في الاستدلال على وجود الله الخالق، اعتمد على قسمين من الأدلّة: الأوّل منها يساعد فكر الإنسان لترجيح وجود خالق لهذا الكون. وهو يتنوع مابين دليلٍ اشتمل على عُنصر واحدٍ، ودليلٍ اشتمل على عناصر عديدة. وهذا القسم الأوّل من الأدلّة اعتمد الفكر الإنسانيّ أداةً وسُلّماً على هذا الطريق.

وهذه الحقيقة نبّهنا إليها الله جل شأنه في أوّل سورة من كتابه العزيز. حين صَدَم الفكر العربي الجاهلّي بقوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للنّاس، وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا يُنفقون قل العفو، كذلك يبيّن الله لكُم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾ البقرة ٢١٩ ـ فقد حثّ جل جلاله هؤلاء السّائلين على إعطاء الفكر منزلة، ليتصرّفوا على هُدىً منه، ويحقّقوا بأسلوبٍ علميّ في منافع كلّ شيءٍ من الأشياء ومضارّه، فيتجنّبوا ماغلبت مضارُّه على منافعه. لذلك أضاف قوله: (كذلك) أي على هذه الشاكلة وبهذا الأسلوب تُعالج الأمور ويُميّزُ صالح الأشياء من طالحها. ولايتحقق ذلك عن طريق الإكثار من طرح الأسئلة. ثم إنّ في طيّات كلمة (كذلك) حثّاً منه تعالى للمؤمنين على تأسيس مؤسّساتٍ علميّة مثمرة، والاندفاع إلى الطريق العلمي في البحث والتّفكير. لذلك أردف تعالى بعد كلمة (كذلك) قائلاً: ﴿**يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾. ثم إن قوله (يُبيّن) أي يوضّح لكم هذه العلامات. فالآية جمعها آيات ومن معانيها العلامة والدليل. أي يرسم لكم طُرُقَ حلّ معضلاتكم في حياتكم الدنيا ﴿ **لعلكم تتفكّرون.**﴾ أي لعلّكم تعملون فكركم في كلّ آيةٍ من آيات هذا الكتاب فتهتدوا بما تعظ به الآيات وترشد إليه من وحدانيّة الله وعظمته وسبيله.

وعليه قلت آنفاً إن القسم الأوّل من أدلّة إثبات وجود الله تعالى ارتكزت إلى دعامة الفكر وأساسه. على حين ارتكز القسم الثاني من هذه الأدلة على أساسٍ سلوكيّ. وقد صرح تعالى بذلك في سورة البقرة الآية (١٨٦) بقوله: ﴿ **وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيب دعوة الدّاع إذا دعانِ،**

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.﴾، وسيأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله العزيز.

وأعود الآن إلى ماقتبسته من الأسلوب الجديد للعلماء الغربيين المعاصرين، الذي اختطّوه في التفكير والبحث والاستنتاج. فهو جلّ شأنه، ماإن انتهى من الإدلاء بدليل الإجماع العام الوحيد العنصر والبسيط، حتى أتبعه بالدّليل المتعدّد العناصر وعلى نمط هؤلاء العلماء المعاصرين. مُنطلقاً من قوله ﴿**ألم تر**﴾ إثارة للتّعجب، ورأى بمعنى ظنّ ويتعدّى إلى مفعولين على حسب ماذُكر في الكُلّيّات، فدلالة ﴿**ألم تر**﴾ أي ألَم تُلاحظ أيها الباحث بالأسلوب العلمي: ﴿**أنّ الله أنزل من السّماء ماءً، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها، وغرابيب سود. ومن الناس والدّواب والأنعام مختلفٌ ألوانه، كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ، إنّ الله عزيزٌ غفور.﴾**.

فالملاحظ أن الله تعالى كرّر كلمتي "مختلفاً ألوانُها" ثلاث مرّاتٍ، وقد ركّز في جميع ماذكره على اختلاف الألوان. فهو تعالى ذكر الثمار والجبال أولاً لافتاً الأنظار إلى اختلاف ألوان كلّ منها عن الآخر. والألوان هي في حقيقة الأمر أساس من أسس الجمال، كما أنّ للشّكل شأنه في الجمال أيضاً.

فهو جلّ شأنه انطلق في هذا المقام من مُنطلق الأسلوب العلميّ الذي بات سمة علماء أوربة المعاصرين. انطلق من أنّ الماء هو مصدر الحياة في جميع الأشياء التي أتى على ذكرها في هذه الآيات الكريمة، والماء حقّاً هو أساس الحياة في كل مخلوق على حسب ماأثبت العلم ذلك.

لكنّه تعالى أضاف متسائلاً أنْ: أو لم يُلفت نظركم أيها الباحثون هذا الاختلاف في ألوان جميع الأشياء التي ذكرناها، كيف بدت مُلوّنةً ومزخرفةً على صورةٍ لايفسرها عُنصرا الضرورة والمصادفة، فلابُدَّ أن يكون الذي أنشأ هذه الأشياء، قد زخرفها بمختلف الألوان التي ابتدعها، بعبقريّة الفنّان المُبدع المُصوّر؟

أولاتلاحظون كيف أنّ هذا الجمال المتجلّي في كل شيء من هذه الأشياء، جمال الطبيعة الأخّاذ الباهر للأنظار، قد أخذ بمجامع أفئدة الشعراء والأدباء فراحت ألسنتهم وأقلامهم تتغنّى بجمال الطبيعة في كلّ زمان، فتنظِمُ القصائد، وتحبّر المقالات، تعبّر بها عمّا يخالج هذه الأفئدة بمطالعة هذا الجمال.

فقد وصف الشعراء الربيع تدبُّ في أرضه الحياة بعد الموات، فتخرج الحياة متبرّجة متزيّنة بالأزهار والرّياحين بعد احتجاب. وقد وصفوا الروضة البكر بعد الغيث: نبتها ونضرتها ونماؤها. صورٌ تقف الأبصار أمامها دهشةً، و الألباب مُعجبةً مفتونة، صورٌ تنبض بالحياة والحركة. كما أخذ الجمال بمجامع أفئدة العُشّاق، فراحوا يتغنّون بمعشوقهم، فيصفونه بالبدر في ثورة المتألّق، وأخذ هذا الجمال بمجامع أفئدة الأدباء، فراحت أقلامهم تتنافس في إبرازه وتفتنُّ بوصفه في صورٍ قد بلغت من الدّقة والإتقان الغاية. فتجلّت فيها قُدرة الكاتب في فنّه وبراعته في التّصوير.

فإذا عُدنا إلى أسلوب هذا الدّليل القرآني متعدد العناصر، نجد أنّه أتى مُحلّى بأسلوب هؤلاء العلماء الأوربيين العلميّ، إذ أتى على ذكر الثّمار. والثّمار في الأرض يُرى منها عشرات الأنواع، ولكلّ نوعٍ منها مزيّته اللّونية الزخرفية. ثم أتى على ذكر الجبال، والجبال، وفي الأرض منها مئات ألوفٍ، ولكلّ جبلٍ من هذه الجبال مزيّته الزخرفية: فمنها ماكان من حجر كلّسيٍ، ومنها ماهو من حجرٍ رملّي أو حجرٍ بُركانيّ أي بازلتّي. فهي تتراءى لك من بعيد بلونٍ أبيض وأحمرٍ وداكن أسود.

وأتى تعالى على ذكر الإنسان، ولفت الأنظار إلى أن الإنسان لم يخلُ من هذه الزّخرفة اللونيّة، فهناك العرق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود أيضاً. وأتى على ذكر الدّواب والأنعام. وللدّواب والأنعام ألوف الأنواع. وكُلٌّ منها لُوّن بزخارف تسلب ألباب الناظرين.

وكأن الله عز وجلّ يخاطب القائلين بمذهب دارون في النشوء والارتقاء، فيقول: إذا نحن سلّمنا أنّ سرّ تعدّد الأنواع وتركيبها على أشكالها الماديّة الحاضرة، إنما يعود إلى فاعليّة عنصري الضّرورة والمُصادفة، إذا سلّمنا معكم بذلك، فكيف يمكن أن تفسّروا ظاهرة الاختلاف في الألوان، وهذه الزّخارف اللّونيّة اعتماداً على أساسٍ من الضرورة والمصادفة، فإن عجزتم عن ذلك، لزم أن تُعيدوا النّظر في جميع ماتزعمون.

على أنّ العلماء المعاصرين، ممّن خالفوا أتباع دارون في نظريّته، انقلبوا عليه من جهات، وأقروا صاغرين بما لفت القرآن الكريم الأذهان إليه. وسلّموا بأنّ اختلاف ألوانِ كلّ شيء يشير إلى وجود يدٍ لفنانٍ أعظم قد زخرف كلّ

شيءٍ خلقَهُ بريشةِ المصوّر المُبدع. وإنّه لدليلٌ لايدحضه، بل يؤيده قول عالمهم (أمِرسُن)[1] ، قوله: (إيّاك أن تفوّت أيّ فرصةٍ لمشاهدة أي شيءٍ جميل، لأنّ الجمال خُطّ بيد الله..).

أقول: كان الأحرى بهؤلاء الذّين أدركوا أنّ اختلاف الألوان في الطبيعة، لاتفسّره الضرورة والمصادفة، بل يفسّره وجود يدٍ لفنان أعظم. كان أحرى بهؤلاء ماداموا قد مضوا في تقديس الجمال على أنّه (خُطّ بيد الله) كان أحرى بهم أن يتعالوا عن عبادة البشر، ويعبدوا الخالق ربّ العالمين. فكان من واجبهم أن يخطوا الخُطوة الثانية للتعرّف على هذا الذي أبدع هذا الجمال اللّوني، ويُوطّدوا صِلاتهم به تعالى، ويرتموا على أعتابه، متوسّلين مُتضرّعين أن يهديهم إلى الصراط المُستقيم، وأن يرزقهم حقّ اليقين.

وهكذا نكون قد اطّلعنا على دليلين يُثبتان وجود الله عز وجلّ احتوتهما سورة فاطر في مقامٍ واحد. الدليل الأول منهما بسيط غير متعدّد العناصر. وقد اصطلحنا له دليلَ الإجماع العام. والدليل الثاني منهما، المتعدّد العناصر، وقد اصطلحنا له اسم دليل التعدّد اللّوني. وهذان الدّليلان يعودان إلى القسم الأوّل النّظري في الإثبات. هذا القِسم من الأدلة الذي يصل بالمرء إلى حدّ ترجيح وجود الخالق المُبدع المصوّر عز وجلّ، ولايتجاوز ذلك، على مايقتضيه عقل الإنسان السّليم التّفكير.

٣ ـ دليل الوحدانيّة في الذّات وفي الصفات

وأتناول بالذّكر والشرح دليلين جديدين، يُرجّحان وجود الله عزوجلّ. وقد اشتملت على هذين الدّليلين سورة الإخلاص التي لايزيد عدد آياتها عن أربع آيات عدا البَسْملة. هذه السورة التي ورد عن رسول الله ﷺ قوله بشأنها: (من قرأ قل هو الله أحد فكأنّما قرأ ثُلُث القرآن) وقوله: (والذي نفسي بيده إنّها لتعدل ثُلث القرآن.).

---

[1] المرجع نفسه

والغريب حقّاً، هو أنّ كُتُب التّفسير، بالرغم من أنّها احتوت في طيّاتها هذه الأحاديث الشّريفة، قد أخذت بروايات أسباب النّزول، فذهبت إلى أنّ سورة الإخلاص قد اقتصرت على تعداد صفاتٍ مُحدّدةٍ لله تعالى وحسب.

والباحث المسلم المُتدبّر لايذهب مذهب ماأخذت به كتب التّفسير هذه بل تحثّه الأحاديث الشريفة التي أوردناها، ليتدبّر سورة الإخلاص بنظرةٍ ثاقبة أعمق ممّا دلّت عليه أسباب النّزول، ولينظر من زاويةٍ مختلفةٍ تماماً.

ثم إن تسمية هذه السّورة باسم سورة الإخلاص، تحثّه هذه التّسمية حثّاً على أن ينتحي بتفسيره منحى آخر. ذلك أنّ الإخلاص مصدر أخلص، وهو ترك الرّياء في الطّاعات، كما قال صاحب التّعريفات من حيث الدلالة المعنوية للفظ الإخلاص. وهل يترك المرء الرّياء في الطّاعات ويتجنّبه لمجرّد أن يقرأ ويردّد (أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفواً أحد.)؟

ولعلّ كتب التّفسير قد ذهبت إلى ماذهبت إليه، لابتداء سورة الإخلاص بفعل الأمر (قل)، فتصوّرت أنّه جواب (قل) عن سؤالٍ وجّهه المشركون إلى رسول الله ﷺ. وقد يكون لهم عُذْرٌ، لو ورد هذا اللّفظ ضمن سورةٍ كثيرة الآيات. على حين كانت سور المُعوّذات الثلاث، ومنها سورة الإخلاص، خلاصةً موجزةً لجميع مضامين القرآن الكريم.

وهي على شاكلة فاتحة الكتاب، فلا يُعقل أن تنزل جواباً على سؤالٍ مُعيّن. بل لابُدّ أن تكون مُفعمةً بدلالاتٍ توازي ثُلث مضامين القرآن الكريم إنما بإيجاز شديد وبليغ.

ولرُبّ سائل يسأل: فماهي حكمة ودلالة فعل الأمر (قل) هنا إذن؟

ويستنبط الجواب من التّسلسل الموضوعيّ لسورة الإخلاص، وارتباطها موضوعيّاً مع السّورة التي سبقتها من حيث ترتيب تلاوتها، أي بسورة (تبّت)، التي سبق أن ندّد الله عز وجلّ فيها بأبي لهبٍ، وبما أنبأ فيها عن زوال قُوّته وقوّة أتباعه وعُملائه من على وجه الأرض في هذا الزمن الأخير المعاصر، زمن تخلّف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم، وزمن ظهور عملاء أبي لهبٍ من بين صفوفهم. ولامجال للتوسّع بذلك في هذا المقام.

فمعنى (قل) الوارد في ابتداء سورة الإخلاص، معناه الأمر بإنذار أبي لهبٍ يوم صولته أنّ الله موجود، وأنّه لاقِبَلَ له بمقاومة دين الإسلام والقضاء على كتابه القرآن، ذلك أنّ الله جلّ جلاله (أحد) لايشاركه شيء في ذاته ولافي صفاته.

ذلك أنّ للفظ القول أكثر من معنى. فهو يستعمل للنّطق، كما يستعمل للاعتقاد والاجتهاد. وللقرآن الكريم نهجٌ انتهجه في كلّ مقام أورد فيه فعل الأمر (قل). وهو جلّ شأنه أتى بصيغة (قل) فيما يزيد عن ثلاثمائة وثلاثين مرة، ووفقاً للنّهج التّالي:

أولاً ـ في حال ورود كلمة (يسألونك)، يعمد إلى الإجابة، مبتدئاً بالأمر (قل). وعلى سبيل المثال، ففي الآية (١٨٩) من سورة البقرة قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلّة، قل هي مواقيت للنّاس والحجّ..**﴾.

ثانياً ـ وفي حال التبشير والإنذار، يعمد بعده إلى التّعبير بلفظ (قل) آمراً بضرورة من بشّرهم وأنذرهم، أن يستعملوا نعمة العقل، فيمعنوا التّفكير فيما بشّرهم به وأنذر. ففي سورة الأنعام الآية (٥٠) مثلاً، قال تعالى: ﴿**ومانُرسل المُرسلين إلاّ مبشرّين ومُنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والّذين كذّبوا بآياتنا يُمسُّهُمُ العذاب بما كانوا يفسقون، قل هل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكّرون.**﴾؟

ثالثاً ـ وفي الوقت الذي يندّد به تعالى بالعقائد الفاسدة ومُعتنقيها، يعمد تعالى بعد ذلك إلى فعل الأمر (قل) ليحمّل رسوله الكريم والذين آمنوا معه رسالة تحدّ إلى أصحاب العقائد الفاسدة. كما ورد في الآية (١٩٥) من سورة الأعراف على سبيل المثال، حيث قال تعالى منددّاً: ﴿**إنّ الّذين تدعون من دون الله، عبادٌ أمثالكم، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألَهَمُ أرجلٌ يمشون بها، أم لهم أيدٍ يبطشون بها، أم لهم أعينٌ يُبصرون بها، أم لهم آذانٌ يسمعون بها، قل ادعوا شُركاءكم ثمّ كيدون فلا تُنظرون.**﴾.

هذا و لم يسبق أن ابتدئت سُوَر القرآن الكريم بكلمة (قل) لنعتبر (قل) التي ابتُدئت بها سورة الإخلاص جواباً عن سؤال معلوم.

المهمّ هو أن للقرآن الكريم نهجاً يسير عليه في كلّ أمرٍ من أموره. ومن واجب الباحث المتدبّر أن يتبيّن معالم هذا النّهج قبل الجزم برأيه. خصوصاً بعد أن

وضّحت له معالم هذا النّهج في هذا المقام. فلابُدّ له من التقيّد به ومراعاة السّياق والتّسلسل الموضوعي ودوره، عند الكلام على فعل الأمر (قل) ودلالته.

هذا وإني بيّنت أنّ سياق (قل) هنا هو مضمون مااشتملت عليه سورة تبّت. هذه السورة التي ندّدت بأبي لهبٍ وأنذرته فالمقصود بـ (قل) إذن مُخاطبة هذا المارد المتمرّد ووعظه بأن يضع نصب عينيه أنّ الله موجود، وأنّه أحدٌ في ذاته وصفاته، وأنّه الحكَمَ الأخير والفصل والمرجع في جميع الأمور، وأنّ أسباب النّفاذ إنّما هي طوع يديه عز وجلّ.

ومايؤكّد لنا المعنى الذي كشفت عنه، هو أنّ الله تعالى لم يقُل هنا (قل الله هو أحد). بل قدّم الضمير (هو) على اسمه الأعظم. وإنّ لهذا التّقديم دلالته البلاغية، ذلك أنّ المرء إذا شاء تعظيم مُسمّى، يقدّم الضمير العائد عليه، تعظيماً لشأنه وإكباراً له. وهذا الأمر بدا واضحاً في الآية ﴿**قل هو الله أحد**﴾ فالضمير (هو) في هذه الآية يعود إلى اسم الجلالة (الله) الذي لم تحتوي هذه الآية على إسم سواه. وقد قُدّم ضمير (هو) على اسم الجلاله إشعاراً بعظمة الله عز وجلّ. وكأنّه تعالى بهذه الصيّغة البلاغية، قد نبّه أبا لهبٍ إلى تناسيه شأن الله فيما يفعله ويُقدم عليه.

وبإمكاننا الآن أن ندرك احتواء الآية ﴿**قل هو الله أحد**﴾ على مقولتين اثنتين: الأولى تضمّنها إعلان وجود الله العظيم الشأن. وهو مادلّ عليه قوله تعالى ﴿**قل هو الله**﴾. والمقولة الثانية تضمّنها لفظ ﴿**أحد**﴾ بمعنى أن الله عظيم الشأن ليس موجوداً وحسب، بل هو متفرّدٌ في ذاته كما هو متفرّدٌ في صفاته أيضاً.

فقد أورد صاحب معجم أقرب الموارد أنّ الواحد هو أوّل العدد.

تقول: واحد اثنان ثلاثة.. والفرق بين الأحد والواحد، أنّ الأحد اسمٌ لمن لايشاركه شيءٌ في ذاته، فهو الواحد الذي لايشاركه شيءٌ في صفاته أيضاً.

فإذا علمنا أنّ الله تعالى احتّط في كتابه العزيز نهجاً خاصاً به، وهو أنّه لايأتي بمقولةٍ إلاّ ويُتبعها بدليل يثبت صدق مضمونها. ولذا كان لزاماً علينا تجاه احتواء الآية على هاتين المقولتين: وجود الله العظيم وتفرّده في ذاته وصفاته، أن نجد في الآيات التي تعقُب هذه الآية من سورة الإخلاص دليلين يُثبتان صحّة هاتين المقولتين. وإلاّ نكون قد خالفنا أصلاً هاماً من أصول تفسير القرآن

الكريم. هذا الأصل الذي قلّما عُنيت كُتُب التّفسير به وهو أنّ الله تعالى لايدّعي أمراً ما إلا ويُتبع دعواه بدليل مؤيّد لدعواه.

والحقّ الذي لامراء فيه هو أنّ الله تعالى أثبت مقولته الأولى المتعلقة بوجوده، وذلك بأن قدّم عليها دليلاً من النوع البسيط، يُستساغ فهمه لدى مُختلف المستويات من أفهام عباده. وقد عبّر عن دليله هذا بقوله: ﴿**الله الصّمد**﴾ أي أنّ صمديّة الله تعالى تجلّت على الدّوام في كلّ مكان وفي كل زمان. ويقتضي تدبّر كلام الله منّا أن نتبيّن معالم هذا الدّليل القرآني الذي يثبت منه وجود الله عز وجلّ.

فما معنى كلمة (الصّمد)؟ أورد صاحب معجم أقرب الموارد أنّ الصّمد هو السّيد الذي لايُقضى دونه أمر، والدّائم والرفيع. كما أورد صاحب معجم المفردات: أنّ الصّمد هو السيّد الذي يُصمد إليه عند الحاجة والضرورة. وأورد صاحب محيط المحيط: أنّ الصّمد هو المكان المرتفع الغليظ، والصّخرة الرّاسية في الأرض المستوية أو المرتفعة التي لاتطولها الخطوب والطّوفانات مهما ارتفعت وعتت. فإذا بحثنا تبعاً لهذه المعاني عن معالم هذا الدّليل الذي عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**الله الصّمد**﴾ تبيّن لنا أنّ الله تعالى هو دوماً مرجع عباده وصمودهم إليه. كما يبدو في مواجهة مكذّبي أنبيائه ورسله الكرام صخرة راسيةً تتحطّم على أعتابها الأعاصير والطّوفانات.

وكأنّه تعالى حثّنا من خلال قوله (الله الصّمد) على أن نستعرض في أذهاننا ماواجهه آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وسواهم من أنبياء الله تعالى، وآخرهم محمد خاتم النبيّين. حثّنا أن نستعرض أمواج المقاومة الصّارخة التي ووجهوا بها من قِبل مُكذّبيهم وأقوامهم. وكيف صمد هؤلاء الأنبياء جميعاً إلى الله المعتقدين بوجوده، وذلك في أشدّ وأخطر تلك السّاعات الحرجة من حياة دعواتهم، يوم لم تعد بيدهم حيلة، ولم يعد لهم ملجأ يلجؤون إليه، إلا الله وحده. وكيف ولّد الله تعالى من عالم غيبه مختلف أسباب المحافظة عليهم والدّفاع عنهم، بل أنزل بأعدائهم مختلف أنواع العذاب.

حثّنا الله جلّ شأنه من خلال قوله تعالى ﴿**الله الصّمد**﴾ على أن نذكر الطّوفان الذي أغرق به الذين استهزؤوا بنوحٍ عليه السلام. ونذكر كيف أغرق فرعون وجنوده، وأن نذكر نجاة عيسى بن مريم من مكيدةِ مُكذّبيه. وأن نذكر

كيف تحوّلت النّار برداً وسلاماً على ابراهيم. كما نذكر إخفاق قريش في محاولتهم قتل محمد رسول الله. ثم نذكر فتح الرسول العظيم لمكّة نفسها، وانكشاف أهلها أمامه، وخضوعهم له وتقبّلهم لتعاليم هذا الدّين الحنيف.

فإذا استعرض المفكّر المتدبّر جميع هذه الأحداث، فلاحظ أنّ لفظ (صمد) إنّما ورد في قوله تعالى (الله الصّمد) مُعرّفاً بالألف واللاّم، دلالة على أنّ الله تعالى هو وحده الذي يُصمد إليه في شدائد الأمور.

فهو الوجود المعهود ذهنيّاً في جميع الأحداث التي ذكرناها، تجلّى له إثر ذلك معالم هذا الدّليل المُبرهن على وجود الله عز وجلّ. فعمد عقلُهُ إلى تصوُّر وجود الله تعالى، وليس عكس ذلك. ذلك أنّه لابد له أن يقول في حديث نفسه: كيف تجري جميع هذه الأحداث والطّوفانات، وتأتي هذه النتائج الإيجابيّة، ويكون ذلك من قبيل المُصادفة، في جميع هذه الأزمان، ولمصلحة أفرادٍ جُلّ ماأعلنوه للنّاس أمثالهم، هو أنّ الله موجود ويُكلّمهم أيضاً؟

على هذه الصورة تتجلّى لأعيننا معالم الدليل الأوّل على وجود الله تعالى من خلال الآية الكريمة ﴿الله الصّمد﴾. ذلك أنّ هذه الأحداث قد كشفت وجود الإله السيّد الصّمد الذي لايُقضى دونه أمرٌ والدّائم الرفيع، والذي يُصمد إليه عند هذه الحاجات والضرورات. فهو تعالى تلك الصّخرة الرّاسية مجازاً والتي لاتطولها الخطوب والطوفانات مهما ارتفعت وعتت وأوهمت في كلّ مرّةٍ هاجت بها أنّها المُنتصرة، ثم آبت بالخيبة والخذلان، وكانت العاقبة للمُتّقين.

فهذه شهادات متكرّرة أمام أعين الناس تصوّر بل تثبت وجود خالقهم وهاديهم، وعليه فبالإمكان اصطلاح اسم دليل (الوحدانيّة في الذات) لهذا الدّليل. ويكون الله تعالى بذلك قد أدلى من خلال قوله (الله الصمد) بأوّل دليل يثبت من خلاله إحدى مقولتيه اللّتين اشتمل عليهما قوله تعالى (قل هو الله أحد). ومن ثم كان لابدّ لنا من البحث عن معالم الدليل الثاني الذي يثبت مقولة الأحديّة التي اشتمل عليها لفظ (أحد) في قوله تعالى (قل هو الله أحد)، بعد أن كشفنا عن الدّليل الأوّل الذي أثبت وجود الله عز وجلّ. هذه المقولة التي اشتمل عليها قوله تعالى: (قل هو الله)، أي أعلم بوجود الله عظيم الشأن والمقام.

وقد سبق أن لاحظنا أنّ مقولة الأحديّة ذات شقّين: الأحدية في الذات والأحديّة في الصفات. كما أورد تعالى قوله (ولم يكن له كفواً أحد) بمقابل

الأحديّة في الصّفات. كما سبق أن قلنا أنّ هذا الدّليل الثاني جيء به على أسلوبٍ نَهَجه علماء عصرنا في البرهنة والاستدلال، فكان الأسلوب العلمي المتعدّد العناصر.

ويتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ ودلالته على تفرُّد الله في ذاته؟

أقول: إنه عز وجلّ نبّه أذهان عباده هنا إلى قانون الاحتياج العام. فهم يُذعنون في استمراريّة وجودهم لهذا القانون الطبيعي. وهذا ماكان قد عبّر عنه تعالى في سورة فاطر (١٥) بقوله: ﴿**يأيّها النّاس أنتم الفقراء إلى الله، وهو الغنيّ الحميد، إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلق جديد، وماذلك على الله بعزيز**﴾، وهذا يؤذن بإذعان النّاس لقانون الاحتياج العام. على حين أنّ الله عز وجلّ هو الصّمد أي الرفيع الدّائم الذي لايحتاج في دوام وجوده إلى هذا القانون. وإذا كان إحدى ظواهر هذا القانون، أن يكون أحدكم والداً ومولوداً. فالله (لم يلد ولم يولد)، لأنّه يتّصف في وجوده بالأزليّة والأبدية.

وكأنّه جلّ شأنه يقول لنا بألفاظٍ أخرى: مادمتم تحتاجون في وجودكم واستمرارية وجودكم إلى أن تلدوا أو أن تكونوا مولودين، فلابدّ أن تكونوا مخلوقين من جهة، وأن يكون خالقكم مُبرّأً ومُنزّهاً عن هذا الاحتياج مُتّصفاً بالديمومة من جهة ثانية (لم يلد ولم يولد). وهكذا تتلازم مقدّمة الدليل ونتيجته، فتقتضي أولاهما الثانية بطبيعة الحال. وهذه النتيجة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على تفرّد الله في ذاته، فهو دائم الوجود ومُستغنٍ عن أن يلد أو يولد.

ثم يتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ وعن دلالته على تفرّد الله عز وجلّ في صفاته؟

أقول: الكفءُ في اللّغة العربية معناه المُماثل. تقول: هذا كُفء فلان أي مثيله. هذا ماأورده صاحب معجم أقرب الموارد. وصاحب معجم المفردات أضاف أنّ الكفؤ هو المثيل في المرتبة. وإنّ معاني الكفء هذه متعلّقة بالدلالة على تفرّد الله في صفاته أيضاً. فلم يكن كفؤاً له أحد بماثله فيما يتسّم به من صفات وأسماء حُسنى.

وألفاظ هذه الآية ﴿**لم يكن له كفواً أحد**﴾ تنقل ذهننا إلى نواحٍ عديدة يقتضيها العقل والمنطق. فلو أننا افترضنا وجود أكثر من إله، وكانوا متكافئين ومتماثلين في صفاتهم، لاستحال استمرار العالم في تبعيّته لقوانين واحدة، ولهبّت على هذا العالم ريح الفساد والدّمار، إذ لايُعقل إلاّ أن يكون لكلّ إلهٍ من الآلهة خطّة عملٍ تُغاير خطة عمل الإله الآخر. ولابدّ أن يسعى كلٌّ منهما إلى السيّادة على هذا العالم دون الآخر. وإلى هذه النتيجة العقليّة والمنطقيّة أشار الله عز وجل في سورة الأنبياء (٢١) حينما قال: ﴿**أم اتّخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون. لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفَسدتا، فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون. لايُسأل عمّا يفعل، وهُمْ يُسألون. أم اتّخذوا من دونه آلهةً قل هاتوا بُرهانكم، هذا ذكْر من معي وذكر من قبلي، بل أكثرهم لايعلمون الحقّ فهم مُعرضون. ومأرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لاإله إلاّ أنا فاعبدون. وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عبادٌ مكرمون. لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾.

وهكذا فإنّ قوله تعالى: ﴿**ولم يكن له كُفواً أحد**﴾ يحمل الدّلالة القاطعة على أنّ الله الخالق لهذ الكون ليس متفرّداً في ذاته وحسب بل في صفاته أيضاً.

والناحية الثانية التي يوّجه قوله تعالى ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ أذهاننا إليها، ليبرهن لنا عقلاً ومنطقاً على تفرّده في صفاته عز وجلّ، هو دفعُنا إلى تفقّد القوانين الطبيعيّة التي تهيمن على مسيرة هذا الكون الذي لم يتوصّل العلماء بعدُ إلى معرفة حدوده. فإن كانت هذه القوانين الطبيعية واحدةً في جميع مااكتشفوه من أرجاء الكون. فالعقل والمنطق يقضيان أن تكون وحدة هذه القوانين دالّة على وحدانيّة الله الصّانع وتفرّده في صفاته أيضاً. ذلك لأن وحدة هذه القوانين وهذا الكون تقتضي الوحدة في ذات الخالق المُوجد وفي صفاته أيضاً.

والناحية الثالثة التي يوجّهنا إليها قوله تعالى ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾. هو أنّ أحداً مامن العلماء لم يكتشف في هذا الكون اللاّنهائي شيئاً واحداً صغيراً كان أم كبيراً يتّصف بالكمال والاستغناء وعدم الحاجة.

وكأنه سبحانه وتعالى في هذه الحالة يحثّنا على تفحّص العالم من حولنا، لنتلّمس مظهر أحديّته في صفاته عز وجلّ. وليكون لنا ذلك دليلاً واضحاً على أنّ خالقنا الذي نعبُده، لايُماثله شيء في صفاته. فهو ينبّهنا إلى أنّ كلّ شيء في

هذا الكون، أبعد مايكون عن الكمال، فهو مُحتاج في وجوده لسواه من الأشياء. أي أنّ الذّرة في أبسط أشكالها، كلّ جزء من تركيبتها يؤثّر في سواه، كما يتأثّر بسواه. والإنسان وقد كان الملحدون يظنّون أنّه كامل الشّخصية، تبيّن أنّه مُحتاجٌ في وجوده أبداً. فهو محتاجٌ مثلاً إلى الخبز والماء والهواء. وهاقد اكتشف العُلماء حقّاً أنّ الشمس غير مُستغنيةٍ في وجودها أيضاً. والأرض كذلك تحتاج لتوفير توازُنها إلى جاذبيّة سواها من السّيارات، كما تحتاج إلى تجديد مواد غلافها الجوّيّ. أي أنّ الاحتياج صفة عامة للأشياء عامّة سَواء منها العظيم والتّافه الحقير. وهذا معناه أنّ الكون خاضعٌ لقانون الاحتياج العام. وهذا الأمر يُعطي، في حدّ ذاته، دليلاً قاطعاً على أنّه أي هذا الكون لايقوم بنفسه، بل تُسيّره قوّةٌ خارجةٌ عنه. ذلك لأنّه يستحيل على الذي اتّصف بصفة الاحتياج أن يكون خالقاً لنفسه، أو أن يكون أزليّاً في وجوده.

ثمّ إنّ قوله عزّ وجلّ ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ ينبّهنا إلى أنّ الكون المحتاج من حولنا، يكاد لاتحدّه حدود من سعة أفقه وامتداده.

فلا يُعقل أن يكتشف الإنسان في المستقبل كوناً آخر من خلق إلهٍ آخر، يكون كفواً ومثيلاً لهذا الكون.

ذلك أنّ علماء الفلك يقيسون المسافات مابين الكواكب والنّجوم بالسّنوات الضّوئية. والسّنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها شعاعٌ من ضوءٍ ينطلق من مصدره بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية.

ولهذا فإنّ السّنة الضوئية تساوي نحو ست ملايين مليون ميل. وإنّ أقرب نجمٍ بعد الشّمس تفصلنا عنه مسافة أربع سنوات ضوئية وثلث، أي نحو (٢٦) مليون مليون ميل. وإنّ إحدى المجرّات المسمّاة مجرّة "المرأة المسلسلة"، تبعد عنّا مليوني سنة ضوئية. أي تبعد عنّا اثني عشر مليون مليون ميل. أي تبعُد عنّا بما لايستطيع العقل مُجرّد تصوّره من الأميال.

على هذه الصّورة فإنّ ظاهرة خضوع كوننا التي نعيش فيه لقانون الاحتياج العام في كل ذرّة من ذرّاته، وفي كل شيء من موجوداته، وهو الكون الذي لم تتراء للعلماء أبعاده، ليؤكّد هذا الواقع أنّ خالق هذا الكون يتفرّد يقيناً في أسمائه الحسنى وصفاته.

كما يستحيل أن يُكتشف في المستقبل وجود أيّ شيء مُستغنٍ في ذاته غير مُحتاج إلى سواه. وهذا الأمر يصل بنا إلى اليقين الجازم بصدق هذا الدّليل القرآني العظيم، ذلك الدّليل الذي قدّمته لنا سورة الإخلاص من خلال قوله تعالى: ﴿**ولم يكن له كُفواً أحد.**﴾.

من هذا كلّه، ندرك جليّاً وبكل وضوح، أنّ سورة الإخلاص التي لم تتجاوز أربع آيات، لم تجلُ كُتب التّفسير مضمونها، فذهبت إلى أنّ ذكر صفات الله الواردة فيها، كان لمجرّد التّعداد، على حين أنّ سورة الاخلاص لخّصت لنا موضوع عقيدة التّوحيد التي اشتمل عليها القرآن الكريم. وأتى هذا التّلخيص على صورة مقولتين: مقولة وجود الله، ومقولة تفرّد هذا الإله في ذاته وفي صفاته. كما أثبتت آيات سورة الإخلاص هاتين المقولتين، وذلك بتقديم دليلين يُثبتان صحّتهما، وبإعجاز لغوّي وعلمّي مابعده من إعجاز، ومن ثم احتواء ﴿**قل هو الله أحد**﴾ على هاتين المقولتين، كذلك احتواء ﴿**الله الصّمد**﴾ على دليل وجود الله عز وجلّ.

والدليل على تفرّد هذه الذات اشتمل عليه قوله تعالى: (لم يلد و لم يولد). والشّطر الآخر من هذا الدليل الثاني وهو تفرّد الله في الصّفات، اشتمل عليه قوله عز وجلّ (و لم يكن له كفواً أحد).

فإذا قرأ المؤمن سورة الإخلاص بهذا الفهم وهذا الإدراك، فكأنما قرأ ثلث القرآن الكريم حقّاً، على حسب ماورد عنه ﷺ.

فلو كانت سورة الإخلاص قد أُنزلت جواباً عن سؤال من قِبَل المشركين مُوجّهٍ إلى رسول الله ﷺ ليصف لهم ربّه، لكان هذا الوصف ناقصاً، ولنتذكّر ماأوردته سورة الحشر من وصفٍ وصفت به الله عز وجلّ حيث ورد فيها: ﴿**هو الله الذي لاإله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هوالرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبّح له مافي السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.**﴾ فسبحان الله الذي جاءت آيات سورة الإخلاص محوراً لصفاته وأسمائه الحسنى.

٤ ـ دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب

وأدلت الآيات بدليلين اثنين في سورة ابراهيم يبرهنان على وجود الله عز وجلّ. أحدهما من النوع البسيط، الذي لايعسُر فهمه على أيٍ من مُستويات الأفهام. وثانيهما جاء بالأسلوب العلمي المعاصر المتعدّد العناصر.

وقد ارتكز تعالى فيه إلى حصيلة ماكشفت عنه العلوم المعاصرة في القرن العشرين. ونتناول أوّلاً توضيح الدليل الأوّل البسيط العنصر:

ففي سورة ابراهيم الآية (٨) قال تعالى: ﴿ **ألَم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلاّ الله، جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديَهم في أفواههم وقالوا: إنّا كفرنا بما أرسلتُم به وإنّا لفي شكٍ ممّا تدعوننا إليه مُريب. قالت رسلُهم: أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخّرَكم إلى أجلٍ مُسمّى، قالوا: إنْ أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدُّونا عمّا كان يعبُد آباؤنا، فأتونا بسلطانٍ مبين.** ﴾.

ويبدو واضحاً أنّ هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على هذا الدّليل. فقد كان كلّ نبيّ من أنبياء الله ورسله يدلي بهذا الدّليل في مواجهة قومه، للاستدلال من خلاله على وجود الله الذي أرسله، والاعتماد عليه في اثبات صدق نبوّته. ولْنَقُل أنّ أفهام البشر لم تكن تستسيغ سماع وفهم دليل أعقد من هذا الدّليل. وهذا الدليل يُدركه حتى البدويّ في الصّحراء.

إذ يُروى أنّ فيلسوفاً لقي بدوّياً ساذجاً، فسأله: أتؤمن بوجود الله الخالق؟ فهزّ البدويّ رأسه إيجاباً. فطالبه الفيلسوف بالدليل، أجاب البدويّ: البعرة تدلّ على البعير. وآثار الأقدام على المسير، والسّماء ذات الأبراج والأرض ذات الفِجاج، أفلا تدلُّ على اللّطيف الخبير؟

وهذا الدليل البسيط الذي أدلى به البدويّ، هو ماأصطُلح على تسميته بدليل العلّة والمعلول أو السّبب والمسبّب. وهو الدّليل الذي اشتملت عليه هذه الآيات من سورة ابراهيم. وقد دأب على طرحه والإدلاء به جميع من سبق من أنبياء الله تعالى قبل الإسلام في مواجهة أقوامهم وهيّا نتدبّر هذه الآيات الكريمة.

فالملاحظ هو أنه تعالى أخبرنا عن حال أقوام هؤلاء الأنبياء بكلام بليغ وذلك حين قال: ﴿**جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديهم في أفواههم.**﴾.

فالمقصود باليد هنا نعمة تعاليم الرسالات والأديان التي بُعث بها أنبياؤهم، وليس اليد الظاهرية بقرينة قولهم بعدها: ﴿**وقالوا إنّا كفرنا بما أُرسلتم به..**﴾. وكأنّ أقوام الأنبياء السابقين وقفوا موقفاً واحداً من أنبياء الله تعالى، مُظهرين عدم استعدادهم لقبول دعواتهم وتعاليم رسالاتهم التي جاؤوهم بها من الله عز وجلّ. وكأن كلّ قوم من تلك الأقوام قالوا لرسولهم: اذهب عنّا بنعماء رسالتك وعُد إلى دارك، فلاحاجة بنا للإستماع إليك، ﴿**وإنّا لفي شكٍ ممّا تدعوننا إليه مريب.**﴾.

والمعلوم هو أنّ كلّ نبيّ دأب على دعوة قومه إلى الإيمان بوجود الله عز وجلّ، إلى جانب الإعلان عن أنه رسولٌ من قبله. لذلك ﴿ **قالت رسُلُهم: أفي الله شكٌّ فاطرِ السّموات والأرض.**﴾. ولنلاحظ أنه تعالى لم يقل (فاطر السّماء والأرض). ذلك لأنه أراد أن يلفت الأنظار إلى عظمة هذا البّناء الشامخ العظيم المؤلّف من الكواكب والشّموس والسّيارات والمجرات، الذي يعلو رؤوس العباد. ثم إنّ كلمة فاطر من فَطَرَ الشيء: شقّه. وفطر الأمر اخترعه وابتدعه وابتدأه وانشأه (أقرب الموارد). والملاحظ هو أنّ الله تعالى طرح هذا الدّليل بأسلوب الاستفهام الإنكاري ليُظهر مبلغَ ظهوره ووضوحه وقربه من الحقيقة والواقع ﴿**أفي الله شكٌ**﴾ أيعقل أن ترتابوا بوجود خالق السموات والأرض وتتجاهلوا حتميّة وجود خالق لكلّ شيء من الأشياء وسبباً لوجوده؟ فالآباء هم علّة ثانية لوجود أبنائهم. والعلّة الأولى وجود الخالق. ثم إنّ الأدوات المصنوعة لابدّ لها من علّة. والعلّة صانعوها. أفبعد هذا ترتابون بوجود مُبدع هذه السّموات والأرض وذارئها ومُنشئها؟

وهذا الدليل البسيط العنصر، والمُستقى من واقع البشر على مرّ الزّمان. لم تستسغه عقول علماء القرن التاسع عشر الأوربيين المادّية، بالرّغم من بساطته ومعقوليته، وخصّوه بهجوم كبير. ظناً منهم أنّ هذا الكون الماديّ قديمٌ جدّاً وأزليّ، وأنّه يتطوّر من نفسه منذ أبد الآبدين.

أما علماء القرن العشرين الذين فوجئوا بنظريّة العالم الفيزيائي (غاموف) المعروفة بنظريّة الانفجار العظيم، هذه النظرية التي أثبت غاموف من خلالها أنّ عالمنا المادّي مخلوق وليس هو بأزليّ. وقد تم ابتداؤه وانشاؤه منذ (١٢ إلى ٢٠)

مليار عام، فقد مال هؤلاء العلماء إلى تصديق هذا الدليل القرآني، الذي دأب أنبياء الله تعالى على مواجهة أقوامهم به على الدّوام.

وهاهو العالم الفيزيائي (أدموند و يتيكر) يطرح سؤالاً، مفاده: هل من مكان لإلهٍ في هذا الكون المادّي من حولنا؟ ويجيب هو نفسه عن السؤال فيقول: (ليس هناك مايدعو إلى أن نفترض أنّ المادة والطّاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنّه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميّز تلك اللحظة عن غيرها من اللّحظات في الأزليّة؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم، أي ابداعاً قامت به الإرادة الإلهية للكون من العدم.).

والمهم هو أنّ الاتّجاه العلمي المعاصر، بات يتقبل هذا الدّليل القرآني البسيط. يتقبّل أن تكون لكلّ شيء علّة وسببٌ للوجود. ويسلّم بوجود الله الذي شاء أن يخلق هذا الكون، فأبدعه وأنشأه، فكان العلّة والسبّب الأساسي لوجوده (عالم المعرفة ـ العدد ١٣٤).

٥ ـ دليل الغائية والتّكامل:

وفي سورة ابراهيم نفسها، وابتداءً من الآيات (٣١) أدلت الآيات بدليل آخر متعدّد العناصر وبالأسلوب العلمي المعاصر في الاستدلال، الذي يثبت للعقل وجود الله الخالق المُبدع والهادف أيضاً. أقول أدلت هذه الآيات بدليل تجاوز أسلوبه في البرهنة والاستدلال مرحلة أسلوب الأسلاف من علماء القرن التاسع عشر، الذين كانوا يَعْزَون وجود كلّ شيء إلى عُنصري الضّرورة والمصادفة، مُنطلقين من اعتقادهم بأزليّة المادّة وخضوعها لقانون النّشوء والارتقاء في جميع أطوارها، وقد ارتكز هذا الدّليل إلى توضيح نقطتين هامتين: الأولى هي أنّ جميع الظّواهر دالّةٌ على أنّ خلق كل شيء من أشياء هذا العالم كان هادفاً. والنّقطة الثانية هي أنّ كُلّ شيء في هذا الكون يُكمل المقصد والهدف الأصلي لخلق هذا الكون. لذلك تَراني اصطلحت لهذا الدّليل عُنوان دليل الغائيّة والتّكامل.

وقد أدلت الآيات بهذا الدّليل العلمّي الهام بعد أن فرغت من الكلام عن الأنبياء السابقين، ومواقف أقوامهم منهم، وماتبعه من أمور. وقد جاء هذا الدّليل العلمّي اثباتاً أيضاً كون هذا الإله الخالق هو عالم الغيب والشهادة. وليثبت من خلال الإدلاء بهذا الدليل صلاحيّة القرآن الكريم لكلّ زمانٍ ومكان.

وهاهو قد أدلى بدليل أسلوب طرحه نفس أسلوب علماء القرن العشرين العلمّي في البرهنة والاستدلال.

وقد أتى الدّليل يُبرهن على وجود الله تعالى بنفس أسلوب هؤلاء العلمي المتعدّد العناصر، المستند إلى مختلف مُعطيات علومهم أيضاً.

وقد جاء في الآيات من سورة ابراهيم التي اشتملت على هذا الدّليل قوله تعالى: ﴿ **الله الذّي خلق السّموات والأرض، وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم، وسخّر لكُمُ الفُلك لتجري في البحر بأمره، وسخّر لكم الأنهار. وسخّر لكم الشّمس والقمر دائِبيْن وسخّر لكم اللّيل والنّهار. وآتاكم من كل ماسألتموه، وإن تعدّوا نِعمة الله لاتُحصوها، إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار.**﴾.

ولنلاحظ أوّل مانُلاحظ أنّه جلّ شأنه لم يُقل ﴿ **الله الذي خلق السماء والأرض**﴾. بل أتى بصيغة الجمع للسّماء أي (السّموات). على شاكلة مافعله في الدّليل الأوّل الذي قال فيه (فاطر السّموات والأرض). ولم يفعل ذلك دون حكمةٍ ومقصد. بل جاء به كذلك لتنبيه أذهان علماء عصرنا، هؤلاء الذين بَرعُوا في علوم الفلك، إلى أنّه تعالى يتكلّم، وهو يعلم بما تشتمل عليه السّماء من فوقهم، فهي ليست سماءً بل سموات، أي ليست هي صفوفٌ من النّجوم الظاهرة للعيون، بل هي سماوات مُتراكبة ملأى بالكواكب والنجوم والمجرّات.

والله عز وجلّ، بعد أن طرح مقولته هذه من خلال قوله: ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض..**﴾ بمعنى أنّ هذا الكون المادّي مخلوقٌ، وأنّ خالقه هو الله عالم الغيب والشهادة، أقول: بعد أن طرح تعالى مقولته هذه أخذ يبرهن على صحّة مقولته. فلمّا انتهى منه، أنهى دليله العلمي هذا المتعدّد العناصر، بألفاظٍ مؤثّرة بليغة وهي: ﴿ **إن الإنسان لظلومٌ كفّار..**﴾. تنبيهاً لعقول علماء القرن العشرين خاصة، هؤلاء الذّين تكشّفت لهم مُختلف العلوم، فلم يستفيدوا منها حقّ الاستفادة، ولم يؤمنوا عن طريقها حقّ الإيمان، فيؤوبوا إلى خالقهم بصورةٍ عمليّة. فحقّ قول الله عليهم خاصّة ﴿ **إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار**﴾.

والأمر الأوّل الذي تناوله هذا الدّليل، هو التنبيه إلى أنّ خلق الله تعالى للسّموات والأرض ماحدث عبثاً، بل جاء يستهدف خلق الأرض وإقامة الحياة على سطحها، وخلق الإنسان فيها. وهذا التّنبيه للأذهان تحقّق من خلال قوله

تعالى بعد ذلك بالتتابع ﴿رزقاً لكم﴾ ﴿وسخّر لكم﴾ ﴿وآتاكم من كلّ ماسألتموه﴾. والمقصود من هذه العبارات أن وجود الإنسان، وأسباب استمرار حياته على سطح الكرة الأرضية، كان هو محور هذا الخلق كلّه.

وقد جاء هذا التنبيه إلى هذه الحقيقة لينقل ذهن العالم المفكّر إلى أمورٍ علميّةٍ هي أوسع وأشمل بكثير ممّا ينتقل إليه ذهن الإنسان العاديّ.

جاء هذا الأمر لينتقل ذهن عُلماء القرن العشرين المُعاصرين، دون علماء القرن التّاسع عشر الذين لم يكونوا قد اطّلعوا على نظريّة آينشتاين، أو عرفوا الذّرة وتفاعلاتها، أو كشفوا علم تفجير الذّرة وماإليها، ولاكانت للفيزياء النوويّة وفيزياء الكمّ في زمنهم من وجود.

إنّ الله عز وجل، وهو قد انطلق في دليله هذا من أنّ خَلْقَهُ لهذا الكون كان هادفاً خلق الحياة والإنسان في ظلاله. هذا الأمر الذي أشار إليه من خلال تعابير (رزقاً لكم) (وسخّر لكم) (وآتاكم من كلّ ماسألتموه). أقول: إنّ انطلاقه تعالى من هذا المُنطلق، يحثّ ذهن العالم الذي يعيش في عصرنا لمراجعة ماتوفّر له من معلومات حتى اللّحظة، وكيف مهّد الله تعالى خلق الحياة وخلق الإنسان إبداع هذه السّموات والأرض، بل سخّر لتحقيق ذلك المقصد العظيم هذا الكون العظيم الذي لم تُدْرك نهايته بعد وحدوده.

فالله تعالى، وقد خلق هذا الكون أصلاً من عُنصرٍ واحدٍ هو الهيدروجين على ماثبت علميّاً. فقد تطلّب ذلك الأمر تحويل عنصر الهيدروجين هذا إلى عناصر مُتعدّدة. وقد اقتضى هذا التّحويل، من الوجهة العلمية احتراقاً نوويّاً حراريّاً رهيباً، أي احتاج إلى مفاعلات تحوّلُ العُنصر إلى عناصر أثقل من الهيدروجين . واستدعى ذلك أن تكون هذه المُفاعلات من الضّخامة، بحيث تصلح لمثل هذا الاحتراق النوويّ الحراريّ.

وعلى ضوء هذه الحقائق، بإمكان عالم عصرنا أن يُدرك سرّ وحكمة خلق الله تعالى لهذه الأعداد الهائلة التي لاحصر لها من النّجوم والشّموس، وهي تفوق في حُجومها حجم شمس سمائنا المعروفة بمئات وألوف المرّات.

فبإمكان عالم عصرنا أن يُدرك على حسب التّنبيه الذي نبّهت إليه ألفاظ هذا الدليل أنّ حكمة خلق الله للحياة والإنسان على سطح كوكبنا الأرضي اقتضت منه تعالى خلق هذه النّجوم كمفاعلات ضخمة، تُحوّل عنصر

الهيدروجين داخلها إلى عناصر أثقل منه كالهليوم والكربون والأوكسجين والسليكون والحديد وسائر عناصر المادّة الكونيّة. فالعالم المُعاصر يحثّه علمه لإدراك واستيعاب مغزى ودلالة قوله تعالى في بداية آيات هذا الدّليل العلميّ **﴿الله الذي خلق السّموات والأرض﴾**، هذه الكلمات التي تعني أنّ عمليّة خلق الله الحياة والإنسان، اقتضت منه تعالى أصلاً خلق هذه السّموات والأرض على حالتها الحاضرة. وإنّ عظمتها لتثبت أصلاً وجود خالقها الذي لايُحدُّ علمه، ولاتقف قُدراته عند حدود. فالله عز وجلّ هو الذي خلق هذا الكون على هذه الشّاكلة، ولم يُخلق هذا الكون مُصادفةً من تلقاء نفسه.

فحين يتدبّر عالم عصرنا قوله تعالى بعد ذلك: **﴿وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم.﴾** يفطن إلى أن الله عز وجلّ جاء بضيف إلى العنصر المذكور من دليله الذي يحاول به إثبات وجوده، عُنصراً هامّاً جديداً. وكأنه يقول: إن نحن افترضنا أنّ الهيدروجين قد اتّحد بالأوكسجين مُصادفةً، فتكوّنَ من اتّحادهما كيميائياً هذا الماء السّائل. أفلا تُلاحظون كيف أنّ هذا السّائل قد خَضَعَ لقوانين مكّنته من التبخّر، فالتّجمع في السّماء على هيئة غيوم، لاتلبث أن تتحوّل ثانيةً إلى ماء، إذا مامسّ الأرض الموات أحياها، فجاءت بفضله بمختلف الثّمرات **﴿رزقاً لكم﴾**؟

وهنا يستعيد هذا العالم في مخيّلته مُختلف التجارب والأبحاث التي قام بها العلماء لمعرفة الأساس الذي بُنيت عليه نشأة الحياة فوق سطح كوكبنا الأرضي. هذه التّجارب التي عجزت حتى اللّحظة في الكشف عن هذا السرّ الدّفين الذي يكشف كيف نشأت الحياة على سطح كوكبنا الأرضي.

ويفسّر سرّ عدم عثورهم حتى اللّحظة على أثرٍ للحياة على سطح كوكب آخر سواه. هذا السرّ الدّفين الذي لو وَضَحَ لكانَ ساعد العلماء على معرفة الكيفيّة التي تولّدت بها جميع نباتات وثمار وحيوانات هذه الأرض، وتولّد الإنسان نفسه أيضاً. هذه الأمور التي لم تفسّر حتى اللّحظة تفسيراً علميّاً مقنعاً.

فالله عزوجل إذ أضاف قوله تعالى: **﴿وأنزل من السّماء ماءً، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾** كأنّه قال بألفاظٍ أخرى أن افرضوا أنّ هذا الماء السّائل تبخّر من نفسه، وأدّت المُصادفة إلى تكوّن الأمطار وسقاية الأرض الموات نتيجةً لذلك، فكيف يتأتّى للإنسان أن تستمرّ حياته ونسله دون توفير رزقه من

الثّمرات المحتوية على أنواع الفيتامينات والنّشويات والبروتينات الضرورية لاستمرار حياته؟ أفلا يدلّ إنبات هذا الرّزق المتنوّع على أنّ ماحدث، إنما حدث بتخطيطٍ وقُدرةٍ وعلمٍ من خلق إله خالقٍ قد قصد إلى توفير رزقكم قصداً؟ فهذه هي دلالة هذا العنصر الثاني المضاف لهذا الدليل العلمي الهام الذي صرّح به قوله تعالى: ﴿**وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم.**﴾. فهذا عنصرٌ جديدٌ يؤكّد وجود خالق للسّماوات والأرض، وموجدٍ لهذا النظام لتوفير رزق الإنسان وسواه. وهذا العُنصر الجديد يُعين العالم المعاصر على استيعاب بقيّة العناصر التي اشتمل عليها هذا الدليل الذي أوردته آيات سورة ابراهيم للاستدلال على وجود الخالق عز وجلّ.

فهذا يسهّل على هذا العالم أن يُدرك العنصر الجديد الذي أضافه قوله تعالى: ﴿**وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر** بأمره.﴾، والذي يُلفتُ من خلاله الأذهان إلى أنّ هذا الماء السّائل الذي تولّد عن اتّحاد الهيدروجين بالأوكسجين، كان قد غطّى أكبر قدرٍ من سطح الأرض، وكان يُتوقّع أن تؤلّف هذه المساحات الشاسعة من الأرض المغمورة بالمياه حواجز تحول دون اتّصال الناس بعضهم بالبعض الآخر، لولا ن ألْهَمَ الله الخالق خلقه أن يتخّذوا الفُلك التي تجري في البحر بأمره. بعد أن وفّر جل شأنه لهم جميع مايدخل في صُنع هذه الفُلك، ذلك لتنقلُهم من مكان إلى مكان، فوق سطح هذه المساحات الشّاسعة من مياه البحر، وكأنه تعالى شاءٌ أن يقول: فهل يُعقل أن تزعموا بعد هذا كلّه أنّ كلّ ذلك قد حدث مصادفةً واتّفاقاً؟

وبإمكان هذا العالم المعاصر أن يدرك العنصر الجديد المُضاف إلى العناصر السابقة من هذا الدّليل العلمي، هذا العنصر الجديد الذي تضمّنه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **وسخّر لكم الأنهار**﴾. فهو يُعيد إلى ذاكرته الوظيفة التي تؤدّيها الأنهار والخدمات لصالح البشر، خلال مُختلف الأزمنة والأمكنة، الأمر الذي بات معلوماً من أكثرية المثقفين.

و لم تنشأ الحضارات أصلاً إلاّ على ضفاف الأنهار. وقد مضى الشعراء والأدباء يقولون: مصر هبة النّيل، ودمشق هبة بردى، وهكذا دواليك.. وكأنّه جلّ شأنه عندما أضاف قوله تعالى: ﴿**وسخر لكم الأنهار**﴾ قد أراد أن يتساءل الخلق: كيف يمكن أن يكون الحال، لو لم تكن هذه الأنهار في عالَمِ الأرض؟ فهل

كان تسخير الأنهار في خدمة الخلق من باب المصادفات؟ بل هل يُعقل إلاّ أن يُعدّ هذا ثمة عنصراً جديداً يؤكّد وجود الخالق الهادف لإيجاد الحياة والإنسان، وليساعد جميع ذلك على استمرارية الحياة الإنسانية؟

وقد أضاف تعالى إلى عناصر دليله التي ذكرناها عنصراً جديداً مزيداً من خلال قوله بعد ذلك: ﴿**وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين.**﴾. أي أوَليسَ هذا النظام الشّمسي أعظم برهان على وجود الله عز وجلّ الذي كان يهدف من إيجاده استمرار الحياة الإنسانية؟ فهل أتى هذا النّظام من قبيل المصادفة أيضاً؟

وأراد الله تعالى بهذا العنصر الجديد أن يُثير عقول علماء عصرنا، ليفكّروا كيف تستمر الشّمس وتدأب على إضاءة كوكبنا الأرضي، لتدفئته فتكون عاملاً على بعث الحياة فيه باستمرار. بل كيف يدور القمر دورته المعروفة مُستمّداً نوره من الشّمس، فيتراءى للنّاس بدراً فهلالاً، ثم يغيب ليعيد سيرته، فيتغنّى به العُشّاق والشعراء في كل زمان ومكان.

يستعيد هذا العالم المعاصر ماتوصّل إليه علماء عصرنا عن الشّمس، فيدرك أنّما هي مفاعل نوويّ حراريّ عظيم، بل وعظيم جدّاً، يُنتج الطاقة الشّمسية المستمرّة الدّائبة العطاء، وذلك من خلال تحوّل العناصر النوويّة داخله. تحوّل الهيدروجين إلى هليوم، فيولّد الطّاقة والضّوء.

هذا في حين كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعتبرون الشّمس لُغزاً من الألغاز حيّر العقول. فلم يكونوا يعرفون من الطّاقة إلاّ الوقود التّقليديّ. علماً بأنّ الاحتراق الكيميائي العادي لم يصلح تفسيراً لطاقة الشّمس، إذ لو كانت الشّمس كلّها فحماً، لاحترقت وفنيت في غضون ثلاثمائة عام. فقد ظلّت هذه الشّمس لُغزاً في أعينهم، إلى أن تمكّن الفيزيائيّان (هانزبيته وكارل فون فايتزساكر) عام ١٩٣٨ من تقديم تفسير كامل لكيفيّة توليد الشّمس للطّاقة والضوء، فهل يستسيغ عقلنا أن يحدث هذا النّظام الشّمسي مُصادفة دون تخطيطٍ من خالقٍ قدير؟

وهذا النظام الشمسيّ لايُعوّل عليه في توليد الطاقة والضوء وحسب. بل يُستفاد منه لإبراز نظام آخر يرتكز إليه، وهو نظام اللّيل والنّهار. وهو عُنصرٌ جديد في هذا الدّليل العلمي، عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**وسخّر لكم اللّيل والنّهار**﴾. ولايحيط علماً بقيمة هذا النّظام إلاّ العلماء الذين أدركوا ماهذا النّظام

من مهام موكلةٍ إليه لخدمة الإنسان والحيوان والنّبات أيضاً، ممّا يجد المرء تفاصيله في بُطونِ الكتب التي ألفّها العلماء بما يختصّ بهذا النّظام أيضاً.

والله عز وجل وقد أضاف هذا العنصر الجديد إلى دليله العلميّ، كأنّه جاء يسأل: وهل يمكن أن يحدث هذا النّظام الدّقيق، بفوائده المعلومة من قبيل المصادفة، أللّهم إلاّ أن يكون هذا من تصميم خالقٍ يعلم حاجات هذا الإنسان المخلوق التي تفيد في استمرار حياته وبالتالي تُعينه على تحقيق المقصد من خلقه؟

فلّما أراد جلّ شأنه أن يفحم الجاحدين لوجوده وخلقه الهادف، أضاف قائلاً: ﴿**وآتاكم من كلّ ماسألتموه، وإن تَعُدّو نعمة الله لاتُحصوها، إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار.**﴾.

فبهذه الألفاظ المُعبّرة أنهى جل شأنه هذا الدليل العلمي المتعدّد العناصر، الذي أدلى به في سورة ابراهيم، ليواجه به علماء عصرنا، ومن ورائهم علماء الفلك الذّين وكأنّ السّماء كُشطت أمام أعينهم فتراكمت من جرّاء ذلك معلوماتهم، وامتازوا بذلك عمّن سبقهم من العلماء. بل عاد هؤلاء العلماء يُقرّون أنّ اجتماع هذه العناصر المؤلّف منها هذا الكون المادّي يستحيل إلاّ أن يَدُلّ على وجود الله الخلاق. لكنّ هذا الدّليل وأمثاله، المستمدّ من عناصر الطبيعة والمتعدّد العناصر، مكّن هؤلاء العلماء من القول بترجيح وجود الله الخالق فقط، لكنّه لم يهبهم اليقين الكامل للتّسليم بوجود الله عز وجلّ.

وقد سبق أن وضّحت المنهج القرآني المتعلق بالاستدلال على وجود الخالق، من أنّه ينقسم إلى أدلّةٍ ترجيحيّةٍ وأدلّةٍ سلوكيّةٍ تهب اليقين الكامل بوجود الله عزوجلّ. وهذا النوع الثاني من الأدلّة سيأتي بيانه بعد الانتهاء من تقديم نماذج من الأدلة الترجيحيّة إن شاء الله العزيز.

والمهمّ هو أنّ هذا القسم من الأدلّة العلمية المتعدّدة العناصر والتي ترجّح وجود الله عزوجلّ، كان الغرض من الإدلاء بها مواجهة التّقدم العلمّي في جميع العصور. ويثبت هذا بلا ريب أنّ تعاليم القرآن الكريم صالحةٌ لكلّ زمانٍ ومكان.

٦ ـ دليل النّظام والمُنظّم:

وفي سورة المُلك أدلى الله عزوجلّ بدليل من النّوع البسيط، تدليلاً على وجوده تعالى حيث قال: ﴿**تبارك الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير.**

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسنُ عملاً، وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارْجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتَين ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسير.﴾.

ولنتدبّر مفردات هذه الآيات ومعانيها، قالوا: طباق الأرض ماعلاها. والسمواتِ طباق أي مُتطابقة بعضها فوق بعض. ومعنى تفاوت الشيئان: تباعد مابينهما واختلفا. فالتفاوت هو الاختلاف وعدم التناسب، كما قال الفرّاء. والفطور من فطر الشيء شَقه. وخاسئاً أي ذليلاً. وحسيرٌ من حَسَرَ البصر: كلَّ وانقطع من طول المدى.

ويُستدل استناداً إلى هذه المعاني أنّ الله تعالى قد أراد بقوله: ﴿ **الذي خلق سبع سماوات طباقاً.. الخ:**﴾ أراد أن ينبّه الأذهان إلى أنّ جميع مافي هذا الكون يخضع لنظامٍ واحد، ذي قوانين واحدة أيضاً. أي أنّه مهما تقدّمت علوم الفلك، فلن تكشف عن أيّة ثُلمةٍ في هذا النظام.

وقد أراد تعالى من هذا التنبيه إلى وجود هذا النظام، أراد تقديم دليلٍ علميّ أرقى وأقوى من دليل العلّة والمعلول الذي سبق أن بيّناه.

فهو جلّ شأنه لايستدل هنا على وجود الله عزوجلّ من كون كلّ شيءٍ مخلوقاً. بل يستدل بالنظام الكوني على وجود المنظّم الأحد. فهو تعالى ينبّهنا إلى أنّ النجوم والكواكب والسيارات، على ضخامة كلّ منها، لاتعملُ منفصلةً، كلٌّ على نظام. بل يضمّ الجميع نظام واحد وقوانين واحدة. في وقتٍ تتقاسم هذه الكُراة الضّخمة أعمالها وحركاتها، في ظلّ هذا النّظام الواحد والقوانين الواحدة. بالرّغم من أنّ كُلاً من هذه النجوم والكواكب والسيارات، تبدو مستقلّةً إحداها عن الأُخرى. وقد استحثّ ربُّنا عقولَنا أن تقف تجاه هذه الظّاهرة الكونية وقفة تدبُّر ومراجعة. لتوقن من جرّاء ذلك وجود خالقٍ مُبدعٍ ومنظّم أيضاً لهذا النّظام الكوني الواحد.

وهو تعالى عندما استحثّ عقولنا من خلال قوله: ﴿ **ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾. دفع هذه العقول إلى تقليب النّظر في الأمر من زوايا مختلفة، وليس من زاوية نظرٍ واحدة.

قال افرضوا أنّ هذا النظام الكوني الواحد، عَرَضَ وجودُه مصادفةً واتّفاقاً. وحاولوا تحليل الكُلّ إلى أجزائه، ومُمعنين نظركم فيه. ودونكم الإنسان مثلاً، فإنّه لايبدو مُنفصلاً عن هذا النظام الكوني، وإن بدا مستقلاً في الوقت نفسه عن هذا النّظام.

فالإنسان الذي لايستغني في وجوده عن الشّمس وضوئها وحرارتها، ولاعن الهواء والماء والغذاء. يبدو مستقلاً من حيث أنّه أُوتي عقلاً وحواسّ متلقّية متناسقة القوانين والأداء، فأيدي الإنسان هي أبرع من الآلة الكاتبة في الكتابة. وعيناه أعظم من جميع آلات التّصوير للرؤية وتمييز الألوان والأشكال. وأنفُه ولَمسه وأرجله وسواها من الأعضاء والحواس، بارعة التلقّي والأداء والتناسق فيما بينها. بل وهب الخالقُ هذا الإنسان عقلاً مُفكّراً يخزن به ماشاء من معلومات.

فالإنسان إذن يدور في فلكٍ كونيٍ يخضع فيه لِما هو حوله كالشّمس والقمر والهواء والماء والغذاء. كما يدور في فلك نفسه وكيانه الجسمانيّ المؤلّف من الأعضاء والحواس والدّماغ. وعلى شاكلته يُقال هذه حالُ الكواكب والنجوم والسيّارات. والعقل البشريّ لايستسيغ أن يأتي هذا النظام على هذه الصّورة اتّفاقاً وعرضاً. بل يجزم أن يكون قد أتى من إبداع خالقٍ مُنظّم هو على أعلى قُدرة في الخَلق والتنظيم.

ثمّ إنّ حواس الإنسان، بالرغم من أنّها تبدو مستقلّةً في حدّ ذاتها، لكنّها في حقيقة الأمر تابعةٌ لما هو كائن في هذا الكون من أشياء. فلاترى العين إلاّ بتوسّط الضّوء الذي يأتيها من الشّمس من على بُعد مئات ألوف الأميال. والأذن لاتسمع إلاّ بتوسّط هواء الجوّ الأرضي، الذي يحمل إلى الأذن مختلف ذبذبات الأصوات، من مختلف الجهات. فحواس الجسم إذن، وإن كانت تبدو مستقلّةً متناسقة فيما بينها، فإنّها في حقيقة أمرها غير مُستغنيةٍ عن النظام الكوني العالمي.

وقوله تعالى: ﴿ **ثم ارجع البصر كرّتين، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.** ﴾، يحثّنا أن ننظُر من زاويةٍ ثالثةٍ أدقّ. وذلك بأن نتناول الخلايا الحيّة التي يتركّب من مجموعها جسم الإنسان. فلقد تكشّف للعلماء أنّ كُلّ خليّةٍ من هذه الخلايا، تؤلّف عالماً مستقلاً مُنظّماً ومتناسقاً. وهي في الوقت نفسه تخضع للنظام الجسمانّي العام.

فلكلّ خليةٍ من خلايا جسم الإنسان استقلالها ونظامها وتناسقها من جهة، وهي تتبع نظام الجسم الكُلّي من جهة ثانية، فلاهي مُستقلة استقلالاً تامّاً، ولاهي تابعةٌ بصورةٍ مُطلقة.

والمهمّ في الأمر هو أنّ آيات سورة الملك هذه لفتت أذهاننا إلى ظاهرة النّظام الكوني التي ذكرناها، لتقول لنا بألفاظ أخرى: هل تستسيغ عقولكم أن تتأتّى معالم هذا النّظام الكوني مصادفةً واتّفاقاً؟ أفلا تلاحظون أنّ كلّ شيء في هذا العالم إنّما يُرى حلقةً من سلسلةٍ لاتنتهي من السّلاسل التابعة لنظام واحدٍ متناسقٍ لاتصادم فيه بين سلسلة وأخرى؟

وبهذا التنبيه إلى هذا النّظام الكوني الشامل لكلّ شيء في الوجود، يقدّم القرآن حجّةً قاطعة الدّلالة على وجود الله الخالق المنظّم المُبدع، وقد اصطُلح على تسمية هذا الدليل: دليل النّظام والمنظّم.

وعلى شاكلة دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب، فإنّ هذا الدّليل لم يسلم من نقد علماء القرن التاسع عشر الاوربيين الذين زعموا أنّ الكون أزليّ أبديّ. وراحوا يقولون مستهزئين: كيف تكون الشّجرة في الغابة، والحيوانات السّارحة في الصحراوات، والطّيور المحلّقة في أجواز الفضاء، والأفاعي والعقارب والدّواب المؤذية، وديدان الأشجار، كيف تكون جميع هذه الأحياء مسخّرة للإنسان؟ فهذه الأحياء التي ذكرناها لم تكن تخضع في نظرهم لقانون، هذا ماكان عليه مبلغ علمهم في عصرهم.

أمّا علماء القرن العشرين الغربيون فقد تكشّفت على أيديهم ما لم يتكشّف على أيدي أسلافهم من علوم. فهم الذّين تكشّفت لديهم معارف إنجلى لهم بها حتى تركيب الذّرة. ووُفّقوا لإرسال مركباتٍ فضائيّة، كشفوا بها مجاهل الفضاء. وهكذا بدؤوا يؤمنون بصحّة هذا الدّليل الذّي قدّمه القرآن الكريم من حيث لايشعرون. وأخذت نظرتهم العلميّة الجديدة تكشف لهم أنّه مامن مخلوق في هذا الوجود إلا وهو يخضع للنّظام الكونيّ، فهناك توازنٌ طبيعيٌّ، بإمكان الإنسان الاستفادة منه، وأنّ الإنسان نفسه هو جزء من هذا التّوازن الكونيّ.

وقد عاد هؤلاء العلماء يتلمّسون عُنصراً روحيّاً، إضافة إلى العنصر المادّي في هذا الكون، مُتجاوزين في فهمهم وإدراكهم، مرحلة تفسير الأمور على أساسٍ من مبدأي المصادفة والضّرورة، حتى في الأمور الجماليّة أيضاً.

وأعظم دليلٍ على اندفاعهم على هذا الطريق من الفهم والإدراك، قول آينشتاين المشهور: (لاعِلم من غير الاعتقاد بوجود تناسُقٍ داخليٍ في الكون.). فآينشتاين بهذه الألفاظ المعدودة شهد بأنّ هذا الكون يخضع لنظام في جميع أشيائه، وبتناسق فريد. فمن لايرى رأيه هذا، لايمكن أن يكون عالماً، ويبقى علمه قاصراً عن إدراكٍ حقيقة الأشياء.

وقد ظهر من بعده علماءٌ كُثُرٌ، راحوا يرون رأي آينشتاين، كالعالم الفيزيائيّ(ويلر) إذ قال[1] : (إنّ كلّ قانون من قوانين الفيزياء مردّه إلى شيءٍ من التّماثل والتشابه في الطبيعة.) أي أنّه حتّى في مجال الفيزياء، فإنّ قوانينها مُتناسقة، تناسُق سائر القوانين الطبيعيّة ونظامها الكونيّ.

وهكذا فإنّ دليل النّظام والمنظّم الذي طرحه القرآن الكريم في سورة الملك، من خلال قوله تعالى: ﴿**الذي خلق سبع سمواتٍ طباقاً، ماترى في خلق الرّحمن من تفاوتٍ، فارجعِ البصر هل ترى من فُطور، ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾، يتراءى هذا الدّليل من حيث قوّة حُجّته، أمضى في الإقناع من دليل العلّة والمعلول، في أمر ترجيح وجود الخالق المُنظّم المُبدع.

ولمّا كانت سورة الملك هي آخر سورة من كُتلة السّور السّبع عشرة التّابعة لمضمون سورة (ق) الذي يرمز إلى القادر أو القدير، فقد لُوحظ أنّ الآيات هُناك قد تضمّنت دليلاً علمياً من النوع المتعدّد العناصر، دليلاً يثبت وجود الله القادر على فعل كلّ شيءٍ أراده.

٧ ـ دليل القدرة :

وقدّمت لنا سورة (ق) دليلاً علمياً متعدّد العناصر يثبت وجود الله القدير. واصطلحت له اسم دليل القدرة. عرضت سورة (ق) هذا الدّليل من خلال قوله تعالى: ﴿ **أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فُروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج. تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب. ونزلّنا من السّماء ماءً مُباركاً**

---

[1] ـ المرجع السابق

فأنبتنا جنّاتٍ وحبّ الحصيد، والنّخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد. رزقاً للعباد، وأحيينا به بلدةً ميتاً، كذلك الخروج.﴾ الملك (٦-١١).

والمدخلُ إلى هذا الدّليل فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لأصحاب العقول من العلماء الغافلين عن حقيقة هذا الدّليل. وهذا الأمر عبّر عنه تعالى من خلال استهلاله هذه الآيات بقوله: ﴿**أفَلَم ينظروا..**﴾ أي ماهؤلاء الذّين يدّعون العلم والفهم، يتجاهلون حقيقةً ماثلةً أمام أعيُنهم، وهي هذه السّماء من فوقهم، وبهذا الأسلوب من التّعبير والطّرح لهذا الدّليل، أكسب تعالى دليله العلمي من قوّة البيان والإقناع بأساً ماكان ليتأتّى بغير هذا الاستهلال.

وقد أتى ربُّنا بهذا الدّليل العلمي مؤسّساً على مُقدّمات مُتعدّدة، وفي كلّ مُقدّمةٍ منها نقاط مُتعدّدة، وعلى أساسٍ علّمي من الملاحظة والاستنتاج. وانتهى من كلّ ذلك إلى نتيجةٍ هي الحقيقة لاريب فيها، وهي إثبات وجود الله الخالق المُبدع القادر على خلق عالمٍ آخر مثيل.

أمّا مقدّمة الدّليل الأولى، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿**أفَلَم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فروج.﴾**. وقد احتوت هذه المقدّمة على نقاطٍ ثلاث: الأولى أوردها تعالى على جهة السؤال، مفعولاً مُطلقاً، وذلك بقوله: (كيف بنيناها..) بمعنى أفلا تُلاحظون أنّ كلّ شيء في السّماء المترامية الأطراف، وقد جاء على نسق، فأكمل بعضه بعضاً، بحيث يؤدي مقصداً مُعيّناً؟ وهكذا بدت السّماء وهي على هذه الشاكلة تؤلّف بناءً كاملاً لاسبيل إلى تجزئته.

والنقطة الثانية عبّر عنها تعالى بقوله: ﴿**وزيّناها**﴾ أي جَعلنا هذا البناء العظيم زينةً لأعين النّاظرين، تستوقفهم وتخلب ألبابهم من روعة جماله وتناسق أجزائه.

وعبّر عن النقطة الثالثة بقوله تعالى: ﴿**ومالها من فروج**﴾ أي لن يجد العلماء في يومٍ من الأيّام، مهما تقدّم العلم وتطوّر، أي خللٍ في النّظام الكوني، بل سيزداد هؤلاء العلماء يقيناً، بأنّ السّماء بناءٌ واحدٌ مُتماسكٌ وهادفٌ أيضاً. وهذا ماتَثبُت به وحدانيّة الصُّنع والصّانع، ووحدانية النّظام والمنظم المُبدع القدير. هذه هي المقدمة الأولى لدليل القدرة العلمي المذكور ونقاطها الثلاث.

أمّا المقدّمة الثانية لهذا الدّليل العلمّي فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿**والأرض مدّدناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب.**﴾. وقد احتوت هذه المقدّمة الثانية على ثلاث نُقاطٍ أيضاً.

النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: ﴿**والأرض مددناها**﴾ بمعنى أفلا تلاحظون كيف بسطنا الأرض فجعلناها صالحةً لحياتكم صلاحاً كاملاً؟

والنّقطة الثانية عبّر عنها قوله تعالى: ﴿**وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج.**﴾، أي أفلا تُلاحظون كيف أنبتنا من هذه الأرض كلّ نباتٍ مُؤلّف من زوجٍ متكاملٍ، سالب وموجب، ليتلاقح ويستمرّ في العطاء، ولتحقيق هدفٍ واضحٍ هو تبصرة المخلوق وذكرى لكلّ عبدٍ منيب؟ أي عبرةً وآياتٍ لكلّ إنسانٍ باحثٍ عن الحقيقة مُستعيناً ببصيرته لاستجلاء أسرارها وخفاياها. فهذه هي المقدمة الثانية للدّليل ونقاطها الثّلاث.

وأمّا المقدّمة الثالثة التي يثبت منها وجود الخالق القادر على كلّ شيء، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركاً، فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد. والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد.**﴾.

وقد اشتملت هذه المقدّمة الثالثة لهذا الدّليل العلمّي على نُقاطٍ ثلاثٍ أيضاً. النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركاً.**﴾ أي أفلا تُلاحظون كيف أنزلنا ماء السّماء، فأحيينا به الأرض وجعلناه مباركاً يحمل إليها الخير والخصب، فيؤلّف بذلك مادّة الحياة ووسيلتها؟

والنقطة الثانية احتواها قوله تعالى: ﴿**فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد**﴾ أي أفلا تُلاحظون كيف تولّد عن ماء السّماء المبارك هذا جناتٌ أرضيةٌ ملتفّة الأشجار، وزرعٌ تحصُدون حبّه وتنتفعون بالتغذّي به؟

والنقطة الثالثة احتواها قوله تعالى: ﴿**والنّخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد.**﴾ أي أفلا تلاحظون أنّ من هذه الأشجار التي أنبتناها، أشجار النّخيل الباسقات ذات الثمر النّضيد أي الذي ضُم بعضه إلى بعض فكان سائغاً شهيّاً وقد نبت في أرضٍ جافّة جدباء.

وقد نبّه جل شأنه الأذهان أيضاً إلى أنّ جميع ماأنبتناه لم يكن لغواً أو عبثاً باطلاً، بل بدا ومن ورائه حكمة بالغة تجلّت في أمرين اثنين: الأوّل أنّه قدّر

ليكون النّبت (رزقاً للعباد). والثاني أنّه قد أحيا به بلدةً ميتاً لم تكن تبدو فيها معالم الحياة.

وبعد أن انتهى تعالى من عرض مقدّمات دليله العلمي. هذا الدّليل المرتكز إلى الملاحظة العلمية، نراه قد انتقل، فاستنتج منها مقولةً ثابتةً وهي وجود خالقٍ قادرٍ على كلّ شيء، قادرٌ على إبداع كونٍ آخر بعد وعبّر عن هذه النّتيجة بقوله تعالى ﴿**كذلك الخروج**﴾. وكذلك تعني، أي على هذه الشاكلة تُبعث الأنفس من بعد موتها أيضاً.

فهذا هو الدّليل الثاني الذي أُدلي به بأسلوب الملاحظة والاستنتاج العلميّين. وقد طُرح هذا الدّليل، ليُثبت وجود الخالق ويُجلّي قُدُراته التي لاتقف دونها حدود.

وهكذا قدّم تعالى لنا هذا الدّليل العلمي المتعدّد العناصر، بعد أن مهّد لطرحه بأسلوبٍ علميّ أيضاً. موجّهاً أذهاننا إلى أنه لايُعقل أن تأتلف وتتساوق جميع هذه العناصر مُجتمعةً على صورةٍ هادفةٍ أيضاً، ويتأتّى ذلك كُلّه مُصادفةً واتّفاقاً. بل لابدّ أن يكون لها مُبدعٌ خالقٌ قادرٌ وحكيم. خصوصاً وأنّه تعالى قدّم دليله القرآني هذا على أسس العلم المعاصرة من ملاحظة واستنتاج. هذه الأسس التي باتت في عصرنا الأساس لجميع ماعرفته البشريّة من علوم. وإنّ أساس الملاحظة العلميّة، اعتمده دليلُنا المذكور من خلال مااستُهلت به الآيات وأسلوبه ﴿**أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم**..﴾، ومن خلال الواوات العاطفة التي استُهلّت بها كل نُقطةٍ من نقاط مقدّمات هذا الدّليل.

وهذا الدليل العلمي الذي جرى عليه علماء عصرنا في صوغ أسلوبهم، إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ الله عز وجلّ قد أنزل هذا القرآن لكل زمان ومكان. فعمل هذا قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، يوم لم يكن لهذا الأسلوب العلمّي في البحث والاستدلال من وجودٍ مشابهٍ له في زماننا الحاليّ.

وقد سبق لي أن قلت: إنّ الله عزوجلّ لم يكتف بتقديم أدلّةٍ نظريّةٍ تُرجّح وجوده. بل قد قدّم أدلّةً سلوكيّةً أيضاً، اعتمدت التجربة الشّخصية في الوقت نفسه، هذه التجربة التي تثبت لصاحبها وجود الله عزوجلّ، وتبلغ به حدّ المعرفة واليقين بوجوده أيضاً. وهذا ماسيأتي بيانه بعد استكمال تقديم عددٍ مناسبٍ من هذه الأدلّة النظريّة، إن شاء الله العزيز .

ثانياً ـ الأدلّة المستمدّة من أسماء الله الحسنى

١ ـ دليل الله الحيّ:

أدلى القرآن الكريم بسلسلةٍ مُتجانسةٍ من الأدلّة التي يثبت لنا بها وجود الخالق عن طريقٍ حسّيٍ من صلب الوقائع والأحداث، وليس بمجرّد الاستدلال الذهني، على حسب ما كان الأمر في الأدلّة التي سبق أن ذكرناها. وقد جاء عدد جُملة الأدلّة هذه مساوياً لعدد أسماء الله الحسنى. أي أكثر من مائة دليل. أمّا سبب تساوي عدد هذه الأدلّة مع عدد أسماء الله الحسنى، فإنّه يعود إلى أنّ كلّ دليلٍ منها مُستمدٌ من وقائع وأحداث تُجلّي كلّ صفة من هذه الصفات الإلهية. لذلك تحتلُّ هذه السّلْسلة من الأدلّة منزلةً أرفع من الأدلّة التي أسلفناها، على اعتبار أنّ الوقائع والأحداث تدخل في باب المحسوسات، ولاتدخل في باب الاستدلال الذهنيّ، لذلك فهي ليست محلّ شُبهةٍ أو ريبة. خصوصاً وأنّها تحدث وفق منهاجٍ وقانون عامٍ وشامل.

وممّا يمتاز به القرآن الكريم أنّه زاوج بين كلّ منهجٍ وقانون، وبين كل اسمٍ من أسماء الله الحسنى المختصّ به. إنما في المكان المناسب لكلّ عنصُرٍ من عناصره. والذّي يتبقّى على الباحث المتدبّر، أن يجمع بين هذه العناصر ويُبرزها للعيان.

وهاأنذا أتناول إحدى صفتين تناولتهما سورة آل عمران استدلالاً على وجود الله عزوجلّ، من خلال الوقائع والأحداث. هذه الصّفة التي تضّمنتها أوّل آيتين من هذه السورة، هما قوله تعالى: ﴿ **الم. الله لاإله إلاّ هو الحيّ القيّوم**﴾. وهذه الصّفة هي اسم الله (الحيّ).

فقد استدلّت سورة آل عمران على وجود الله "الحيّ" من خلال أحداث ووقائع بعثات موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ومن خلال إنزال التوراة والإنجيل والفرقان. الأمر الذي شرحته في الجزء الأول من كتابي (حقيقة القراءة المعاصرة مجرّد تنجيم).

فما معنى كلمة الحيّ؟ الحيّ مُعرّفاً بالألف واللاّم هو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، ويعني أنّ الله دائم الوجود، لم يزل موجوداً، ولايزال فهو كامل الحيويّة والنّشاط فلا تأخذه سِنةٌ ولانوم. وهو أساس ومصدر الحياة في عالمنا، كما هو أساس نهضة الأمم والشّعوب وتقدّمها في مسار إنسانيّتها.

ذلك لأنّ الأمم تحيا وتموت، على شاكلة الإنسان الذي يحيا ويموت، وإنّ حياة الأمم والأفراد لفعاليّة وتجلّي صفة الله "الحي". هذا ماأفادته عدّة آيات قرآنيّة. ومن هذه الآيات: ﴿توج اللّيل في النّهار، وتُولج النهار في اللّيل، وتُخرج الحيّ من الميّت، وتخرج الميّت من الحيّ..﴾ آل عمران ٢٧-. وقوله تعالى في الآية (٥٨) من سورة الفرقان: ﴿**وتوكّل على الحّي الذي لايموت، وسبّح بحمده..**﴾. وقوله تعالى في الآية (١٩) من سورة الرّوم: ﴿ **يخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحيّ، ويُحي الأرض بعد موتها..**﴾.

والآن ماهي معالم عناصر المنهج والقانون الذي تتجلّى صفة الله الحيّ من خلالها، بما يتعلّق بإحياء الأمم والشّعوب خاصّة ومن دون بقيّة سائر الأشياء؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال يتبيّن لنا من خلال تدبّر كتاب الله الفرقان أنّ هذا المنهج يرتكز إلى خمس نقاطٍ رئيسيّة، هي :

أولاً ـ إنزال الله الحيّ أنظمة وتعاليم تتّصف بالحدّة دوماً، وتلتزم بأسلوب النقاش والحوار الخالي من أيّ إكراه أو ضغط، بعيداً عن أسلوب العُنف والقتل والتّدمير.

ثانياً ـ كلّ نظامٍ من هذه الأنظمة والتعاليم، ينسخ ماقبله من جهة ليأتي بأحسن ممّا نسخه. ويُحيي تعاليم تناساها البشر من جهة ثانية، مادامت هذه التعاليم تصلح لبيئة هذا النظام الجديد.

ثالثاً ـ و لم يستعمل القرآن الكريم لفظي (ثورة وانقلاب) تعبيراً عمّا تحدثه تعاليم النظام الجديد، هذان اللفظان الشائعان في عصرنا، بل استعمل كلمتي (قيامة وساعة) تعبيراً عمّا تحدثه تعاليم كل نظام جديد سماويّ، وهذا الأمر غفل عن الإحاطة به أكثرية المفسّرين.

رابعاً ـ إذا خاض نظامٌ جديدٌ قتالاً، فلايخوض المؤمنون به هذا القتال إلاّ مُكرهين دفاعاً عن كيانه.

خامساً ـ يتحقّق كلّ نظام جديد على أيدي أشخاص يبعثهم الله تعالى لإقامة الأنظمة الجديدة المُرتجى إقامتها. يكون هؤلاء المرسلون صفوة النّاس خلقاً وسيرةً وسلوكاً.

والذي يستعرض تاريخ الأنظمة الرّوحية هذه التي أُسّست على أيدي المبعوثين الذين أرسلهم الله "الحي". لا يلاحظ أنّ أيّ واحدة من تلكم البعثات والأنظمة، قد شذّت عن هذا النهج والقانون ونقاطه الخمس التي ذكرناها.

وهذا مايُثبت وجود الله "الحيّ" الذي يبعث بأولئك الرسل وبالتعاليم والأنظمة التي يزوّدهم بها إحياءً للأمم والشعوب وإنهاضاً لها من كبوتها وانقاذاً لها من تخلّفها وانحطاطها. فشتّان مابين عرب الجاهلية قبل الإسلام، وبين من آمن منهم بالدّين الإسلاميّ، على سبيل المثال.

والمعلوم لدى المفكّرين أنّ كلّ أمّة تسعى إلى النهوض والرّقي والتّقدم، فلابدّ للذّين يتصدّون لإنهاضها وتطويرها وترقيتها، من أن تحمل رسالتهم عُنصرين أساسيين :

الأوّل - أن تحمل رسالتهم أفكاراً جديدة تتناسب ومرحلة الأمة التي تمرّ من خلالها. وهذا عنصرٌ أشار الله عزوجلّ إليه في الآية (١٧) من سورة الرّعد وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿ **فأمّا الزّبد فيذهب جفاء، وأمّا ماينفع النّاس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال.**﴾. والمعنى أن الله الحيّ ينبّه إلى ضرورة توفّر عنصرٍ أساسيّ لإنجاح كلّ نظام وتعليم، وهو أن يشتمل هذا النظام والتعليم على مبادىء ثابتة مفيدة للنّاس، وإلاّ ذهب النظام والتعليم واضمحلّ، كما يذهب الزّبد الطّافي على سطح أيّ سيلٍ من السّيول.

الثاني - والعنصر الثاني الذي لابُدّ منه للنّجاح، هو اللّجوء إلى إحدى وسيلتين، لاثالث لهما. الأولى مقابلة المُعارضين بالعُنف، إذا كان لابُدّ من العنف كوسيلةٍ لحماية هذا النظام والتعليم. والوسيلة الثانية اختيار الطّريق السّلّمي لإنجاح هذا النظام الجديد وتعليمه، وذلك بالحوار الهادىء والنّقاش وأسلوب الإقناع. وإلى هذا العنصر الثاني الذي لابدّ منه جاءت الإشارة في قوله تعالى من سورة الأنعام : ﴿**ومانُرسلُ المرسلين إلاّ مبشّرين ومُنذرين. فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفروا بآياتنا يمسُّهُمُ العذاب بما كانوا يفسقون.**﴾.

أي أن أسلوب الله "الحيّ" الذي انتهجه لإحياء آيّة أُمّة من الأمم أو شعبٍ من الشّعوب. هو أن يبعث رسولاً من هؤلاء النّاس أنفسهم، يؤسّس على

يديه النّظام الرّوحي الجديد وتعاليمه بأسلوبٍ سلميّ، أساسه التبشير والإنذار، أي وسيلة الإقناع بطريق الحوار، تبشيراً بالنّظام الجديد المناسب للمرحلة الزمنيّة التي بُعث الرسول فيها بهذا النظام الجديد.

إلى جانب إنذار هؤلاء أنّ النّظام الرّوحي القديم قد استوفى أغراضه. وإلى جانب تبشير المؤمنين بالنظام الرّوحي الجديد الذين يصبغون حياتهم بتعاليمه، أنّ الله الحيّ سيُظلّهم بمظلّة حمايته، ويتولّى الدّفاع عنهم، ويؤيّدهم ببشاراته ونعمائه الرّوحية. الأمر الذي سيدفعهم إلى ألاّ يأسفوا ويحزنوا عمّا فاتهم. وهذا هو معنى: ﴿ **فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون**﴾. وإلى جانب أنّ هذا المبعوث سينذر، وبلسان الإله "الحيّ" كلّ من يرفض قبول النّظام الرّوحي الجديد، بأن الله سيُنزل به عذابه، ذلك تأديباً لهؤلاء المُنكرين، وعقاباً لهم على تصّديهم لنظامٍ روحّي أنزله الله "الحيّ" بغرض إحيائهم وإنهاضهم من كبوتهم وتخلّفهم. ذلك أنّ الله تعالى يعتبر هؤلاء الكافرين بنظامه الروحي الجديد أحجاراً ولَبِناتٍ لبناءٍ قديم قد تقرّر هدمه وتشييد بناء جديد ليحلّ محلّه.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى ضرورة التزام كلّ نظام روحّي جديد بمعطيات هذين العنصرين المذكورين. وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (٢٨٦) من سورة البقرة: ﴿**لاإكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ**..﴾ بمعنى أنّ كل نظامٍ روحي جديد يعتمد في حقيقة الأمر الأسلوب السّلمي وهو يهدي إلى الرشد تمييزاً إيّاه من الغيّ. ولايعتمد أسلوب العُنف والإكراه الذي لايُجدي في الإقناع.

فهذه هي معالم النقطة الأولى المتعلقة بالنهج الذي اختطّه الله "الحيّ" لإحياء الأمم والشعوب.

أمّا مايتعلق بالنقطة الثانية من هذا المنهاج وقانونه العام. فقد استوفى القرآن الكريم بيانه، وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (١٠٥) من سورة البقرة : ﴿**ماننسخ من آيةٍ أو نُنسها، نأت بخيرٍ منها أو بمثلها، ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير. ألم تعلم أنّ الله له مُلكُ السّماوات والأرض، ومالكم من دون الله من وليّ ولانصير.**﴾. والمقصود بالآية هنا الكتاب السّماوي والنّظام الذي يؤسّسه. يقول الله "الحيّ" أنّه إذا استنفذ أيّ كتاب روحّي أغراضه

ومقاصده، أنزل الله الحيّ نظاماً جديداً يحلّ محلّه وينسخه. فيحيي من خلال تعاليم النظام الجديد مالايزال من التعاليم صالحاً للعمل به، ومفيداً للمرحلة الجديدة. ويستبدل من التعاليم التي نسخها ماهو خيرٌ منها وأفضل. ويهدم ماابتدعته أهواء الناس.

وقد نبّهنا الله الحيّ إلى قدراته التي تمكّنه من إحداث هذا التّغيير. خصوصاً وأنّه يملك مقاليد السّماوات والأرض، فلا تستطيع قوّةٌ الحيلولة دون إنجاح نظامه الجديد. كما نبّه جلّ شأنه إلى أنّ الذين يقاومون نظامه الرّوحيّ الجديد، لايجدون من دون الله من وليٍّ يتولاّهم بعنايته أو نصيرٍ ينصرهم فيما يُنصب لهم من مكايد.

وفيما يتعلّق بالنّقطة الثالثة من منهاج الإحياء الإلهي وقانونه العام الشّامل، وهو أنه تعالى لم يصطلح كلمتي (ثورة وانقلاب) لعمليّة إحلال النّظام الروحي الجديد، بل استعمل بدلاً عنهما مُصطلح كلمتي (الآخرة والسّاعة).

فقد كان السّبب في ذلك أنّه تعالى أعرض عن طريق العنف في مجال بسط نظامه الجديد، واختار الأسلوب السّلمي والذي أداته النّقاش والحوار والإقناع. متيحاً بذلك للإنسان أن يقف الموقف الذي يشاؤه من النظام الروحي الجديد، فيُعاقب هذا الإنسان أو يُثاب.

أقول: اختار تعالى لفظ (الآخرة)، بسبب ماتُحدثه بعثات أولي العزم من رسله من تحوّلاتٍ اجتماعيّة جذريّة في مجتمعاتهم، وبما يشبه مايحدث يوم القيامة من ظهور سماء جديدة وأرضٍ جديدة وبعثٍ للنفوس من جديد. خصوصاً وأنّ كلّ نظام روحيّ جديد ينْسَخُ النّظام السابق له، ويقيم على أنقاضه نظاماً جديداً وعالماً جديداً أيضاً. فاصطلاح كلمة (قيامة) تناسب هذه العمليّة المُعبّرة عن الإماتة والإحياء كُلّ المناسبة.

وإشارةً إلى هذا المُصطلح القرآني، ورد قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا، ويسخرون من الذين آمنوا، والذّين اتّقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب.**﴾. فليس المقصود بالحياة الدنيا هي مجرّد هذه الحياة، بل إنّ كلمة (الدُّنيا) قُصد بها حياة التخلّف والانحطاط التي يحياها هؤلاء الذين كفروا بهذا النظام الروحي الجديد والذي يحمل تعاليم تفيد في إصلاح أحوالهم وترقيتهم ودفع التخلّف عنهم. ويصف

حالهم هو أنّهم يسخرون من الذين آمنوا بتعاليم هذا النّظام الروحي الجديد، الذّين نجوا من حياة الانحطاط والتخلّف بهذا الإيمان. ويضيف الله تعالى: (والذّين اتقّوا فوقهم يوم القيامة) أي وقضى الله تعالى بفوز أهل النظام الروحي الجديد الذّين اتّقوا أسباب تخلفهم وانحطاطهم من جراء أخذهم بتعاليمه. وتفاجيء تطورات الأحداث الذين كفروا (يوم القيامة) أي زمن قيام قيامتهم وانهزامهم على أيدي المؤمنين. وهذه إشارةٌ كانت هنا إلى ماحلّ بأهل مكّة يوم فتحها على أيدي محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين معه، وكيف بات هؤلاء أذلاّء مقهورين. وأضاف تعالى قائلاً: ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي والله بيده النّصر يرزقه من يشاء بغير حساب، على اعتبار أنّ النّصر والعاقبة من قبيل الرّزق الإلهي ودعماً للمؤمنين بعدما عانوه من ذلّةٍ وضعفٍ، ولابدّ أن يجزيهم يوم القيامة أيضاً خير ماعملوه.

ومصطلح لفظ (السّاعة) أورده الله تعالى في سورة القمر، حيث قال فيها: ﴿ **اقتربت السّاعة وانشّق القمر، وإن يَرَوا كُلّ آيةٍ يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر.**﴾. وقد أشار بانشقاق القمر هنا إلى دُنُوّ ساعة وأجل الحكم العربي الجاهلّي وساعة زواله. ومن شاء التوسّع في فهم ذلك فليراجع (فن الاختزال ـ سورة القمر).

والنقطة الرابعة من المنهج الذي اختطّه الله الحيّ لإحياء الأمم والشعوب، نبّه إليها في الآية (٢١٦) من سورة البقرة من خلال قوله تعالى: ﴿**كُتِب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم.**﴾ بمعنى أنّ نظامكم الرّوحي الجديد الذي اعتمد السبيل السّلمي ولم يعتمد سبيل العنف والإكراه لنشره وتطبيقه. اعتمد النّهج الذي كرّه القتال إلى نفوسكم. ولايعني هذا بحال من الأحوال أن تستسلموا للذين اعتمدوا عليكم، اعتدوا عليهم بمثل مااعتدوا عليكم، حفظاً لكيانكم، هذا بالرغم من ايثاركم سبيل السّلام والحوار والنّقاش، وقد كتب الله تعالى أن تقاتلوا الذين يقاتلونكم، بالرغم من أنّ القتال هو كُرهٌ لكم.

وفي الآية (٢٥٦) من نفس سورة البقرة، قال تعالى: ﴿**لاإكراه في الدّين قد تبيّن الرُّشد من الغيّ..**﴾. ونبّه تعالى بذلك إلى أنّ النظام الروحي الجديد قد احتطّ عدم إكراه الناس على قبوله، بل اعتمد الحوار والحجّة والبُرهان.

فهذا هو السّبيل الذي يتميّز به النّظام الرّاشد، عن سبيل الغيّ. أي عن سبيل الجهل والضلاّل.

وقد وصف الله تعالى من يُخالف هذا النّهج الإسلامي بقوله تعالى في الآية (١٤٦) من سورة الأعراف: ﴿ **وإن يروا سبيل الغيّ يتّخذوه سبيلاً**..﴾ وفي الآية ٢٠٢ منها قال: ﴿**وإخوانهم يُمدّونهم في الغيّ ثم لايُقصّرون**.﴾.

وقد وضح سبحانه وتعالى الغاية من الحرب والقتال هذه التي يدفع المؤمنين إلى خوضها في الآية (١٩٠) من سورة البقرة: ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا**..﴾. وفي الآية (٣٩) من سورة الحجّ قال: ﴿ **أُذن للّذين يُقاتلون بأنّهم ظُلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير**.﴾. وفي الآية الثامنة من سورة المُمتحنة : ﴿**لاينهاكم الله عن الذّين لم يقاتلوكم في الدّين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبرّوهم وتُقسطوا إليهم**..﴾.

وتتعلّق النّقطة الخامسة والأخيرة للنهج الإلهي بالمبعوثين من النّاس المُكلّفين، بحمل رسالة هذا النّهج الإلهي، ولإخراجها إلى حيّز الواقع والتّنفيذ، وقد تضمنت هذه النّقطة الخامسة الآية التي سبق أن أوردناها، وهي قوله تعالى: ﴿**ومانُرسل المرسلين إلاّ مُبشّرين ومُنذرين**.. الخ﴾.

والسؤال المطروح هنا: كيف تتمّ عمليّة اصطفاء المُرسلين؟ وقد أجاب تعالى عن هذا السؤال من خلال قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة**..﴾. وقد أشار الله الحيّ في هذه الآية الكريمة إلى احتياج العقل البشريّ إلى معونة الوحي السماوي، ليستمدّ العقل عن طريقه سبيل الهُدى والرشاد، ليساعد ذلك على نقل وتطوير البشر إلى حياةٍ أفضل. فهذا الأمر استدعى منه تعالى أن يصطفي خليفةً له من هؤلاء النّاس ليخلفه في عمليّة إصلاحهم وتبين نهج الهُدى والرّشاد.

وقد قصد من لفظ (خليفة) عدّة أمورٍ منها :

أولاً ـ أنّ الذي هو مؤهّل لمنصب خلافة الله في الأرض، لابدّ له أن يكون من صفوة النّاس. وهذا هو سرّ خطابه جلّ شأنه لرسوله محمد (ﷺ) : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى**.﴾. والمقصود هُنا يتيم دهره، وليس يتيم الوالدين، وإنّ إيواءه، هو القيام بإسناد أرفع منصب يستحقّه وهو منصب حمل رسالة السّماء.

ثانياً ـ والله وهو عالم الغيب والشّهادة، فقد كان في سابق علمه من سُتُسْنَدُ إليه الرّسالة، لذلك رعاه منذ نعومة أظفاره بفضله وكرمه إلى أن بلغ به المستوى اللاّئق لحمل هذه الرّسالة. وإلى هذه الحقيقة أشار الله عزوجل من خلال خطابه إلى موسى عليه السلام بقوله: ﴿**ثم جئت على قَدَرٍ يا موسى. واصطفيتك لنفسي إذهب أنت وأخوك بآياتي، ولاتَنيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنّه طغى.**﴾. أي أنّ موسى كان مشمولاً برعاية الله وفضله الخاص قبل إسناد الرّسالة إليه. وإشارةً إلى هذا المعنى نفسه ورد لفظ (سوّيته) عن آدم في سورة الحجر. على شاكلة الأرض الزراعية التي تُسوّى قبل أن تُغرس وتُستثمر.

ثالثاً ـ وبعد عمليّة التّسوية، تأتي عمليّة النفخ في الرّوح ﴿**ونفخت فيه من روحي.**﴾. وهي مرحلةٌ تعليميّة لمبادىء الرسالة وتعاليمها التي يُكلّف بها هذا المبعوث السّماوي. وهي مبادىء وتعاليم تأتي تابعةً من احتياجات المرحلة التي يمرّ بها البشر أو قوم من الأقوام في فترة زمنية من الزمان. وإليه أشار قوله تعالى: ﴿ **ولايحيطون بشيء من علمه إلا بماشاء..**﴾. لذلك تختلف درجة وأُطُر النّفخ في الرّوح من مُرسل إلى آخر تبعاً لمقتضيات الزّمان والمكان. فآدم على سبيل المثال لم يتلّق إلا مبادىء أولية لحياةٍ تعاونية. على حين أنّ ماتلقّاه محمد (ﷺ) من مبادىء وتعاليم نزل يصلح لكل زمان ومكان.

ويُلخّص دليل اسم الله (الحيّ) في أنّ الإنسان إذا نظر بمنظار الأنظمة الروحيّة ومنهجها الموحّد وقانونها العام. تلك الأنظمة التي تؤلّف حلقات سلسلةٍ واحدة، وصادرة عن مصدرٍ واحد هو الله "الحيّ"، وذلك على حسب ماأفاد به جميع من بُعثوا بهذه الرّسالات الرّوحية التي ساعدت على تطوير البشر من زمن سُكنى الكهوف وبطون جذوع الأشجار، إلى زمن سُكناه في السّهول وإقامته وجعله متحضّراً وتعرُّفه خالقه وسبيل التقرّب إليه.

أقول: إنّ هذا الإنسان المتأمّل معالم حلقات هذه السلسلة من الرسالات التي تمتّد في الماضي الغابر السّحيق إلى قرابة عشرة آلاف عام. لايَسعه وهو يبحث عن الحقيقة إلاّ أن يُقرّ بوجود الإله (الحيّ الذي لايموت)، هذا الإله الذي يهب البشر الحياة من جديد، كُلّما تقدّم بهم الزمان، وتدنّت أخلاقهم وتفسّخت، وانحطّت معايير سلوكهم.

فإذا نظر الإنسان المحقّق من نفس هذا المنظار إلى كل إسم من أسماء الله الحُسنى، وتتبّعه وفق النّقاط الخمس التي احتواها منهاج إحياء الله تعالى للشعوب المُتخلّفة وقانونه العام، فلابُدّ أن تتوفّر لديه أدلّةٌ كثيرة يثبت منها وجود الله عزوجل، بقدر عدد أسمائه الحسنى التي أوردها القرآن الكريم بين ثنايا آياته المُقدّسة.

٢ ـ دليل الله العزيز

دونكم صفة الله العزيز مثالاً آخر للاستدلال الحّسي على وجود الله عزوجلّ الذي يملك هذا الكون ويدبّره بمحض إرادته ومشيئته. على اعتبار أنّ صفة العزيز تعني لغةً : الملك الغالب على أهل مملكته، والقويّ الذي ليس فوقه قويّ، والعزيز الذي ذلّ لعزّته كلّ عزيز.

فلنتدبّر كتاب الله العزيز، ونُتابع منهج عمل وتجلّي صفة العزيز من خلال آي الذكر الحكيم. يتراءى لنا أنّ الله العزيز لايُعامل عباده على أنّه مالكهم والمتصّرف بهم، على شاكلة مايفعله ملوك الأرض. فهو لايتجلّى بصفته العزيز إلا مقرونة بصفة سامية أخرى معها، ووفق منهج وقانون.

فتارةً يتجلّى على أنه "العزيز الحكيم"، وهي الحالة الغالبة على تجلّياته. وتارةً أنّه "العزيز الرحيم" أو "العزيز الغفور" أو "العزيز الحميد" أو "عزيز ذو انتقام" بمعنى الملك الذي يُنزل بالمجرمين عقابه الشديد.

ونعود معاً إلى معاجم اللّغويين، نستطلع معاني "العزيز والحكيم والحميد والغفور وذو انتقام". قال صاحب المقاييس: العزيز من عزّ أي ندر وُجوده وغلب وقَهر. وهي صفة تدلّ على الشّدة والقوّة والنّدرة. فالعزيز هو الذي لاتكاد توجد قُوّة تقدر على مغالبته. تقول : عزّه على أمرٍ إذا غلبه على أمره والمعازّة هي المغالبة. تقول عازّني فعززته، أي غالبني فغلبته، وقال تعالى (فعززنا بثالث) أي دعّمنا وقوّينا الأمر بثالث.

وقال صاحب محيط المحيط، العزّة مصدر تعني الغلبة والمناعة. فالعزيز هو المنيع الذي لايُنال ولايُغالب ولايُعجزه شيء ولامثيل له. وهو الشريف والقويّ والقليل النادر والمُكرّم والملك لغلبته على أهل مملكته. والعزيز اسم من أسماء الله الحسنى.

أي أنّ للعزيز خمسة معان رئيسيّة، هي : الأول: معنى النّادر الذي لايكاد يوجد له مثيل. الثاني : المنيعُ الذي لايُنال ولايُغالب ولايُعجزه شيء، فهو المقتدر. الثّالث : الملك الغالب على أهل مملكته، فهو القويّ الذي ليس فوقه قويّ. الرّابع : الشريف المُعزّز المُكرّم الكريم الوهاب.

والمعنى الخامس : أو العزيز إلى ذلك كله اسم من أسماء الله الحسنى.

ولمّا كانت صفة العزيز لاتتجلّى بمفردها لِرهبة ماتؤدّي إليه. وكانت تتجلّى مقترنةً بإحدى الصّفات التالية: الحكيم أو الرحيم أو الحميد أو الغفور أو ذو انتقام. فلنراجع معاني هذه الصفات في معاجم اللغويين :

الحكيم من الحكمة، وهي صفة تمنع من الجهل، وتعني العدل والعلم والحلم والكلام الموافق للحقّ. فالحكيم هو العالم صاحب الحكمة والمُتقن للأمور. ولايُسمّى حكيماً إلاّ من جَمَعَ بين العلم والعمل. ويُجمع هذا اللفظ على حُكماء والحكيم هو صاحب الحجّة القطعيّة، بمعنى البرهان.

والحميد من كان كامل المحامد : يُنزل كامل المبادىء والتّعاليم، ويصبغ بصبغته، وينصر بتأييده، فلاأحد سواه يستحقّ هذا الحمد، فهو الرّب العزيز الحميد. وهو إلى ذلك اسمٌ من أسماء الله الحسنى.

والرّحيم من رَحِمَه أي رقّ له وتعطّف. والرّحمة هي إرادة إيصال الخير ودفع الشرّ. وقيل هي من صفات الفعل أي إيصال الخير ودفع الشرّ. وذكر الإمام الرّازي أنّ الله رحمن، على اعتبار أنّ الجود هو إفادةُ ماينبغي ولالغرض. وإنّ كل ماعدا الله يُعطي ليأخذ عوضاً. والرحيم اسم من أسماء الله الحسنى أيضاً.

وهو ذو انتقام من نقم. نقول نقم منه، وانتقم أي عاقبه. وفي سورة الأعراف : (وماتنقِم منّا إلا..) أي ماتطعن فينا وتقدح، والنِقمة اسم من الانتقام، وهي تضمّ إلى الكراهة السُّخط، فهي المكافأة بالعقوبة. ومعنى "ذو انتقام" صاحب الأمر الذي يملك حق إنزال العقاب، وهو الله عزوجلّ.

وانطلاقاً من المنهج والقانون الذي بيّناه، والذي تتجلّى صفة الله العزيز، من خلاله صفةً مُقترنةً بصفات الحكيم والرحيم والحميد والغفور وذو انتقام، نحاول على ضوء ذلك تحسّس تجليّات الله العزيز وعلى ضوء تاريخ مُجريات أحداث البشر في منطقتنا بالذّات.

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو كيف يتجلّى الله تعالى بصفاتٍ تبدو في ظاهرها مُتضادّة : ففي الوقت الذي يكون الله رحيماً وغفوراً، يكون ذا انتقام أو شديد العقاب. كما يكون خلاّقاً ومُميتاً. فما تأويل هذا التضّاد الظاهريّ؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول : إنّ من لم يُحط علماً بمنهج وقانون تجلّي كلّ صفة من صفات الله تعالى، يستحيل عليه تأويل مثل هذا التضادّ الظاهري. ذلك أنّ لتجلّي كلّ صفة إلهية منهاجَ عملٍ وقانوناً. وهذا الأمر إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على عظمة الله وما تتّصف به ذاته من صفاتٍ وأسماء، تعمل بما يُذهل العقاب الشديد.

من هذا ندرك السرّ الكامن وراء ظهور أمرين متضادّين ظاهراً. ففي حين نلاحظ عفو الله عن مُذنب، فإذا به يُنزل بمذنبٍ آخر شديد العقاب.

ثم إنّ القرآن الكريم أنبأنا عن قانونين رئيسيّين يُهيمنان على عمل كلّ صفة وكل اسم من أسمائه تعالى. أما القانون الأوّل فقد تضّمنه قول الله تعالى في سورة الأعراف (١٥٦):﴿..**ورحمتي وسعت كُلّ شيء**..﴾. فهذا قانون عام رئيسّي. ففي كلّ تجلٍ لأيّة صفةٍ إلهية، لابدّ أن تغلب عليها سمة الرحمة وتجلياتها، لذلك لاحظنا أنه يقول تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز : ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أنْ تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون.**﴾ البقرة ٢١٦.

والقانون الثّاني الرئيسيّ الذي يُهيمن على عمل وتجلّي كل صفة من صفاته تعالى، قد تضمّنه قول الله عزوجل على لسان نوح عليه السّلام: ﴿**مالكم لاترجُون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً**﴾. نوح ١٤ - أي مالكم لاتلاحظون الوقار والرّزانة عند الله، وهما يَدُلاّن على الحكمة الغالبة على عمل كلّ صفةٍ أخرى من صفاته تعالى، فهو الحكيم في تصرُّفاته، ومنها خلقكم أطواراً، فطوراً نُطفة، وطوراً علقةً إلى تمام خلق الإنسان، فمن واجبكم أن توقّروه، وهو الله الذي تغلب حكمته على جميع تجليات أسمائه الحسنى.

والخلاصة أن كلّ صفة إلهيّة تعمل وفق منهاج وقانون. وتتجلّى على كلّ صفة إلهية صفتان رئيسيّتان هما صفتا : الرحيم والحكيم.

وبعد أن أجبنا عن السؤال المذكور، ودفعنا التناقض الظاهريّ المُشار إليه، لنتبصّر في تجلّي صفته تعالى العزيز، وعلى ضوء ماأفادنا به القرآن الكريم.

وأوّل ماأتناوله بالبيان، هو عمل صفته العزيز، وهي مقترنة بصفته الحكيم. أي تلازُم العزيز الحكيم في عمل وتجليّات أسماء الله الحسنى، وصفة العزيز منها خاصّة.

تعالوا إلى سورة البقرة (١٢٩-١٣١)، حيث تحدّثت الآيات عن قصّة ابراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وإذ يرفعُ إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم، ربّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذريّتنا أُمّةً مسلمةً لك، وأرنا مناسِكنا وتُبْ علينا إنّك أنت التوّاب الرّحيم. ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسَه، ولقد اصطفيناه في الدّنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربُّه أسلِمْ، قال أسلمت لربّ العالمين.**﴾.

ولاشك أنّ قصّة إبراهيم هذه حادثة حقّاً، وقد ورد ذكرها جليّاً في التوراة التي تحكي لنا تاريخ بني إسرائيل الذي ينتهي عند ابراهيم عليه السّلام.

أضف إلى ذلك أنّ الدّعاء الإبراهيميّ، قد أشارت إليه نبوءة سفر التثنيّة ١٨/١٨، الذي سبق أنْ عرضنا لسردها وتبيانها أيضاً. ولقد تحقّق هذا الدّعاء الإبراهيمي، ببعثة سيّد المُرسلين ومعه القرآن الكريم.

والقرآن يصف لنا حالة الحيرة التي تملّكت صدر إبراهيم عليه السلام، وهو قد علم باستجابة الله لدُعائه، ورد ذلك في نفس سورة البقرة (٢٦٠): ﴿**وإذ قال ابراهيم لربّ أرني كيف تُحيي الموتى، قال أَوَلَم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فَخُذ أربعةً من الطّير، فصُرهُنّ إليك، ثم اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جُزءاً، ثم ادعُهنّ، يأتينك سعياً، واعلم أنّ الله عزيزٌ حكيم.**﴾. أي أنّ نفس ابراهيم تاقت إلى معرفة الطّريق والأسلوب الذي سيتحقّق به دُعاؤه الذي تقبّله ربّه بالاستجابة، فطلب منه أن يفعل مايفعله مربّو الحَمام، فيربّي أربعة منها ثم يجعل على كلّ جبلٍ واحدةً منها، ثم يدعوهن، فإذا بهنّ يُلبّين نداءه ويأتينه سعياً، وهنا نبّه الله ابراهيم إلى أنه تعالى سيستجيب دعاءه، على هذه الشاكلة من مُنطلق كون الله عزيزاً حكيماً. وهذه إشارة إلى

بعثة عددٍ من أنبياء الله الذين سيتحقّق على أيديهم تربية المؤمنين بما يحملونه من تعاليم وذلك استجابة للدُّعاء الإبراهيمي، وهذا قد تحقق فعلياً وعملياً. وإنّ وسيلة التربية الروحية تحقّقت على يديّ محمد رسول الله (ﷺ) بشكلٍ مُدهش، ولولا ذلك لما كانت قد تحقّقت على أيديهم تلك الفتوحات التي لم تكن لتتحقّق لولا هذه التربية وماستقرّ في قلوبهم من يقين وإيمان، فأنّى لأبي بكر مثلاً، وهو ابن أبي كبشة، الرجل التّاجر البسيط، أن يصبح خليفة الله ويقود أمّة ناشئة إلى شاطىء الأمان، لولا أن كان أبو بكر من السّابقين في الإيمان وفي صحبة محمد رسول الله (ﷺ). علماً بأنّ المفسّرين أخطؤوا حين أخذوا لكلمة (فصُرهن إليك) معنى قطّعهن. فلم ينتبهوا للصلّة التي أتت بعدها وهو حرف (إليك) الذي قلب معنى قطّعهن إلى معنى أَمِلهُنّ إليك.

والمهمّ أنّ ابراهيم عليه السلام قد استغاث في دعائه بصفتي الله العزيز الحكيم. وهاأنه، وبعد مُضيّ ألوف السّنوات على ذاك الدّعاء المقبول، تحقّقت الاستجابة وفق تجلي صفتي "العزيز الحكيم". حيث استُهلّت سورة الجُمعة بقوله تعالى إشارة إلى ذلك : ﴿**هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيّهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.**﴾ أي هانحن أولاء بعزّتنا وحكمتنا قد حققّنا ماوعدنا به إبراهيم، وأثبتنا بذلك أنّ الله موجود وعزيز غالب على أهل مملكته، وقويّ على تحقيق مايشاء بحكمة، فهو صاحب الحكمة المُتقن للأمور.

وهانحن أولاء كذلك قد أثبتنا أنّه كان في سابق علمنا أنّه سيأتي على أمّة محمد (ﷺ) عصرُ تخلُّف وانحطاط تتكالب فيه على المسلمين أمم الأرض، فبعثنا من هذه الأمّة أيضاً، وفي هؤلاء المسلمين الآخرين، ومنهم لّما يلحقوا بالمسلمين الأولّين رجلاً يكون ظلاً لهذا الرسّول العظيم محمد الصادق الأمين، ليصّحح مسار الأمّة، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت ظُلماً وجوراً. لنثبت من خلال بعثتنا إياه تجلّي صفتنا العزيز الحكيم.

وهكذا نكون قد أحطنا علماً بمثال محسوس من واقع البشر في هذه المنطقة من العالم، يثبت من خلاله وجود الله العزيز الحكيم، وذلك من خلال

تقبُّل هذا "العزيز الحكيم" دعاء إبراهيم وإسماعيل اللذين وُجدا في واد غير ذي زرع وقبل ألوف السّنوات. هذا وفي وقت كان تحقّق ذلك في أعين ابراهيم نفسه من باب شبه المستحيلات. فأين هذا الوادي غير ذي الزرع وقبائله المُتحوّلة المُتنقّلة الأميّة، ومابلغوه من السّؤود حين سادوا العالم ببعثة محمد سيّد المرسلين (ﷺ)، وهو سليل نسل ابراهيم عليه السلام أيضاً عن طريق نسل ابنه اسماعيل. وهانحن وقد وُجدنا في عصر تخلّف المسلمين الذي أشارت إليه سورة الجُمعة، وهانحن في ظلّ هذا المبعوث لإحياء الدّين فسُبحان الله الحيّ القيّوم العزيز الحكيم، وهل يستهين بهذا الدّليل المحسوس، الذي يثبت من خلاله وجود الله العزيز الحكيم إلاّ من سفه نفسه وكان من الجاهلين المكابرين؟

وعليه يكون قد ثبت من خلال تجليّات صفة الله العزيز، والتي تجلّت مُقترنةً بصفة الحكيم أنّ الله تعالى ليس موجوداً وحسب، بل وغالباً على أهل مملكته، فلايوجد قويٌّ يقوى عليه، وأنّه تعالى فعالٌ لما يريد، وأنّه يحقّق مشيئته بحكمةٍ بالغةٍ مُتقنةٍ للأمور مذهلة للعقول.

وأتناول تجلّي اسم الله العزيز، مقترناً بصفته تعالى الرّحيم، وذلك من خلال التّعليم الذي بُعث به محمد رسول الله (ﷺ) نفسه، وهو تعليم القرآن الحكيم. فقد جاء في أوّل سورة (يس) : ﴿**يس. والقرآن الحكيم. إنّك لَمِنَ المرسلين. على صراطٍ مستقيم. تنزيلَ العزيز الرحيم. لتُنذر قوماً ماأُنذر آباؤهم فهم غافلون.**﴾. هذه الآي تعني : أيّها الإنسان السّيد، قد تأتّت سيادتُك على النّاس من خلال ماأنزلناه عليك من آي هذا القرآن الحكيم الذي اشتمل على تعاليم مُتقنةٍ فكراً وعملاً، وصالحةٍ للنّاس كافّة في كلّ زمان ومكان، مقرونة بالأدلّة السّاطعة والبراهين القاطعة. وقد جعلناك سيّداً، مصداق تقبُّلنا دعاء جدّك ابراهيم. وقد زودّناك بهذا القرآن الحكيم ذي التعاليم المُتصفة بالكمال وجعلناك على صراط مستقيم، إثباتاً منّا لوجود الله وأنّ هذا القرآن هو ﴿**تنزيل العزيز الرّحيم**﴾، فجئت بذلك رحمةً للعالمين.

وأتناول تجلّي صفة العزيز مقترنةً بصفةٍ أخرى هي صفة "ذو انتقام". ولننتقل إلى سورة آل عمران التي قال تعالى في أوائل آياتها : ﴿.. **وأنزل الفرقان. إنّ الذّين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد والله عزيز ذو انتقام.**﴾. وقد علمنا أنّ معنى قوله (ذو انتقام) أي صاحب الأمر البالغ في

العقوبة، لمن ناهض وصدّ عن سبيل الله. وقد قال تعالى لقد أنزلنا هذا القرآن ليكون فرقاناً نفرق به الحقّ من الباطل. فمن يتمرّد على عزّتنا، ويتصدّ لقوتنا وهيمنتنا نُنذره بالانتقام، قال تعالى: ﴿**إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد، والله عزيز ذو انتقام.**﴾. أي لاينبغي لهؤلاء المكذّبين أن يتناسوا أن الله العزيز يتجلّى، فيما يتحلّى به، بصفةٍ مُلازمةٍ هي أنّه "ذو انتقام" في الوقت المُناسب. فليحذر الذين كفروا عذاب الله العزيز ذي الإنتقام. وقد رأى العالم ماحلّ بالذين كذّبوا هذا القرآن المنزل على محمد (ﷺ)، وكيف ذلّوا وآلوا إلى دار البوار.

وأتناول صفة العزيز مقترنةً بصفة العليم. وقد جاء ذلك التجلّي في قوله تعالى من سورة غافر: ﴿**حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافرِ الذّنب وقابلِ التّوب شديدِ العقاب ذي الطَوْل، لاإله إلاّ هو إليه المصير**﴾. أي أنّ الله العزيز الذي بعث محمداً استجابةً لدُعاء جدّه ابراهيم، هو العليم غافر الذنب وقابل التّوب شديد العقاب ذو الطَوْل لاإله إلاّ هو إليه المصير. وصفة العليم اشتملت على جميع ماإقتضته هذه الصّفات، لتثبت وجود الله العزيز العليم. وهل يتّصف بهذه الصّفات المذكورة إلاّ من كان عليماً لايَحُدّ من علمه شيء، مُحيطاً بكلّ أمرٍ، يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور.

وأتناول صفة العزيز مقترنةً بصفة الحميد. وإلى ذلك أشار قوله تعالى في سورة ابراهيم التي استهلّها الله تعالى بقوله: ﴿**الر كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرج النّاس من الظّلمات إلى النور بإذن ربّهم، إلى صراط العزيز الحميد. اللهِ الذي له مافي السّموات ومافي الأرض، وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديد.**﴾. أي أنا الله الذي لايغيب عن ناظره شيء، قد أنزلت عليك هذا الكتاب ليكون سبيلك إلى النّاس ممّا صاروا إليه من الفساد لتخرجه، إلى الصلاح والفلاح، وقد شئت، وأنا العزيز الحميد الغالب على الكون، المحمود بكلّ لسان وعلى كلّ حال، القادر على أن أُخرج الناس من الظّلمات إلى النّور، تصديقاً لدعاء إبراهيم، قد أنزلت أكمل المبادىء والتّعاليم لتحقيق ذلك على أيدي محمد الصادق الأمين، الرّسول الذي سيتحوّل بالنّاس من حالة البؤس التي هم فيها، إلى حالة العزّة والسّيادة والكرامة. يُحوّلهم عن طريق هذه المبادىء والتّعاليم الكاملة، إلى عالم نورانّي علميٍ بعيداً عن سموم الأهواء النفسيّة والوساوس الشّيطانية. والحقّ هو أنّ العالَم

شاهد ماأحدثته تعاليم القرآن الكريم الذي بُعث به محمد (ﷺ)، وتصديقاً لدُعاء جدّه إبراهيم، ماأحدثته في بيئة العرب الجاهليّين، إضافةً إلى بيئات سواهم من الأمم والشّعوب، من يقظةٍ وترق ونهضةٍ في كل مكان سادت فيه هذه المبادىء والتعاليم، والتي ثبت من خلال ماأحدثته من تغيير وتحوّل، أنّ الله العزيز هو حيٌّ قيّومٌ، وأنّه تجلّى بصفته العزيز الحميد أيضاً.

وأتناول بالذّكر اسم الله العزيز مُقترناً بصفة الغفور. الأمر الذي يتضّح ممّا استهلّ به الله تعالى سورة الملك حيث قال: ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كُلّ شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكُم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سموات طباقاً، ماترى في خلقِ الرّحمن من تفاوُت، فارجع البصر هل ترى من فُطور.**﴾.

والمعنى أنّ الله العزيز مالك هذا الكون والقادر على تحقيق كل شيءٍ أراده ويريده، إنّما تتجلّى صفته العزيز مُقترنةً بصفته الغفور.

فهاهو ذا قد استجاب دعاء ابراهيم، وأثبت من خلال بعثة محمد أنّه العزيز. ولمّا كان الإنسان قد خلق مُبْتلىً بين موتٍ وحياة، فقد كان لزاماً أن تتجلّى صفة الله العزيز مقترنةً بصفته الغفور أيضاً. بمعنى السّتار ضعف عباده. لذلك تجّلى، وهو العزيز الغفور الذي وسعت رحمته كلّ شيء. وقد قال تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز : ﴿**ياعبادي الذّين أسرفوا على أنفُسهم لاتقنطوا من رحمةِ الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً.**﴾ الزّمر ٥٣ ـ وهكذا تجلّى الله العزيز، وهو يحثّ عباده على أن يكونوا من المستغفرين ومن التوابين لتشملهم تجليّات صفتي العزيز الغفور بواسع ظلّهما الوارف الظّليل الذي يخلب ألباب المفكّرين المحّققين.

على هذه الصّورة يكون قد تجلّى لأعيننا أنّ صفة الله العزيز وعملها وتجلّياتها عبر تاريخ البشر، قد بَدّت وفق منهجٍ وقانون، وصفة العزيز هذه دليلٌ من الأدلّة القاطعة على وجود الله العزيز الحكيم الرحيم الحميد الغفور المُنتقم.

وبإمكانكم أن تقيسوا على هذه الصّفة ماذُكر في القرآن الكريم ما لله تعالى من أسماء وصفاتٍ، حيث يؤلّف كل اسمٍ وصفةٍ منها دليلاً قاطعاً يثبت وجود الله عزّوجلّ في نظر كلّ باحثٍ عن الحقيقة، متجرّدٍ عن أهوائه، وغوايته،

وتيهه، وجهالته وعَنعناته وسابق تصوّراته. وهكذا تلاحظون أنّ الأدلّة المستمدّة من أسماء الله الحسنى تبلغ عدد مايتّصف به الله عزوجلّ من أسماء قد تجلّت في كوننا الماديّ الذي نتفيّأ ظلاله.

٣ ـ دليل الله المُتكلّم

هنا روايةٌ أسنَدَتْها كتب الحديث، كالترمذي وابن حبّان والبيهقي أسندتها إلى رسول الله (ﷺ) بطريق أبو هريرة. وقد عدّد صاحبها فيها تسعاً وتسعين من أسماء الله الحسنى، تناولها العلماء المُقلّدون دون أيّ تمحيص. فما تساءلوا : كيف يُعقل أن يكون رسول الله (ﷺ) قد أحصى جميع أسماء الله الحسنى قبل أن يكتمل نزول القرآن الكريم؟

ألا إنّ أسماء الله الحسنى لم تجتمع في كتاب الله تعالى في مقامٍ واحد. بل أتت في طيّات الآيات الكريمة، وذلك وفقاً لما كانت تقتضيه مضامينها. وقد تبيّن لنا، بنتيجة تدبّرنا كتاب الله تعالى أنّ الرّواية المذكورة أغفلت عدّة أسماء من أسمائه تعالى الواردة فيه، وهذه الأسماء هي: (ذو العرش، وذو الوقار، والمُنعم، والشّافي، والكافي، والمتكلّم.)، ليصبح عدد أسماء الله الحسنى مائة وخمس صفات.

والمؤسف أنّ هؤلاء المقلّدين، ونتيجة لأخذهم بالرّواية المذكورة، ذهبوا إلى القول بانقطاع الوحي السّماوي بعد رسول الله (ﷺ)، على حين أنّ كلّ اسمٍ من أسماء الله تعالى، لاينقطع عن عمله فهو مع ذات الله أزلّي وأبديّ ومستمّر التجلّي والعطاء. فإن اتّصف الله عزوجلّ بصفة تكليمه لعباده قبل الإسلام، فكيف تصوّروا أن يصمت الله ولايعود يكلّم عباده بعد الإسلام؟ أفلم يكلّم أم موسى بكلام غير تشريعي، فكيف لايعود يكلّم الصّديقات من المُسلمات بكلام غير تشريعيّ بعد بعثة خاتم النبيين(ﷺ)؟ خصوصاً وأنّ القرآن الكريم لم ينصّ في آيّة آيةٍ من آياته الكريمة على أنّ الله لايوحي ولايكلّم إلا النبيّين. أفلم يقرأ هؤلاء المقلّدون قول الله عزوجلّ: ﴿**وماكان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسلُ رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنه عليّ حكيم**﴾ الشورى ٥١ ـ فلم يقل هنا ﴿**وماكان لنبيٍ أن يكلّمه.**﴾ بل عمّم

وقال ﴿**وماكان لبشر..**﴾ نبيّاً كان أو غير نبيّ. ولست هنا في مجال بحث هذا الموضوع والتوسّع فيه. بل سأبحثه في آخر المبحث الثالث من هذا الكتاب.

وهكذا فإن صفة الله (المتكلّم) تشكّل في حقيقتها دليلاً حسيّاً على وجود الله عزوجلّ، ولم يختصّ كلام الله بأنبيائه الكرام، بل بالبشر عامةً وعلى مُختلف طبقاتهم، وكُلاً يكلّمه الله إن اقتضت الضرورة على حسب فهم هذا الإنسان ووضعه الاجتماعي والأخلاقي الرّوحي، وهل نسي أحَدُنا كيف أوحى الله إلى عزيز مصر في رؤياه المعروفة من وراء حجاب، ولم يكن العزيز مسلماً، ولم يقدر على تأويل تلك الرؤيا إلاّ يوسف عليه السلام. فقد اقتضى أمر الايفاء بوعود الله تعالى التي قطعها ليوسف أن يعلّمه تأويل المنام ويفعل مافعل. وهذا من بابٍ أشار الله تعالى إليه آخر آية سورة الشورى التي أوردناها، وهو تذييله هذه الآية بقوله: ﴿.. **إنّه عليٌّ حكيم.**﴾. والعليّ هو القويّ والرفيع والشريف والشديد (محيط المحيط). كما أن الحكيم هو صاحب الحكمة المُتقن للأمور، الذي يجمع بين العلم والعمل وصاحب الحُجّة والبرهان، على حسب مابين صاحب معجم محيط المحيط.

وكأنه تعالى رسم وبيّن لنا المنهج والقانون الذي التزم به عزّوجلّ بما يتعلّق بموضوع كلامه مع البشر، فهو تعالى يكلّمهم من مُنطلق كونه (العليّ) أي القوى الرفيع المقام والشريف الخصال والشّديد العقاب. وهو تعالى حين يُكلّم بشراً ما، يُكلّمه بحكمة الذي أتقن الأمور قولاً وعملاً، إضافةً إلى إحكامه تعالى في كلامه حُجّته وبُرهانه، فهذا هو مادلّ عليه قوله تعالى آخر آية سورة الشورى قوله: ﴿.. **إنّه عليٌّ حكيم.**﴾.

أقول : إذا ماأثبتنا، من خلال الوقائع والأحداث الماضية وجود أشخاص كلّمهم الله تعالى وهداهم السّبيل، نكون قد أثبتنا بذلك وجود الله المتّصف بالكلاّم أيضاً. هذا الإله الذي يملك هذا الكون ويُسيّره بحكمة، ويكلّم مَنْ خلقهم بشراً من مُنطلق كونه العليّ الحكيم.

ولنبدأ من نقطة التكلّم بالذّات. فمجرّد ادّعاء إنسان ماأنّه يكلّمه ربّه فهو أمرٌ ايجابيٌّ على أقل تقدير. على حين أنّ نفي إنسان حدوث مثل هذا الكلام فهو أمرٌ سلبيّ عموماً. وإن الأمر الإيجابي له في الحقيقة وزنه وجاذبيّته، وأن يُطالب المُدّعي بتقديم الحُجّة على ادعائه.

وإذا مااستعرضنا تاريخ البشر، لاحظنا وجود فريقين : فريقٌ مؤمنٌ بوجود الله المتكلّم مع عباده، ويكلّم الصالحين منهم خاصة، واعتقادهم هذا يشكّل نقطةً إيجابيّة ـ كما تلاحظون ـ لها جاذبيّتها ومصداقيّتها.

وفريقٌ كافر بالله بين مُلحد ومشرك. وفي موقف هذا الفريق نقطةٌ سلبيّة ـ كما تلاحظون ـ وهذا الفريق مُلزمٌ أصلاً بتقديم حُجّة وبرهان على موقفه السّلبيّ. وهذه الحقيقة هي التي تسبّبت في ظهور طبقة من الفلاسفة عبر تاريخ البشر، تُكابر في وجه المؤمنين ويحاول أصحابها نفي وجود الله عزوجلّ.

وأطرح للقارىء العزيز هذا الأمر بأسلوبٍ آخر، فليتّصور أحدكم فيلسوفاً يتحدث إليه، ويحاول تقديم البرهان على غياب فلان عن مجلسهما، على حين يجلس زيدٌ هذا بينهما وأمام ناظريهما في تلك اللحظات، أفكُنت تصغي ياصاحبي إلى هذا الفيلسوف، أم تُبادر إلى تسفيهه واتّهامه بالحمق ورميه بالخبل والسَّفَه؟

فإن أنت أصغيت ياصاحبي إلى حديث وأقوال هذا الفيلسوف، وزيدٌ يجلس بجانبك، يكون حالك كمن يُصغي إلى فلسفات المُلحدين، في حال وجود أناسٍ يكلّمهم الله إلى درجةٍ أشرقت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم.

وهل بإمكان أيّ مؤرّخ أن ينكُر وجود هذين الفريقين من البشر : فريق الأنبياء ومن آمن بهم، وبوجود الله "المتكلّم"، وفريق المُلحدين الذين وقفوا في مقابل الفريق الأوّل، موقفاً سلبيّاً يفتقر دوماً إلى الحجج والبراهين القاطعة؟ وهذا الموقف السّلبيّ، وقفوه في مواجهة عشرات ألوف النّاس أصحاب الموقف الإيجابيّ، الذّين يقدّمون أنفسهم شهوداً على وجود الله "المتكلّم".

وقد كان الفريق الأوّل يفوز دوماً وفق مايُعلنه، على حين يبوء الفريق الثاني باستمرار بالخيبة والخُسران، على هذا نجد الفريق الأوّل على كلمةٍ واحدةٍ. بينما ينطبق على الفريق الثاني قوله تعالى: ﴿**كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.**﴾. وهل نسي المفكّرون الباحثون كيف أنّ فلاسفة الماركسية قد سفّهوا آراء وفلسفات جميع من سبقهم من الفلاسفة، حتى جرّوا على شعوبهم أقسى المصائب والويلات؟ وقد وصف بعض فلاسفة الماركسيّة هذا الدّين، بأنّه أفيون الشّعوب، وهل كان الدّين ليصبح أفيوناً للشّعوب لولا أن ظهر بين ظهراني أهله رجالٌ مُكلّمون من الله خالقهم، ويتلّقون بشاراته أيضاً وتأييده وهُداهُ؟

وتعالَوْا نتفحّص سِيَرَ من كلّمهم الله تعالى، أولئك الذين شَهدوا على وجوده عزوجلّ. إذ يتبيّن لنا أنّ أولئك القدّيسين الأبرار، كانوا من ذوي الأخلاق الفاضلة الحميدة. فهذا ماشهد به تاريخهم، إضافة إلى شهادة القرآن الكريم الذي أثبتنا من قبل مصداقيّة مرجعيّته، فقد قال تعالى في الآية (٦١) من سورة هود: ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال ياقوم اعبدوا الله، مالكم من إلهٍ غيره. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربّي قريبٌ مُجيب. قالوا ياصالح قد كُنت فينا مرجُوّاً قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا، وإنّنا لفي شكٍ ممّا تدعونا إليه مُريب. قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنةٍ من ربّي وآتاني منه رحمة، فمن ينصُرني من الله إذا عصيته، فما تزيدونني غير تخسير.**﴾. فقد أقرّوا بذلك بصلاح وأهليّه النبي صالح بما لاتهوى أنفسهم، فقد خابت آمالهم فيه، وحرموا أنفسهم من فيض مادعاهم إليه.

وقد وصف القرآن الكريم العاقبة الحميده التي آل إليها : صالح وقومه، وقال:﴿..**فلّما جاء أمرنا نجّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا، ومن خزي يومئذ، إنّ ربّك هو القويّ العزيز.**﴾ أي أنّ الله الرّب الذي كلّم صالحاً، أثبت أنّه "القويّ العزيز". والقويّ يعني العليّ. والعزيز يعني الغالب على أهل مملكته فلا يُغالب. وكأنه تعالى قصد من قوله: ﴿**إنّ ربك هو القويّ العزيز.**﴾ ماقاله بألفاظ أخرى أنّه ﴿**العليّ الحكيم**﴾.

ولقد أخبرنا القرآن الكريم عن النّبي شعيب أيضاً، وفي الآية (٨٦) من نفس سورة هود، قال: ﴿**قالوا ياشُعيب أصلواتُك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا مانشاء، إنّك لأنت الحليم الرّشيد. قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنةٍ من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً، ومأأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه، إن أريد إلاّ الإصلاح مااستطعت، وماتوفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب.. ولمّا جاء أمرُنا نجّينا شُعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا، وأخَذَتِ الذّين ظلموا الصّيحةُ، فأصبحوا في ديارهم جاثِمين، كأن لم يغنوا فيها، ألا بُعداً لِمدينَ كما بَعُدت ثمود.**﴾ ألاحظتم قول قوم شعيب ﴿**إنّك لأنت الحليم الرّشيد.**﴾؟وهذا إقرارٌ منهم بصلاح شُعيب وبتقواه ورشده. أمّا وقد فاجأهم النبيّ شعيب بما لاتهوى أنفسهم، فقد خابت آمالهم فيه وبذلك حرموا أنفسهم من فيض مادعاهم إليه.

ولِمَ نذهب بعيداً في ضرب الأمثال وذكر الوقائع؟ وهل هناك امرؤ لايدري ببعثة محمّد بن عبد الله اليتيم الأمّي الذي اصطفاه الله لرسالته. فجمع قومه من أهل مكّة الذين لبّوا نداءه، وقال: مابالكم إنْ أخبرتكم أنّ وراء هذا الجبل جيشاً عرمرماً أَوَ أَنتم مُصدّقي؟ فصاحوا جميعهم قائلين: (ماجرّبنا عليك كذباً) فقال (ﷺ): (إنّي رسول الله). فانبرى له أبو جهل قائلاً: (تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟) وأقفل عائداً إلى داره. وتبّ بمعنى هلك. فمن هلك بعد ذلك: المُدّعي أم المكذّب المُنكر؟

والحقيقة التي لامراء فيها، هو أنّ محمداً (ﷺ) ومن خلال إعلانه المذكور أعلن بألفاظٍ أخرى عن وجود الله "المتكلّم"، وأنّ الله كلّمه واصطفاه لرسالته. وماكان جواب أبي جهل، إلاّ كما أجاب به قوم صالح وقوم شعيب وسواهم ممّن كذّبوا بما لاتهوى أنفسهم.

والجميع يعلم أنّ محمداً (ﷺ) اشتُهر في قومه بالصّادق الأمين. فهذا أمرٌ أجمعت عليه الأخبار. وقد رُوي أن زعماء قريش ممّن كذّبوا محمداً في ادعائه، أنّهم عقدوا مجلساً في مكّة بقصد أن يتداولوا أمر هذا الرّسول، ليتّفقوا على كلمةٍ يواجهون بها الوافدين من العرب إلى مكّة في موسم الحجّ. وقد أشار أحد المُجتمعين أن يصموا محمّداً بادعائه للنّبوة افتراء وكذباً. فقام النّضر بن الحارث يقول: وكيف يُصدّقون ذلك؟ أنصم محمّداً بالكذب والافتراء، وهو الذي عرفه الجميع بصدقه وأمانته؟ ولابد أن يقول هؤلاء الوافدون: "كان محمدٌ فيكم غلاماً حَدَثاً أرضاكم قيلاً وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة. حتى إذا رأيتم في صِدغيه الشّيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم ساحرٌ. والله ماهو بساحر"[1]. على هذه الصّورة أذعن المجتمعون لرأي النّضر بن الحارث، الذي كان بعيد الغَور وقد أصاب وجه الرأي حين فطن إلى أن الوافدين من العرب لم يُجرّبوا على محمد بن عبد الله (ﷺ) كذباً قطّ. فكيف يُصدّقون بعد هذا أنّه كاذبٌ أفاك والعياذ بالله؟

وهذا أبو سفيان وقد سأله هرقل الرّوم في مجلسه: هل كذب محمّد قبل ادعائه النّبوة في يومٍ من الأيام؟ وأجاب أبو سفيان: ماجرّبنا عليه كذباً حتى

---

[1] ـ سيرة ابن هشام.

اليوم. فلّما عاد أبو سفيان إلى قومه وحدثّهم بما جرى، كان يقول لهم: لقد قلت لِهرقل (حتى اليوم) آخر جوابي، لأشككه في أمر محمد بن عبد الله.

إنّ هؤلاء القدّيسين البَرَرة من النبيين والذّين آمنوا معهم، ساهموا بصورة عمليّةٍ وفعليّةٍ في ترقية العقل البشري. ساهموا مساهمة لاتعدلُها مساهمةُ أي فيلسوف أو ملحدٍ أو مُكذبٍ منكر من النّاس. وقد أجمعت شهاداتهم على وجود الله عزوجلّ، وعلى أنّه كان يكلّمُهم ويهديهم السبيل.

والمعلوم في جميع أنحاء المعمورة، هو أنّ المحاكم تطالب المُدّعين بتقديم شاهدي عدل لإثبات إدعاءاتهم. وهؤلاء القدّيسون البَرَرة أجمعت شهاداتهم على وجود الله "الكليم" الذي كلّمهم، على اختلاف أزمنهم وأمكنتهم، وهل يجوز أن يُستهان بشهادات هؤلاء القدّيسين البررة وهم يُعدّون الألوف بل عشرات الألوف، إلاّ من سَفِهَ نفسه؟

وقد كان يقابل هذا العدد الهائل من الشهود على وجود الله، والمتكلّمين معه أعداد من الفلاسفة الذين توالى ظهورهم عبر تاريخ البشر الطويل. ولاترى هؤلاء الأخيرين قد اتّفقوا على آراء واحدة في يوم من الأيّام. فلماذا؟

السّبب في أنّ جميع ماطرحوه من آراء وفلسفات، اعتمد العقل، حاذفين منه عامله المساعد الذي بدونه لايعطي العقل أحكاماً صائبةً على مستوى أمور الغيب وماوراء الطبيعة، لذا جاءت آراء وفلسفات هؤلاء الملحدين مجرّد أوهام وظنون مُتضاربة بعضها مع بعضها الآخر. وهاأنّ فلسفة المادية الماركسية تحطّمت على أعتاب النظرية التي أتى بها العالم الفيزيائي غاموف وهي نظرية الانفجار العظيم والتي ثبت من خلالها أنّ الكون مخلوق غير أزلّي، وقد تمّ خلقه قبل مايزيد عن (١٢ إلى ٢٠) مليار عام. وهل عادت بعد ذلك لسفسطات كارل ماركس وسواه أيّ وزن أو قيمة بعد هذا الكشف العلمي العظيم؟

هذا وقد أثبت هذا الكشف العلمي صدق ماطالعتنا به آيات القرآن الكريم، وهو الكشف عن وجود الخالق عزوجلّ هذا الإله المتكلّم الذي كلّم محمداً (ﷺ) وأوحى إليه بهذا الفرقان العظيم، والذّي يطالع مؤلّفي (النظرية القرآنية الكونيّة حول خلق العالم) تتجلّى لعينيه حقيقة مابيّنت آنفاً وبكلّ جلاء.

وعلى هذه الصّورة تتجلّى معالم صدق وجود الله المتكلّم، الذي كلّم محمداً رسوله الأمين. كما تتجلّى حقيقة صدق شهادات الأبرار القدّيسين من الفريق الأوّل المؤمن بوجود الله المتكلّم. إلى جانب انكشاف سفاهة آراء الفريق الملحد من الفلاسفة والمكذّبين.

وهذه الوقائع والأحداث المحسوسة تثبت للعاقل بما لايقبل النّقاش وجود الله الخالق، وتشكّل دليلاً محسوساً على اتّصاف هذا الخالق بالكلام أيضاً. الله الذي اصطفى من البشر من كلّمهم في مختلف الأزمنة والأمكنة. وكان كلامه تعالى إلى هؤلاء بطرق ثلاث (وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء.). وضمن منهجٍ وقانون وضّحه لنا قول الله عزّوجل (.. إنّه عليٌّ حكيم).

هذا الدليل المحسوس من الوقائع والأحداث، يُضعف الرّواية المُسندة إلى رسول الله (ﷺ) عن طريق أبو هريرة، والمتعلقة بأسماء الله الحُسنى والتي لم تشتمل على صفة (المتكلّم) ولاعلى الصّفات التالية (ذو العرش، ذو الوقار، المُنعم، الشّافي والكافي).

ولمّا كانت أسماء الله تعالى أزليّة أبديّة لاتتوقّف عن تجلّياتها. فقد ثبت بالتالي من خلال صفته تعالى (المتكلّم) أنّ باب الوحي غير التشريعي غير مسدود. ولم ينقطع إلاّ نزول الوحي التّشريعيّ. ذلك أنّ شرع القرآن الكريم اكتسب صفة الكمال لقوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.**﴾ المائدة (٣) ـ ولوعده جلّ شأنه بحفظ هذا الذّكر إلى أبد الآبدين في قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾ الحجر ١٠ ـ فالكامل لايحتاج إلى وحيٍ تشريعّي يُكمله. والمحفوظ لايعقل أن يأتي وحيٌ تشريعيٌ ينسخه.

ثم إنّه لو كان الوحي غير التشريعي قد انقطع، فلايعود للآية (٣٠) من سورة فُصّلت أيّ معنى كان، وهي قوله تعالى: ﴿**إنّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون. نحن أوليائكم في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدّعون. نُزُلاً من غفورٍ رّحيم. وَمَن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين.**﴾.

ولا للآية (٦١) من سورة يونس، قوله تعالى: ﴿**ألا إنّ أولياء الله لاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتّقون. لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لاتبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم.**﴾. والمقصود من قوله ﴿**لاتبديل لكلمات الله**﴾ في الآية أنّ سلوك الله المذكور مع عباده المؤمنين المتّقين بعد نزول القرآن سيستمرّ على شاكلة ماكان قبل نزوله. والمقصود من (أولياء الله) من تولاّهم الله بعنايته، كونهم من ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتّقون.**﴾. وهؤلاء الأبرار ﴿**لاخوفٌ عليهم ولاهُم يحزنون**﴾ أي لاخوف عليهم في مستقبلهم ولايحزنون على مافات. ذلك أن الخوف لايكون إلاّ من المستقبل. والحزن لايكون إلاّ على مافات. ومن يتولاّهم الله بعنايته ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا**﴾ أي يتلقون بشارات الله بالطّرق الثلاث التي حدّدتها الآية: ﴿**وماكان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً فيوحي باذنه مايشاء، إنّه عليٌّ حكيم.**﴾.

٤ ـ دليل الله الحفيظ

ويُستدل من صفة الله "الحفيظ" على وجود الله عزوجلّ. وذلك من خلال الوقائع والأحداث الملموسة التي تجلّت بها صفة "الحفيظ" هذه، عبر تاريخ البشر الطويل.

وصفة "الحفيظ" تعمل أيضاً وفق منهاج وقانون وضّحه لنا كتاب الله القرآن الكريم في ثنايا آياته الكريمة، ووفقاً للمقتضيات الموضوعيّة أيضاً. ونتساءل: ما دلالة كلمة (الحفيظ)؟

الحفيظ، من حِفظَ الشيءَ أي حرسَه ومَنعه من الضّياع. وكلّ امرىء منّا يعلم أنّ الإنسان لايحرس شيئاً ويمنعه من الضّياع إلاّ إذا كان هذا الشيء له في نظره قيمةٌ عالية أو مكانةٌ مرموقة. ونقول قياساً على ذلك إنّ الله جلّ شأنه لايُعقل أن يعد بالمحافظة على حياة إنسان ما، إلاّ إذا كان هذا الإنسان في نظره تعالى يعمل وفقاً لمشيئة ويؤدّي دوراً أساسيّاً لتحقيق إرادته. وإلا فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين.

تم إنّ مهمّة حراسة شي ومنعه من الضّياع، ماهي بالأمر الّهين. فهؤلاء الأوربيون تفنّنوا في أساليب حراسة المجوهرات واللّوحات الفنيّة الأثريّة والمستندات الهامة. فاخترعوا أجهزة إنذار مُبكّر وأقفالاً معقّدة التركيب.

وبالرغم من جميع احتياطاتهم لحراسة هذه الأشياء، فإنّنا نسمع بين حين وآخر سطو اللّصوص، وتمكّنهم من سرقة بعض الأشياء الثمينة والنادرة. وتوصف السّلطات إثر ذلك بالضّعف والإهمال. أي أنّه مهما تفنّن أولئك في أمر حراسة هذه الأشياء والحفاظ عليها، تظلّ تبدو في خططهم ووسائلهم نقاط ضعف، يستنتج منها أنّها خطط ووسائل الإنسان الضعيف.

ونحن بصدد الكلام عن موضوع ضرورة حراسة شخص محمدٍ رسول الله قبل أربعة عشر قرناً والذي فاجأ قومه من حوله بادعائه أنّه رسول ربّ العالمين، ودعاهم لمبايعته والانضواء تحت زعامته الرّوحية والعمل مُخلصين على تنفيذ التعاليم التي توحى إليه من ربّه. هذا في وقت كان محمد (ﷺ) يتيماً وأميّاً ولايملك مالاً ولاعَتاداً. وقد أعلن دعوته في مواجهة من سمّاه قومه حكيماً. وبألفاظٍ أخرى فإنّ دعوى محمد (ﷺ) هدّدت مصالح جميع الطّبقات المتنفّذة في قومه. باستثناء طبقة العبيد المملوكة لطبقة عُليا في المجتمع آنذاك.

والمعلوم أنّ من جُمله الدلائل والبراهين التي قدّمها محمد رسول الله (ﷺ) على صدق نبوته، هو ادعاؤه أنّ الله عزوجلّ وعد بالمحافظة عليه وحراسته من خلال خطابه إيّاه: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ المائدة ٦٧ ـ هذا في وقت توعّد الله فيه الكافرين برسالة محمّد بعذابٍ شديد. فمن هنا تأتّت أهميّة تجلّي صفة الله "الحفيظ".

إنّ الحفاظ على شيءٍ ثمين كما رأينا، يستلزم أن تتوفّر لمن يريد أن يقوم بهذه المُهمّة علمٌ واسع وكفاءات وقُدرات. هذا والذي يتدبّر القرآن الكريم يُلاحظ كيف أفادنا هذا الكتاب السماوي بالنهج والقانون الذي تتجلّى من خلاله صفة الله "الحفيظ". ويدعمها قُدرات الله الواسعة وعلمه الذي لاتقف دونه حدود.

ولابدّ أن تهفو نفس الإنسان لمعرفة هذا النهج والقانون الذي تتجلّى من خلاله ووفقاً لبنوده صفة (الحفيظ) هذه. خصوصاً وأنّ صاحب هذه الصفة قد

وعد بالمحافظة على محمدٍ رسوله وحراسته. وإليكم بنود هذا النهج الذي تضمّنته الآيات التالية: ﴿ **الله يعلم ماتحمل كلّ أُنثى وماتغيضُ الأرحام وماتزداد، كلُّ شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشّهادة الكبير المُتعال. سواءٌ منكم من أسرّ القولَ ومن جهر به، ومن هو مُستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنهار. له مُعقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، إنّ الله لايُغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له، وماهم من دونه من وال، هو الذي يُريكم البرق خوفاً وطمعاً ويُنشيء السَّحاب الثّقال. ويُسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يُجادلون في الله وهو شديد المِحال** ﴾، فإلى معاني الألفاظ :

ماتغيضُ من الفَيض أي الإسقاط. وماتزداد أي ماتزداده أيّام الحمل. والكبير هو الشريف صاحب العظمة والجبروت والرّفيع. المتعال هو رفيع الشأن إلى حدٍ لانسبة بينه في شأنه وبين مخلوقاته. وهذه إحدى الصّفات التنزيهيّة الدّالة على الاستغناء. فالمقصود من (الكبير المتعال) الإشارة إلى رفعة شأن الله القادر على إفشال جميع مُخطّطات المُكذبين. (وسارب بالنهار) من سَرب أي مضى. مُعقبّات من عقب جاء بعقبه أي أن الملائكة يتعاقبون للمحافظة على محمد رسول الله (ﷺ) ـ معجم مفردات الرّاغب ـ. (من وال) من ولي الشي: قام به، وولي فلاناً: نصره، وولي فلاناً: أحبّه ـ معجم أقرب الموارد ـ فمعنى (وال) إذن النّصير والرّقيب والحفيظ.

وعلى أساسٍ من هذه المعاني تتضّح البنود العشرة التي تتجلّى على أساسها صفة (الحفيظ)، وهذه البنود هي :

أولاً ـ قوله تعالى ﴿**وكلّ شيء عنده بمقدار**﴾ يعني أنّ علمه يحيط بالأبعاد الثلاثة لكلّ شيء من الأشياء: الطول والعرض والارتفاع، وبالكمية والهويّة والشكل أيضاً.

ثانياً ـ وقوله تعالى ﴿**عالم الغيب والشهادة**﴾ يعني أنّ علم الله تعالى يشمل المشهود من الأشياء، وماهو غيب أيضاً.

ثالثاً ـ وهو (الكبير) أي صاحب العظمة والجبروت، ويتجلّى ذلك في حراسته وحفظه كل شيء يريد حفظه وحراسته.

رابعاً ـ وهو (المُتعال) أي المستغني والذي لانسبة بين غناه وقدراته، وبين غنى وقُدرات من سواه. ويتجلى ذلك أيضاً من خلال حراسته وحفظه لكل شيء يريده.

خامساً ـ وقوله تعالى ﴿**سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مُستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنهار**﴾ بمعنى أنه تعالى لايخشى ولايحسب حساباً للمتآمر أهدّد علناً على رؤوس الأشهاد، أو تآمر سرّاً أو أضمر السّوء.

سادساً ـ وقوله تعالى ﴿**لايغيّر الله مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم**﴾ أي يحرس ويحافظ على من يثبت على طاعة الله فلا يغيّر مافي نفسه.

سابعاً ـ قوله تعالى : ﴿**وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرّد له، ومالهم من دونه من وال.**﴾ أي إذا أحجم الله تعالى عن تأييد قوم وعن القيام بالمحافظة عليهم فلن يجدوا لهم من دونه نصيراً ولارقيباً ولاحفيظاً.

ثامناً ـ وقوله تعالى : ﴿**الذي يريكم البرق خوفاً ويُنشيء السّحاب الثّقال.**﴾ يعني أنّ على المتآمرين أن يعلموا أنّ أسباب كل شيء تعود إلى سلطان الله الكبير المتعال.

تاسعاً ـ وليعلموا أيضاً أنّ جلال الله مُهيمن على كل شيء فالرعد والملائكة يسبّحون من خيفته.

عاشراً ـ وقوله تعالى : ﴿**وهو شديد المحال**﴾ يعني أنّه إن شاء معاقبة الكائدين، يُعاقبهم وهم مشغولون في خصامهم ومجادلتهم حول وجوده عزوجلّ. فيصيبُهم بصواعقه، ولاتُخطئهم ضرباته، فتدبيره وكيده من الدّقة والقوّة بمكان، بحيث يستحيل أن يحول شيء ما دون نفاذه.

ولنعد الآن بذاكرتنا إلى قصّة يوسف عليه السّلام. هذه القصّة التي أجمعت على تفاصيلها الكتب السّماوية والأخبار الأرضية، حتى راح يُضرب بها الأمثال. ولنلاحظ من خلالها تجلّي الله "الحفيظ" وضمن المنهاج ذي البنود العشرة الآنفة الذكر.

فيوسف رأى رؤيا في حداثة سنّه. علماً بأنّ الرؤيا الصّادقة وحيٌ من وراء حجاب. ﴿**إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنّي رأيت أحَدَ عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يابُنيَ لاتقصُص رؤياك على إخوتك**

فيكيدوا لك كيداً، إنّ الشيّطان للإنسان عدوٌّ مبين. وكذلك يجتبيك ربُّك ويُعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتّمها على أبويْكَ من قبل إبراهيمَ وإسحاقَ، إنّ ربّك عليم حكيم. لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين.﴾. وهانحن من السائلين.

ونلاحظ أنّ الله تعالى أنبأ يوسف من خلال رؤياه التي أراه إيّاها عمّا سيصادفه من تآمر إخوته عليه، ووعده ربّه بالمحافظة عليه من تآمرهم وشرورهم، وترقيته إلى حدٍ يخضع معه إخوته ووالده بين يديه.

وتتملّك الذي يتلو سورة يوسف الدهشة أن يُلقيه إخوته في بئرٍ مُعطلّة بعيدة عن العمران. وتعثر عليه قافلةٌ مارّةٌ من هناك، وتنقذه، وتبيعه في مصر، إلى أن يستخدمه العزيز في بَلاطه. وتراوده زوجة العزيز عن نفسه ويأبى أن يعصي ربّه بالغيب، ويزجُّونه في السجن ظلماً وعُدواناً.

ويأخذ في تأويل أحلام السُّجناء إلى حدٍ يطير معه صيته في التأويل، ويصل ذلك إلى مسامع العزيز، فينادي على يوسف ليؤوّل له رؤياه المشهورة. ويقنع العزيز بتأويله ويجعله على خزانة التموين. حيث يتعرّف إليه إخوته أيّام القحط ويأتي بهم ويضمّهم إلى حاشيته، ليتحقّق ماوعد الله به يوسف الذي تضمنته رؤياه:

﴿**إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين.**﴾

ليتأكّد له أنّ المقصود من الكواكب الأحد عشر إخوته، ومن الشّمس والقمر والداه. وهكذا تبدو للعيان تجليّات صفة الله (الحفيظ). وبالتالي يثبت من هذه الوقائع والأحداث التي احتوتها قصّة يوسف عليه السّلام، أقول يثبت وجود الله عزوجلّ وأنّ من أسمائه الحُسنى "الحفيظ".

ولانذهب بعيداً في تقصّينا للوقائع والأحداث المتعلقة بتجليات صفة الحفيظ. فهذا القرآن الكريم الذي نتلوه يومياً، يُعتبر أكبر مثالٍ حيٍ محسوس يثبت من خلاله وجود الله "الحفيظ".

فلنعد إلى ماقبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ونُصغي إلى آيات سورة الحجر التي نزلت في السنوات الأولى للدعوة الإسلامية في مكّة المُكرّمة، حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿**وقالوا ياأيّها الذي نُزّل عليك الذّكر إنّك لمجنون. لوما**

تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين. ماننزّل الملائكة إلاّ بالحق وماكانوا إذاً مُنظرين. إنّا نحن نزلّنا الذّكر وإنّا له لحافظون.﴾.

فإن علمنا بأنّ معنى الذكّر في اللغة الشرف والرّفعة. تبيّن لنا أنّ الله عزوجل يشير هنا إلى أنّ تعاليم القرآن الكريم هي أساس شرف الإنسان ورفعته.

وهذه الآيات الكريمة نصّت صراحة على أنّ الله "الحفيظ" وعدنا بالمحافظة على وحيه القرآني مهما طالت الأيّام وتقلّبت الأحوال وتعددت السنون. وهو وعدٌ إلهيٌّ مُطلقٌ غير مُقيّد بقيد، على مايبدو من ألفاظه.

فماهي مُناسبة هذا الوعد الإلهي؟ مناسبته مطالبة المكذّبين برسالة محمد (ﷺ) والمستهزئين بما ينزل عليه من وحي، إلى جانب مُطالبتهم بمشاهدة الملائكة التي تنزل على محمّدٍ (ﷺ) بهذا الوحي القرآني، مُطالبةٌ هي من قبيل تعجيزه، وامتهاناً لقدرة الله الذي أرسله بهذا الوحي القرآني.

فهل كان يملك محمد (ﷺ) حقّ إصدار أوامره إلى ملائكة الله حتى يطالبه الذين كذبّوه بمثل هذه المطالبة؟

هذا، وقد اتّخذ الله تعالى "الحفيظ" مطالبة هؤلاء ذريعة ليُعلن هنا للنّاس كافة أنّه جلّ شأنه لايُنزل ملائكته إلا بالحق. والحق يعني لُغةً الأمر المقضّي والموجود الثابت والعدل والصدق والموت والحزم والمال والمُلك، وضدّ الباطِل، وإلى ذلك كله فهو اسم من أسماء الله الحسنى. وعليه يكون تعالى قد وضّح بقوله ﴿**ماننزّل الملائكة إلا بالحق**﴾.

بنود النّهج والقانون الذي يُنزل ملائكته بمُقتضاه. وهذه البنود هي:

أولاً ـ تنزل الملائكة لتنفيذ أمرٍ إلّهي مبرم.

ثانياً ـ وأن يتعلّق هذا الأمر بموجودٍ ثابت.

ثالثاً ـ وأن يكون هذا الأمر الإلهي عدلاً لاإجحاف فيه.

رابعاً ـ وألاّ يتعدّى هذا الأمر نطاق الصّدق.

خامساً ـ وأن يكون متعلّقاً أحياناً بموتٍ أو حياة.

سادساً ـ أو يكون متعلّقاً بمال ورزق، أو بملك فلان من العباد.

وهو تعالى وقد أوضح النّهج الذي ينزل ملائكته بموجبه أضاف قائلاً: ﴿**وماكانوا مُنظرين**﴾. أي ينزلون ولاتراهم أعين النّاس. كما أضاف

على ذلك وعده الصّريح بالمحافظة على وحيه القرآني من خلال قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾.

وهاقد مضى قُرابة أربعة عشر قرناً من الزّمان، وهذا القرآن الكريم الذّي أثبتُّ مصداقية مرجعيّتة في كتابي هذا، لايزال محفوظاً من أيّ تحريفٍ أو تبديل أو زيادةٍ أو نُقصان، ويتداوله جميع النّاس بالتّلاوة والإعجاب. هذا بالرّغم من جميع الأخطار التي جابهت وجوده سالماً وهدّدته بالزّوال. وقد تحقّق أمر المحافظة على هذا الوحي القرآني، وذلك مصداقاً لوعد الله "الحفيظ" الكبير المُتعال، الله الذي ينزل ملائكته لحراسته من جميع الأخطار التّي تتهدّده، وماكان ملائكة الله حين ينزلون لِمُهمّتهم بِمُنطرين.

وهذا عصرنا، وقد اخترعت فيه آلة طباعة مُتطّورة، قد ساعد على طباعة هذا القرآن العظيم بمليارات النُّسخ. وجميع نُسخه مطبوعةٌ على نُسخة عثمان التي وزّعها على الأمصار.

والمسلمون بالرّغم من التّخلف الذي وقعوا فيه، فهم يهتّمون بطباعة هذا القرآن الكريم بأرقى وأنفس أشكال الطّباعة، كما يتوازعون نُسَخَهُ هدايا بينهم، بل وتتباهى الفتيات بتعليقه على صدورهن، وبتزيين الجُدران بآياته الكريمة. فهل حدث هذا كلّه ويحدث ياتُرى مصادفة واتّفاقاً؟ أم يحدث مصداقاً لقوله ووعده عزوجلّ: ﴿ **إنّا نحن نزلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾؟

فها أنّ الله "الحفيظ" أوفى بوعده الذي وعده في سورة الجمعة. وبعث أيضاً في ﴿**الآخرين منهم لّما يلحقوا بهم**﴾ أعظم مُجدّدي هذه الأمة، فوضع على يديه لبنة إعادة مجد الإسلام. وأوفى بذلك بوعده الذي وعده في موضع آخر من كتابه ﴿**ثمّ إنّ علينا بيانه.**﴾ ـ القيامة ١٧ ـ على يدي هذا المجدّد أيضاً. فسبحان الله عالم الغيب والشّهادة الكبير المُتعال.

وإلى مثال آخر يثبت من خلاله وجود الله "الحفيظ". وهو مثال وعد الله فيه بحراسة وحفظ نبيّه محمد (ﷺ) ﴿**والله يعصمك من النّاس**﴾. هذا الوعد الذي مكّن محمداً (ﷺ) من إتمام رسالته وتوديع أمّته بخطبة الوَداع، ومن ثم توفّى الله محمداً رسوله وفاةً طبيعيّة، ووفق نبوءات الكتب السماوية السّابقة أيضاً الواردة إحداها في سفر التّثنية ١٨/١٨.

ولنُطالع الآية (٦٧) من سورة السّجدة التّي نصّت على الوعد بالمحافظة على حياة محمد بن عبد الله (ﷺ)، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿**يأيّها الرّسول بلّغ ماأُنزل إليك من ربّك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إنّ الله لايهدي القوم الكافرين.**﴾. وهذا الوعد اشتمل على الأمور الثّلاثة التالية:

الأوّل: هو أنّ هذا الوحي قد اشترط على محمد رسول الله (ﷺ) ألاّ ينكُصَ على عقبيه، وألاّ يتراجع عن نشر وتبليغ دعوة ربّه. وإشارةً إلى هذا الأمر ورد قوله تعالى: ﴿**يأيّها الرّسول بلّغ ماأُنزل إليك من ربّك، وإنْ لم تفعل فما بلّغت رسالته.**﴾.

الثاني : والأمر الثّاني هو أنّ الله تعالى وعد محمداً في مقابل ذلك بحراسة شخصه الكريم والمحافظة على حياته. وإلى هذا الأمر أشار تعالى بقوله : ﴿**والله يعصمك من النّاس.**﴾، ومعنى عَصَمَ الله فُلاناً، حفظَهُ من المكروه ووقاه.

الثالث : والأمر الثالث الذي اشتملت عليه هذه الآية الكريمة، هو الإشارة إلى قانون قدري مُبرم مسنون. وهو أنّ الله تعالى لايهدي الكافرين إلى الوسائل النّاجعة الّتي تساعدهم على النّجاح في محاربة الرُّسل الكرام، والفوز عليهم. بل إنّه تعالى يُزيغ أفئدتهم وعقولهم ويعمي أبصارهم ويضلّل مُخططّاتهم، فلا يدعهم يفلحون في أغراضهم.

فمن هذه الأمور التي اشتملت عليها الآية من سورة السّجدة، نُدرك ورود نص صريح العبارة بحراسة شخص محمد اليتيم الأمّي والمحافظة على حياته وتوفيته وفاةً طبيعيّة.

ومن لايدري بالمؤامرات الخطرة التي حاكها المشركون وسواهم لقتل محمّدٍ (ﷺ) والقضاء على دعوته؟ وهل يشك باحث في أمر نجاة هذا الرسول الكريم من جميع هذه المؤامرات؟

أفلم يتآمر المشركون آخر سنوات الدّعوة في مكّة المكرمة، أن يقتلوا محمداً (ﷺ) ويضيّعوا دمه بين جميع القبائل العربية؟ فجمعوا لتحقيق مقصدهم

الدنيء هذا مندوباً عن كلّ قبيلة عربيّة، وأحاطوا سرّاً بدار رسول الله لينقضّوا عليه صباحاً حين يغادر منزله ويقضوا عليه؟

أفلم ترو لنا الأخبار كيف أطلع الله تعالى رسوله الكريم على خيوط مؤامرة هؤلاء، وأمره بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها وبرفقته صاحبه أبو بكر الصّديق رضي الله عنه. وخلال الهجرة وهما في طريقهما إلى المدينة المُنورة، طاردوه بقيادة أشهر قفّاء للأثر يومذاك.

وقد كان يُفترض بالقفّاء أن يُطلّ داخل الغار، الذي كان مكشوفاً لناظرية. فلِمَ لم يفعل، بل وتلفّت يُمنةً ويُسرةً، وأطلق كلمته المشهورة: (إمّا أن يكون محمّد داخل هذا الغار، وإمّا أن يكون قد صعد من هنا إلى السّماء.) سيرة ابن هشام.

فلقد كان من أبسط مايقتضيه العقل والمنطق في تلك اللّحظات الحرجة أن يُطلّ ولو واحدٌ من الذين يطاردون محمداً ليمسكوه ويقتلوه، أن يُطلّ إلى داخل الغار، ولو على سبيل الاطّلاع. فلو أطلّ أحدهم لاكتشفوا وجود رسول الله وصاحبه داخل الغار. فمن الذي شلّ أجهزة تفكير هؤلاء المتآمرين؟ إلاّ أن تكون ملائكة الله قد شلّت تفكير هؤلاء جميعهم، وأزاغت قلوبهم وأذهانهم وأعْمَتْ أبصارهم عن ذلك؟

من الناس العفويّين من يزعم أنّ خيوط العنكبوت كانت قد سدّت فوهة الغار. أقول : وهل كان هؤلاء المشركون يجهلون وجود العناكب الكبيرة الهرمة في مثل تلك الأمكنة المهجورة، تلك العناكب التي ماإن يخرق أحدٌ شباكها، إلاّ وتسارع إلى ترميم شباكها لاصطياد فرائسها؟

ثم أو لم يقل القفّاء لهؤلاء المتآمرين (إمّا أن يكون محمد داخل الغار، أو يكون قد صعد من هنا إلى السّماء)؟ ففي هذه الألفاظ حثٌّ للنظر داخل الغار. فما هذا الجمود في التفكير الذي أصابهم، إلاّ أن يحدث بتدخّلٍ من ملائكة الله عز وجلّ؟

وفي داخل الغار، وفي تلك اللحظات الحاسمة، سمع أبو بكر كلمات رسول الله (ﷺ) يقول له، وقد شعر بتغيّر ملامحه: (لاتحزن إنّ الله معنا).

وهل يتلفّظ بمثل هذه الألفاظ إلاّ من كان على يقين جازم من وعد ربّه إياه بالمحافظة على حياته. هذا الوعد الذي نصّ عليه قوله تعالى : ﴿والله

يعصمك من النّاس﴾. وعلى يقين جازم أيضاً أنّ ملائكة ربّه تنزل الآن لتضلّ أذهان المتآمرين وتزيغ قلوبهم وتعمي أبصارهم؟ هذا اليقين الذي نشأ عن قوله تعالى: ﴿**له مُعقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله.**﴾.

وعليه، فإن دلّت هذه الوقائع والأحداث وأمثالها على شيء، فإنّما تثبت وجود الله (الحفيظ)، الذي إذا وعد أن يحفظ أحداً من شرور أعدائه ويحرسه، يحفظه ويحرسه بأدقّ الوسائل التي لاتدركها الأبصار. خصوصاً وأنّ الله تعالى هو عالم الغيب والشّهادة الكبير المُتعال.

فمن خلال هذه الوقائع والأحداث التاريخية التي أتينا على ذكرها يتأكّد لكل عاقلٍ مفكّر وباحث أنّها جميعها تثبت وجود خالق هذا الكون ومُدبّره، واتّصافه أيضاً بصفة "الحفيظ". وتكون صفة الحفيظ بذلك دليلاً محسوساً من الأدلة التي تثبت وجود الله عزّ وجلّ.

❀❀❀

الفصل الرابع ـ ثالثاً : الأدلة السلوكية المطمئنة

١ً ـ دليل الانتظار والترقُّب

بعدما أسلفت بطرح الأدلّة التي تثبت وجود الله تعالى، على شاكلة مايفعله الفلاسفة، ولاباصطلاحاتهم أيضاً. وكنت أستقي أدلّتي النّبوتيّة ممّا اشتملت عليه آي الذّكر الحكيم. الكتاب الذي سبق لي إثبات مصداقية مرجعيّته وأنّه وحي ربّ العالمين أوحي به إلى محمد بن عبد الله اليتيم الأمّي وخاتم النبيّين (ﷺ)، وليكون رحمة للنّاس كافة إلى يوم الدّين.

أقول : إنّ من مظاهر كمال القرآن الكريم أنّه يُمدّ المتدّبرين في كلّ زمان ومكان بما يناسب عصرهم من أدلّة وعلوم وبراهين مخبأةٍ في ثنايا آياته الكريمة، وليزداد بذلك في أعين النّاس مهابةً وتعظيماً. ولاتأتي أدلّة القرآن هذه التي يثبت منها وجود الله تعالى الذي أنزلها، هكذا لارابطة بينها. بل سبق لي أن أثبّت أنّها جميعها مُنزلةٌ وفق منهاج علمي وقوانين. هذا الأمر الذي لم يسبق لأي كتابٍ سماويّ امتاز به من قبل إنزال القرآن الكريم.

ولابُدّ أنّ المتابعَ لمواضيع هذا الكتاب قد لاحظ كيف أنّ نهج الاستدلال على وجود الله تعالى، قد اشتمل على ثلاثة أنواعٍ من الأدّلة :

أما **النوع الأول** : فهو عبارة عن أدلّةٍ ذهنيّة مُستقاة من عناصر طبيعيّة والتي تؤلف هذا الكون المادّي من حولنا. وهي أدلّة تتلاءم مع مُختلف مستويات الأفهام والإدراك. فمنها البسيط ومنها المركّب من عناصر عدّة. وكان الغرض من هذا النوع الأوّل من الأدلّة، مساعدة عقولنا وأفهامنا على ترجيح اعتبار هذا الكون مخلوقاً، وأنّ له خالقاً أيضاً.

وأمّا **النوع الثاني** : من هذه الأدلّة، فقد أمدّتنا به الوقائع والأحداث المحسوسة التي تجلّت بها أسماء الله الحسنى، وعدد هذا النوع من الأدلة يوازي عدد أسماء الله تعالى ذاتها.

وأمّا **النوع الثالث** : من هـذه الأدلـة، فهـو أدلّـةٌ سلوكية تتطلّـب مـن الإنسان سلوك طريق مُحدّدٍ بغاية التعرّف علـى خالقـه وخـالق هـذا الكـون مـن حوله. فمن هذه الخطوات السلوكية ماهو سلبيٌّ ومنها ماهو إيجابي.

وهذا النّوع السّلوكي من الأدلّـة، ينقـل المـرء نقلـةً نوعيّـةً، وبأسـلوبٍ علمي، ليصل به إلى مرحلة الإطمئنان والتّيقّن بوجود ربّه عزوجلّ. بـل وبالتـالي التعـرّف عليـه ويصـل بذلـك شـاطىء الأمـان. مصداقـاً لقولـه تعـالى: ﴿**والذيـن جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلَنا، وإنّ الله مع المحسنين.**﴾ ـ العنكبوت ٦٩ ـ

والسّؤال الذي يطرح نفسه هنا هـو : لمـاذا اصطلحـت أنـا لهـذا النّـوع الثالث من الأدلّة اسم الأدلّة السّلوكية؟

أقول : إنّ كلمة (سلوكيّة) مشـتقة مـن السـلوك. تقـول سـلك المكـان يسلكه سلوكاً : دخل فيه. وكذا سلك الطرّيـق : دخلـه وسـار فيـه مُتبّعـاً إيّـاه. ويُسمى الإنسان حينئذ : السّالك. وسـلك الشـيء في شـيءٍ آخـر : أدخلـه فيـه، كما نسلك أيدينا في جيوبنا، وقد أورد القرآن الكريم هذا اللّفظ في قولـه تعـالى: ﴿**سلكناه في قلوب المُجرمين.**﴾. (محيط المحيط)

وعليه فالسّالك هو الإنسان الذي أقدم علـى خطـواتٍ إيجابيّـةٍ للوصـول إلى أمرٍ انجذب إليه وأراد بلوغه والوصول إليـه. وهـذا ماقصدتُـه بمصطلـح الأدلّـة السلوكيّة.

وفي الحقيقة فإنّ الأدلّة الترجيحيّة، ماهي إلاّ حصيلـة مُحاكمـات ذهنيـة واستنتاجات لايكون من شأنها أن تصل بالإنسان إلى مرحلـة الاطمئنـان القلبي، بل تصل به إلى مرحلة ترجيحٍ ذهنيّة ليس إلاّ.

وعلى سبيل المثال، فإن وقف أحدُنا يبرهن لآخر عن وجود إنسان مـافي أحد البيوت، وقدّم له مئات الأدلة على ادعائـه. فـلا تـوازي أدلّتـه هـذه ماتحدثـه مشاهدته هذا الإنسان المبرهن على وجوده ، بأمّ عينيه.

وهذا الفرق في العلم اقتضى أن يقدّم الله تعالى للمحقّق أدلّـةً مـن نـوعٍ آخر وهو ماسمّيناه بالأدلة السّلوكية التي تتجاوز مرحلة المحاكمات الذهنية وتنقـل إلى مرحلة الاطمئنان القلبي. علماً بأنّ الأدلة السلوكية أنواع :

فمنها مانقدّمه لإنسان يسعى للمعاجزة فحسب، ومنها مانقدّمه لإنسان كافر يطلب الحقيقة . ومنها مايُلزم المؤمن بسلوكه بعد إيمانه.

ولنبدأ بالكلام عن الدّليل السّلوكي الذي يقدّم لإنسان كافر بالإسلام، ومُقلّدٍ لآبائه وأجداده دون محاكمة منه لعقائدهم، والذي يُريد المعاجزة في أسئلته، الذي يرى كلّ آيةٍ فلا يؤمن بها، ويثابر على المطالبة بمشاهدة مايثبت وجود الله وصدق رسوله الكريم. وهذا القسم من الناس وصفهم الله تعالى في الآية (١٧٩) من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿**ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لايفقهون بها ولهم أعينٌ لايُبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون.**﴾.

ومن مظاهر رحمة الله الواسعة أنّه تعالى لم يهمل تقديم الدليل المناسب لهذه الفئة الكافرة المقلّدة من الناس، بل قدّم لهؤلاء دليلاً سلوكيّاً، إنْ سعوا للاستفادة منه وُهبوا البصيرة وكانوا من المؤمنين.

وخلاصة هذا الدّليل السّلوكي أن تطلب من هذا القسم من الناس أن يسلك الواحد منهم موقف الحياد من دعوة الحقّ ومن أهلها، وأن يُراقبوا تطوّرات الأحداث عن بُعد، فلا يلزمون جانباً دون جانب. وأن ينتظروا ظهور النتائج. فلابدّ أن تكون العاقبة للمُتقّين. أما إذا لم يلتزموا الحياد، وانضموا إلى صفوف من يُقاتل جماعة المؤمنين أصحاب دعوة الحقّ ويشاققوا الرسول، فلابد أن يُنزل الله جل شأنه العذاب بساحة هؤلاء المكذّبين المُتعجّلين.

والله عزوجلّ عندما أوصى هؤلاء بسلوك طريق هذا الدليل، فليكشف لهم عن واسع رحمته عزوجلّ. والمؤسف أنّ أكثرية هذا القسم من النّاس يقفون مواقف غريزية حيوانية لأن لهم قلوباً لايفقهون بها ولهم أعين لايُبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون.

هذا الدليل السلوكي تضمّنته الآية (٢١) من سورة يونس وهو قوله تعالى: ﴿**ويقولون لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه، فقل إنّما الغيب لله، فانتظروا إني معكم من المنتظرين.**﴾. وهو تعالى أراد هنا الكلام من خلال (ويقولون) عن فئة المقلّدين المُعاجزين. وقصد من قولهم ﴿**لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه**﴾ استعجالهم للعذاب، ليكون في نظرهم دليلاً على وجود الله وصدق رسوله الكريم. ذلك أنّ (الآية) تعني لغةً الدّليل والبرهان. بمعنى أنهم يُطالبون باستعجال العذاب الذي أنذرهم به رسول الله (ﷺ). ولم يكن القصد من طلب إنزال

(آية)، طلب إنزال آيةٍ قرآنية. فالآيات القرآنية كانت تنزل تترى كل يوم، وتصل أخبارها إلى مسامع هؤلاء الكافرين أيضاً. والمقصود من الآية هنا تقديم دليلٍ وبرهانٍ من ربّه. واستعير الدليل هنا للعذاب.

بدليل قوله بعد ذلك: ﴿**فقل إنّما الغيب لله**﴾ أي أنّ توقيت إنزال العذاب بكم هو أمرٌ غيبيّ، ولايعلم الغيب إلا الله. ولايُجليّه إلا هو. وقد أتى جلّ شأنه بعدها بفاء الاستئناف وقال: ﴿**فانتظروا إنّي معكم من المُنتظرين**.﴾. وهذه الألفاظ اشتملت في حقيقتها على الدليل السّلوكي.

وكأنّ الله عزوجلّ يتوجّه من خلال دليله السّلوكي هذا للسؤال من فئة المقلّدين هؤلاء، ويقول لهم : لماذا تستعجلون نزول العذاب؟ فإن نزل بكم العذاب يقضي عليكم وأنتم في بعدٍ عن تبيّن وجود الله وصدق رسوله.

ومن واجبكم أن تعالجوا الأمر بمنطقٍ وحكمة فتسلكوا على الأقل سبيل الانتظار والحياد في هذه القضيّة.

والانتظار في اللغة من انتظر أي ترقّب وتوقّع، أي أن تسلكوا سبيل الترقّب والتوقّع انتظاراً لظهور نتائج تطورات الأحداث، فيعود في أيديكم حينذاك دليل بيّنٍ واضح يثبت منه صدق الإعلان عن وجود الله الحيّ القيّوم الذي بعث محمداً برسالة الحق. ويعود المجال أمامكم فسيحاً لتؤمنوا فلا تخسروا دنياكم وآخرتكم. فإن ثبت العكس فلا تكونون بانتظاركم وحيادكم قد خسرتم شيئاً، بأيّ حال من الأحوال.

ولم يكتف جلّ شأنه بهذا الوجه من الرحمة، بل أضاف قوله : ﴿**إنّي معكم من المُنتظرين**﴾. وحرف (إنّي) أتى به تعالى هنا للتأكيد وليقول بألفاظٍ أخرى أنّ رسوله الكريم مضطربٌ لظهور نتائج الأحداث أكثر ممّا أنتم مضطربون.

والمعنى أن أيّها الحمقى، مادام رسولنا مُنتظراً ظهور النتائج والعواقب، فلماذا يثقلُ عليكم سلوك سبيل التّرقب والانتظار؟

المهمّ هو أن المؤمن الذي يصادف إنساناً تقليدياً لايستعمل مواهبه ولاحواسه، ويلاحظ أن هذا الإنسان يُعاجز بطلب الدّليل على صدق مايدعوه إليه. فلا وسيلة لديه إلاّ بإلزامه بسلوك سبيل هذا الدّليل السّلوكي ومطالبته بالحياد والانتظار. والدّعاء له من الله الهادي أن يُلهمه سبيل الرشّاد.

فلو وقف أبو جهل من دعوة محمد رسول الله موقفاً محايداً، وانتظر تطورات الأحداث ونتائجها، فلربّما كان صان نفسه من المصير الذي آل إليه في معركة بدر الكبرى. وهذا ابنه عكرمة الذي تحقّق فتح مكّة في حياته قد كتبت له عاقبة النّجاة والهداية.

وهكذا فالمقلّد الذي لايستعجل العذاب ويترقّب عواقب الأمور ويسلك سبيل هذا الدليل السّلوكي، تشمله رحمة الله تعالى ويكون من المهتدين.

هذا الدليل السّلوكي ورد في عدة مواضع من كتاب الله العزيز اقتضاها التّسلسل الموضوعي. فقد أورده تعالى في الآية (٧١) من سورة الأعراف وبتوسّع قليل عمّا رأيناه، حيث قال: ﴿**قالوا أجئتنا لنعبُدَ الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين ـ أي بما تعدنا من العذاب ـ قال قد وقع عليكم من ربّكم رجسٌ وغضب، أتجادلونني في أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم مانزّل الله بها من سلطان، فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين. فأنجيناه والّذين معه برحمةٍ منّا، وقطعنا دابر الذّين كذّبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين.**﴾.

وأدلى تعالى بهذا الدّليل السّلوكي بأسلوب آخر في الآية (١٠٢) من سورة يونس حيث قال: ﴿**قل انظروا ماذا في السّموات والأرض، وماتُغني الآيات والنّذر عن قومٍ لايؤمنون. فهل تنظرون إلاّ مثل أيّام الذّين خلوا من قبلهم، قل انتظروا إنّي معكم من المنتظرين.**﴾ بمعنى أن الباحث عن الحقيقة، يدأب على تقليب الأمور على أوجهها، ويراقب ماتأتي به السموات والأرض من تطوّرات وتقلّبات، فلا يستعجل عذاب الله، إلاّ أن يكون كافراً مقلّداً لآبائه وأجداده ويُعاجز رسل الله تعالى. ولايعتبر بعواقب الأمم من قبله ولابمصيرهم السّيء الذي آلوا إليه: ﴿**فهل تنظرون إلاّ مثل أيام الذين خلَوا من قبلهم.**﴾؟ ومن ثم حذّر الله تعالى هؤلاء ونصحهم بالأخذ بها بسلوك هذا الدليل السّلوكي رحمة بأنفسهم وقال: ﴿**قل انتظروا إني معكم من المنتظرين.**﴾.

وكذلك أدلى تعالى بهذا الدليل السّلوكي في الآية (١٢٢) من سورة هود، حيث قال: ﴿**وقل للذّين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم، إنا عاملون. وانتظروا إنّا منتظرون. ولله غيب السموات والأرض وإليه يُرجع الأمر كلّه، فاعبده وتوكّل عليه، وماربّك بغافلٍ عمّا تعملون.**﴾. أي اعملوا على ماتعتقدونه ونحن نعمل على مانعتقد. ﴿**وانتظروا إنّا منتظرون**﴾ أي والزموا

جانب الحياد وراقبوا تطورات الأحداث من بعيد، ونحن بانتظار عواقب الأمور أكثر ممّا أنتم فيه من لهفةٍ واضطراب. ﴿**و لله غيب السموات والأرض وإليه يُرجع الأمر كلّه.**﴾ أي أنّ النتائج بيد الله تعالى يُجليّها لوقتها متى شاء. ومادام الله موجوداً، فالمعقول أن يُرجع الأمر كلّه لله عزوجل. ﴿**فاعبده وتوكّل عليه وماربّك بغافلٍ عمّا تعملون.**﴾.

وبذلك نكون قد أحطنا علماً بالدليل السّلوكي الأوّل الذي يهب السّالك وفق مضمونه علم اليقين. والذي يواجه به الإنسان المؤمن الإنسان المُكذّب المقلّد ممن يقولون إنّا وجدنا آباءنا على ملّةٍ وإنّا على آثارهم مُقتدون. أولئك الذين لايستعملون عقولهم، ولايستفتون أفئدتهم. فمن واجب المؤمن أن يطالب ويحثّ هؤلاء للوقوف موقف المحايد المراقب، وإلاّ فلا تجدي مع هؤلاء الجهود والأوقات تُبذل لغير هذا السبيل.

٢ ـ الدليل الثاني ـ دليل الاستعانة بالدّعاء

والدليل السلوكي الثاني الذي يثبت منه وجود الله عزّ وجلّ. هو دليل سلوك طريق الدّعاء. وقد صرّحت بهذا الدّليل السلوكي الآية (٦٠) من سورة غافر، من خلال قوله تعالى: ﴿**وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم، إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.**﴾. أي أنّ الذي يدعو الله أن يكشف له عن وجوده متذلّلاً ومتواضعاً، يستجيب له الله ويبلغ بعلمه في هذا المجال عين اليقين، إنما ينبغي أن يدعو غير مستكبر، ويجيبه ربّه وفق منهاج وقانون.

وهذا المنهاج والقانون اشتمل عليه قوله تعالى في نفس الآية الكريمة : ﴿**إنّ الذّين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.**﴾.

فما معنى الدّعاء في اللغة العربية بادىء ذي بدء؟ تقول دعا الله يدعوه أي رغب إليه وابتهل بالسؤال بين يديه ورغب فيما عنده من خير (محيط المحيط) فالمقصود من (ادعوني) ارغبوا إليّ، وميلوا للسّؤال مني، وابتهلوا بين يديّ، وارغبوا فيما عندي من خير.

والملاحظ أنه تعالى إذ قال: ﴿**وقال ربّكم**﴾ أتى بصفة الربوبيّة. والرّب في اللغة هو الذي يطوّر الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرتبة الكمال

والتمام[1] . إشعاراً منه تعالى إيّانا أنه يدفعنا لسلوك طريق الدّعاء بدافع ربوبيّته. فإن استنكف المرء عن سلوك هذا السّبيل، يُعتبر في نظر ربّه عزّوجلّ مُستكبراً، ويحقّ عليه قوله: ﴿**إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.**﴾، أي صاغرين.

والسؤال المطروح هنا: لأيّة فئة من النّاس وُجّه هذا الدليل السلوكي؟ وجوابه يبدو واضحاً من كلمة (ربّكم). ذلك أن من نقلناه ذهنيّاً إلى مرحلة ترجيح وجود الله تعالى عن طريق أدلتنا الذهنيّة التي سبق أن طرحناها. فقد أصبح هذا الإنسان بحاجة إلى دليلٍ ينقله نقلةً نوعيةً على طريق الإيمان بالله والتثبّت من وجوده عزوجلّ.

وهذا الدليل السّلوكي أي سلوك طريق الدّعاء أي الرّغبة والعودة إلى الله الرّب والابتهال بين يديه متذلّلاً متضرعاً، وطلب التثبّت من وجوده ونيل ماعنده من خير، هو الذي سيساعد هذا الإنسان كدليل بين يديه وفي متناوله، يساعده على الانتقال النقلة النوعيّة المطلوبة.

ولنلاحظ أن الله جلّ شأنه لم يعلّمنا أن ندعو طالبين رؤيته تعالى، بل علّمنا الاستفادة من ربوبيته بطريق الدّعاء. لاستحالة رؤية الله عزوجلّ.

فهو قال: ﴿**لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.**﴾ بمعنى أنّ أبصار الإنسان لاتدرك إلا الأشياء المادية ذات الحيّز المنظور. بينما الله تعالى منزّهٌ وجوده عن التحيّز المادي للطافته عزوجل ﴿**وهو اللطيف**﴾. لذلك يستحيل على عين الإنسان رؤية بارئها. وهو تعالى، مع لطافته فهو يدرك هذه الأبصار لكونه (الخبير) أي الذي يملك وسائل رؤية هذا البشر المخلوق.

وكأنه تعالى يخاطبنا بقوله : لاتعجبوا إن كنت لم اعلمكم سلوك طريق رؤيتي. فذاتي لاتُرى مباشرة بل أكشف عن وجودي بكلامي معكم وبآثار تجليّاتي.

والحقيقة المعلومة هو أنّها توجد في عالمنا المادي أشياء كثيرة لاتُرى إلاّ بآثارها. لذلك، لانستغرب أن يقول تعالى عن ذاته: ﴿**لاتُدركه الأبصار وهو**

---

[1] ـ أقرب الموارد

يدرك الأبصار..﴾. فالمغناطيس على سبيل المثال لايُدرك وُجوده إلا من خلال جذبه لبرادة الحديد.

ثم إنّ الحواس الخمس ليست هي وحدها وسيلة التحقّق من وجود شيء ما. فهناك طريق القياس مثلاً. فنحن لاندرك أنّ فلاناً غاضباً بإحدى حواسنا الخمس. بل ندركه من خلال مايرتسم على وجهه من قَسَمات. وقيسوا على ذلك علامات الألم والسرّور وسواها من الحالات. كذلك فإنّ الأشياء التي تدرك بالحواس، منها ماتدركه العيون ومنها لاتدركه العيون كالإحساس الداخليّ للإنسان.

وعليه فالله جلّ شأنه يستحيل علينا أن ندركه ونراه بأبصارنا. وكل مانستطيعه، فهو إدراك وجوده من خلال تجلّياته وكلامه. ولاتُعتبر رؤية الذات الإلهية شرطاً للإيمان به تعالى. وإنّ من الجهالة بمكان أن يشترط امرؤ رؤية الله تعالى للإقرار بوجود ربّه عزوجلّ. ومن هنا تتجلّى لأعيننا أهمية هذا الدّليل السّلوكي الذي يدور مضمونه حول الدّعاء طلباً لإثبات وجود الخلاق جلّ شأنه للإيمان به.

ذلك أن الإنسان الذي رجّحت الأدلّة الذهنية لديه وجود خالق لهذا الكون وأحبّ الانتقال من تلك المرحلة نقلةً نوعيّةً يعلم معها حقّ العلم وجود هذا الخالق، لايجد أمامه سوى الأخذ بهذا الدليل السلوكي الثاني ونهجه وقانونه.

أن يقف بين يديّ ربّه يدعوه أن يكشف له عن وجوده تعالى، وآخذاً بحسبانه عند الدّعاء أنّه وقف بين يدي الله الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سِنةٌ ولانوم، مالك السموات والأرض ومابينهما، وعالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. أن يتصوّر عظمة الله جل شأنه وذلك على ضوء ماأطلعنا القرآن الكريم عليه من أسماءَ حُسنى لله. ومُعترفاً بضعفه بين يديه وباحتياجه إليه عزوجلّ. والله تعالى نفسه هو الذي علّمنا أن ندعو: ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾. فإن استوعب هذا السّالك الداعي جميع هذه التصّورات، معترفاً بذنوبه، ومتواضعاً مُبتهلاً، فلابدّ أن يستجيب له ربّه دعاءه، فلا يتركه يرتدّ خائباً، إنّما على هذا الإنسان السّالك أن يضع بحسبانه أنّ ربّه يجيبه ولكن من مُنطلق كونه حكيماً خبيراً.

فهذه هي عناصر نهج وقانون الدّعاء الذي يتطلبه هذا الدليل السّلوكي. فإن سلك المرء طريقاً يغاير هذه العناصر وهذا النهج في دعائه، وما قدَرَ الله حق قدره عند الدّعاء، فلاينبغي له أن يتأفف من بعد ويقول ها أني دعوت، فلم أر شيئاً يذكر. ذلك لأنه حقّ عليه قوله تعالى: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين.**﴾.

والذي يستكبر عن الدعاء متذلّلاً بين يدي ربه، فمن الأفضل له أن يلتزم الحياد والترقّب تجاه الدعوات السّماوية، ويستفيد بذلك من بركات الدّليل الأول السلوكي.

٣ ـ الدليل الثالث ـ دليل حقّ اليقين

إنّ من يتلو سورة التّكاثر، لابدّ أن يلاحظ من خلال قوله تعالى: ﴿**ثمّ كلا سوف تعلمون. كلاّ لو تعلمون علم اليقين. لَتَرَوُنّ الجحيم. ثم لَترونها عين اليقين.**﴾ أن يلاحظ في هذه الآيات الكريمة اصطلاح (علم اليقين، وعين اليقين). وفي آخر سورة الواقعة قال: ﴿**إنّ هذا لهو حقّ اليقين. فسبّح باسم ربّك العظيم.**﴾ وفي هذه الآية اصطلاح (حقّ اليقين).

إنّ هذه الاصطلاحات القرآنية تنبع عن حقائق واقعية، وهي أن هذه المُصطلحات تقسّم العلم إلى ثلاثة مستويات. فكلمة (يقين) تعني إزاحة الشّك والرّيب بطريق النّظر والاستدلال في الأمور. وكلمة (علم) تُفيد معنى الإدراك الإجمالي أو الجزئي بصورة عامة. ويكون معنى (علم اليقين) أي إزاحة الشّك عن أمر من الأمور بطريق النّظر والاستدلال بصورة إجمالية. وتُعبّر آية (كلا لو تعلّمون علم اليقين) في هذه الحالة الإشارة إلى أن علم اليقين هو مجرّد عملية محاكمة ذهنيّة لأقلّ ولأكثر. أي لو تُحاكمون الأمر ذهنياً ﴿**لترونّ الجحيم**﴾. من هذا ندرك أنّ الدّليل السلوكي الأول الذي دعا إلى الحياد والترقّب، يكون قد دعا إلى إجراء عمليةٍ ذهنيّةٍ بنتيجة هذا الترقّب والحياد والانتظار للخروج بنتيجةٍ محدّدة تكون من قبيل علم اليقين.

ثم إنّ اصطلاح علم (عين اليقين) الذي تضّمنته الآية: ﴿**ثم لترونّها عين اليقين.**﴾ هو مرتبة علم أسمى من مرتبة (علم اليقين) لتدخّل عنصر الرؤية فيه.

وهو العلم الذي اعتمده الدليل السّلوكي الثاني كنتيجة مؤكّدة لسلوك طريق الدّعاء. وهو ماسيراه النائم في منامه بعد الدّعاء والاستكانة إلى النّوم.

وأما الدليل السلوكي الثالث الذي نحن الآن بصدد الكلام عنه فيدخل في أعلى مراتب العلم، وهو مااصطلح القرآن الكريم على تسميته في سورة الواقعة (علم حقّ اليقين).

ومجدّد زماننا نبّهنا إلى هذا التقسيم لمراتب العلم، وضرب لنا مثالاً على ذلك أيضاً. وهو أن المرء إذا شاهد دُخاناً من مكان بعيد. يستدل نتيجة محاكمة ذهنية، ومن خلال ملاحظته يومياً انبعاث الدّخان عن النّار، يستدلّ من ذلك وجود نار في مكان الدُّخان المُتصاعد وعلمه هذا علم اليقين.

فإن سار هذا الشخص، واقترب من موقع الدّخان المُتصاعد، وشاهد بأمّ عينهِ النّار المشتعلة هناك، فعلمه ذو مرتبة أسمى من علم اليقين، وقد أطلق القرآن الكريم عليه مُصطلح علم (عين اليقين). ولنفرض أن هذا الإنسان شاهد النّار فمدّ إصبعه يتحسّس حرارتها ولسعته بلهيبها. فعلمه الجديد الحاصل هو أسمى مراتب العلم، وهو مااصطلح له القرآن الكريم مُصطلح علم (حقّ اليقين). وهو علمٌ ينتفي معه كلّ شكّ وريب. ويكسب الإنسان حين الحصول على مرتبة هذا العلم اطمئناناً كاملاً. وإنّ دليلنا السّلوكي الثالث هو من قبيل الدعوة إلى تحصيل هذه المرتبة من العلم. وهي الوصول في موضوع التثبّت من وجود الله تعالى مرتبة علم (حقّ اليقين).

من هذا نُدرك السّبب في توجّه الله عزوجلّ بتقديم هذا الدليل السلوكي الثالث في خطابه المُوجّه إلى عباده المؤمنين الذّين قطعوا مرحلتي العلم السّابقتين، وكانوا من المؤمنين بوجود الله خالقهم نتيجة مُحاكمات ذهنيّةٍ ودُعاء ورؤية عينيّةٍ، وعادوا بشوق إلى معرفة ربّهم معرفة (حقّ اليقين). وقد شاء الله عزّوجلّ أنْ يأخذ بأيدي هذه الفئة المؤمنة ويُسبغ عليهم من عطائه ونعمائه ويجعلهم من المقرّبين لديه. وهكذا تطمئن قلوبهم بربّهم وتأنس بعطاياه ولايعود يساورهم أي شك أو رَيْبٍ بوجوده تعالى ويكونون بالتالي من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وذلك هو الفوز المبين.

وقد اشتملت على الدّليل السّلوكي الثالث الآية (١٨٦) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها، من بعد كلامه عن فريضة الصّوم: ﴿**وإذا سألك**

عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.﴾. فما معنى : ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي**﴾؟.

إنّ الواو هنا هي واو العطف. بمعنى إذا صام الذين آمنوا مستجيبين لفريضة شهر الصيّام وسألوك أن تبيّن لهم دلالة ﴿**لعلّكم تتقّون**﴾ هذه الألفاظ التي ذيّل تعالى بها الآية هناك، وهي تتضّمن الحكمة من الصّوم، ﴿**فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان..**﴾.

وسألك: من سأل أي استخبر. فسألك تفيد هنا الاستخبار لتعدّي الفعل سأل إلى المفعول الأول بنفسه، وتعدّيه إلى المفعول الثاني بحرف (عن). ونبهّنا اللّغويّون إلى أنّ السؤال. إذا كان السائل عبداً لله، فإنّه يُفيد الاستخبار في هذه الحال إلى جانب الاستخبار بخضوعٍ وتذلّلٍ لله عزوجلّ، وهو طلب الأدنى من الأعلى على حسب ماورد في معجم محيط المحيط وفي الجرجانيّ. أي يكون السؤال من العبد سؤال اللاّهف المحتاج والمحبّ الباحث عن محبوبه.

وهذا المعنى الذي وضّحه اللغويّون، أشار إليه لفظ (عبادي) الوارد في الآية الكريمة، وهو مشتقّ من عبد الله أي أطاعه وخضع له وذلّ له والتزم شرائعه وخدم دينه ووحّده (محيط المحيط).

والله تعالى لم يقل هنا (وإذا سألك عبادي عن عطائي)، بل قال ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي**﴾. وهذه مسألة لها أهميّتها، فالمقصود من السؤال التّعرف إلى الله تعالى، وليس شيئاً آخر سواه، والمقصود هو الاطمئنان إلى مواصلته، وليس القصد طلب شيءٍ معيّن من الله عزوجلّ. هذا السؤال ليؤكّد تعالى به لهفة المؤمن للتعرّف إلى ربه بوسيلة التعبّد بصوم شهر رمضان المبارك، صوماً حقيقيّاً وليس صوماً صوريّاً تقليديّاً. صوماً يمضي الصائم فيه خاضعاً لله، ومُلتزماً بأوامره، ومثابراً على الدعاء والتضرّع والتذلّل بين يديه، وصابغاً سلوكه اليومي بصبغة شرعه القويم، ومحاذراً أن يبدُر عنه في أيّة حركةٍ أو لحظة من اللّحظات بادرة شرك بالله جلّياً كان أو خفيّاً. وينطبق عليه حينئذ دلالة لفظ (عبادي) الوارد في آية هذا الدّليل. فالعبد في اللغة كما بيّناه من عبد أي أطاع وخضع وذلّ وخدم والتزم الشريعة وكان من الموحّدين (محيط المحيط).

فلّما انتهى جلّ شأنه من قوله: ﴿**وإذا سألك عبادي عني**﴾ أضاف قائلاً : ﴿**فإنّي قريب**﴾. ولم يقل (بلّغ عني أني قريب)، بل أتى تعالى بالفاء

الرابطة لجواب الشرط قاطعاً بها الكلام السّابق، ومستأنفاً حقيقةً جديدةً وقائلاً: ﴿**فإني قريب**﴾.

أي أنّ هذا العبد السّائل إذا توسّل وسعى إلى لقائي، فلاحاجة لوسيط يتوسّط بيني وبينه على اعتبار أنّي قريب أسمع توسّلاته وتلهف فؤاده للقائي. فلا تفوتني همسة من همسات لسانه ولانبضةٌ من نبضات فؤاده، على هذه الصّورة جاء ربّنا عزوجلّ يطمئن عباده المؤمنين اللاّهفين للقائه ولمعرفته من أنّه ماهو كالمحبوب أو المعشوق الذي لاتهمّه مشاعر مُحبيّه وعُشّاقه، بل إنّ الله يعزُّ عليه أن تفتقدوه فلا تجدونه. (فإني قريب) من هؤلاء اللاّهفين إلى معرفتي والتقرّب مني. فليحسنوا ظنّهم بي، وليسلكوا سبيلي قُدُماً وهم لايُساورهم شكٌّ في أمر تجاوُبي معهم. وأضاف جلّ شأنه قائلاً: ﴿**أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان.**﴾. فأتى بفعل (أُجيب)، والإجابة في اللغة العربية تعني الحوار والردّ على السؤال والإفاضة على السّائلين بالعطاء الجزيل.

وعلمنا أنّ فرض صيام شهر رمضان المبارك، أتبعه الله تعالى بهذه الآية الكريمة تشرح ماينبغي أن يكون عليه حال الصائمين حتى يستفيدوا من بركات هذا الصيام. ولذلك نلاحظ أنّه تعالى اشترط لإجابة السائلين إلى سؤالهم شرطين أساسيّين هما :

الشرط الأول : بقوله تعالى : ﴿**فليستجيبوا لي**﴾. والاستجابة إن كانت من جانب العبد تعني الطّاعة منه لله عزوجلّ. وإن كانت من جانب الله لعبده، تعني الردّ على السؤال وإجزال العطاء. والمقصود من ﴿**فليستجيبوا لي**﴾ أن يُطيعوني بصورةٍ تحقّق مشيئتي وإرادتي، كما أشار الجارو المجرور (لي) إلى ذلك. ذلك أنّ الله تعالى لم يقل (فليطيعوني)، بل قال (فليستجيبوا لي)، واللام هنا لام التّمليك وهي التي قلبت المعنى إلى ماذكرت.

ثم إنّ الطّاعة في اللّغة تعني الانقياد والموافقة، تقول : طاع له، وطاوعه، أي وافقه على مشيئته ورأيه، فلم يُخالفه، والطائع اسم فاعل، وهو المُتبّع بمحض إرادته، غير مُكرهٍ في موافقته (محيط المحيط).

وعليه فإنّ شرط (فليستجيبوا لي) معناه فليطيعوني وفق إرادتي ومشيئتي، ولو خالف ذلك ميولهم وعواطفهم. وأن تكون إطاعتهم لي عن قناعةٍ وإرادة وتصميمٍ من غير إكراه، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ طاعة العبد لربّه

واستجابته له تعني من الوجهة العمليّة تطبيق جميع مانصّ عليه كتاب الله العزيز من وصايا وأحكام. وهذا أمرٌ يُلزم هذا العبد المؤمن أيضاً بالتّفقّه في الدّين. ولاشكّ أنّ إهمال أيّ عُنصرٍ من العناصر التي أوردناها، غالباً مايؤديّ إلى عدم استجابة الله للطّالبين.

والشرط الثاني ـ عبّر عنه تعالى بقوله : ﴿**وليؤمنوا بي**﴾. ومعنى الإيمان لُغةً الاعتقاد بالقلب والإقرار باللّسان، أي أنّ من قطع شوط الإيمان بوجود ربّه بالأدلة النظريّة، وشاء أن يتعرّف على ربه بصورةٍ عمليّةٍ. فمن الضروري له أن يسأل ربّه ذلك وهو موقنٌ من صميم فؤاده بوجود ربّه، وليسأل سؤال العاشق الولهان إلى لقاء محبوبه، مندفعاً إلى ذلك بكليّته وموقناً أيضاً أنّ ربّه سيستجيب له.

وانتهى تعالى من ذلك كلّه ليقول : ﴿**لعلّهم يرشدون**﴾. ولعلّ حرفٌ مُشبّهٌ بالفعل ينصب الاسم ويرفع الخبر. ومن معانيه التّرجي والتوقّع، وقد استُعمل هنا بهذين المعنيين. أي أنّ على السّالك أن يدعو راجياً قبول سؤاله متوقّعاً أن يجد صداه. وكلمة (يرشدون) من رشَدَ المرء أي اهتدى. وأرشد الغلام بلغ سنّ التّمييز. واسترشد : طلب الرشد واهتدى.

أي أن (لعلّهم يرشدون) جاءت للتّوضيح، على شاكله الآية (٦٩) من سورة العنكبوت : ﴿**والذّين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا، وإنّ الله لمع المحسنين.**﴾ أي مع الذين يسعون إلينا مُحسنين سلوكهم ومجاهداتهم للتعرّف إلى ربّهم.

ونخلص من ذلك إلى القول : إن مجرّد تلفُّظ المؤمن بلسانه بالإيمان بالله وإقراره بذلك في قلبه إن هو إلاّ خُطوةٌ أوليّةٌ يخطوها المؤمن وإلا فإنّ معرفة الله والتقرُّب إليه تحتاج من هذا المؤمن أن يلتزم بشروط هذا الدليل السّلوكيّ الذي تضمنّته هذه الآية الكريمة، وإلاّ فإنّ إيمانه هذا لايمنحه معرفة حقّ اليقين والاطمئنان وبلوغ شاطيء الأمان.

ولابدّ لي من التّنويه هنا إلى أنه لاينبغي لنا أن نفهم من قوله تعالى (إني قريب) أنّ ذات الله عزوجلّ هي بجانبنا تُلامسنا، حتى لايتعارض ذلك مع قوله تعالى في سورة المعارج : ﴿**تعرُجُ الملائكة والرّوح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سَنه.**﴾. ذلك أنّ الله عزوجلّ قريبٌ منّا بعلمه، وليس بذاته.

وتعالت ذات الله عن ذلك. أو لم نقرأ أيضاً قوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة الزّمر قوله: ﴿**وماقدروا الله حقّ قدره، والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة، والسّماوات مطويّاتٌ بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون.**﴾.

فهو تعالى قريبٌ منّا بوسائل علمه التي لاتُدرك والتي تمكّنه من أن يعلم سرّنا وجهرنا وأخفى من ذلك أيضاً، فلا تغيب عن علمه شاردة ولاواردة. والله أعلم بحال المؤمن السّالك السائل، من علم هذا السائل نفسه، لقربه منه بعلمه، وإلاّ لم يكن ليشترط عليه هذه الشّروط.

ونخلص إلى القول أيضاً: إنّ العلم في حقيقته مراتب ثلاث هي : علم اليقين، وعلم عين اليقين، وعلم حقّ اليقين، وهذا التقسيم للعلم أتى به القرآن الكريم كحقيقةٍ واقعيّةٍ قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان. ومادام القرآن الكريم هو مرجعنا في هذه الأمور، فلنعلم أنه قسّم العلم هذا التقسيم العلمي، واصطلح له هذه المصطلحات.

والأدلّة القرآنية الجدلية التي أدليت بها كانت من قبيل علم اليقين. فهي تساعد على انتفاء الشّك بطريق الاستدلال الذهني العلمي وترجّح وجود الله عزوجل.

ثم إنّ الأدلة القرآنية المُستقاة من أسماء لله الحسنى هي من القسم الثاني من العلم وهو علم عين اليقين، لتدخّل عنصر الرؤية فيما ذكرت ضمن أدلّة تثبيت وجود الله عزوجل.

أمّا الدليل السّلوكي الثالث فإنّ تعلُّقه فبالمرتبة الثالثة من العلم وهي مرتبة الحصول على علم حقّ اليقين: التي يبلغ السّالك عندها حالة ماسمّاه القرآن الكريم بحالة النّفس المُطمئنّة، التي تنساب نفس هذا المؤمن بعدها نحو ربّها انسياباً لارجعة معه للشكّ بوجوده بحال من الأحوال. وهي المرحلة التّي عبّر عنها الله جل شأنه بقوله: ﴿**ياأيّتها النّفس المُطمئنة ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّه فادخُلي في عبادي وادخُلي جنتي.**﴾.

ولابد أن نكون جميعاً قد أدركنا من خلال مُعطيات هذا الدليل السّلوكي أنّ باب السّماء مفتوح على مصراعيه للمؤمنين السالكين دربه، السّاعين إلى معرفة ربّهم عزوجلّ. إنّما لايكفي للمؤمن أن يقول أسلمت بلسانه،

وأن يوقّع على بيعته. أو لم نقرأ قوله تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا بل قولوا أسلمنا ولمّا يدخلِ الإيمان إلى قلوبكم.**﴾؟

كما أنّ علينا أن نعلم أنّ آية : ﴿**وإذا سألك عبادي عني، فإنّي قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشُدون.**﴾ ليس المقصود بها مجرّد الحثّ على الدُّعاء والطلب منه تعالى، بل المقصود جرّ هذا المؤمن إلى مرتبه علم حقّ اليقين، إلى حالة النّفس المطمئنة وشاطىء الأمان.

مع الملاحظة أنّ الله تعالى لم يشترط في الدليل السلوكي الثاني تلك الشروط الثقيلة التي اشترطها على المؤمن بوجوده في الدليل السلوكّي الثالث. لاختلاف مُقتضيات الدّليلين والمرتبتين من العلم. ذلك أنّ الله عزوجلّ يريد أن يحقّق التّجانس بينه وبين عبده المؤمن، وهو عنصر القداسة، يريد أن يُدخل هذا المؤمن السالك في زمرة القدّيسين وليبلغ به مرحلة العُرفان وهي أسمى المراتب في نظر العارفين.

وهكذا فلا ينبغي أن نفهم من السؤال في ﴿**وإذا سألك..**﴾ أنّه بمجرد الاستخبار، بل الاندفاع على طريق المعرفة الإلهية اندفاع الأطفال الصّغار الذين يسألون باكين مضطربين : أين أمي وأبي؟ فلا يطمئنون إلا بعد لقاء والديهم والخلود إلى أحضانهم، ليستمدّوا منهم العطف والحنان.

❀❀❀

الفصل الخامس ـ المقصد من خلق الإنسان
أ ـ محصّلة الأدلّة السّلوكية

تبيّن لنا حتى الآن من خلال الأدلّة السّلوكية التي يثبت منها وجود الله عزوجلّ، أنّ الدليل السلوكي الأول اعتمد في استدلاله علم اليقين، وأنّ الدليل السّلوكي الثّاني اعتمد في استدلاله علم عين اليقين. على حين اعتمد الدليل السلوكي الثالث علم حقّ اليقين.

وفي الوقت الذي اختصّ فيه الدليلان الأوّل والثاني بفئاتٍ غير مؤمنة، فقد اختصّ الدليل الثالث بفئة المؤمنين، إشعاراً منه عزوجلّ لهم أنّ مُجرّد التّلفظ بالإيمان، ولو تأتّى هذا الإيمان عن استدلال بدليلٍ ذهني، فلا يعدُّ هذا الإيمان كافياً في نظر الله جلّ شأنه. فلابُدّ من العمل على تعاليم الله وأن يكون الهدف من ذلك معرفة الله تعالى والتقرب إليه، وليسعد المؤمن بتلقي بشاراته وأعطياته، ويبلغ بذلك في إيمانه حقّ اليقين.

وحينذاك فقط يشمله لفظ ليعبدون من قوله تعالى: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون.**﴾ أي ليعرفوني. فالله تعالى لم يخلق الجنّ والإنس لمجرّد طاعته والخضوع له وخدمة دينه والتزام شرائعه وتوحيده. ذلك أنّ الله تعالى بغنيٌ عن ذلك كلّه. بل خلقهم لمقصد أسمى وهو أن يعرفوه ويعظّموه ويتقربوا إليه ويواصلوه.

هذه الحقيقة حثّت المؤمن للوصول إليها آية فريضة الصوم : ﴿**شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هُدىً للناس، وبيّنات من الهُدى والفرقان، فمن شهد منكم الشّهر فلْيَصمْهُ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّةٌ من أيّامٍ أخر، يريد الله بكم اليُسر ولايريد بكم العسر، ولتكلموا العدّة، ولتكبّروا الله على ماهداكم، ولعلّكم تشكرون.**﴾. ففي هذه الآية الكريمة وضّح لنا جلّ شأنه عدّة أمور ضمن آية فريضة الصّوم، أهمها :

أولاً - ﴿**هُدى للمتّقين**﴾. والهُدى ضدّ الضّلال، ويعني الرشد والبيان. أي أنّ جميع مااحتوى عليه كتاب الله من وصايا وتعاليم وأحكام، إنّما هي من قبيل الرُّشد والبيان الذي ينقذ المؤمن من الضّلال.

ثانياً - ﴿**وبيّنات من الهُدى**﴾. والبيّنات جمع بيّنة، وهي الحُجّة والدّليل بمعنى أنّ وصايا وتعاليم وأحكام القرآن الكريم مُدعَّمةٌ بالحجج والبراهين، فلاتوجد وصيّةٌ أو تعليم أو حكم إلاّ، ويرافقها حجّة وبُرهان.

ثالثاً - ومن خلال صفة (الفرقان) التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، وهي تعني مايفرّق بين الحقّ والباطل. فقد وضّح تعالى أنّ وصايا وتعاليم وأحكام كتابه العزيز تساعد المؤمن على تمييز الحقّ من الباطل وتعصمه من الضّلالة وتريه سبيل الحقّ والرّشاد.

وبعد أن وضّح جل شأنه لنا هذه الأمور، قال: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصُمه، ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعِدّةٌ من أيّامٍ أُخَر**﴾ ومن ثم راح يوضّح لنا الحِكَم من فريضة الصوم، وقال :

أولاً - ﴿**يُريد بكم اليُسر ولايريد بكم العُسر**﴾ أي أنه تعالى لم يفرض الصّوم تعسُّفاً، بل راعى حال المريض منكم والمسافر.

ثانياً - ونبّه المُفطر إلى ضرورة تعويض الأيام التي لايصومها: ﴿**فعدّةٌ من أيّام أُخر**﴾ كيلا يُحرم هذا المريض أو المسافر من نعمة التعبّد بصوم شهر كامل سنويّاً، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿**ولتُكملوا العدّة**﴾.

ثالثاً - والأمر الأكثر أهميّة عبر عنه تعالى بقوله: ﴿**ولتُكبّروا الله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون**.﴾ وهذا مايحتاج منّا إلى الشّرح والتوضيح قال : ﴿**ولتكبّروا الله على ماهداكم**﴾، فكيف نُكبّر الله؟ أنردد نهاية صوم كل يوم من أيام رمضان جُملة : الله أكبر؟ أم نأخذ بالمعنى الثاني للفظ كبّر وهو تعظيم الله واحترامه؟ وكيف يؤدّي انقطاعُنا عن الطّعام والشراب طيلة ساعات النهار إلى التعظيم والإكبار؟

والآن لنتدبّر كل كلمة وحرف واردين في هذه الجملة ﴿**ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون**﴾. فهو تعالى أتى أوّلها بالواو العاطفة فعطف بها العَامّ على الخاص. وأضاف ﴿**ولتكبّروا**﴾ وقد تساءلنا كيف نُكبّر الله.

واضطررنا لتدبّر كل كلمة وحرف، فلم نعثر على شرح وتوضيح، وهذا الأمر بالذات استدعى منه جلّ شأنه أن يزيدنا إيضاحاً، وأتى بآية: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون.**﴾. فوضّح لنا حقيقة أنّ في فطرة الإنسان تَوقاً إلى معرفة خالقه، وهذا التّوق، تتجلّى معالمه منذ طفولة الإنسان الذي يهيم بوالديه ويبحث عنهما إن افتقدهُما. فإذا بلغ رُشده وشبّ عن الطوق، يعود يسأل عمّن خلقه وخلق الكون من حوله.

وإلى هذا التّوق الفطريّ، وردت الإشارة في قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك**﴾، وليس المقصود أنه إذا تعرّض لك أحد النّاس بالسؤال.

بمعنى أنّ الصّائم الذي يمتنع عن الطعام والشراب، لايمتنع لمجرّد تنفيذ الأمر، بل يريد أن يحصد ثمار طاعته هذه، ويتعرّف بذلك على خالقه ويسأله القرب والوصال والعطاء، ويضيف تعالى قائلاً: ﴿**فإني قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان..**﴾ أي أنّ من يصوم محتسباً لله خالقه، وسائلاً إيّاه تعريفه على نفسه وتقريبه منه والفيض عليه بالعطاء. فليعلم هذا السّائل المُطيع أنّ ربّه منه قريب لايبْخل عليه بالاستجابة لتوقه إليه، بل ﴿**أجيب دعوة الدّاع إذا دعان،**﴾ استجيب أدعيته وأحاوره وأقرّبه وأفيض عليه من عطائي وبشاراتي، بل وأبلغه بذلك مرتبة حقّ اليقين، ليفيض فؤاده من جرّاء ذلك تعظيماً لله خالقه وإكباراً له، وعلى هذه الصورة فقد جاء مضمون آية: ﴿وإذا سألك..﴾ يشرح قوله تعالى ﴿**ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون.**﴾ وبياناً.

بهذا الأسلوب المُعجز والبيان البليغ، وجّهنا ربُّنا جلّ شأنه إلى المقصد الأهم من حياتنا وهو توق فطرتنا إلى معرفته تعالى والتقرّب منه والاستفاضة من عطائه إلى حدّ علم حقّ اليقين.

والسّؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: لماذا أتى جلّ شأنه بحرف (إذا) الشرطية ولما يُستقبل من الزّمان، ولم يأت بحرف (إنْ) التي تفيد الاستقبال أيضاً سواء أدخلت على الفعل الماضي أو دخلت على الفعل المضارع؟

نعود إلى ماقاله صاحب معجم محيط المحيط، قال: إنّ حرف (إذا) الغالب أنّه ظرف متضمّن معنى الشرط، ويختصّ ـ كما هو في هذه الآية الكريمة ـ

بالدّخول على الجملة الفعليّة، ويكون الفعل بعدها فعلاً ماضياً على الأغلب، ومحلُّها النّصب أبداً على الظّرفيّة.

ونُلاحظ أن ماأفاده صاحب هذا المعجم لايُعين على الإجابة على السؤال المطروح الذي ذكرناه.

بل وهناك سؤال آخر يطرح نفسه، وهو أنّ سورة البقرة التي اشتملت على هذه الآية الكريمة، إنّما أنزلها الله تعالى في السنوات الأخيرة من الدعوة في المدينة المنّورة بإجماع المفسرين والمؤرخين. هذا وإن جاء ترتيبُها من حيث ترتيب تلاوتها أوّل سور القرآن الكريم. فإن كانت هذه الآية قد نزلت تحثّ على معرفة الله والتقرّب منه والاتّصال به، فلماذا لم تنزل في سنوات الدعوة الأولى ليستفيد من مفهومها المسلمون السابقون بالإيمان؟

أقول إن الجواب على هذا السؤال يكمُن في استبداله تعالى للحرف (إذا) بالحرف (إن) في هذا المقام، وإليك تفصيل هذا الكلام :

إنّ هذه الآية الكريمة: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإنّي قريب..**﴾ لم تكن هي الآية الأولى والأخيرة التي حثّت على معرفة الله والتقرّب منه والاتصال به عزوجلّ حتى يصحّ مثل هذا الاعتراض، فسورة الفاتحة، وهي السورة التي فرض تعالى علينا تلاوتها في كلّ ركعةٍ من رَكعات صلواتنا يوميّاً، والتي لاتصحّ الصّلاة دون تلاوتها، اشتملت على نفس المضمون. أفلا نلاحظ كيف أننا ندعو فيها ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**﴾. وهذا السؤال والطلب من الله عزوجلّ نكرّره يوميّاً دون كَلَلٍ أو ملل. وهل يعني هذا السؤال وهذا الطلب إلاّ نفس ماحثت على حصيلة آيه ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب..**﴾؟ ألا نلاحظ أننا نسأل ربّنا أن يهدينا الصراط المستقيم الذي سار عليه وسلكه من تعرّفوا إلى الله خالقهم في نهاية هذه المسيرة وهذا الصراط، فعرفوا الله وتقرّبوا منه وأضحوا من الواصلين ومن المُنعَم عليهم منه تعالى. وهم الذين أشار إليهم الله تعالى في آيةٍ أخرى من كتابه العزيز بقوله: ﴿**ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّديقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً.**﴾ النساء ٦٩

فنحن ندعو في سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) أي أرشدنا وبيّن لنا وعرّفنا على أقرب طريق مختصر مستقيم يصل بيننا وبينك، وأيّ صراطٍ

نطلب؟ نسأل ونطلب الهداية إلى ﴿**صراط الذّين أنعمت عليهم**﴾ هؤلاء الذين عرفوك وتقرّبوا إليك وواصلتهم وواصلوك ﴿**من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين**..﴾ وهذه هي زُمَر المؤمنين الذّين سبقونا بالإيمان وسلكوا سبيل معرفة الله والتقرّب منه ووصاله وصولاً إلى مرتبة حقّ اليقين.

على ضوء ذلك، ندرك أنّ الله عزوجلّ لم يؤجلّ موضوع الحثّ على سؤال وطلب معرفته والتقرب إليه ووصاله إلى آخر أيّام الدّعوة في المدينة المنوّرة، وكيف يفعل هذا وموضوع معرفة الله قد جعله من أولويات تعاليمه على اعتبار أنّه المقصد الأساسيّ من وجودنا في هذا العالم؟ بل إنّه تعالى حثّ المؤمنين على تحصيله من أوّل سنوات الدعوة في مكة المكرمة. من خلال دُعاء سورة الفاتحة كما رأينا.

وعليه فلابدّ لنا من أن نبحث، جادّين، عن حكمة استبداله تعالى للحرف (إنْ) بالحرف (إذا) في الآية التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني، فإنّي قريب**..﴾.

وتعالوا معي نُلقي نظرةً فاحصةً قبل كلّ شيء، على مايجري في زماننا هذا من أحداث وسط مجتمعات العالم الإسلاميّ وخارجه. حيث تبدو لأنظارنا عدّة ظواهر، تكبُر وتتعاظم يوماً بعد يوم، فتبدو معالمها على شكلٍ رهيب.

إنّ أوّل هذه الظواهر، هي مانلاحظه من تخلّف حادثٍ في أوساط المسلمين فكريّ وأخلاقيّ واقتصادي. ومع أننا نلاحظ أنّ الوُعّاظ في المساجد يناشدون المصلّين الالتزام بتعاليم دينهم الحنيف، فإنّنا نلاحظ من طرف آخر أنّ وعظهم هذا لايجد صداه بين المصلّين، بل يزدادون تفسُّخاً وانحطاطاً وبُعداً عن تعاليم الدّين. هذه الظاهرة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على فتور رابطة المسلمين بربّهم عزوجلّ، وإهمالهم السّعي إلى معرفة خالقهم معرفة عِرْفان، وطلبَ قربه ووصاله، أي أنّهم نشؤوا في بيتٍ مسلم، وجاء إسلامهم إسلاماً تقليديّاً، فلم يوقنوا أنّ المقصد من وجودهم في هذه الحياة بلوغ معرفتهم لربّهم مرتبة حقّ اليقين، ولذلك آل حالهم إلى ماآل إليه. إنّهم يقولون بألسنتهم إنّ الله موجود وهو خالقهم أيضاً. لكنّهم يتناقضون مع أنفسهم عملياً بالشرك الخفيّ. فبالله أسألك ياقارئي العزيز : هل أنّ الشّخص الذي يعلم علم حقّ اليقين وجود أفعى سامّة في ثقبٍ من جدار، هل يجرؤ هذا الشّخص على وضع إصبعه في هذا

الثّقب لينال جزاء مغامرته؟ فكيف يعصي هؤلاء المسلمون ربّهم إن كانوا مُستيقنين وجوده حقّ اليقين؟

والظاهرة الثانية التي يُلاحظها كل ذي بصيرة في أيامنا هذه، هي أنّ الوطن الإسلاميّ انقسم بعد انهيار الحكم العثماني إلى أوطان ودُويلات، ومايزال يزداد انقساماً، بل وأضحت هذه الأوطان والدُويلات نهبةً لصراعاتٍ حدوديةٍ ومصالح شخصية، فلم تعد للأخوّة الإسلامية من ظواهر وجود إلاّ في الأسماء والشّعارات، بل وتأسست في هذه الأوطان والدُّويلات أحزابٌ وجمعياتٌ ومُؤسسّات تُنادي بالعودة إلى المجد الغابر وتوحيد الأوطان، ولانُلاحظ أنّ هذه الأحزاب والجمعيات والمؤسسات تُفلح في أغراضها، أو تجد التأييد والنُّصرة من الله ربّ العالمين. وهذه الظّاهرة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على أنّ الله تعالى لم يعد ينظر إلى مُسلمي عصرنا، نفس نظرته إلى مُسلمي عصر البعثة الإسلامية الأولى التي قامت على أيدي خاتم النبيّين (ﷺ). ولذلك فما كان قد وعد تعالى به أولئك لاينطبق على هؤلاء المعاصرين.

والظّاهرة الثالثة التي باتت ظاهرة للعيان هي أنّ أعداء الإسلام استضعفوا المسلمين في كلّ مكان، وأوجدوا من بينهم عُملاء يُساعدونهم على استنزاف خيرات بلادهم، ممّا زاد الطّين بلّة. وماعادت تُرى آيّة بوادر لصالح المسلمين، فهل تعني هذه الظّاهرة نهاية عزّهم وَوُجودهم؟

وإنّ هذه الظواهر التي بات يُدركها كلّ عاقلٍ ومُفكّر داخل الأرض الإسلامية وخارجها، عادت تدعو المفكّر يسأل أين الله ووعوده؟

بل وإنّ عامّة المسلمين عادوا يتساءلون فيما بينهم عن وجود الله الذي يؤمنون به وبوعوده؟ وهاأنّ الماركسية قامت أصلاً على أساس الجحود بوجود الله عزوجلّ. والمُلحدون في زماننا، لطالما لاحظنا العديد منهم يقولون مُتحدّين : هاأني أرفع هذا القلم بأصابعي، فأين الله ليرفعه؟

هذه الظّواهر وغيرها هزّت عقيدة وجود الله من جذورها، حتّى تعالت الأصوات في زماننا تسألنا : أين الله وأين وعوده؟ وسؤالهم وطلبهم هذا المرتفع من كل جانبٍ في عصرنا، هو المشار إليه بالحرف (إذا) في الآية التي نزلت آخر سنوات الدعوة في المدينة المنوّرة ضمن سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي، فإنّي قريب، أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي**

وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.﴾. هذه الأصوات هي التي اقتضت منه جلّ شأنه لاستبدال الحرف (إنْ) بالحرف (إذا). فهو تعالى أنبأ هنا عن عصر تخلّف المسلمين وحالهم التي عادت تتعالى الأصوات بسببها أين الله وأين وعوده؟

أنبأ تعالى آخر أيام البعثة الأولى عن فترة انحطاط مسلمي عصرنا وتخلّفهم، وبأسلوب فريدٍ وبليغ، لايكشفه ولايدركه إلاّ المتدبّرون لكتاب الله تدبُّراً حقيقيّاً، فلا يكتشف ذلك إلا في العصر المشار إليه، وهذا هو أحَدَ نماذج الإعجاز القرآني. علماً بأني كشفت في مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) عمّا أنبأ به القرآن الكريم عن عصرنا بالذّات، فليُرجع إليه.

وكأنّه تعالى قد قال من خلال استبداله الحرف (إن) بالحرف (إذا) في قوله: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي..**﴾، وبألفاظٍ أُخرى : يامعشر مُسلمي عصر الانحطاط والتّخلف إنْ كنتم صادقين في طلبي والسؤال عنّي يومئذٍ، ﴿**فليستجيبوا لي**﴾ أي أنّ عليهم احترام إرادتي ومشيئتي.

وهاأنّني بعثت مجدّد زمانكم يدعوكم لتستجيبوا لصوتي، وتُجدّدوا إيمانكم وتجهدون بتوجيهه ووفق تعاليم كتابي القرآن وببذل قصارى جهدكم لاستغلال صيام شهر رمضان وتصوموا صوماً حقيقيّاً كما هو مطلوبٌ منكم سائلين وطالبين أن تعرفوني معرفة حقّ اليقين فتسألون قُربي ووصالي. ﴿**فإني قريب**﴾ وقد ثبت قُربي من عبادي في الماضي، وهو دليل عمليٌّ علي أنّي لازلت قريباً، إنّما ﴿**فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.**﴾، وفي هذه الكلمات عتابٌ وتأنيب، فهو يتعالى استأنف كلامه بحرف الفاء معاتباً مُسلمي عصرنا أنّهم أعرضوا عن سلوك متطلّبات دليل (حقّ اليقين) وهو الدليل السلوكي الثالث الذي شرحناه، فنسوا الله والسّعي إلى معرفته، وبالتّالي ﴿**أنساهم أنفسهم**﴾ وهو ضرورة السّعي لتحقيق المقصد من حياتهم بعد أن هداهم إلى الإيمان، وأضاف ﴿**وليؤمنوا بي**﴾ أي ليجدّدوا إيمانهم بي معتقدين أنّي موجود وقريب منهم أجيب دعوة الداع إذا دعان، فلايخشون في سبيلي أيّ شيء يُخوّفهم من دون الله ووفق قوله تعالى: ﴿**ذلكم الشّيطان يُخوّف أولياءه فلاتخافوهم وخافوني.**﴾.

وحينئذٍ فقط ﴿**لعلهم يرشدون**﴾ أي ليتوقعوا بعد ذلك وليرتجوا أن يهتدوا إليّ ويعرفوني ويتقرّبوا مني ويواصلوني، ويصبحوا من عبادي الذين حقّقوا

المقصد من حياتهم في الحياة الدنيا. وحينذاك فقط حقّ لهم أن يطالبوني بإيفائي بوعودي التي قطعتها على نفسي تجاه المؤمنين الصّادقين، وتصدق بحقّهم الآية ٦٩ من سورة العنكبوت: ﴿**والذين جاهدوا فينا، لنهدينّهم سبُلَنا، وإنّ الله لمع المحسنين.**﴾ أي يعود الله لتأييد ونُصرة من أحسن صُنعاً منهم.

ويابُشرى من يسلك سبيل هذا الدليل السّلوكي الثالث ليبلُغ مرحلة علم حق اليقين بشأن معرفة ربّه والتّقرب منه ومواصلته والرجوع إليه.

فهذا هو طريق النّجاة لكل مسلم في عصرنا الذي باتت تتعالى الأصوات فيه من كلّ جانب يسألون : أين الله أين الله ووعوده؟ وليتذكّر كلُّ من اعتنق الإسلام ديناً أنّ الله لايهدي القوم الفاسقين، ولايغيّر مابقوم، حتى يغيروا مابأنفسهم، والمؤمن لايكون إلاّ مع الصّادقين.

ثانياً ـ أدلّة تساعد على تعيين المقصد من خلق الإنسان :

لقد توصّلنا من خلال آيات الذّكر الحكيم التي سبق أن أثبتنا مصداقيّتها ومرجعيّتها، إلى أنّ الغاية من وجود الإنسان في هذا العالم، هو أن يسلك سبيل معرفة خالقه، وذلك عن طريق الالتزام بإطاعته والخضوع له والتذلّل بين يديه وخدمة دينه والتزام شرائعه والعمل وفق مشيئته وتوحيده، فلا يكون من المشركين. فهذا هو معنى العبودية لله عزّوجل.

ومادُعاء الفاتحة الذي ندعو به في كل رُكعة من رَكعات صلواتنا، طالبين من خالقنا أن يهدينا سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّديقين والشّهداء والصالحين. فهل وراء هذا الدّعاء المتكرّر إلاّ طلب العون من خالقنا، لمساعدتنا على تحصيل المقصد من حياتنا الدنيويّة، وهو التّعرف إلى خالقنا ومحاورته والاستفاضة من عطائه ونعمائه. ودفعاً من جانبه تعالى إيّانا على طريق وهو دلالة: ﴿**ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون.**﴾ البقرة ١٨٥ ـ

هذا علماً بأنّ الصّلاة الإسلامية قد صيغت أصلاً على أساس من مفهوم هذا المقصد الحياتي، ولتحقيق هذه النّقلة النّوعيّة في حياة الإنسان. النّقلة التي تنقل المؤمن بالله من مرتبة إيمانه الذهني إلى إيمان علم حقّ اليقين.

ونحن إذ أمرنا ربُّنا أن ندعو في ركوعنا (سبحان ربّي العظيم) وفي سجودنا (سبحان ربّي الأعلى)، فما هذه إلاّ رموز تشير إلى المراحل التي ينبغي على المؤمن أن يقطعها لبلوغ حقّ اليقين على طريق معرفته ربّه عزوجلّ، ويُصبح من الذّين يُعظّمون ربّهم ويكبّرونه، وهذا المعنى نفسه ينطبق على دُعاء محمد المصطفى (ﷺ) بين السّجدتين (ربي اغفرلي، وارحمني، واهدني وارفعني وارزقني).

اغفر لي أي أستر ضعفي وعيوبي، وارحمني أي اشملني بواسع رحمتك. واهدني أي خذ بيدي على طريق معرفتك ووصلك، وارفعني أي اجعلني من المقربين بين يديك. وارزقني أي أسبغ عليّ من نعمائك وعطائك الرّوحاني بعد هذا الرفع والتقريب. وهذا الدّعاء نابعٌ في حقيقته من دلالات المراحل التي يقطعها السّالك تحصيلاً لمعرفة ربّه وخالقه.

ألا إنّ عمليّة خلق هذا الإنسان ودعوته والدعوة إلى عُرفان خالقه، إن هي إلاّ عمليّة أشبه ماتكون بما يصدر عن فنّان أصيل يرسمُ ويرسم، فلا يملّ من رسم اللّوحات العظيمة المتنوعة، ولاتكون له من غايةٍ من ذلك كلّه إلاّ التعبير عن فنّه الأصيل. فهذا هو ماأشار إليه الحديث القدسي من أنّ الله كنزٌ أراد أن يُعرف فخلق الخَلْق، وأبدع فيما خلق وصوّر، وإلاّ فإنّ الله تعالى غنيٌّ عن العالمين.

وهكذا فإنّ تعليم الله تعالى: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين.**﴾ الذاريات ٥٦ ـ قد نبّهنا إلى أنّه تعالى لم تكن مشيئته أن يجعل الدُّنيا جُلّ همّنا، بل ﴿**إن الله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين**﴾.

أي أنّ من يلتزم سلوك طريق معرفة ربّه، يُيسرّ له ربّه سُبُلَ تحصيل رزقه على قدر احتياج هذا العبد في دنياه وآخرته.

هذا هو الطّرح القرآني فيما يتعلّق بالمقصد من حياتنا الدنيوية وهيّا نستعرض آراء علماء أوربة قَبْل القرن العشرين فيما يتعلق بالمقصد من خلق الإنسان. فماذا قال أبو الفيزياء (نيوتن)، وهو الذي كان قد وضع أُسساً لماديّةٍ منهجيّةٍ، لم يُخالفها مشاهير عُلماء عصره أمثال (فارادي) و (كلفتن) و (هيرشل) وأمثالهم. هذه المادية المنهجيّة التي افترضت أنّ عالمنا الدّنيوي مادّةٌ

لاتُخالطها عقل ولاروح. والتي رسّخ دعائمها النظرية الداروينية في النّشوء والارتقاء؟

إنّ (نيوتن) حذف وجود غاية لحياة الإنسان لاعتباره إيّاه مادّة لاروح فيه. وقد كانت مُقوّمات المادّة في نظره ثلاث : المادة والمكان والزمان. وأن المادّة مُكونّة من : (جُسيمات كبيرةٍ وصلبة ومُتحركّة وغير قابلة للاختراق وذات أحجام وأشكال مُختلفة.). وقد حصر خواص المادة في (خاصيّة التمدّد والصّلابة واللااختراقية، والقُصور الذّاتي.) واعتبرها خواصّ ثابتةً إلى الأبد، وأن (الذّرة الماديّة أصغر جُسيم بامكان الإنسان تصوّره.). وقد تركت طروحات (نيوتن) هذه ظلالها وآثارها على العقل الأوربّي حتى عادوا يسخرون من مقولة الإسلام من أنّ لوجود الإنسان في دنياه مقصداً لحياته، ينبغي عليه السّعي لتحقيقه.

ومن حُسن حظّنا نحن، أننا وُلدنا في القرن العشرين الذي عاد علماؤه من الأوربيين أنفسهم يتندّرُون بنهج نيوتن المادّي وبجميع طروحاته. هؤلاء الذين تبيّن لهم خطأ جميع ماطرحه نيوتن من طروحات. فخيبّوا أمله، إذ كان نيوتن وسواه من رُموز منهجه المادي يرجون أنّ العلم في القرن العشرين يُرسّخ هذا المنهج وتلك الطّروحات، ويكمله.

فهذا العالم آنيشتاين هدم عام ١٩٠٥ ركُنين أساسيّين من أركان النظام والمنهج المادي الذي ابتدعه نيوتن. أي هدم نظرة نيوتن إلى الزمان والمكان، وأثبت أنّهما شيئان نسبيّان. وهذه ثورة فيزياء الجُسيمات التي كان رائدها العالم (آرنست ذرفورد) فقد كشف هذا عام (١٩١١م) عن تركيب الذّرة التي اعتقدها نيوتن أنها لاتُخترق. وقد عجّل العالم (نيلزبور) وغيره بتطوير علم ميكانيكا الكمّ، هذا الذي أعان على إثبات أنّ هذا الكون لابُدّ أن يُوجد خارجه عقلٌ مُطلق، ذلك أنّ المُلاحظ هو أنّ المادة لاتُبحث ولاتُراقب إلاّ من داخلها، وبآلات وأجهزة ميكروسكوبيّة أيضاً.

إنّ جميع هذه الثّورات العلميّة قلبت مُعادلة نيوتن رأساً على عَقِب. بسبب أنّ العلم انتقل أهله من دور الملاحظة إلى دور المشاركة، فتحقّق بذلك قفزة نوعية، قفزها علماء القرن العشرين.

فها أن العالم الفيزيائي الشّهير (يوجين فيغنر) قال مُعترفاً: (كان جلّ العلماء الطبيعيّين إلى عهدٍ غير بعيد يُنكرون بشدّة وجود العقل أو الرّوح.. أمّا

عندما تمّ توسيع نطاق النظرية الفيزيائية، ليشمل الظواهر الميكروسكوبيّة من خلال استحداث ميكانيكا الكمّ، عاد مفهوم الوعي مرّةً أخرى إلى المُقدّمة، إذ لم يُعد مُمكناً صياغة قوانين ميكانيكا الكم بشكل مُتّسق كُليّاً، دون الرّجوع إلى الوعي.) أي الرجوع إلى العقل[1] . وهكذا فإنّ نظريّة آينشتاين في النسبيّة وميكانيكا الكم أنقذت علماء القرن العشرين من ظُلمات منهج نيوتن وطروحاته، وساعدت على إدخال عُنصر العقل والرّوح في المعادلة الفيزيائية.

وكذلك فإنّ نظريّة الانفجار العظيم التي أتى بها العالم الفيزيائي غاموف قد أكّدت المعادلة الفيزيائية الجديدة. حيث أثبت أنّ هذا الكون مخلوق منذ مايُقارب (١٢-٢٠) مليار عام.

فمن حسن طالعنا وفضل الله علينا أن وفّق جلّ شأنه علماء أوربة المعاصرين هذا التّوفيق الذي لاحظناه. فبهذا التقدّم العلمي، رُدمَت الهُوّة الكبيرة التي كانت تُباعد مابين تعاليم الإسلام ومابين العلوم الأوربيّة في القرون الماضية. ويكفي أنّ علماء هذا العصر لم يعودوا ينظرون إلى الإنسان على أنّه مُجرّد رُزمة من ردود الفعل، أو رزمة من الآليات النفسية الغريزية، بل باتوا ينظرون إليه على أنه مخلوق يملك العقل وحريّة الاختيار التي أشار إليها ربُّنا جلّ شأنه بقوله: **﴿ونفسٍ وماسوّاها فألهمها فُجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾**. بمعنى أنّ حُريّة الاختيار التي أوتيها الإنسان هي في حدّ ذاتها دليلٌ ضمنيّ يؤكّد أنّ لحياة هذا الإنسان مقصداً أسمى يتوجّب عليه أن يسعى لتحقيقه، وإلاّ استوجب المحاسبة والعقاب من خالقه.

وإضافة إلى هذا وذاك، فقد ثبت على الصّعيد العلمّي أنّ الإنسان هو محور هذا الكون. وكأنّ الكون على سعته ورحابته قد خلقه الله جل شأنه لصالح وخير هذا الإنسان المخلوق العاقل، وذلك مصداقاً للطّرح القرآني الذي أوردته الآية (٢٩) من سورة البقرة: **﴿ هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السّماء فسوّاهُنّ سبع سماواتٍ، وهو بكل شي عليم.﴾**.

---

[1] ـ عالم المعرفة العدد ١٣٤

وإن هذه التطوّرات العلمية الرّائعة تُلزم المؤمنين بالله العزيز وبكتابه الكريم أن يُوضّحوا للعالم هذه الغاية من خلق الإنسان بأسلوبٍ علمّي، وأن يكونوا أسوةً عمليّة تثبت صحّة مايوضحّون ومايدّعون.

وأقول، والأسف يعتصر فؤادي : إنّ مُجتمع المسلمين المُتخلّف المعاصر هو أبعد شيءٍ عمّا يتطلّبه هذا الزمان من أفراده وَوُعّاظه. بل الواقع أنّ من يقتنع من أعداء الإسلام بتعاليم الإسلام نظريّاً. مابإن تَطَأ أقدامه أرض المسلمين، إلاّ ويُصاب بالإحباط وردّة فعل نفسيّة، لِما يُلاحظه من فارقٍ كبيرٍ بين الإسلام وأهله.

ولنَدَع الآن موضوع ماطرأ من تقدُّم على العلوم في أوربة، ولنحاول إثبات صدق الطّرح القرآني، بما يتعلّق بالمقصد من خلق الإنسان وبأسلوبٍ علميّ، وإليكم هذه الأدلّة الثلاث:

١ ـ الدّليل الأول

يستند دليلنا الأول إلى معلومة أنّ حواس الإنسان، يستحيل عليها أن تؤدّي عملها دون عاملٍ مُساعد، فالعين لاترى دون مساعدة النّور، والأذن لاتسمع دون مساعدة الهواء، والأنف لايعمل دون مساعدة الرّوائح. وحاسة اللّمس لاتعمل إلاّ بمساعدة جسمٍ مادّي. والعقل الذي يعمل على صُعُدٍ زمنيةٍ ثلاثةٍ : فالمخطوطات والآثار والمُستحاثّات تساعد المرء على معرفة الماضي. والملاحظة العلميّة والتّجربة والاستنتاج تؤدّي إلى معرفة الحاضر. أمّا على صعيد المُستقبل وأمور الغيب، فلايجد الإنسان له مساعداً إلاّ وحي الله علاّم الغيوب. فهذه حقيقة علمية لاسبيل لأحدٍ إلى دحضها وإنكارها.

والمقصد من خلق الإنسان هو شيء غيبيٌّ أصلاً، الأمر الذي يدفَعُنا إلى القرآن الكريم وهو الوحي السّماوي الذي سبق أن أثبتنا مصداقية ومرجعيّته. فنعود إلى آي هذا الوحي السّماوي، لنجد أنّ الله عزوجل قال فيه: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون.**﴾ أي ليعرفوني وينالوا بذلك قُربي وعطائي. مؤكّداً بعد ذلك قوله: ﴿ **إنّ الله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين.**﴾. ومادام القرآن الكريم قد حدّد هذا المقصد من وجودنا في هذا العالم، فنحن كمؤمنين بوجود الله عزوجلّ، نسعى لتحصيل معرفة الله والتقرّب إليه ووصاله.

٢ ـ الدليل الثاني

ودليلنا الثاني الذي يثبتُ من خلاله صحّة الطّرح القرآني حول المقصد من حياتنا الدنيوية، يُحدّده سؤال يطرح نفسه نلاحظه ضمن إطار القوانين الطبيعيّة السائدة. وهو أنّ الإنسان لايصنع شيئاً إلاّ وله مقصد من وراء صُنعه هذا الشيء. ولنضرب على ذلك مثلاً صناعة السيارات والطائرات. فلا تقوم الشركات الكبرى بصناعتها إلاّ لتحقيق استخدامها لمقصدٍ معلوم. فهذه إحدى بديهيّات مجتمعاتنا البشرية.

ومادام قد ثبت لعلماء أوربة، من خلال ماأتت به نظرية الانفجار العظيم، هو أنّ عالمنا الدنيوي مخلوق، وضمن قوانين طبيعيّة مُحدّدة. أي أنّ كلّ شيء فيه مخلوق حتى الإنسان، هذا على اعتبار أنّ عمليّة الخَلْق هذه لاتتجزّأ، حتى ولو سلّمنا بوجود الإنسان بطريق قانون النشوء والارتقاء.

فانطلاقاً من هذا المثال الذي قدّمناه، فلابُدّ أن يكون خالق الإنسان قد جعل لحياته مقصداً، ومن واجب هذا الإنسان أن يسعى لتحقيقه، ولاسيّما إذا عرفنا أنّ الإنسان لم يأت إلى هذا العالم بإرادته، ولاهو تاركه بمرضاته. ويزيد على ذلك أنّ خالقه خصّه بأفضل المَلكات مقارنةً مع بقيّة المخلوقات، كالحيوان والنّبات.

من هنا ماكان لهذا الإنسان المخلوق أيّ حقّ في تعيين المقصد من حياته، لأنّه لم يكن مُوجد نفسه. هذا وإنّ نعمة الإدراك التي منحه الله إيّاها، تُلزمه بصورةٍ أكيدة بالبحث عن خالقه وسؤاله عن الغاية التي خلقه من أجل تحقيقها ليلتزم بقول خالقه. وهذا فإنّ الله تعالى نلاحظه وقد أنزل وحيه القرآني وقال فيه: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ماأريد منهم من رزق ولا أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القُوّة المتين.**﴾ الذاريات ٥٦ ـ. إذن للخالق حقّ إنزال عقابه بالذي يحيد عن تحقيق هذا المقصد من حياته أيضاً. فهذا أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً. على شاكلة أصحاب مصانع السّيارات والطّائرات الذين هم إن لاحظوا واحدة منها لم تعد صالحة، يُدخلونها في مكابس ليعيدوها كوماً من الألمنيوم والحديد.

وعليه أقول: ماالدّاعي ليختلف الناس فيما بينهم حول تعيين المقصد من حياتهم؟ فلايُعدّ هذا الاختلاف إلاّ خروجاً عن هذه القاعدة التي بيّناها حول

موضوع تعيين المقصد من وجود أيّ شيء من الأشياء المخلوقة المصنوعة. وإنّ من واجب النّاس الرّجوع إلى الذي خلقهم يسألونه الهداية. خاصّة وأنّ خالقهم متّعهم وميّزهم بمَلكات العقل والفكر والإرادة والإدراك. هذه المَلكات التي حَرَمَ الخالق الكائنات الغريزيّة من التمتّع بها. هذه التي تؤدّي الغاية من خلقها دون أيّ تململ أو أيّ اعتراض.

هذا وإنّ الله تعالى قال في القرآن الكريم صراحةً، في وحيه هذا الذي أثبتنا مصداقيّة مرجعيته: ﴿**إنّ الدّين عند الله الإسلام.**﴾ آل عمران (١٩) وقال أيضاً : ﴿**فأقم وجهك للدّين حنيفاً، فطرة الله التي فطر النّاس عليها، لاتبديل لخَلق الله، ذلك الدّين القيّم، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون.**﴾ روم (٣٠) وهذه الأقوال من آي الذّكر الحكيم تعني صراحةً أنّ تعاليم الإسلام هي التي تكفل المعرفة الرّبانية على الوجه الأكمل والأتمّ. وقد أنزل الله تعالى تعليمه هذا وفقاً لمُقتضيات فطرتنا التي فطرنا عليها. وقد جاء هذا التّعليم يحثّ المؤمنين على طاعة الله ومحبّته والتفاني في سبيله ظاهراً وباطناً. ومحور ذلك عبادة الله ومعرفته والتّفاني في سبيل مرضاته، ولذلك قال: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون.**﴾. والله تعالى من خلال قوله هذا قد وفّر علينا أمر سؤاله عن المقصد من وجودنا. فهذا هو دليلُنا المُجمل الثاني، الذي استقيناه من ضمن القوانين الطبيعية المعروفة بين النّاس.

٣ ـ الدّليل الثالث

والدليل الثالث الذي يثبت صحة الطّرح القرآني المتعلّق بالمقصد من حياة الإنسان، يتحدّد في أن يعمد كل مفكّر إلى تعيين المقصد من حياته، وذلك من خلال قاعدة منطقيّة معقولة وهي تقدير أعظم مايستطيع تأديته الإنسان من عملٍ والقيام به. وقياساً على هذه القاعدة بالإمكان تعيين المقصد من حياة أيّ مخلوق آخر غير الإنسان كالحيوان والنبات والجماد.

إن هذا الأسلوب في تقدير الغاية من خلق أيّ شيء هو أسلوب اقتضاه المنطق العلمي. فالذي صنع سيّارة أو طائرة ليختصر بها المسافات، لايُعقل أن يستعملها كمستودع أحطاب وأعشاب.

دونكم الثّور، فهل يُطالبونه بالتراءة والكتابة ونظم الأشعار؟ أم يستخدمونه للسّقي والحراثة وحمل الأثقال؟ وهذا النّحل على صغر حجمه، فهو

يصنع لنا من صبيب الزّهر عسلاً نفيساً فيه شفاءٌ للناس. وهل يستخدم عاقل النّحل للحراثة والسّقي وحمل الأثقال؟ فمن هذين المثالين نستنتج أنّ الثّور قد خلقه خالقه أصلاً ليُستخدم في مجال السّقي والحراثة وحمل الأثقال. على حين أن الله تعالى قد خلق النّحل ليصنع لنا من صبيب الزهر عسلاً لذيذاً، وقد جعل في هذا العسل شفاءً للناس أيضاً.

وبدافع من هذا الأسلوب وهذا المعيار في تقدير الغاية من خَلْق كلّ شيءٍ من الأشياء، نعود إلى أمر تقدير الغاية من خَلْق الإنسان. الذي يشترك مع جميع الأحياء في أمر الطّعام والشّراب والملبس والمسكن والحاجة إلى النّوم وإلى النور والهواء. لكنّه يختلف عنها بما حباه الله تعالى به من ملكات العقل والفكر والإدراك ويسأل: هل يستسيغ عقل المرء ومَنْطقه أن يمتاز الإنسان بهذه المَلَكات السّامية، دون أن يمتاز معها عن باقي الكائنات الغريزية بشيء؟ فلو صحّ ذلك لأصبحت هذه الملكات السّامية دون طائل.

ثم تعالوا إلى عصرنا هذا بالذات. أفلم نُلاحظ كيف استعمل الإنسان ملكاته هذه استعمالاً علميّاً، فتحقّق على يديه من جرّاء ذلك اختراق أجواز الفضاء، والنّزول على سطح القمر، واكتشاف كثير من مجاهل الأرض والسّماء؟ بل وحتى تمكّن هذا الإنسان من قياس عمر الكون، ومعرفة الأدوار التي مرّ بها، بل وإدراك أنّه مخلوق.

ومادام الإنسان بانتهاجه الأسلوب العلمي. قد مكّنته ملكاته العقلية السّامية من اكتشاف مجاهل هذا الكون، والسّيطرة على ماحوله من أشياء. فهذه حقيقة إن كانت تعني للمفكّر الباحث شيئاً، فسوف تعني له بصورة أكيدة أنّ أقصى مايستطيع الإنسان تقديمه والقيام به هو أن يستعمل عقله وفكره وإدراكه وبأسلوب علمّي لتقصّي حقائق الكون والبحث عن المجهول، ليمتاز بذلك عن بقيّة مخلوقات الله تعالى.

والآن لنتساءل معاً: وهل هُناك من حقيقةٍ كونيّة أعظم من حقيقة معرفة الله خالق هذا الكون، والتّعرف عليه ومكالمته والتقرّب منه والوصول إليه؟

على هذه الصّورة الواضحة قدّمنا الدليل العلمي وأثبتنا بالتالي صحّة الطّرح القرآني الوارد في الآيات : ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون. ماأريد منهم من رزقٍ وماأريد أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القوة المتين.**

فإنّ للذّين ظلموا ذنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويلٌ للّذين كفروا من يومهم الذين يوعدون.﴾ الذاريات ٥٦ـ٦٠ـ. هذه الآيات الكريمة التي نصّت على أنّ المقصد من خلق الإنسان هو أن يسعى جاهداً للتعرّف على خالقه وليتقرّب إليه وليستفيض من عطائه. وقد لاحظنا كيف أنّ الله عزوجلّ نبّه إلى أن طلب الرّزق لاينبغي أن يُصبح جُلّ همّ الإنسان، فمن يتجاهل هذا التحذير ولايسعى لتحصيل هذا المقصد الذي ذكرناه لابُدّ له أن يتحمّل عاقبة أمره من ويلٍ وثبور. وهذه إشارةٌ منه تعالى إلى المعنى الهامّ من وجودنا، وكذلك إشارةً إلى مُسلمي هذا العصر، الذين أُشيرَ إليهم من خلال (إذا) في قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي، فإنّي قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون.**﴾. وبهذا قد فتح لنا الله عزوجلّ طريق معرفته والتقرّب منه والوصول إليه، وليبلغ علمنا على هذا الطريق حدّ علم حقّ اليقين.

وقد علِمنا أن صاحب معجم محيط المحيط أورد أن لفظ عَبَدَ بمعنى طاع وخضع وذلّ وخدم والتزم بالشرائع ووحّد. أي كان موحِداً غير مُشرك. فإن هذا المعنى الأخير، وهو موضوع التوحيد والشرك يقتضي منّا أن نفرد له باباً خاصاً لبحثه. خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ أكّد في كتابه الكريم على أهميّة توحيد الله تعالى وبالتالي ضرورة البُعد عن الشّرك به. وضرورة الاحتياط لذلك، بسبب مايحمله توحيد الله تعالى من بركاتٍ، ومايُسفر الشّرك عنه من ويلاتٍ ومساوىء وأخطار. ألم نلاحظ ماقاله الله تعالى في حقّ ابراهيم عليه السّلام، وهو أبو الأنبياء، ﴿**قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين.**﴾ البقرة ١٣٥ ؟

الباب الرابع
الشّرك والتّوحيد

الفصل الأول
حدود دلالة لفظي شرك وتوحيد

لابدّ أنّنا لاحظنا أنّ من جُملة معاني العبودية لله تعالى ضرورة توحيد الباريء عزوجلّ. فلايكون المؤمن عبداً لله تعالى، إلا إذا استوفى جميع دلالات كلمة عبد. وهذا الأمر يجرُّنا بصورةٍ آليةٍ لبحث موضوع الشرك والتوحيد. وينحصر المدخل إلى ذلك في ضرورة الإلمام بدلالات هذين اللّفظين الشرك والتوحيد لغويّاً. وهذا الأمر يدفعنا إلى العودة إلى معاجم اللّغويين، مبتدئين ممّا جاء به (محيط المحيط). فما هي دلالة لفظ (توحيد)؟

تقول: (وَحُدَ يحِدُ فهو وحيد منفردٌ بنفسه). فإذا شدّدت الحاء في وحّده، فالمعنى جعله واحداً، أو أنت قلت: وحّد الله فالمعنى آمن بالله ووحّده أي اعتقد أنّه واحد دون سواه، وقُلْ إنّ الله واحدٌ أحد. ولفظ (واحد) هو المبدأ لأعداد الحساب. أمّا لفظ (أَحَد) فيعني الذي لانظير ولاسَميٌّ له، ولايشاركه شيء في ذاته، على حين أنّ (واحد) يستعمل للذّي لايُشاركه شيء في صفاته.

وإن نحن أجملنا هذه المعاني الدّالة على التّوحيد، نقول : إنّ التّوحيد هو عمليّة رجوعٍ من العددّية إلى الفردّية، أو إرجاع الفروع إلى أصلها، وجمعٌ بعد تشتّت. وبألفاظٍ أخرى انتقال ذهننا إلى أصل الأشياء ومنبعها الحقيقي.

أمّا كلمة (شرك)، تقول شرَكَ ماله أي شتّته بين النّاس فضاع عليه. ومعنى أشرك بالله: جعل له شريكاً. ويكون الشّرك في المُلك، كما يكون في الذّات وفي الصّفات.

وإن نحن أجملنا هذه المعاني الدّالة على الشّرك، نقول : إنّ الشّرك هو عكس التوحيد من حيث حقيقته، فهو عملية انتقال من الفردية إلى التعدّدية، كما أنه ترك للأصل وانتقال إلى الفروع، وتشتيتٌ بعد جمع. وبألفاظٍ أخرى ابتعاد بالذهن عن أصل الأشياء، وضياع بين ظواهر الفروع، ونسب الحقّ لغير أهله.

فمن عاود تلاوة سورة الإخلاص، وماستقيناه من آياتها من دلائل ومعلومات سابقاً، تجلّت لعينه حقيقة رائعة لالُبس فيها، وهي أنّ سورة الإخلاص اعتمدت جميع هذه المعاني التي اقتبسناها من معجم محيط المحيط. فقد بحثت السّورة المذكورة وحدانيّة الله تعالى في ذاته وفي صفاته، والتي بلغت مائةً وخمس صفات، على حسب ماأفادنا بذلك القرآن الكريم الذي أثبتنا مصداقيّة مرجعيّته.

هذه الصّفات التي بثّها ربُّنا في ثنايا آيات كتابه العزيز، وفق الضرورات الموضوعية وبأسلوب فريدٍ في نوعه وإعجازه. وسيجد قارئنا العزيز قائمة بأسماء الله الحسنى آخر هذا الكتاب.

ولم يقتصر القرآن الكريم على إطْلاعِنا على أسماء الله الحسنى التنزيهيّة والتشبيهيّة. بل أعلمنا أيضاً أنّ الله عزوجلّ (ليس كمثله شيء) الشورى ١١ -

لافي ذاته ولافي صفاته، أي أنّها وإن تتشابه صفات الله وصفات مخلوقه، فالفارق كبير جدّاً بينها بما لايُقاس بمعاييرنا الماديّة.

والقرآن الكريم نبّهَنا أيضاً إلى أنّ ذات الله تعالى موجودة خارج هذا الكون المادي، وليس ضمنه، على حسب مايعتقد أصحاب عقيدة وحدة الوجود. فهذا ماأشارت إليه الآية الرّابعة من سورة المعارج قوله تعالى: ﴿**تعرج الملائكة والرّوح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة.**﴾. ومعلوم أنّ العروج يعني التّصعد والارتقاء، ثم إنّ صيغة الجار والمجرور في (إليه) يشير صراحةً أنّ ذات الله كائنة خارج عالمنا. فالرّوح والملائكة تصعد بغرض الوصول إليه عزوجلّ. هذا وإن كان القرآن الكريم قد وضّح لنا أنّ الله تعالى على بُعده، فهو منّا جدّ قريب، لعظمة وسائل علمه التي تساعده أن يعلم سرّنا وجهرنا، ويعلم السرّ وأخفى، وقد سبق أن قدّمت لقارئي العزيز مثال المركبات الفضائية وهيمنة قيادتها عليها من بعيد، مع وجود الفارق بين هذا وذاك بما لايُقاس بمعاييرنا ووسائلنا الماديّة المتوفّرة.

مع الإشارة إلى أنّ الله تعالى قد تعمّد ألاّ يتكلّم شيئاً عن ذاته في كتابه القرآن الكريم، ولسببٍ وجيهٍ جدّاً، وهو أنّ عقل الإنسان يعجز عن إدراك عظمة الذّات الإلهية بوسائله ومفاهيمه الماديّة المعروفة. لذلك نُلاحظ أنّه تعالى لم يُخبرنا في كتابه العزيز إلاّ عن صفاته تعالى المتعلّقة بعالمنا المادي فقط. وإلاّ فإنّ لله عزوجل صفاتٍ غيرها ستتجلّى يوم الدّين أيضاً.

وقد رأينا أنّ كلمة (شرك) تعني عمليّة انتقال من الفردية إلى التّعددية، والابتعاد عن الأصل نحو الفروع، وتشتّت بعد جمع، وإعطاء الحق لغير أهله، وإشراك غير الله في صفات الله. وأنّ الشرك هو عكس التوحيد.

والذي نضيفه هنا هو قولنا إنّ البشر قد وقعوا في وهدة الشرك وأحابيله منذ بدء الخليقة. وابتُلي الناس مؤمناً كان أم كافراً بمرض الشرك لأسباب عديدة أهمّها ضحالة علم الإنسان القديم فيما يتعلّق بهذا الكون من حوله. فقد كان عسيراً على الإنسان أن ينسب الحمد كلّه لله ربّ العالمين. أما وقد أشرف علم الإنسان على التطّور من وسائله البدائية إلى وسائله التقنيّة المتقدّمة في عصرنا. فقد نزل القرآن الكريم يُعلّمنا أن يدعو في كل ركعة من صلواتنا بدُعاء الفاتحة وهو ﴿**الحمد لله ربّ العالمين**﴾ بمعنى أنّ جميع أنواع الحمد لايستحقّها بالأصاله إلاّ خالقنا، وهو رب العالمين الذي يُطورّنا مرحلة بعد مرحلة، لنزداد علماً بوجوده وسعياً للتقرّب منه، ولنصبح أخيراً من العارفين به عزوجلّ.

فلقد كان من العسير على الإنسان القديم الذي عاش في أحد المجتمعات البشرية القديمة أن يتلقّى من أحد ملوك الأرض إنعاماً وتكريماً، ويعتقد بالتّالي أن لله خالقه يداً ودخلاً فيما أُهدي إليه. بمعنى أنّ عقل الإنسان القديم وعلمه لم يكونا ليساعداه على ربط الأسباب بمسبّب الأسباب الذي هو الله تعالى الذي لايقع تحت حواسه الخمس المعروفة.

أمّا في زماننا هذا فقد أفاد التطّور العلمي البشر على إدراك وحدة الكون مادّةً وقوانينَ، كما ساعد ذلك على إدراك أنّ هذا الكون على عظمته مخلوقٌ من جانب خالق واحد أيضاً. فالوحدة في المادة ووحدة القوانين، تدلاّن على وحدة الخالق وتفرّده. كما حُلّت بذلك مُعضِلة الشّرك من الوجهة العقلية، إذ لم يعد بإمكان العالم الطبيعي والفيزيائي أن يفترض وجود إلهين، إذن لتعدّدت القوانين الكونية، ولذَهب كلّ إله بما خلق.

وأمّا الأمر الهام في موضوع الشرك وخاصة منه الشّرك الخفّي، فلم يساعد التّطوّر العِلميّ على حلّه حتى الآن، بسبب أنّ التطور العلميّ لم يتجاوز الوسائل المادية، ولم يُحط علماً بقيمة الوسائل الروحية على هذا الصّعيد.

فإن أنت قُلت لعالم فيزيائي : إنّ خواص الماء المعروفة، ماهي بخواص ذاتيّة، بل هي خواصٌ مُفوّضةٌ إلى الماء تفويضاً من خالق المادة. وأنّ الله قادر على أن يسلب الماء خواصّه، إن نحن قلنا ذلك. تعلو الابتسامة شفاه هذا العالم الفيزيائي وبصمت، مُعتبراً قولنا هذا مجرّد ادّعاء، وأننا مطالبون على إثباته بحجّة وبرهان. ذلك أن حواس الإنسان أثبتت للبشر على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، أصالة خواص الماء واستقلاليّتها، لذا فلايزال البشر يتخبطّون في مستنقع الشرك الخفّي من زاوية الناحية المادية المذكورة حتى الآن.

وهكذا، فبالنظّر إلى مفهوم الشّرك الذي علمناه، فليس بإمكاننا وضع تعريفٍ مُحدّدٍ لموضوع الشرك. ذلك أنّ السّجود لغير الله تعالى هو من قبيل الشرك. وإنّ الأخذ بالأسباب المادية، دون الاعتقاد بأنّ خواص الأسباب مُفوضةٌ إلى المواد تفويضاً، وأنّ خالقها قادر على سلبها هذه الخواص في أيّ وقت يشاء، هو من قبيل الشرك الخفّي. ثم إنّ ترك الأخذ بالأسباب هو من قبيل الشرك وعدم التأدّب مع خالق الأسباب. كذلك فإنّ إلصاق صفاتٍ تنزيهيّة بمخلوق، وهي أصلاً لله عزوجلّ كصفة الإحياء والإماتة فهي من قبيل الشرك أيضاً وعلى الأقل في نظرنا نحن.

هذا وإنّ المحبّة المُطلقة لكائن غير الله هي من قبيل الشرك أيضاً. كذلك فإنّ استجداء الأموات رجاء النفّع أو المغفرة هو من قبيل الشرك. وإنّ تقليد المؤمن لعادات المشركين والعمل على تقاليدهم هو من قبيل الشرك. كذلك فإنّ تأدّب الإنسان تجاه أخيه الإنسان، بمستوى تأدّبه مع الله في صلاته هو من قبيل الشرك. وكيف بالإمكان الجمع بين هذه الأمور كلّها في تعريفٍ واحد، إلاّ أن نعمد إلى تعريف كلّ نوع من أنواع الشرك على حِدة؟

وأنا إذ عدّدت هذه الأنواع العديدة للشرك، قد أُعَدُّ مُغالياً في نظر بعض المفكرين. على حين أنّي لم أتعسّف في ذلك، بل استقيت أنواعاً من الشرك من القرآن الكريم الذي سبق أن أثبت مصداقية مرجعيّته، وصدوره عن خالقنا ربّ العالمين، ثم أولم نقرأ مارُوي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (الشرك فيكم أخفى من دبيب النّمل) ابن كثير؟



الفصل الثاني
١ً ـ الشّرك الخفي

والذي توصّلت إليه، هو أنّ من أهم مقاصد قصّة يوسف عليه السّلام، هو لفت نظر المؤمن إلى موضوع (الشّرك الخفي).

فهو تعالى قال بعد أن انتهى من سرد قصّة يوسف: ﴿**وكأيّن من آيةٍ في السماوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها مُعرضون. ومايؤمن أكثرهم بـا لله إلاّ وهم مُشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب ا لله أو تـأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون. قـل هـذه سـبيلي أدعـو إلى ا لله، علـى بصـيرةٍ أنـا ومـن اتّبعني، وسبحان ا لله ومأنا من المشركين.**﴾.

إنّ قصّة يوسف عليه السلام لم يُخصّص الله تعالى لسردها سورة بكاملها عبثاً، بل أتى بها مُفعمة بالعبر والعظات الإيجابية الدّالة على وجود الله عزوجلّ. وعلى تدخل ا لله في كل صغيرة وكبيرة من حياة الإنسان. وللدلالة على واسع علم ا لله وعظيم قُدُراته. وهذه الأمور جميعها تدخل ضمن موضوع التوحيد الخالص من شوائب الشّرك الخفي. لذلك ينبغي للمؤمن ألاّ يَمُرَّ على قصّة يوسف مرور الكرام. ولاينبغي أن يعتبرها مجرّد قصّة تاريخية مسليّةٍ ودراميّة. بل إنّ عليه أن يستقي منها مفهوم التوحيد الخالص، وأن يحذر من الشرك الخفّي، الذي هو أخفى من دبيب النّمل. خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ أتى بعد هذه القصّة بهذه الآيات الكريمة التي قال فيها: ﴿**ومـايؤمن أكـثرهم بـا لله إلاّ وهـم مشركون.**﴾.

فا لله تعالى عندما قال: ﴿**وكأيّن من آيةٍ** ـ أي من دليلٍ ـ **في السّـموات والأرض يمرّون عليهـا** ـ أي يتجاوزونها فلا يستدلون منها على وجود ا لله مسبّب الأسباب، ولايتّعظون بها ـ **وهـم عنهـا معرضـون** ـ أي صادّون عنها لايتخذون منها الدّروس والعظات ـ﴾. أقول إنّ ا لله تعالى عندما قال هذا، أتى بعده بواو التّعليل مُلحقاً بها (ما) الحرفيّة التي لاعمل لها، وخلُصَ بذلك بكلامه إلى الزمن الحاضر مع انتفاء القرينة على حسب رأي الجمهور. فقال وعزّ من

قائل: ﴿**ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.**﴾ فعلّل مرور المشركين شركاً خفيّاً على الأمور الدالّة على وجود جل شأنه وكونه مسبب الأسباب. علّل حالهم هذا من أنّهم يفكّرون في كل شيء تفكيراً ماديّاً محضاً لايخالطه عنصر روحي، على حين ينهج المؤمنون المُوحدّون نهجاً حياتياً روحياً مختلفاً عنهم. فالمؤمنون المُوّحدون ينسبون كلّ حركة وسكنة في هذا الوجود إلى الخالق مسبّب الأسباب، الأول والآخر والظاهر والباطن والقادر على كلّ شيء. وكأنه تعالى يقول هنا بألفاظ أخرى مالهؤلاء المشركين لايفهمون من كلّ صغيرة وكبيرة الإشارة والدّليل على وجود من بيده مقاليد السّموات والأرض، فهل عميت بصائرهم عن هذه الحقيقة الواضحة للعيان؟ ولذلك قال: ﴿**ومايؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون.**﴾ أي أن جميع تصرفاتهم، وأسلوب تفكيرهم يغلب عليها الشرك الخفّي بالله ربّ العالمين.

والله تعالى هنا قد نبّه أذهاننا من طرف آخر إلى أنّ توحيد الله توحيداً خالصاً من شوائب الشرك، يساعد على صقل حواسنا، ويكسبُها نظرة وفراسة روحيّة، لاتتأتى للمشرك الذي يُصاب في مقابل ذلك بعمى البصيرة. فإن مات على حاله هذا، يحشره ربّه أعمى يوم القيامة كما في طه ١٢٤: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه، ولَعذابُ الآخرة أشدّ وأبقى.**﴾ فهذا هو مآل ومصير المشرك البعيد عن توحيد الله الخالص من شوائب الشرك. أو لنقل إنّ هذه الآيات من سورة (طه) قد صوّرت لنا عاقبة المشرك الذي انتهج في حياته نهج التفكير المادّي المحض. والذي لايعيد الأسباب إلى مُسببها الحقيقي الذي هو الله عزوجلّ.

وأعود إلى الآي من سورة يوسف عليه السّلام. فقد انتقل جلّ شأنه بعد الآيات التي ذكرناها، انتقل من المقدمات التي لاحظناها، إلى النتائج المترتّبة على غفلة هؤلاء المشركين، وقال: ﴿**أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله، أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون.**﴾ بمعنى أنّ للمقدّمات نتائجها. والنتيجة المترتبة عن غفلة المرء وابتعاده عن التوحيد الخالص، هي أن ينزل به عذاب

وعقاب من بارئه، أو أن تأتي نهايته، وهو لايحسّ بُدنُوها لاستغراقه في شركة وغفلته.

على هذه الصورة قد كشف ربّنا جلّ شأنه عن أعيننا الغطاء منبّهاً ومُحذّراً إيّانا من الوقوع في شباك الشرك الخفي كيلا نتحمل نتائجه المترتّبه عليه.

فلّما انتهى جل شأنه من بيانه الذي ذكرناه. راح يتكلّم عن سبيل المؤمنين المّوحدين، وقال: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتّبعني، وسبحان الله، وماأنا من المشركين.**﴾. والمعنى أنّني كمسلم مُوحّدٍ لاأنتهج نهج التفكير المادي الذي ينتهجه هؤلاء المشركون شركاً خفيّاً، بل أحلّل وأبحث في كل مايعرض لناظري بمنطق إعادة هذا السّبب إلى المُسبّب الحقيقي فأدعو بذلك إلى الله مسبّب الأسباب. ولذلك فسبيلي ألاّ أمرّ على الآيات من حولي مرور الكرام.

وأضاف تعالى قوله: ﴿**على بصيرة أنا ومن اتّبعني..**﴾ وبهذه الألفاظ وضّح لنا تعالى وسيلة المسلم في دعوته، وهي الأسلوب السلّمي، والحوار على أساس الحُجّة والبرهان. فالمعلوم أن هنالك وسيلتين لنشر الدعوات على اختلافها، ولاثالث لهما. الوسيلة الأولى انتهاج سبيل العنف والقوة، والوسيلة الثانية انتهاج السّبيل السّلمي واللّجوء إلى الحوار والإقناع، والله عزوجل عندما قال هنا ﴿**على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ نبّه إلى أن سبيل المسلم لنشر دعوته، هو السبيل السلميّ القائم على الحوار والإقناع بالحُجّة والبرهان، ذلك أنّ كلمة (بصيرة) تعني الحجّة والعقل والفطنة.وقوله تعالى (على بصيرة) أي على أساس الحجة والعقل والفطنة وتقديم الشواهد والأمثلة. فهذا ماوضّحه لنا صاحب معجم (أقرب الموارد) لكلمة بصيرة.

فلّما انتهى جلّ شأنه من بيان وسيلة نشر دعوة المسلم الموحّد، أضاف قائلاً: ﴿**وسبحان الله**﴾ أي أُنزّه الله الذي أعطى الإنسان حرية الاختيار، أن يأمره باتخاذ وسيلة القوة والعُنف سبيلاً لنشر دعوة الإسلام. فهذا هو المعنى المقصود من (وسبحان الله) هنا وهذا هو المعنى الذي يقتضيه التّسلسل الموضوعي. وليس المقصود من (وسبحان الله) هنا، أنني أنزّهه عن أن يكون له شريك أو ولد.

ثم أضاف تعالى قوله ﴿**وماأنا في المشركين.**﴾ وليس معنى قوله هذا هنا "لست مشركاً"، فليس لهذا المعنى صلة بالتسلسل الموضوعي. بل المعنى هو أني أدعو إلى الله بالوسيلة السلمية وطريق الحوار بالحجّة والبرهان على اعتبار شعوري وإيماني بمسؤولية هذه الدعوة إلى الله والتي تتطلّب مني تحمل المشاق في سبيل دعوة الناس إلى معرفة خالقهم وربّهم، وماأنا من المشركين الذين لايعرفون ربّهم ولايشعرون بمسؤولية الدعوة إليه.

وبهذه الألفاظ يكون ربّنا جلّ شأنه قد نبّهنا إلى عظيم مسؤوليتنا في حياتنا الدنيا، وأهمية إدراكنا الدقيق لمسألة الشرك والتوحيد، وبالتالي إدراك أنّ الله تعالى بيده مقاليد السماوات والأرض وهو مسبّب الأسباب وعلاّم الغيوب.

وإن ألفاظ ﴿**وماأنا من المشركين**﴾ تسلّح المؤمنين بنظرةٍ مستقلّة إلى الكون من حولهم، وتدفعهم لينتهجوا نهج التفكير الرّوحاني، والاطمئنان إلى عواقب الأمور ونهاياتها ونتائجها التي ستكون في صالحهم، فلاينطبق عليهم الإنذار الذي حمله قوله تعالى: ﴿**أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لايشعرون.**﴾. بل ويطمئنون إلى عاقبتهم الحسنة وهي الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون. ونعم سبيل المؤمنين الموحدين الحذرين من جميع أنواع الشرك الخفي خاصة.

ونخلص من جميع ماشرحناه، إلى أن الآيات التي ذكرناها والتي أتى بها جل شأنه بعد سرده لقصّة يوسف عليه السلام: قد احتوت الأمور التالية :

أولاً ـ نبه تعالى أذهاننا إلى انقسام البشر إلى فئتين من المؤمنين به عزوجلّ. فئة مؤمنةٌ موحّدةٌ، لايشوب إيمانها شركٌ خفيٌّ، وينهج هؤلاء نهج التفكير الروحاني يتدبرون كلّ شيء من أشياء هذا العالم من زاوية نظر أن الله خالقهم هو مسبّب الأسباب. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. وفئة مؤمنة إيماناً سطحيّاً يشوبه الشرك الخفي. فلا يتدبرون ماحولهم من أشياء من نفس زاوية نظر المؤمنين الموّحدين، ولاينتهجون نهج التفكير الروحاني بل المادّي، وهؤلاء يحكمون على الأشياء حُكماً ظاهريّاً، فلا يتعمّقون فيها ولايتقصّون من خلالها وجود مسبّب الأسباب.

ثانياً ـ وأنّ الفئة المشركة شركاً خفيّاً، لابدّ أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله وقصاصه، فلاتكون عاقبتهم خيراً، على حين أن الفئة الموّحدة توحيداً خالصاً

من شوائب الشرك الخفي، والذي ورد بحقّه قول رسول الله (ﷺ): (إنّ الشّرك يدبّ فيكم دبيب النّمل). إنّ أفراد هذه الفئة من المؤمنين يكونون دوماً بمنجاةٍ من غواشي عذاب الله تعالى، وتكتب لهم الغلبة دوماً على مخالفيهم، وتكون لهم عاقبة الدار.

ثالثاً ـ وأنّ فئة الموحّدين تقع على عاتقهم مسؤوليّتان : الأولى مسؤولية شكر ربّهم على الدّوام على ماهداهم إلى معرفته. والثّانية مسؤوليّةٌ إنسانيّة تجاه غيرهم من النّاس، وهي واجب دعوتهم إلى الله خالقهم وربّهم على نفس الأساس الذي ينتهجونه وبالأسلوب السّلمي، وهو أسلوب الحوار (على بصيرة) أي على أساس من الحُجج والبراهين. وبهذه الخصائص تتميّز جماعة المؤمنين الموحدين عن فئة المشركين شركاً خفيّاً. ويكونون مصداق قوله تعالى ﴿**وماأنا من المشركين**﴾.

ونحن إذ استخلصنا هذه الأمور من تلك الآيات الكريمة. نعود إلى ألفاظ ﴿**وكأيّن من آية..**﴾ لنتوسّع في فهم دلالاتها.

فما معنى (وكأيّن)؟ قال صاحب معجم محيط المحيط : إنّها اسمٌ مُركّبٌ من كاف التشبيه، ومن (وأي) المُنونة. فكلمة (وكأيّن) تستعمل للإيحاء بغلبة أمرٍ من الأمور. وبالتالي فإنّ معنى ﴿**وكأيّن من آية**﴾ أي كم وكم من آية أي من دليلٍ يتراءى، ويمرّ المشركون شركاً خفيّاً عليها جميعها وهم مُعرضون لذلك يصحّ القول بحقّهم : ﴿**ومايؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون.**﴾.

والسؤال الذي ينبغي علينا الإجابة عليه بعد وصولنا إلى هذا الحد من المعرفة، هو أن نضرب مثالاً يوضّح نهج الموحّدين، فكيف يتميّز الموحّدون عمّن سواهم من النّاس؟

و أعود بالقارىء العزيز إلى مثال المركبة الفضائية الذي قدّمته له من قبل. ليُساعدنا ذلك على هذا الطّريق.

فلاشك أنّ الذين صمموا المركبة الفضائية، قد وضعوا عند تصميمها عدة اعتبارات في حُسبانهم: اعتبار الحجم لتتّسع المركبة لعددٍ مُحدّدٍ من الرّواد، إضافة إلى مايحتاجونه من طعام وشراب ووسائل ترفيه وهذا بالإضافة إلى التجهيزات والأدوات التي سيجهزون بها المركبة ومايلي ذلك من أشياء. ونوعيّة المعدن الذي يصنعون منه المركبة، والذي يساعدها على تحقيق رحلتها بسلام.

وأهم اعتبار هو كيف سيهيمنون على رحلة هذه المركبة الفضائية ويُسيطرون عليها في جميع مراحل رحلتها. كيلا تضلّ طريقها وتذهب ريحها، فلا تؤدّي الغرض من تصميمها وصُنعها.

والذي يتدبّر القرآن الكريم يُلاحظ أنّ خالق هذا الكون في مقابل صانع هذه المركبة الكونية والمؤلف من شموس وكواكب وسيارات لاتحصى والتي تشكّل بمجموعها مايتشابه مع مثال هذه المركبة الفضائية مع الفارق بينهما بما لايُقاس بمقاييسنا المعروفة.

أقول إن خالق هذا الكون قد أخذ بحسبانه نفس الاعتبارات الثلاثة التي راعاها مُصمّمو هذه المركبة الفضائية بما يتعلّق بالحجم والمعدن والمقصد من الخلق والإبداع. وكما أنّ قيادة المركبة الفضائية الأرضية تظلّ هي مهيمنة ومحركة للمركبة من بعيد، ومن وراء ستار، وبتقنيّةٍ تذهل الأبصار. فإنّ خالق هذا الكون قد ترك مقاليد السماوات والأرض بيده، وبتقنيّةٍ لاندرك ماهيّتها. وهو بذلك مُسبّب الأسباب.

أفلم نقرأ قوله تعالى من سورة يونس: ﴿**إنّ ربّكم الله الذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام ثم استوى على العرش، يدبّر الأمر، مامن شفيع إلاّ من بعد إذنه، ذلكم الله ربكّم، فاعبدوه، أفلا تذكّرون؟**﴾. فهاهو الله جلّ شأنه يصرّح هنا أنّ خلق هذا الكون مرّ بستّة أدوار، وأنّه هو تعالى (يدبّر الأمر) بعد أن استوى على العرش، عرش تسيير هذا الكون، فالتّدبير في اللّغة هو عملية إجراء التّغيير في الأسباب، فأنت تقول دبّر الأمر أي نظر في عاقبته وتفكّر واعتنى بالأمر ورتّبه ونظّمَهُ. وتقول دبّر الوالي إقطاعه : أي أحسن سياسته.

كما نبّه تعالى من خلاله قوله هنا: ﴿**مامن شفيعٍ إلاّ من بعد إذنه**﴾ إلى إمكانية الاتصال به عزوجلّ. فالشفيع من شَفَع أي جمع مابين طرفين مُتجانسين. تقول شفعت الجمل بقافلته أي جمعته بأمثاله من الجمال. والحقّ يُقال إنّ الله تعالى جعل سلسلة الأنبياء والصالحين وسيلة هذا الاتصال فيما بينه وبين عباده ليربطهم به برابطة المحبّة والعِرْفان. ولهذا السّبب أنهى الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿**ذلكم الله ربكّم فاعبدوه، أفلا تذكّرون؟**﴾ فهو استبدل بـ (هو) اسم الإشارة للبعيد (ذلك) تعظيماً لشأن عملية الخلق هذه والتي أنجزها (ربكّم) أي الإله الذي

يشرف على تطويركم نحو التمام والكمال. ﴿**فاعبدوه أفلا تذكّرون**﴾ أي أفلا تقبلون هذه النصيحة وهذا الإفصاح عن هذه الحقيقة وتكونون ممّن يحقّق المقصد من خلقه ووجوده؟

فهذا الكون مخلوقٌ إذن بنصّ القرآن الكريم الذي سبق أن أثبتنا مصداقيّته. وهاأن نظرية الانفجار العظيم التي طلع بها علينا العالم الفيزيائي غاموف أيّدت ذلك، وقدّرت بالحساب التقريبيّ أن عملية خلق هذه المركبة الكونية قد تحقّقت قبل (١٢ـ٢٠) مليار عام. وهاأنّ الفيزيائي الشهير (جون ويلر) قال: (إننا ننظر إلى الكون على أنّه يستهدف الحياة والإنسان. فلماذا يكون العالَمُ بهذا الاتّساع؟ لأننا موجودون فيه. فرحابة الكون تُعتبر سبباً في جعل الحياة مُمكنة.) وأضاف يقول: (وبالرّغم من أنّ الإنسان لايشكّل مادّة مركز الكون، فهو على مايظهر في مركز الغاية من خلق هذا الكون.).

إنّ ماذكره القرآن الكريم، وماأيّده العلم، يدور جميعه حول اعتبار تصميم الكون وحجمه بما يوازي الاعتبار الأول في مثال المركبة الفضائية والمتعلّق بالتّصميم والحجم.

وقد قال تعالى في سورة الأنعام مشيراً إلى الاعتبار الثاني في مثال المركبة الفضائية والمتعلّق بالمعدن المصنوعة منه، فوضّح المادّة التي صنع منها هذا الكون السّابح في الفضاء بقوله: ﴿**هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً، وأجلٌ مُسمّى عنده، ثم أنتم تمترون. وهو الله في السّموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون، وماتأتيهم من آيةٍ من آيات ربّهم إلا وكانوا عنها مُعرضين.**﴾.

والله تعالى أجمل في هذه الآيات الكريمة جميع مايتعلّق بمعدن هذه المركبة الفضائية وتجهيزاتها ورُوّادها وصلته تعالى بها وتدخّله في كل صغيرة وكبيرة فيها وكونه مسبّب الأسباب.

فهو قال ﴿**خلقكم من طين**﴾ فأجمل كل مايتعلق بالمادة المصنوع منها هذا الكون، فلم يقل ﴿**خلقكم من تراب**﴾، ليشير من خلال كلمة ﴿**من طين**﴾ إلى عناصر المادة المخلوق منها هذا الكون الترابية وإلى عُنصري الهيدروجين والأوكسجين خاصة اللّذين شكّلا الماء الذي هو أساس الحياة.

وهو تعالى قال ﴿**خلقكم**﴾ ولم يقل ﴿**خلقكم والعالم من حولكم**﴾ لأنّ الإنسان قد رُكّب أصلاً من هذه العناصر التي رُكّب منها هذا الكون، ويتوقف نموه أيضاً على تغذيه بهذه العناصر أيضاً، وهو ماتنبته الأرض.

وهو تعالى حين قال ﴿**ثم قضى أجلاً، وأجلٌ مسمّى عنده**﴾ أشار إلى أنّه قضى ألاّ يعيش الإنسان إلاّ أجلاً محدوداً، كما أنّه قضى أن يكون لهذه المركبة الكونية (أجلٌ مُسمّى عنده).

فلّما أضاف تعالى قوله ﴿**وهو الله في السموات وفي الأرض**﴾ نبّه إلى وحدة القوانين في السماوات والأرض وهيمنته تعالى عليها. فالسموات والأرض كُلٌّ مُتكاملٌ لايتجزّأ.

وأضاف قوله ﴿**يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون.**﴾ أي أنّه جل شأنه صنع هذا كله مُجهّزاً بأجهزةٍ خافيه عن الأعين بحيث تمكنه من أن ﴿**يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون**﴾.

وهو تعالى عندما أنهى هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿**وماتأتيهم من آيةٍ من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها مُعرضين.**﴾ نبّه إلى أنّ الأيّام ستكشف عن أن كلّ شيء خلق من عُنصري المادة والروح، وستأتي الاكتشافات العلمية بما يؤيّد ذلك، ولايستفيد من تلك العلوم من كان تفكيره ماديّاً، لايربط الأسباب بمسبّبها.

هذا وقد جاءت الاكتشافات العلمية مؤيّدة لجميع ماتضمنته هذه الآيات الكريمة ولذلك فليراجع القارىء للاستزادة مؤلّفيّ (نظرية جذور الأخلاق) و (النظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم) بهذا الخصوص.

وأما الاعتبار الثالث بما يتعلق بالغاية من الصّنع والتّصميم، فقد وضح لنا كلام الله المقدّس أنه كان المقصد من خلق هذا الكون كله هو خلق هذا الإنسان ليُعرّفه الله على نفسه فيتّصف بصفاته عزوجلّ ويحصل بذلك على هوية التّجانس معه والتي تؤهله لحياة الخلود في مملكته التي لاتحدّها حدود.

وإلى ذلك أشار تعالى بقوله في سورة الذّاريات: ﴿**وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين. وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ومأأريد منهم من رزق ومأأريد أن يُطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القوة المتين. فإنّ للذّين ظلموا**

ذُنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويلٌ للذين كفروا من يومهم الذين يوعدون. ﴾. وهذه الآيات شرحناها عند بحث المقصد من خلق الإنسان، ممّا يغنينا عن التّفصيل فيها في هذا المقام.

ويكفي من الوجهة العلمية أن ننقل تصريح العالم الفيزيائي الشهير (ايرون شرودونغر) الذي قال فيه: (هذا الكون من دون الإنسان هو أشبه شيء بمسرحيّةٍ تُمثّلُ في قاعةٍ تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين.).

وقد كتب العالم الفيزيائي (جون ويلر) أيضاً يقول: (بالرّغم من أنّ الإنسان ليس مادّة مركز الكون، إلاّ أنّه على مايظهر في مركز الغاية من خلق هذا الكون.). وإن أقوال هذين العالمين وسواهما تؤيّد ماأعلنه الله خالق الكون والإنسان فيما رأيناه من آيات.

وبالإمكان تلخيص ماذكرناه بالأمور التالية :

أولاً ـ الكون والإنسان مخلوقان. وأفلاك هذا الكون بما فيها الأرض (كلٌّ في فلَك يسبحون) بما يشبه حال المركبة الفضائية.

ثانياً ـ وأن عناصر مادة هذا الكون، أساس نسيج هذا الكون كله بما فيه. بمعنى أنّ كل شيء من أشياء هذا العالم من مادّة وروح.

ثالثاً ـ وأنّ الكون مسخّرٌ جميعه لصالح الإنسان ووجوده وليتعرّفَ إلى خالقه وليتقرّب ويستفيض من عطائه. والله (يدبّر الأمر) فهو مسبب الأسباب.

والآن، أقدّم لقارئي العزيز مثالاً من كثير من الأمثلة الدّالة على أنّ الله الخالق هو مسبب الأسباب، وهو الذي بيده مقاليد السموات والأرض. وكيف أن هذا المثال يشكّل آية يمرّ عنيها أصحاب التفكير المادي الذين يُخالط إيمانهم شوائب من الشّرك الخفّي. وهذا المثال هو عقل الإنسان.

٢ ـ العقل ذاته دليل وجود الله مسبب الأسباب

وأضرب مثال العقل، على اعتباره مثالاً من أنفسنا. لقوله تعالى قال في سورة الذاريات (٢١). ﴿**وفي الأرض آياتٌ للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تُبصرون.**﴾ فالآيات المُبصرة لاتقتصر على الأرض بل وفي أنفسنا أيضاً. لذلك

أضاف تعالى قوله ﴿فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون.﴾. فالآيات الدّالة على وجوده تعالى تتراءى حيثما اتّجه الإنسان وفي نفسه أيضاً. أي أنّ التوحيد الخالص من شوائب الشرك الخفي يحثّ الإنسان المؤمن على البحث في كل شيء بالأسلوب العلمي، لتقصّي الآيات الدّالة على مسبب الأسباب.

لذلك أتناول عقل الإنسان أبحث في شأنه وبالأسلوب العلميّ فالعقل كما هو معلوم، هو أثمن ملكة أوتيها الإنسان بعد أن أوتي الإرادة وحرّية الاختيار.

نتساءل : هل أن الدّماغ وقشرته الخارجية هي العقل نفسه، حتى إذا مات الإنسان وتلف دماغه، يتلف معه عقله أيضاً؟ أم أنّ العقل لايخضع بالموت للتحلّل الذي يطرأ على جسم الإنسان؟

هذا السؤال راود الإنسان منذ فجر تاريخه وإلى يومنا هذا. ونحن كمؤمنين وإن كُنّا نعتقد من خلال هدي القرآن الكريم بخلود العقل مع نفس الإنسان، على اعتباره جزءً منها لايتجزّأ عنها، وهذا مايدفعنا إليه التوحيد الخالص كما ذكرت.

والمؤسف أن يقوم بهذه الأبحاث علماء الغرب في عصرنا، على حين يغطّ علماء المسلمين في سُباتٍ رهيب.

أقول : إن علماء أوربة، انطلقوا بنهج تفكيرٍ مادّي منذ فجر نهضتهم حاذفين العامل المساعد للعقل على مستوى الغيبيات، ألا وهو الوحي السّماوي. فراح علماؤهم في القرن التاسع عشر وماقبله يزعمون أنّ التغيُّرات المادية هي أساس أفكار الإنسان، ولاوجود لشيء مستقلّ يُسمّونه العقل، حيث كتب عالمهم الفيزيائي (هكسلي) يقول: (يبدو أنّ الوعي مُتّصلٌ بآليات جسم كنتيجةٍ ثانوية لعمل الجسم لاأكثر، وأن ليس للعقل أيّ قدرةٍ كانت عمى تعديل عمل الجسم. هذا مثلما يُلازم صفير البُخار المتصاعد حركة القطار دونما ترك أيّ تأثير على آليّتها.).

على حين تبيّن لعلماء القرن العشرين الأوربيّين عكس ماذهب إليه (هكسلي) المذكور، فهذا العالم الفيزيائي شرنغتون يقول: (وهكذا ظهر فرقٌ جوهريٌّ بين الحياة والعقل. فالحياة هي مسألة فيزياء وكيمياء، أمّا العقل فهو

يستعصي على الفيزياء والكيمياء.)[1] أي أنّ أنشطة العقل مستقلّةٌ عن آليّات الفيزياء والكيمياء، وإن كانت هذه بالنسبة للعقل وسيلةٌ وأداةٌ ليس إلاّ.

وقد أيّده العالم الفيزيائي (جون إكلس) فيما ذهب إليه. وذلك بعد أن انتبه هذان العالمان إلى أنّ قشرة الدّماغ البصريّة تتلقّى النّبضات عن طريق العصب البصري، هذه النّبضات التي ترسلها شبكيّة العين، فلا تغيّر هذه النّبضات لون هذه القشرة الدّماغيّة البصرية. الأمر الذي دعا هذين العالمين للتساؤل : أين مكان اللّون في هذه العمليّة؟

وهذه الملاحظة دفعت (إكلس)[1] ليقول: (ألسنا لانزال كالأطفال في مجال التفكّير في أُعجوبة التّجربة الواعية؟ فالبصر مثلاً يُعطينا في كلّ لحظةٍ صورة ثلاثيّة الأبعاد، لعالمٍ خارجيّ. وهو يُركّب في هذه الصّورة من سمات الالتماع واللّون مالا وجود له إلاّ في الإبصار الناشيء عن نشاط الدّماغ. ونحن بالطّبع ندرك الآن النّظائر المادّية لهذه التجارب المتولّدة من الإدراك الحسّيّ : كحدّة المصدر المُشعّ والطول الموجيّ للإشعاع المُنبعث. ومع ذلك فعمليّات الإدراك ذاتها تنشأ بطريقةٍ مجهولةٍ تماما عن المعلومات المنقولة بالرّموز من شبكيّة العين إلى الدّماغ.). وهكذا فإنّ (إكلس) يرى أنّ العقل يُعيد تركيب الصّور من أنماط النّبضات المرموزة، وهو يقسّم بذلك عملية الإدراك الحسّي إلى مراحل ثلاث، الأولى : وجود المُنبّه الذي يُنبّه عضو الحسّ كالصورة مثلاً. والمرحلة الثانية : يمثّلها انتقال النبضات العصبيّة إلى الدّماغ. والمرحلة الثالثة : هي مرحلة النشّاط العصبيّ المُثار في الدّماغ، وفي هذه المرحلة الثالثة تتجلّى مُعجزةٌ مذهلةٌ حيث تتمّ عمليّة ترجمةٍ مُزدوجةٍ لهذه النّبضات العصبية، ممّا يعسُر تفسيره عن طريق الفيزياء والكيمياء.

وأيدّ رأيه العالم الفيزيائي (شرنغتون) حيث قال: إنّ مُخطّط الطّاقة، وهو المرحلتان الأوليتان لعمليّة الرؤية والإدراك الحسّي، تُوصلاننا فقط إلى عَتَبةِ فعل الإدراك وتُودّعنا هناك ولاتُعطينا أيّة إشارةٍ أُخرى على المستوى المادّي الفيزيائيّ والكيميائيّ.

---

[1] ـ العلم في منظوره الجديد ـ ترجمة كمال خلايلي

[1] ـ المرجع نفسه

وخَلَصَ هذان العالمان الفيزيائيان من ذلك كُلّه إلى الاعتراف بوجود العقل مستقلاً عن الجسم، وأنّ الحواس جميعها، ماهي في مُواجهة العقل إلاّ وسائل وأدوات. وأنّ العقل هو المرجع الأخير وصاحب الاستنتاج والفكر والقرار. وضَرَبا على ذلك مثلاً، الذّاكرة التي لاتستحضُر التجربة الماضية فحسب، بل تستحضرها بوصفها حَدَثاً ماضياً. ممّا يدعو إلى الدهشة أن نتذكّر شيئاً منسيّاً ومرتبطاً بأمور أخرى غيره أيضاً.

كما ضربا لنا مثلاً آخر وهو قُوّة مُخيّلة الإنسان. فالخيال هو ملكةٌ حسيّةٌ داخليّة، يستخدم المعلومات الواردة من الحواس الخمس الخارجة عنه بحريّةٍ وبطريقةٍ إبداعيّةٍ أيضاً. وقِس على ذلك بقيّة الملكات الإنسانية : كإدراك حِكَمِ الأفعال، والإحساس بالعواطف كالحبّ والغضب مثلاً. ذلك أنّ العواطف ليست أفعالاً تندرج تحت الإدراك الحسّي.

فالعقل في نظر هؤلاء العلماء يُمكّنُ صاحبه من إدراك ماهيّةِ الأشياء. وهذا أمرٌ لاتستطيع الحواس القيام به. إذ أنّ الحواس تقف عند حدّ نقل الصورة الخارجية لحيوان مُعيّن، من حيث حجمه وشكله ولونه. أما العقل فيقوم بعمليّةٍ أعظم تعقيداً، وهي أن يُعرّفنا على الحيوان نفسه، من خلال مُعطيات الحواس. والعقل هو الذي يصنع العلم، ويكتشف ماهيّة الأشياء وعِلَلَها. وماالحواس في العمليّة إلاّ مجرّد أدوات.

وقد أجرى العالم (بنفليد) تجارب جراحيّة على قشرة الدّماغ منذ الثلاثينات وحتى السّبعينات، من هذا القرن. وكتب مؤلفاً مشهوراً (لغز العقل The Mystery of the Mind) حاول أن يثبت فيه أنّ لامركز في قشرة الدّماغ للإدراك. وأنّ عمل العقل، ليس إلاّ عملٌ آليّ، بمعنى أنّ الدّماغ ليس مقرّ العقل أو الإرادة، فلايستطيع تنبيه المريض كهربائياً، جعله يعتقد أو يقرّر شيئاً ما، ذلك على اعتبار أنّ العقل البشريّ والإرادة ليس هما أعضاء جسديّة. لذلك نجد أنّ الإنسان يتصرّف بحريّة الاختيار. وهذه الحقيقة التي بات يسلّم بها علماء عصرنا، لاتتنافى ومفهوم الأسلوب العلمي في البحث و الدراسة وتقصّي الحقائق.

كذلك فإنّ العالم الفيزيائي (سبري) قد أيّدت تجاربه وأبحاثه جميع المعطيات والنّتائج التي ذكرناها. وانتهى من ذلك كلّه للقول إنّ توقّع العثور على

العقل في أحد أجزاء الدّماغ، هو أمرٌ أشبه مـايكون بتوقّع وجـود إنسـان يـبرمج حاسبته الألكترونية داخل هذه الحاسبة.

والعالم (إكلس) قد جزم بأنّ العقل والإرادة همـا كيانـان غير مـاديّين، وملكتين : (لاتخضعان للتحلّل والفناء بعد موت الإنسان. هـذا التحلّل والفناء الذي يطرأ على جسم الإنسان ودماغـه كليهمـا.) أي أنّ العـالم (إكلس) أثبـت وجود الجسم والرّوح، ككيانين مُستقلّين، بأسلوبٍ علميٍّ واضح.

فهذه هي حصيلة تجارب العلماء من غير المسلمين في هـذا القـرن. على حين كـان ينبغي أن يقـوم بهـذه الأبحـاث والتجـارب. مـن كـان مـن المسـلمين الموحّدين، ليستدلّوا من نتائج، أبحـاثهم علـى عظيـم صـدق القـرآن الكريـم فيمـا هدانا إليه. لكنّ الذي حـال دونهـم، ابتلاؤهـم بمـرض الشـرك الخفـيّ وتخلّفهـم، وابتعادهم عن نهج التفكير الرّوحاني.

ولايَغُرُّنا أن توصّل علماء أوربة، أصحاب نهج التفكير المادي، إلى هـذه النتائج السّارة، التي عادت تؤهّلهم لقبول الإسـلام دينـاً لهـم. فهـم لم يقطعـوا إلاّ نصف الشّوط المطلوب اجتيازه علـى هـذا الطريـق. فهـم لم ينطلقـوا مـن مُنطلق ضرورة طاعة الله ومحاولة التعرف إليه عن طريق هذا البحـث العلمي، وخسـروا بذلك أمر التقرُّب إلى خالقهم. وهؤلاء يصدُق عليهم قول ربّنا جلّ شأنه: ﴿**قـل هل نُنبّئكـم بالأخسـرين أعمـالاً، الذّيـن ضـلّ سـعيُهم في الحيـاة الدّنيـا، وهـم يَحسِبون أنّهـم يُحسـنون صُنعـاً، أولئـك الذيـن كفـروا بآيـات ربّهـم ولقائـه، فَحَبِطت أعمالُهم، فلا نُقيم لهم يـوم القيامـة وزنـاً، ذلـك جزاؤهـم جَهنّـم بمـا كفروا واتّخذوا آياتي ورُسُلي هزُوُلاً**﴾. الكهف (١٠٣).

المهمّ ممّا ذكرته، هـو أن البحـث في كـلّ شـيء في الأرض وفي أنفسـنا، والغور إلى أعماقه لاكتشاف كُنهه ومعرفة الأسس والقوانين الناظمـة لـه، ومـن مُنطلق أنّ خالقنا هو المصمّم والمُبدع الحقيقي ومسبّب الأسباب في هـذا الكـون، هو واجب كلّ مسلم مؤمن موحّد من أسلم نفسه لله خالقه وآمن بعظيـم علمـه وقُدُراته، وأنّه تعالى قد صمّـم عالمنـا علـى أسـاس أن يخلقنـا ويسـخّر كـل شـيء لفائدتنا، لنصبح من عباده ونسعى إلى معرفته والتقرّب منه. فكل شيء من حولنا يشكّل في حقيقته آية دالّة عليه عزوجلّ، ولايمرّ بها مكتفياً بنظرة سطحيّة إلاّ مـن كان ذا تفكير مادّي بحت، ومشركاً بالله شركاً خفيّاً.

ولابُدّ أن لاحظ القارىء من مثال بحث العقل، كيف أنّ من بحثوا من علماء الغرب في أمره، ولو بتفكير مادّي بحت، قد توصّلوا إلى نفس ماأرشدنا إليه القرآن الكريم بشأنه.

فالمسلم الذي اراد أن يكون من الموحّدين، يتقصّى نفس ماتقصّاه هؤلاء الغربيين، إنما بنهج تفكير روحاني، ليزداد يقيناً بوجود ربّه على يقينه به، وطاعةً له، واندفاعاً أكثر في السّعي لمعرفته والتقرب منه والتزوّد من عطاءاته.

ذلك أن البحث واحدٌ في مضمونه، لكنّه مختلف في آثاره النفسيّة. فبالرّغم أنّ الشعوب الغربيّة كُلّما تقدمت في مجال العلوم، ازدادت ضياعاً لمعرفة ربّها والانغماس في ملذات الشّهوات، وبُعداً عن خالقها.

على حين أنّ العالم الإسلامي لو انتهج نهجاً روحيّاً وبحث نفس الأبحاث وحصد نفس النّتائج يزداد زُهداً بملذّات الحياة المادية، ويزداد اندفاعاً في مجالات التقوى والإقبال على عبادة الله والتّعرف إليه. فلا يُمضي حياته بهيميّاً ضالاً في بيداء هذا الكون الفسيح.

وقبل أن أُنهي مثال العقل، أحذّر من أن تغيب عن ذهن القارىء حقيقةٌ صرّح بها العالم (اكلس)[1] وهي أنّ العقل والإرادة: (لايخضعان بالموت للتحلّل الذي يطرأ على الجسم والدّماغ كليهما.). ذلك أنّ هذه الحقيقة التي صرّح بها هذا العالم والذي انتهت أبحاثه وأبحاث سواه من العلماء إليها، تساعد على تفهّم دلالة الآية (٤٢) من سورة الزّمر: ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها، والتي لم تُمت في منامها، فيُمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمّى، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون.** ﴾.

فالعقل يستمرّ في أداء مهمّته في حالة النّوم. والنائم يفكّر في منامه كما يفكّر في حال يقظته. وإنّ التّخبط الذي يشاهده النائم في تفكيره في حال نومه، إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ موازينه العقلية خلال فترة يقظته مهتزّة غير سليمة.

ويُستنتج أيضاً أنّ العقل على حين يستعين بحواسه الخمس في يقظته، يقع في حالة النّوم تحت تأثير سيئات أعماله ودواعي فيزيولوجيته، وماتحدثه

---

[1] المرجع السابق نفسه

العوامل الخارجة عنه من آثار وردود فعلٍ في تفكيره في منامه وتتجسّد جميع هذه الآثار فيما يراه النائم.

وكما أنّ الإنسان المؤمن اليقظان يتلقّى في يقظته بشارات ربّه وكلامه على قدر منزلته الرّوحية، لكذلك الحال في المنام يتلقى هذا المؤمن النائم بشارات ربّه وكلامه المقدّس أيضاً، ويشكّل هذا الأمر فارقاً كبيراً بين المؤمن الموحّد، وبين من لايدين بالإسلام ديناً.

ولاينبغي أن نغفل عن أمر هام أشار إليه قوله تعالى: ﴿.. **والتي لم تمت في منامها**..﴾. فالإنسان في حالة النّوم (مُتوفّى) وحالُهُ في نومه مؤشّر يدلّه على نوعية حياته التي سيحياها في عالم مابعد الموت. أي أنّ النّائم يكون قد دخل عالم البرزخ حقيقة. فلينظر كيف يُصلح حاله في يقظته ليصلُح حاله في نومه. فالحُجّة مُلقاةٌ عليه يومياً من جانب الله الذي خلقه وطوّرهُ وسوّاه وهداه.

والذي يهمُّنا هو أنّ الحقيقة التي توصّل إليها علماء أوربة المعاصرون من أنّ العقل باق لايخضع بالموت للتحلّل، إنّما هي حقيقة أيّدتها الآية القرآنية المذكورة وسوّاها من الآيات الكريمة. وأكبر بُرهان على صحّتها هو رؤى النائم نفسها، فالنائم يفكر في منامه كما يفكّر في يقظته، فالعقل لاينام مع نوم الحواس الخمس التي تشكّل أدواته المساعدة في يقظته.

لقد جرى الكُتّاب على تسمية المخلوقات من غير البشر، مخلوقات غريزية، فما معنى غريزيّة؟ نقول غرز فلانٌ عوداً في الأرض بمعنى أثبته فيها. فالغريزة هي تلك الصّفات المغروزة في فطرة المخلوقات من غير البشر بصورة طبيعيّة، وتحرّك الحيوان باتّجاه ماتقتضيه صفاته تلك دون وعيٍ منه أو إرادة أو استقلاليّة تفكير. وهذا هو الأمر الذي دعاه عزوجلّ ليقول عن النّاس الذين لايستعملون عقولهم: ﴿**إنْ هُمْ إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً**.﴾.

ويكفي القول أخيراً ممّا تبيّناه وعلمناه، أنّ العقل البشريّ هو كيانٌ غير مادّي، ولايخضع للفيزياء والكيمياء، فهو في الأصل كيان خاضعٌ لموجده جلّ شأنه مباشرة : يسلبه متى شاء، ويُجوهره حسب مشيئته هو. لأنه جلّ شأنه وحده القادر على ذلك، ويعلم أسراره وحقيقته من جهة ثانية.

ألا إن مثال بحث موضوع العقل الذي شرحت بعض جوانبه الهامّة، هو مثال واحد على ماحتوت أنفسنا من آيات دالّة على وجود ربّنا مسبب

الأسباب. وحثّاً على القيام بمثل هذه الأبحاث العلمية نزل قول الله عزوجلّ: ﴿**وكأيّن من آيةٍ في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون. ومايؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون**..﴾ وإنّ أمثال هذه البحوث هي التي تصل بالمؤمن إلى تحصيل علم حقّ اليقين.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: هل دلّنا القرآن الكريم على وسائل صيانة عقولنا من التّلف المعنوي؟ أقول: نعم وسأقدّم على ذلك مثالاً واحداً لضيق المقام.

٣ ـ أسس صيانة عقل الإنسان

أبدأ بتحديد معنى دلالة كلمة (عقل). فقد أورد صاحب معجم (محيط المحيط) أنّ العقل من عقل بمعنى ربط وأحكم، أي أنّ العقل أداة ربطٍ وأحكام. كما بيّن أنّه بالعقل تُدرك المحسوسات عن طريق مشاهدتها. كما تُدرك بالعقل الغائبات عن طريق الوسائط. فالعقل تبعاً لذلك هو أداة وعي الإنسان. ويتحقّق وعيه بربطه بين الأشياء بعمليّةٍ ذهنيّة تحكُم ربطه المذكور سواء على صعيد الأشياء المادية المحسوسة، أو على صعيد الأمور الغائيّة الحِكميّة غير المادية..

والحقّ أنّ معطيات القرآن الكريم تؤيد ماأفادنا به صاحب هذا المعجم، إنّما ينبغي لنا أن نضع نصب أعيننا أنّ محاكمات العقل الذهنية على مستوى الأمور الغيبيّة، يستحيل أن تأتي صحيحةً إلا بمساعدة عامل الوحي المساعد الذي أشرت إليه في مؤلّفي (نظرية جذور الأخلاق). فلابّد للعقل من عوامل مساعدة ثلاثة ذلك لأنّ العقل يعمل على مستويات ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل.

أمّا على صعيد الماضي، فالمخطوطات والآثار والمستحاثات تشكل عاملاً مساعداً للعقل لإعطاء أحكامه الصحيحة، وإلاّ تظلّ أحكامه من قبيل التخمين والظنّ. وأما على صعيد الحاضر فلابدّ للعقل من الاستعانة بالملاحظة والتجربة والاستنتاج، وأما على صعيد المستقبل الغيبي، فالوحي السّماوي هو الذي يساعد العقل على إصدار أحكام صحيحة .

وقبل الكلام عن أسس صيانة عقل الإنسان، نلاحظ كيف أن الجنين حين تضعه أمّه ويُطلّ على عالمنا الدنيوي، تكون جميع تصرّفاته بدائية غريزية لاوعي فيها ولاإدراك. ومن ثم ينشأ وعيه ويتكوّن على حسب ماأفادنا به قول

رسول الله (ﷺ) من أنّ الطفل يولد على الفطرة، فأبَواه إمّا يُهودّانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه، حاثاً المسلم على توجيه وعي مولوده توجيهاً إسلاميّاً صحيحاً. فهذه حقيقةٌ ماثلةٌ أمام أعيننا وهي أنّ الاختلاف في وعي الأفراد من البشر، يتأتّى عن اختلاف التّوجه وأساليبه. فهذه الاختلافات في اتّجاهات النّاس هي المعضلة التي زلزلت أركان السّلم في العالم. ومن هنا تتأتى أهميّة الكلام عن أسس صيانة عقل الإنسان.

والآن أعرض الوصيّة الأهم في هذا المجال. هذه الوصيّة التي زودّنا بها قول الله عزوجلّ في سورة الحجرات: ﴿**يأيّها الذّين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فتبيّنوا، أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين.**﴾. والمراد من (فتبيّؤا) أن طالبوا بالبيّنة على كلّ أمر يحدثّكم به آخر. والبيّنة هي الحُجّة والبرهان. فإلى هذه النّصيحة وردت الإشارة في قوله تعالى ﴿.. **أدعو إلى الله على بصيرة..**﴾ والبصيرة في اللّغة هي كما سبق أن بينت معناها الحجّة والبُرهان.

فبهذا الأسلوب التربوي السّامي والمتصّف بالعلّمية، وجّه الله عزوجلّ المسلم إلى الأساس الأهمّ لصيانة عقله من التعفّن والتّسببّ. أي وجّهه كي يبقى حذراً من التّقليد الأعمى وسيئّاته. هذه السّيئات التي تحلّت في سلوكيّة المقلّدين تقليداً أعمى لِما توارثوه، وقعدوا عن المطالبة بالبيّنة بأسلوب الحوار والحُجّة والبرهان في تاريخ البشر على الدّوام، وأقاموا عقائدهم على الظّنون والأوهام.

نتناول ماحدث زمن بعثة نوح عليه السلام بينه وبين قومه: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين. أن لاتعبدوا إلا الله إنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ أليم.**﴾ هود (٣٢) ـ فنوحٌ قال لقومه إنّه ﴿**نذيرٌ مبين**﴾ ومعنى "مبين" أي موضّح دعواي وإنذاري بالبيّنات أي بالحجج والبراهين. فهذه وسيلتي لدعوتكم بالسّلم والحوار.

ولنستمع إلى ماأجابه قومه، فهل قبلوا الحوار بالحُجّة والبرهان؟ ﴿**فقال الملأ من الذين كفروا من قومه مانراك إلاّ بشراً مثلنا، ومانراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي، ومانرى لكم علينا من فضلٍ، بل نظنّكم كاذبين.**﴾. فقوم نوح كما يبدو من هذه الآيات

أولاً ـ تناسوا أنّ آدم كان نبيّاً وكان بشراً.

ثانياً ـ ولم يعمدوا إلى ضرب البيّنة ولم يحاوروا، بسبب أنّهم ماعوّدوا عقولهم على هذا الأسلوب في الفصل في الأمور، وأضحوا مقلّدين لسواهم من المتنفذين تقليداً أعمى ﴿**ومانراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي**﴾ فموازينهم الفكريّة ومحاكماتهم كانت مُهتزة.

ثالثاً ـ ووفقاً لمعايير مجتمعهم ظنّوه من الكاذبين، أي أنّهم اعترفوا بأنّ أحكامهم قائمة على أساس من الظنّون، وليس على أساس الحوار المستند إلى الحُجّة والبُرهان.

من هذا المثال يدرك القارىء الكريم مدى الخطر الناتج عن ابتعاد العقل عن أسلوب الحوار بالحجة والبرهان أي هجره لبيّنة وعتماده الظنّ سبيلاً في محاكماته العقليّة.

إنّ ابتعاد البشر عن هذا الأساس الذي يصون عقولهم من الإهتزاز والتعفّن، شكّل السّبب الرئيسي في ظهور أدوار التخلّف والانحطاط التي تعاقبت عليهم خلال تاريخهم الطويل. وقد كانت بعثات الأنبياء والمرسلين هي الأدة السّماوية لاعادة الإنسان إلى استعمال عقله استعمالاً صحيحاً على الدّوام. فكم هو عظيم هذا التّعليم الذي احتواه قوله تعالى من سورة الحُجرات: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على مافعلتم نادمين**﴾. وفي رأيي أن نزول هذه الآية الكريمة في المدينة المنورة وليس في الدّور المكّي، فليُشير خطابها إلى مسلمي عصر تخلّف المسلمين وانحطاطهم وهو عصرنا الحاضر، على حسب مايفيده تسلسل الآيات الموضوعي. وهو أمرٌ بالإمكان الرجوع إليه في كتابي (فن الاختزال) عند الكلام فيه عن سورة الحجرات خاصة.



المبحث الثّاني
العِرفان الإلهي
الباب الأول

الفصل الأول :
١ـ أهمية الموضوع :

عندما يتلو مؤمن سورة الفاتحة ويقول: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ يُقرّ من خلال هذه الألفاظ أن جميع أنواع الحمد والثناء لايستحقّها على سبيل الأصالة إلا خالقه الله عزوجل.

كما يقرّ أن ربوبية الله تشمله وتشمل كل شيء في عالمنا الدنيوي بأعطياتها وعناياتها وتفضّلاتها، سواءٌ أوَعى هذا المخلوق ذلك أم لم يعه. أفلا يلاحظ المرء كيف أنّ وعي الطفل الحدث يكون محدوداً جداً. فلا يعي مايبذله والده من سهر عليه وجهودٍ جبّارة يبذلانها حفاظاً عليه ليشبّ ويكبر وليكون مستقبله زاهراً؟ لذلك يقرّ المؤمن بعد بيعته من خلال قوله ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ هذا الإقرار ويسلّم ذاك التسليم.

وليظل يدعو ﴿**اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولاالضالين.**﴾ يظل يدعو بهذا الدّعاء أملاً في تنمية وعيه ولينمو عِرفانه بالله وهو الذي آمن بوجوده نظرياً.

وعليه فإنّ المؤمن إذا لم يسلك سبيل التعرّف إلى خالقه ويسرْ على طريق عِرفانه، لايكون بإيمانه وبيعته تلك قد تجاوز زمن ولادته الروحانيّة، من هذا ندرك أن أهمية العِرفان الإلهي لاتقلّ أهميّةً عن مرحلة الإيمان نفسه. ذلك أنّ الإيمان يتأتّى عن محاكماتٍ ذهنية، على حين أنّ العِرفان الإلهي يتأتى عن مرحلة تعامل هذا المؤمن مع ربّه على شاكلة تعامل الوليد الحَدَث مع أبويه ليكتمل عِرفانه لهما والقيام بواجب برّهما وردّ إحسانهما الذي أحسناه إليه. ومرحلة العِرفان الإلهي هذه هي التي توصل هذا السّالك إلى تحقيق المقصد من خلقه والذي نصّ عليه قول الله عزوجلّ: ﴿**وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون**﴾ أي ليعرفوني على حسب ماوضحت ذلك في (نظرية جذور الأخلاق).

ثم إنّ لدرب العِرفان الإلهي ومحاولة الاتصال با لله الخالق لّتـه الرّوحيـة ونورها المضيء وجاذبيّتها ومغناطيسيتها. والمؤمن المبايع الذي لايسلك درب هذا العِرفان الإلهي، يُصاب بأمراضٍ مقيتة كالفهم الحرفي للنصوصّ القرآنية والتعصّب الأعمى الذي طالما فرّق بين المتديّنين، وبتشنّجات تصيب سلوكه وحركاته. وهو الأمر الذي يلاحظه المرء في أوساط أتبـاع مختلـف الدّيانـات البعيديـن أصـلاً عـن روح الدّين.

هذا وإنّ من يراجع تاريخ الديانات، وتاريخ المسـلمين خاصـة، يُلاحـظ أنهم انقسـموا إلى فريقـين: فريـق المتصوّفـة وفريـق غـير المتصوّفـين، وتبـاين هـذا الانقسام إلى درجةٍ راح المرء معه يتساءل: ألكُل فريق من هؤلاء دينه الخـاص بـه أم أنّ الإسلام بالإمكان تجزئتـه إلى سـبيلين؟ والسّـر الكـامن وراء هـذا الانقسـام الحاصل، يعود إلى جهل المُسلم بحقائق وتعاليم دينه التي تتطلّب منه تحصيل معرفـة ربّه بعد إذ هداه هذا الرّب للقناعة بوجوده ولبيعة رسوله، وإلى التعرّف إليه عمليّاً وبشـكلٍ موضوعـي، وإلاّ فمـا هـي قيمـة الصّداقـة عـن طريـق المراسـلة، إن ظـلّ المتراسلون بعيدين عن بعضهم بعض ودون لقاء؟

والحقيقة التي لامراء فيها هي أنّ متانـة الصداقـة لاتكـون إلا علـى قـدر معرفة الصديق لصديقـه، وإلا عـن طريـق التعـامل والتعـايش بينهمـا.. والموظّـف لاينال المودّة عنـد رئيسـه إلا بعـد تعاملهمـا ووقـوف كـل فريـق ضمـن الحـدود المرسومة له كموظف.

وماأجمل وماأكمل قول ا لله عزوجلّ في كتابه العزيز: ﴿**ياأيّها الناس إنّـا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعـارفوا، إنّ أكرمكـم عنـد ا لله أتقـاكم، إنّ ا لله عليـم خبـير**﴾ الحجـرات (١٣) أي أن درب التّعـارف والتعايش بالتقوى هو روح الحياة.

ذلك أن الإنسان اجتماعي بفطرته. وهل يكـون مـن العقـل أن تتعـرف وتتعايش مع أخيك الإنسان، وتُهمل السّعي للتعرّف على خـالقك الـذي أيقنـت بوجوده وكان له الفضل الحقيقي في وجودك ووجود سواك؟

٢ ـ العِرفان بمفهومه اللّغوي :

ثم إنّ البحث الموضوعي يقتضي من الباحث التقيّد بدلالات الألفاظ اللّغوية. وإلاّ ظلّ بحثه عشوائياً لايقوم على أساس. فإذا ماراجعنا معاجم اللّغة، يتبيّن لنا قولهم : عرفه معرفة وعِرفاناً معناه علمه بحاسة من حواسه الخمس، وقد ورد في التعريفات : المعرفة هي إدراك الشيء على ماهو عليه. وهي مسبوقة بنسيان سابق حاصل بعد العلم بخلاف العلم. (محيط المحيط).

واستناداً إلى ذلك فالإيمان هو العلم بوجود الشيء. أمّا العِرفان فمرحلة تأتي بعد العلم بوجود الله والإيمان به ويفصل بينهما نسيان. أي أنّ العِرفان هو مرحلة السّلوك المؤدية إلى إدراك الشيء على ماهو عليه. أي التّعامل مع أسماء الله الحسنى التي علمنا بها عن طريق الإيمان ومايمت إليها من علوم وقوانين.

ثم إنّ كلّ خللٍ أو انحراف عن طريق العِرفان له نتائجه الوخيمة الوبيلة. وأجمل القول فيما ذكرته وأقول: الإيمان والبيعة لايُغنيان صاحبهما في شيء إن هو أهمل سلوك سبيل العِرفان والتّعرف على هذا المحبوب الذي آمن بوجوده. إلى هذه الحقيقة ورد أمر ربّنا أن ندعو بلا كللٍ ولاملل، وصباح مساء وفي كل حين: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ آمين. فهذا الدّعاء يحثّنا أن نتضرع بين يدي خالقنا أن يعرّفنا على نفسه، كما عرّف الذين أنعم عليهم من قبلنا على نفسه وأوصلهم درجة العِرفان الإلهي. وعصمهم من متاهات الزّلل والإفراط والتفريط.

ولاحظنا قول صاحب التعريفات وهو أن المعرفة تكون مسبوقة بنسيان سابق حاصل بعد العلم. وهذه الفقرة تشير أصلاً إلى المرحلة اللاحقة بمرحلة العلم والإيمان. متعلّقة بمرحلة مابعد البيعة وبمعترك الحياة العملية بعدها. أي أن الإنسان المؤمن ينسى مابايع الله عليه بعد إيمانه وبعد انخراطه في بلبال دنياه.

والذي يريد معرفة ربه وتحصيل عِرفانه، يتوجّب عليه أن يضع ربّه بين عينيه فلا يغفل عنه لحظة من اللّحظات، متوسّلاً أن تثمر جميع أعماله وأفعاله ثمارها الرّوحية التي تزيده قرباً من ربّه وعِرفاناً. وبألفاظ أخرى أقول إن مثل المؤمن بعد بيعته كمثل الطفل المولود حديثاً لابدّ أن يتعثّر ويتعثّر إلى أن تكتمل

قواه الروحية فتمنحه معرفة ووعي مايقوم به والده تجاهه وتجاه تطويره. أي أن المؤمن بعد بيعته يخضع لربوبيّة الله الذي هداه إلى الإيمان به وليعرّفه على نفسه.

فإن تساءل المرء عن الفرق بين العلم والمعرفة من الوجهة اللغوية؟ فسيجيبه اللغويّون أنه لافرق بين العلم والمعرفة إلا فرق الخاص والعام والعموم والخصوص. فكل ماندركه بعقولنا وعن طريق حواسنا فهو من باب العلم العام. وكلّ معرفة من جانبنا لهذا الشيء الذي علمنا بوجوده هو علم خاصّ أي معرفة.

فلا يُقال للذي درس خواص الماء الفيزيائية عارفاً بل عالماً بخواص الماء. ولايسمى عارفاً إلا بعد أن يجتاز مرحلة اختبار الماء وتحليله إلى عناصره الأولية عن طريق التعامل والتجربة الذاتية. فالعالم لايقال له عارف. أمّا العارف فيكون عالماً. هذه هي أطراف المعادلة التي تربط مابين العلم والعرفان، من حيث الدّلالة اللغّوية. وعلى أساس من هذا الفهم الموضوعي لنفضي الإيمان عن علم والإيمان عن معرفة نؤسّس بحث هذا الباب من هذا الكتاب.

والآن أبيّن الفرق مابين العلم والمعرفة بأسلوب آخر، وعلى ضوء مُعطياته اللغوية، فكلّ مؤمن يتلو كتاب الله ويقرأ: ﴿**هو الله الذي لاإله إلا هو عالِمُ الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المُهيمن العزيز الجبار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون. هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبّح له مافي السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.**﴾ الحشر (٢١ - ٢٤).

فإن قرأ هذا المؤمن هذه الآيات يحصل له علم عام بما يتّصف الله تعالى به من صفات وأسماء - لكنه لايسمى عارفاً بهذه الأسماء الحسنى. ولايتحقّق له معرفة بهذه الأسماء وعِرفان بالإله المتصف بها إلا بعد قطعه أشواطاً على طريق التعامل مع هذه الأسماء الحسنى،وبالأسلوب العلمّي الموضوعي أيضاً.

فالعارف بالله يمتاز عمّن سواه من المؤمنين بامتيازاتٍ عظيمة. وإليكم ماامتاز به أكمل إنسان عارفٍ بربّه عزوجل وهو محمد المصطفى سيد الأنبياء وخاتمهم صلوات الله وسلامه عليه.

ومَنْ من الذين طالعوا تاريخ وسيرة هذا الرسول العظيم لم يطالع ماحدث في معركة حنين يوم وقع الجيش الاسلامي في كمين، ونكصت الخيل والجمال على أعقابها، وهي تحمل الفرسان على ظهورها، ولم يبق في الميدان إلا محمد رسول الله ﷺ يتلقى نبال عدوّه من كل جانب. فهذا العارف بالله ثبت في مكانه وصاح بأعلى صوته صيحةً لاتزال هضاب شبه جزيرة العرب ووديانها تردّدها: "صاح: أنا النبي ولاكذب، أنا ابن عبد المطّلب". فهذا الثبات وتلك الجرأة وذاك اليقين هو أسمى مايفرزه العِرفان الإلهي من ثمار في نفس صاحبه.

والقرآن الكريم استعمل لفظ المعرفة والعِرفان بهذه المعاني اللغوية ودلالاتها، أولم نقرأ قوله عزوجلّ بحقّ أهل الكتاب في سورة البقرة (٨٨): ﴿**ولمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لِما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلّما جاءهم ماعرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.**﴾. فلم يقل هنا فلمّا جاءهم ماعلموا كفروا به، بل قال ﴿**فلّما جاءهم ماعرفوا كفروا به**﴾. فلو قال علموا، لِما كان قد أفاد مايفيده لفظ "عرفوا" الذي يعني أنهم علموا ببعثه رسول الله وتعاملوا معه وخبروا صدقه.

وبنفس هذا الفرق اللغوي ورد قوله تعالى بحق يوسف عليه السلام: ﴿**فدخلوا عليه فعرفهم..**﴾ وأمثال هذه الأقوال وهذه الآيات كثير.

٣ ـ الألفاظ المعبّرة عن مراحل العِرفان:

هناك في اللغة العربية ألفاظ كثيرة، كل واحدٍ منها يعبّر عن مرحلةٍ من مراحل العِرفاني الإلهي، ويتعامل بها الناس فيما بينهم أيضاً تدليلاً على مابينهم من أواصر وروابط ومعرفة. وهذه الألفاظ هي: الشوق والعشق والرغبة والإنس والودّ والمحبّة والخُلّة. وسأستعرض فيمايلي لكل لفظ من هذه الألفاظ من حيث دلالته وأساليب استعمالاته. ومأورده القرآن المجيد من هذه الألفاظ في شتى المقامات والمناسبات :

١ً ـ الشّوق : والشوق مصدر يعني نزوع النفس وحركة الهوى. تقول: اشتاق إليه أي نزعت نفسه إليه. وورد في التعريفات : الشوق ارتياح القلب إلى لقاء المحبوب وقد سئل النحوي المعروف أبو علي الفارسي عن الفرق

مابين الشوق والاشتياق فقال: الشّوق يسكُن باللّقاء، بينما لايسكن الاشتياق باللقاء، بل يزيد ويتضاعف.

وهذه المعاني والأقوال إن دلت على شيء، فإنّما تدلّ على ضيق دلالة لفظ الشوق، وعلى محدودية دائرته. لذلك لايصلح هذا اللفظ للتدليل به عن علاقة العبد بخالقه ولاعن علاقة الخالق بعبده. ذلك أنّ الشوق هو مجرّد أمنية في الفؤاد تبعث على اللقاء. فإذا ماتحقق هذا اللّقاء يبطل معنى الشّوق. ولذلك لايدخل لفظ الشوق في باب موضوع العرفان الإلهي لتواضع دلالته. خصوصاً وأنّ الله تعالى لايعجزه شيء لتحقيق مايريد، حتى يصحّ استعمال لفظ الشّوق لموضوع عرفانه. من هذا ندرك حكمة خلوّ كتاب الله القرآن من لفظ الشوق ودلالته.

٢ـ العشق: ولفظ العشق يحمل معنى عَجَب المحبوب بمحبوبه وإفراطه في محبّته. والعشق يستعمل في العفاف كما يستعمل في الدّعارة. ويُعبّر بالعشق عن عجز الحسّ عن إدراك عيوب المعشوق. وعن مرض وسواسيّ يُسلّط الفكر على استحسان بعض الصّور. وقد عدّ الأطباء العشق مرضاً من الأمراض. فقال أبقراط إن العشق نصف الأمراض. وقال الفارابي هو ثلث الأمراض لتعلقه بالبدن والنفس جميعاً. وقالوا إنّ غليظ الطبع،وفاسد المزاج ووضيع الهمّة لايُصاب بمرض العشق من قريب ولامن بعيد.

فإذا ماأخذنا بهذه الدلالات للفظ العشق، ندرك عدم صلاحيته للتعبير به عن علاقة المخلوق بخالقه ولابعلاقة الخالق بمخلوقه، وهذا هو سبب خلّو القرآن الكريم من لفظ العشق بين ثنايا آياته الكريمة. ثم إن العرب كانوا يعبّرون أحياناً بالعشق عن المحبّة الجيّاشة القوية.

فبالنظر لدلالات العشق هذه لايستسيغ عاقل أن يقول إنسان إني أعشق الله عزوجل. كما لايستسيغ أن يُقال أنّ الله يعشق فلاناً من الناس. من هذا كلّه ندرك أنّ لفظ العشق يحمل في أصل وضعه اللغويّ معنىً غير محمود.

أجل من المتصوفيّن من أوردوا في مؤلفاتهم هذا اللفظ واستعملوه على سبيل المبالغة في المحبة، وليس على أصل وضعه اللغوي، وهذه شطحةٌ من

شطحات المتصوّفين. وإلاّ فإن الله عزوجلّ هو مصدر الحياة، ولايصحّ له لفظ العشق.

فلو أحبّ الله تعالى عبداً من عبيده، فلا يحبّه محبّة عشق، إنما يبدي محبته لذلك العبد بمباركته إيّاه وترقيته ترقية متميّزة. وهذا النوع من المحبّة الإلهية تجلّى في شخص إبراهيم أبي الأنبياء، وفي شخص محمد بن عبد الله خاتم النبيّين الذي اختصّه بأعظم كتاب سماوي وهو القرآن الكريم وحقّق على يديه ما لم يحققه على يدي نبيّ آخر سواه.

ومادُمنا نعتقد بقوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿**كلّ من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾. فالذات التي لايأتي عليها الفناء لايصحّ من وجه اللّغة العربية أن يُستعمل هذه الذات الخالدة أن يستعمل لها كلمة عشق. ذلك خصوصاً وأن من دلالات لفظ العشق تسبّبه بقصور العقل وهُزال الجسم، والله منزّه عن أن يُصاب بمثل هذه الأمراض. وهو جلّ شأنه أنزل وحيه الذي احتواه القرآن الكريم خالياً من لفظ العشق تدليلاً منه على بلاغته.

٣ـ الرّغبة : والرغبة لفظ يصحّ استعماله على درب العرفان الإلهي، فالرغبة من رغب فيه رَغْباً ورغبةً بمعنى أحبّه وأراده بالحرص عليه، ورغب عنه: أي أعرض عنه ولم يُرده وزهد فيه وتركه. ورغب به عن غيره: فضّلهُ عليه. ورغب إليه: ابتهل وتضرّع وسأل / محيط المحيط).

ودلالات الرّغبة هذه تعبّر في حقيقتها عن أدنى مستويات التعبير عن المحبّة الجيّاشة. فهي تدلّ على ميل شديد تملّك القلب لقاء محبوبه لذلك يصلح استعماله تعبيراً عن علاقة العبد بخالقه، وهو أحد الألفاظ الداخلة في موضوع العرفان الإلهي.

والقرآن الكريم استعمل لفظ الرّغبة بهذه الدّلالات. أفلا نقرأ قول الله عزوجلّ في سورة الأنبياء: ﴿**يدعوننا رغباً ورَهَباً**﴾؟ فالله عزوجلّ يصوّر لنا من خلال ألفاظه هذه مستوى المحبّة التي بلغها هؤلاء المؤمنون لربّهم. هذا المستوى من المحبة الذي يدفعهم ليدعوا ربّهم بتضرّع وتذلّل كبيرين، تدفعهم إلى ذلك

محبتهم الشديدة لذات ربّهم المقدّسة. أي أنّ هؤلاء المؤمنين يسيرون على درب العِرفان الإلهي، وهم لايزالون في أدنى مستويات هذا العِرفان.

وفي سورة التّوبة أتى الله جل شأنه على ذكر هذا القسم من المؤمنين قولهم: ﴿**إنّا إلى الله راغبون**﴾. وهل تعني هذه الألفاظ إلاّ أنّ هؤلاء قد فاضت أفئدتهم بمحبّة الله ربّهم وعلى طريق عِرفانه إلى درجة ماعادوا معها يُقيمون لأيّ شيء من متاع هذه الدنيا أيّ محبّة ووزن؟

وعليه فإن الذي آمن وسار على درب عِرفان ربّه عزوجلّ، يبدأ تغلب على فؤاده محبّة هذا الإله الذي آمن به، فتشتدّ هذه المحبة إلى درجةٍ يعود كل شيء غير الله مُبتذلاً في عينيه ويقول: ﴿**إنا إلى الله راغبون**﴾.

وهذه مرتبةٌ تمثّل ظاهرة ضعفٍ في نفس هذا المؤمن، يحاول إزالتها وتجاوزها والتّغلّب عليها عن طريق كثرة الاستغفار وكثرة الدّعاء بين يدي محبوبه عزوجل، إلاّ أنّ هذه الحالة تعبّر في الوقت نفسه عن عمق الإيمان بالله الذي بلغه هذا المؤمن بربّه عزوجلّ.

وهذا مايشير إليه قوله: ﴿**إنا إلى الله راغبون**﴾ أي إننا نفيض محبّة لربّنا الذي آمنّا به ونحرص على لقائه والتّعرف إليه. وإن كُنّا لانزال في بداية هذا الطّريق.

ولنتناول ماكتبه العلاّمه الأصفهاني في معجمه مفردات الرّاغب المُعتبر أقدمَ معاجم اللغة العربيّة، قال: الرّغبة تعني السّعة في الشيء. يُقال: رغب الشّيء أي اتّسع. ويقولون: الحوض رغيب أي حوض واسع، وفرسٌ رغيب العدد: أي كثير الخطى، والرّغبة هي السّعة في الإرادة، ورغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه.

والملاحظ أن جميع أقواله هذه تجسّم للقارىء هذه الأمنية القويّة التي تعمر فؤاد السالك على درب عِرفان ربّه أمنيةً تمثّل محبّة غامرة تدفعه على هذا الدرب الطويل.

٤ـ الأنس : والأنس لفظ يصحّ استعماله على درب موضوع العِرفان الإلهي، فقد أورد صاحب معجم (محيط المحيط) قوله: أنِس به يأنس وأَنس يأنُس

وأَنَس يأنِس ضدّ توحّش. أي ألفه وسكن قلبه به و لم ينفر منه. ونستشعر هذا المعنى في أنفسنا عندما يأتي إلى مجلسنا أجنبي عنّا لانعرفه فلا نستسيغ مجالسته طويلاً، ونميل في قراره أنفسنا إلى ترك مجلسه. ويحدث عكس ذلك فيما إذا حضر مجلس أحدنا ابنٌ له أو صديق من أصدقائه أو أخٌ من إخوانه فهو يتمنّى بقاءهم طويلاً في مجلسه، ولايميل فؤاده إلى تركهم يغادرون هذا المجلس، فإذا هم أحدهم بالانصراف يرجوهم صاحب المجلس بالبقاء، إشارة إلى شعوره وإحساسه بالأنس من جهة، وبالوحشة التي تتملكه من جرّاء فراقهم من جهة أخرى.

وهذا الأمر دعا صاحب معجم (أقرب الموارد) ليقول: الأنس ضدّ الوحشة. والإنس خلاف الجنّ وخلاف النفور. ويُقال لمن كثر إنس المرء به إنسيّ. كذلك يُسمّى الجانب المواجه لوجه راكب الدّابة: إنسيّ الدّابة أي مقدّمتها. وللسبب نفسه تُلاحظ أن صاحب معجم المفردات قد قال: إنّ كلّ مايلي الإنسان يُسمّى إنسيّ هذا الشيء.

ولنقارن الآن مابين دلالات لفظي الرّغبة والأُنس، فلا نجد بينهما من فروق في الدلالات إلاّ ماللأنس من معنى القرب ومواجهة الشيء المأنوس به. أمّا من حيث المحبّة الجيّاشة فهي واحدة في دلالات الرغبة والأنس.

أمّا إذا راجعنا دلالات لفظ الشّوق مجرّداً، فلا نراه يعني إلاّ نزوع المشتاق إلى المشتاق إليه. لكنّه لايحمل مالرّغبة والأنس من معاني المحبّة الجيّاشة والاطمئنان بالقرب. وإن كانت الرغبة يخلو لفظها من معنى القرب أيضاً. من هذا ندرك سرّ خلوّ القرآن الكريم من اشتماله على لفظ الشّوق. واشتماله على لفظي الرّغبة والأنس.

فكما استعمل القرآن الكريم لفظ الرّغبة على حسب ماسبق أن بيّناه. فقد استعمل لفظ الأنس أيضاً. أفلم نقرأ قوله تعالى على لسان موسى في سورة القصص: ﴿**إني آنست ناراً**..﴾. واستناداً إلى دلالات لفظ الأنس التي استقيناها من كتب النحويين يعني قول موسى هذا أنه لاحت لي نارٌ كنت تواقاً للقائها ورؤيتها والاطمئنان بها. وهاأنّها لاحت لي هذه النّار وفُزت بأمنيتي وحصلت على حاجتي التي كنت أنشدها ليل نهار. وهو عبّر من خلال ألفاظه هذه عن المحبّة الجياشة التي كانت تجيش بها نفسه للقاء ربه عزوجل والتقرب منه والتعرف

إليه. وآية سورة القصص هذه مثالٌ رائع على دلالات لفظ الأنس في القرآن الكريم، وأداة تعبير عن أولى مراتب العرفان الإلهي.

٥ـ الودّ : والودّ اشتُقّ من ودّه مودّةً بمعنى أحبّه. وتودّده : طلب محبّته وتحبّب إليه. والوادّ اسم فاعل والوُدّ يعني الحبّ، وكثير الحُبّ، والوَدّ في لغة أهل نجد يعني الوتد. فكأنهم سكّنوا التّاء فأدغموها في الدّال. أما الودود فصيغة مبالغة من الوّد بمعنى كثير الوّد، والمحبّة، لذلك ورد أنّ من أسماء الله تعالى الودود، ويعني كثير الحبّ لأوليائه والمحبوب كثيراً من أولياء الله أيضاً. والمودّة تعني المحبة. (محيط المحيط)

ندرك من خلال دلالات كلمة ودّ أن هذا اللّفظ يفيد معنى المحبّة من جهة وأمنيةً ترافق هذه المحبة وهي أمل اللّقاء بالمحبوب. وكأنّ الودّ من هذه الجهة يحمل معنى (لو). فإذا أخذنا بعين نظرنا دلالة الودّ على الوتد بلغة أهل نجد، ونعلم أنّ الوتد يستعمل لتثبت الدّابة بمكان معيّن. فإنّ هذه الدلالة تفيد معنىً ثالثاً يمثّل المحبّة التي تؤدي إلى الربط بين قلبين: قلب الحبيب وقلب المحبوب.

فإن نحن قارنّا مابين دلالات الرّغبة والأنس والودّ. لاحظنا أنّ الرّغبة فيها الدلالة على شوق من طرف واحد فقط. وأن الأنس فيه دلالة الشّوق من طرفين. أما لفظ الودّ فهو يجمع بين معاني الشّوق والأنس، ويزيد عن دلالتهما، دلالته على تولّد علاقةٍ ثابتة بين طرفين اشتياق أحدهما للقاء الثاني، وأنس جهته، وتولّدت عن ذلك علاقة ثابتة به. أي أن الودّ بألفاظ أخرى يحمل معنى المحبّة المتأصّلة والرّابطة مابين العبد وخالقه.

فإذا عُدنا إلى القرآن الكريم ولاحظنا خلّوه من نسبة لفظي الرغبة والأنس إلى الله الخالق لعدم تناسبهما مع صفاته عزوجلّ الذي لايرغب إلاّ وتتحقق مشيئته، ولايأنس لخلوّ لفظ الأنس من معنى القرب وهو في حقيقته أقرب إلينا من حبل الوريد. أقول إذا لاحظنا خلوّ القرآن الكريم من لفظي الأنس والرغبة منسوبين لله تعالى، وقصر استعمالهما للعبد المخلوق. فإنّ القرآن لم يقف هذا الموقف من لفظ (الودّ) بل نسبه إلى الخالق كما نسبه إلى المخلوق. بل وأخبرنا القرآن الكريم أنّ من أسماء الله الحسنى "الودود" بمعنى الذّات المحبوب من طرف أوليائه والمحبّ لهؤلاء الأولياء.

وصرّح القرآن الكريم عن لسان الله الرحمن بشأن المؤمنين، وَعْداً عليه إن هم قرنوا إيمانهم بعمل الصالحات. فقال في سورة مريم (٩٦): ﴿**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهُمُ الرّحمن وُدّاً.**﴾ أي أنه جل شأنه وعد هذه الفئة من المؤمنين أنّه سيغرس محبّته في أفئدتهم من جهة، ومحبّتهم بعضهم للبعض الآخر، ومحبّة الواحد منهم لجميع عباد الله تعالى، ألا إنّ جميع هذه الدّلالات تضمنها قوله تعالى: ﴿**سيجعلُ لهم الرحمن وُدّاً**﴾. وسرّ تعدّد دلالات هذه الآية الكريمة يكمن في أسلوب صياغتها البلاغي. فهو جل شأنه أتى بصفته الرحمن من جهة وهي التي تفيد الكرم والرحمة والعطاء دون مقابل. ومن جهة ثانية أتى باللاّم التي تفيد شبه التمليك والتي أدخلها على (لهم).

ومن جهة ثالثة ترك كلمة (ودّ) دون أن يعرّفها بالألف واللاّم، فأطلقها ولم يعيّن الطّرف المودود. هذا الأسلوب في صياغة هذه الجملة فتح باب تصريف معانيها ودلالاتها بمختلف الاتجاهات. وعاد يصّح أن يكون القصد من ﴿**سيجعلُ لهم الرحمن ودّاً.**﴾ على حسب ماسبق ذكره هو أنّ الله الرحمن سيخصّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعطاء وكرم من جانبه وهو أن يكتب محبته في قلوبهم، ويكتب ألفتهم ومحبتهم بعضهم للبعض الآخر في قلوبهم أيضاً وفق قوله في مقام آخر ﴿**وألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة الله إخوانا.**﴾. ويكتب محبة جميع خلقه في قلوب هؤلاء حتى يعودوا يُشار إليهم بالبنان لإنسانيتهم ورأفتهم على جميع الناس دون تفريق. فهذه المعاني جميعها تضمّنها قوله تعالى: ﴿**سيجعلُ لهم الرحمن وُدّاً**﴾. والسبب في ذلك أسلوب صياغة الآية البلاغيّ.

والقرآن الكريم حثّ المؤمنين الذين يطلبون وُدّ ربهم على الإكثار من الاستغفار والتوبة ليفوزوا بهذا الودّ الإلهي. وذلك في سورة هود (٩٠) حيث قال جل شأنه هناك: ﴿**واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، إنّ ربّي رحيم ودود.**﴾. وأتى بصفته الودود وبصيغة المبالغة والتي تعني أنّ محبّته ليس فوقها محبّة ولاتقف عند حدود. ذلك أنّ دائرة صفة الله الودود تفوق ودّ كلّ مخلوق ماهيةً وشمولية وسعة آفاق.

فلا يُدانيها محبّة وودّ الوالدين لأبنائهما. ولامحبة وودّ الأبناء لأبويهما ـ ولامحبّة وودّ الأصدقاء لأصدقائهم. ولامحبّة وودّ الأساتذة لتلاميذهم.

والله ودودٌ على هـذه الصورة بسبب أنّ ودّه لايتكوّن بالتدريج من الرّغبة والأنس، بل إنّ ودّ الله عزوجلّ يبدأ من مقام المحبّة والودّ الخالص من شوائبهما.

على هذه الصّورة أتى قوله تعالى ﴿**واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، إنّ ربّي رحيم ودود.**﴾ وذلك ليشير إلى مقام وُدّه عزوجلّ الذي يردّ الودّ والمحبّة بأضعافها. بينما يبدأ ودّ العبد المؤمن لربّه تدريجيّاً من رغبته إلى الله وأنسه به فوِدّه لذاته عزوجلّ ومحبته إيّاه.

وهناك حديث شريف متداولٌ على ألسنة المحدثين رواه النسائي في كتاب النكاح ـ باب كراهية تزويج اليتيم ـ ونصّ هذا الحديث: (تزّوجوا الوَلود الودود، فإنّي مُكاثِرٌ بكم.) والمؤسف ألاّ يفهم قُرّاء هذا الحديث حقيقة دلالاته بسبب أنّهم لايعرضون مايقرؤون على كتاب الله القرآن الكريم. والذي فهمته من دلالات ألفاظ حديث رسول الله (ﷺ) هو أنّه أتى بصفة "الولود الودود" هذه الصّفة التي تفيد المبالغة ليفيدنا أن نبحث عن الفتاة الأخلاقية ذات الصفات الرّوحانيّة التي بلغت أقل درجات الرقي الروحي وهو مقام الوّد. فتخلّقت بخُلُق ربّها الودود وأصبحت تحبّ ربّها وتوادُّه ويحبّها الله ويواددها. وتحبّ وتوادّ أبويها وجيرانها وجميع خلق الله تعالى. فهي أضحت شعلة ودٍ لايختلف في ودّها أحد، أي أنّها أضحت على درجة عاليةٍ من الأخلاق والرّوحانية تؤهّلها لتأسيس أسرةٍ، وترعى أولادها بمحبّةٍ وعطف وودٍ ظاهرين، وتكون ولوداً أي تلد أمثالها من الأخلاقيين والروحانيين.

وهذه سورة المُمتحنة أعطت المؤمنين دروساً في موضوع فهم مقام الودّ للعمل عليه. فقد استهلّها ربُّنا جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿**يأيّها الذين آمنوا لاتتخّذوا عدوّي وعَدُوّكم أولياء تُلقون إليهم بالمودّة، وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ..**﴾.

وكيلا يثقل هذا التعليم على أفئدة المؤمنين ويُضيّق عليهم سلوكهم، أتبع ذلك بقوله تعالى في الآية السّادسة: ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة، والله قدير، والله غفور رحيم.**﴾.

وراح جلّ شان يهوّن عليهم من جهة ثالثة ويقول: ﴿**لاينهاكم الله عن الذّين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يُخرجوكم من دياركم أنْ تبرّوهم وتقسطوا إليهم، إنّ الله يحبّ المقسطين.**﴾ وحاثّاً إيّاهم أن يبرّوا غير أعدائهم من أي اتّجاه أو عقيدة كانت. وأن يُقسطوا إليهم أيضاً. والبرّ في اللّغة يعني الاتّساع في الإحسان. من برّ فلانٌ فُلاناً اتّسع في إحسانه إليه (محيط المحيط). وبرّ والده وصله وأحسن إليه. أمّا معنى (أن تقسطوا إليهم) من قسط الوالي عَدَل ولم يحد عن الحقّ. والمعنى أن تعاملوا الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم بتوطيد علاقاتكم بهم وتقيمونها على أساسٍ من الإحسان والعدل وعدم الحَيَدان عن الحقّ.

على هذه الصّورة حدّد الله عزوجلّ للمؤمن مدى مايمكن أن يظهره من ودٍ لسواه ومدى مايقيمه على أساسه من علاقات. فحدّد ذلك في السّماح بالتّعامل مع غير المؤمنين إنما على أساسٍ من البرّ والقسط، أي على أساسٍ من الإحسان إليهم وعدم الانتقاص من حقوقهم أي لاضرر ولاضرار.

والله عزوجلّ وقد حدّد ماذكرته ضمن آيات سورة الممتحنة، فهو فتح باب مواددة المؤمن على مصراعيه ودفعه ليوادّ ربّه ويحصل على ودّ ربّه وينال مقام الودّ عنده عزوجل، وعليه فإنّ مرتبة المودّة الإلهية للمؤمن تعتبر إحدى مراتب العِرفان الإلهي.

٦ـ المحبّة : والمحبّة مقامٌ روحيّ على طريق العِرفان الإلهي أيضاً. وقد أتى القرآن الكريم على إيراد المحبة في سبعين آية من آياته الكريمة، الأمر الذي يُشعر بأهمية موضوع المحبّة ومقامها على طريق سعي المؤمن لنيل قرب ربّه وعِرفانه.

ونأتي إلى كلمة المحبة من الوجهة اللّغوية لنحيط علماً بدلالاتها . تقول: حبّه يُحبه حبّاً وحُبّاً بمعنى ودّه فهو محبوب (محيط المحيط)، وفي القاموس: حُبّبَ إليه صار حبيباً له. وحببّ الزرع صار ذا حب. وشربت الإبل حتّى حَبّت أي امتلأت من الرّي، وأحبّ فلانٌ: برىء من مرضه، وحابّه: واده، وتحابوا: تواددوا وأحب بعضهم بعضاً. وحَبَاب الماء فقاقيعه التي تطفو على سطحه كأنها القوارير. والحَبَبَ: الفقاقيع. والحُبّ مصدر وجمع حبّ. ويعني الجرّة الضّخمة

أيضاً. والحبيب هو المحبّ المحبوب. يُقال هو حبيبي أي محبوبي، وأنا حبيبكُم أي محبُّكم.

فهذا ماورد في معاجم اللغويّين، ومن خلال هذه الأقوال جميعها نستدلّ على أنّ لفظ الحُبّ في أصل وضعه رُكّبتْ أحرفه الثلاثة على أصلٍ وهو التعبير عن تداخل شيء في شيءٍ وانحشاره فيه، أفلم نُلاحظ قولهم: شربتْ الإبل حتّى حبّت أي امتلأت من الرّي. وقولهم عن انحشار الهواء ضمن فقاقيع الماء يشكّل حُباب الماء؟ فالمحبة تعبّر مجازاً عن كيفيّة تداخل مودّة طرف في فؤاد طرف آخر. أي أنّ مجرّد الودّ يعبّر عن علاقة وطيدةٍ بين طرفين ليس إلا. أما كلمة الحبّ فيعبّر بها عن تجاوز الطرفين لحدود هذه العلاقة الخارجية، وانسياب وتداخل الودّ في أعماق فؤادي كلّ من هذين الطّرفين. أي ينمو ودّ الطرف في فؤاد محبوبه فينمو ويعطي ثماره أيضاً. أفلا نلاحظ كيف أن البزرة، أيّ بزرةٍ، إذا مادُفنت في باطن الأرض تتفاعل وتنمو إلى أن تصبح شجرةً غنّاء تنجب نفس البزر ليقوم في الجوّ المناسب بعمليّة النمو والإثمار ؟ وعلى هذا الأساس أطلقوا على الجرّة الضّخمة اسم الحُبّ أيضاً. وهذا التّداخل بين طرفين وهذه النتيجة الحاصلة عن هذا التداخل وهو كيفية النموّ والإثمار، لاتتضمّنها كلمات الرّغبة والأنس والودّ من قريبٍ ولابعيد، وهذا يعني أنّ من واجب المؤمن السّالك درب عِرفان ربّه والتّعامل معه، من واجبه ألاّ تخدعه عواطف رغبته الشديدة للقاء ربّه، ولاانتقاله إلى مرحلة الأُنس بربّه وبظواهر إعجازه وعظمته، ولابعواطف الودّ التي تترسّخ في فؤاده على طريق عِرفان ربّه.

فمن واجب المؤمن وهو يقطع هذه الأشواط من السلوك العِرفاني أن يظلّ حذراً فلا يتملكه شعور الانتصار والفوز ببغيته، ومن واجبه العمل والاستعانة بالرياضيات الرّوحية وهي هذه العبادات التي شرّعها لنا القرآن الكريم، وبالتضحيات المعنوية والمادية، إلى أن يبدأ هذا التّداخل من الوّد الذي وصل مرتبة المحبّة وأن يتلمّس نمّو هذه المحبّة وليجني ثمارها أيضاً. وهناك فقط يحقّ له أن يبدأ يحط رحاله وينتظر أوامر محبوبه بعد الذي قطع من هذه الأشواط على طريق عِرفانه كما يتلذّذ بعطايا لقائه وثمار هذا التداخل والمحبّة التي ربطت فؤاده بخالقه المحبّ والودود.

الفصل الثاني

٣. قانون المحبة الطبيعي :

ومن أعجب العجائب أن هذا الإنسان، يُراقب ظواهر القوانين الطبيعية المادية ولايقيس عليها القوانين المُشابهة الروحيّة. يلاحظ الفلاّح يغرس حبوبه في مزرعته، وينتظر أشهراً، وإذا بهذه البذور تنمو في باطن الأرض لتُصبح أخيراً نباتات أو أشجاراً باسقة، وهذا الفلاّح يحتاط أشدّ الحيطة ليخرج من هذه البذور بهذه النباتات وثمارها. فلا يُلقيها إلاّ في أرضٍ صالحة للإنبات، ويُسمّدها ويسقيها، ويعشّبها ويجهد أشهراً طويلة، وهو ينتظر ثمار جهده وعرقه وبذله وتضحياته.

وهذا الإنسان نفسه يُطالع في الكتب قصص الحُبّ وماأثمرت عنه من صلات وتضحيات كقصّة قيس وليلى على سبيل المثال. فيقرأ هذه القصّة ولايملّ من قراءتها فيلاحظ كيف وقع الحُبّ بين هذين القلبين وكيف نما وتطور على مرّ الأيام ومأأثمر عنه من مصائر للطرفين.

أقول: إن من أعجب العجائب أن يلاحظ الإنسان هذه القوانين الطبيعية التي تلعب هذه الأدوار أمام ناظريه. ولايتدبّر القرآن الكريم وهو معتقدٌ أنّه كلام الله عزوجلّ، فلا يتدبّر هذه الألفاظ المعبّرة التي ذكرتها من رغبةٍ وأنس وودّ ومحبّةٍ، ولايتدبّر استعمالات القرآن الكريم لكلّ لفظ منها، ولايفكّر في حكمة تلك الاستعمالات، ويظنّ أنّ تعاليم الدين الإسلامي ماهي إلاّ أثقالٌ تثقل كاهله، متناسياً هذه القوانين الطبيعية التي ذكرتها، ومتجاهلاً أصوات العارفين بالله التي تعالت في غابر الأزمان، وتعالت على لسان سيّد المرسلين وهي ماورد في الحديث القدسي لايزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أعود سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ومتناسياً قول ربّه في كتابه العزيز: ﴿**ألا إنّ أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون.**

الذين آمنوا وكانوا يتّقون. لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لاتبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم.﴾ يونس ٦٤.

فلقد استهلّ ربنا جلّ شأنه هذه الآيات بحرف التنبيه (ألا) ليقول أيها الناس اسمعوا وعوا جيّداً ماأقول، وأنهى ربنا جل شأنه هذه الآيات بجملة ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ أي أنّ ماأورده القرآن من معارف في هذه الآيات يدور موضوعها حول ارتباط العبد بربّه إلى درجةٍ يعود ربّ هذا المؤمن هو وليّ أمره في الدنيا والآخرة، وهو سَلَوانه، وهو مصدر مايتلّقاه من أعطيات وبشارات، فإذا فاز هذا المؤمن بولاية ربّه لشؤونه على هذا المستوى من الولاية فقد فاز الفوزالعظيم الذي نزلت تعاليم هذا الدين الحنيف لتمنح هذا المؤمن إيّاه.

ومضامين هذه الآيات تشكّل وثيقة تعهّدٍ إلهية في حدّ ذاتها يتعهّد فيها للذين احتسبوه ربّاً أن يتولاّهم بعنايته ورعايته، فيقيهم شرور الماضي وآثاره الضارة بهم، ويحفظهم من أخطار المستقبل المجهول وآثاره ومفاجآته، أفلا يفكّر قارىء هذه الآيات وتعهدّاتها وينظر: هل لايكون لله الذي تعهّد هذا التّعهد الفريد من نوعه في شؤوننا وشؤون الناس أجمعين أي دخل أو تدخّل وهيمنة على الأحداث وأسبابها؟ وهل يتعهد هذا التعهد إلا من يكون علمه وقدرته لاتقف دونها حدود، الله الذي له الأسماء الحسنى ويسبّح له مافي السموات ومافي الأرض؟

فالمحبّة الإلهية مقام زرع حبّة المحبّة في فؤاد هذا العبد المؤمن، لتنمو وتصبح شجرة غنّاء باسقة تثمر وتؤتي أُكلُها كل حين، على شاكلة البذرة المادية نغرسُها في التربة الصالحة لنموّها وتصبح شجرة مثمرة وغير مثمرة. فهاتان ظاهرتان إحداهما مادية والأخرى روحية وتخضعان لقانون طبيعيّ واحد وتمثّلان وحدانية الله عزوجلّ. ثم إن التّشبيه بشجرة ليس من اختلاقي، بل هو تشبيه الذي أنزل القرآن وقال فيه: ﴿**ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيّبةً أصلها ثابتٌ وفرعها في السّماء. تؤتي أُكُلَها كلّ حين بإذن ربّها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثّت من فوق الأرض مالها من قرار. يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة**

الدنيا وفي الآخرة، ويضلّ الله الظالمين، ويفعل الله مايشاء.﴾ إبراهيم (٢٤ ـ ٢٦).

٢ـ المحبة في القرآن الكريم:

وانتقل الآن إلى القرآن الكريم الذي استعمل كلمة المحبّة بهذه الدّلالات، وسيلاحظ القارىء أنّ هذا القرآن استعمل كلمة المحبة للمخلوق والخالق على حدٍ سواء. وأعطى بذلك موضوع المحبّة مكانته وأهميته، فوضّح قوانينه وأسسه، وألقى الضوء على حالة المؤمنين الذين يقطعون أشواط مراحل مقامات الرغبة والأنس والودّ ويبلغون مرتبة المحبّة لله ربّهم، حيث يغرس الله ربُّهم في أفئدتهم حينذاك بذرة محبّته التي تأخذ في النّمو في سويداء أفئدتهم ولتصبح شجرة غناء يقطف من ثمارها الرّوحية ولتجعله رجلاً ربّانياً بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

وهيّا بالقارىء إلى سورة المائدة (٥٤)، إلى الآية التي راح جلّ شأنه يهدّد من خلالها ضعاف الإيمان مرضى القلوب الذين يثقل عليهم انتظار تجاوز مراتب الرغبة والأنس والودّ ويظنّون بالله الظنون، فالله جل شأنه هدّد هؤلاء في الآية المذكورة وقال: **﴿ياأيها الذين آمنوا مَنْ يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه، أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولايخافون لومة لائم، ذلك فضل الله، يؤتيه من يشاء، والله واسعٌ عليم.﴾**.

وليلاحظ القارىء هذه الوعود التي تضمنتها هذه الآية الكريمة وهي أنّه تعالى وعد في حال ارتداد أي مؤمن عن دينه:

أولاً ـ لايأتي في مقابل المرتدبواحد بل بقوم، ولايأمر بقتل هذا المرتد على اعتبار أنه تعالى أعلن في مقام آخر من كتابه العزيز: **﴿لاإكراه في الدين.﴾**.

ثانياً ـ وينعم الله تعالى على محبوبيه الذين يحبّونه، بعد أن يغرس في أفئدتهم بذرة محبته ودون كسبٍ من هؤلاء.

ثالثاً ـ وهذه المرتبة التي يهبهم إياها من علاماتها تواضعهم تجاه الذين سبقوهم بالإيمان، في وقت يكونون هم فيه أعزةً إنما على الكافرين.

رابعاً ـ يجاهدون في سبيل الله، والجهاد في اللغة بذل الطاقة مادياً ومعنوياً، ولم يقل يقاتلون.

خامساً ـ ومرتبة المحبة الوهبية هذه التي يمنحهم إياها، فمن علاماتها أنهم يجاهدون ولايخافون لومة لائم.

سادساً ـ ثم أتى تعالى باسم الإشارة للبعيد بدل هذا ليرفع من شأن عطائه المذكور.

سابعاً ـ وصرّح جل شأنه من خلال قوله ﴿**يؤتيه من يشاء**﴾ بأنّ مرتبة المحبّة الإلهية تكون كسبية وتكون وهبيّة يؤتيها الله من يشاء من عباده.

ثامناً ـ وأنهى الآية بقوله ﴿**والله واسع عليم**﴾ أي أن هذا الفضل يتجلى عن طريقه اسم الله الواسع أي كثير العطاء ويتجلى عن طريقه اسم الله العليم الذي يتميّزه المستحقّ لهذا الفضل من غير المستحق، وليس عطاءً لمن لايستحقّه.

المهمّ أن الله تعالى قال في هذه الآية الكريمة: ﴿**يحبُّهم ويحبّونه**﴾ فوصف نفسه بالمحبّ ووصف عبده بالمحبّ أيضاً. الأمر الذي يميّز مقام المحبة عن مقامات الرغبة والأنس والودّ التي ذكرناها، والتي لايصحّ القول عندها أن الله يحب هذا العبد.

ولاينبغي حمل هذه الآية الكريمة على محمل المبالغة الكلامية لصالح صدمة الارتداد، فلو كان الأمر كذلك لَمَا كان من داعٍ لتتضمّن الآية كلّ هذه البنود وبتفصلاتها. ثم إن تجاربنا تؤكّد صدق ماأورده الله عزوجل فيها من وعود، ممّا لايتسع سرده في هذا المقام.

والله جلّ شأنه وضّح لنا مقام المحبة وشروط كسبه في سورة التوبة (٢٤) حيث قال تعالى هناك: ﴿**يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولّهم منكم، فأولئك هم**

الظالمون، قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضَونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لايهدي القوم الفاسقين.﴾ أي أن من يبلغ مقام الولاية عند الله ربه يُشترط عليه إذا شاء أن يفوز بمقام المحبة الإلهي شروطاً تميّزه عمّن سواه من المؤمنين، وهذه الشروط تضمنتها هذه الآية الكريمة، فنبّه إلى أنّ طريق العرفان الإلهي وسبيل السّعي لنيل مقام المحبة عند الله تعالى، لايشترط عليه ألاّ يُحبّ أحداً سوى الله تعالى، بل إنّ تعاليم القرآن حثت على التّوادد والتحابب في الله مع جميع خلق الله التي أتت هذه الآية على ذكرهم من أبوين إلى إخوان وأصدقاء إلى أزواج وعشيرة وأموال وإلى مساكن ترضونها. فالذي يسعى لنيل محبة ربه يُطالبه هذا المقام أن يكون حبّه لربّه أعظم من محبته لأيّ شيء آخر سواه، فإذا تصادمت محبته لأي شيء مع محبته لله ربّه فمن واجبه حينئذٍ أن يُبدي تمايزاً واضحاً في تلك اللحظات في تصرفاته ليثبت لله وللناس أنّ له محبوباً حقيقياً يعود الفضل كلّه إليه من حيث الأصل، وهو لايقول ﴿**الحمد لله ربّ العالمين**﴾ التي تعني أن الله وحده يملك الحمد والثناء على وجه الحقيقة، فلا يقع في تصرُّفاته في تضادٍ مع نفسه، بل موقناً بقدرة الله الذي أعطى كل شيء خلقه أن يحرم من يشاء من نعمائه وأفضاله، وأنّ من ينكر مقام المحبة الإلهية المذكور ولايسْعَ إليه يدخل في زمرة الفاسقين عن أمر ربّهم عزوجلّ، لذلك أنهى الآية بقوله ﴿**والله لايهدي القوم الفاسقين.﴾**.

على هذه الصورة تمثّل كلمة المحبة بدلالاتها اللغوية وشروطها التي ذكرناها مرتبةً متقدّمة على مراتب الرغبة والأنس والودّ بأشواط كبيرة. ذلك أنّ للمحبة موضوعها الخاصّ بها، وبذرتها التي إذا غرسها الله عزوجلّ في فؤاد عبدٍ من عباده المؤمنين، تنمو بذرة المحبة هذه وتثمر الأعاجيب، وهذا هو سرّ التضحيات المنقطعة النظير التي قدّمها الصحابة الذين تربّوا على يدي رسول الله (ﷺ) روحياً، وانقلبوا بذلك من رجال عادين إلى رجالٍ ربانيّين.

وإنّ أهمية مقام المحبة الإلهية تدفعني للإسهاب في موضوعها إذا ماتجاوزت مرحلة الكلام عن هذه الألفاظ التي يُعبّر بها لغةً عن أوجه المحبة وأتى القرآن الكريم على استعمالها في مُختلف آي الذكّر الحكيم.

٣. مقام الخُلّة لغةً وقرآناً :

الخُلّة: وكلمة الخُلة المعبرة عن أقصى درجات المحبة هي من كلمات الأضداد فهي في الوقت الذي تحمل هذا المعنى السّامي وهذه الدلالة العظيمة، تعني من جهة أخرى الثقب والفاصلة على حسب مابينه النحويّون. أي أنّ الخُلة تدل على الشرّ كما تدل على الخير. فصاحب معجم أقرب الموارد ألقى الضّوء على الوجه الخيّر لهذه الكلمة فذهب إلى أنّها تعبّر عن هذا القسم من المحبّة الذي يؤلف بين أفئدة المُتحابيّن من أي نوع كان من النّاس أودين.

على حين نلاحظ أنّ صاحب معجم المفردات وضح الوجه الآخر لكلمة الخُلّة فبيّن أنها تدلّ على المسام التي في جسم الإنسان والتي يطرد هذا الجسم من خلالها عرقه وسمومه، والخُلالة: المودّة، والخُلّة: المصادقة والإخاء والثّلمة في الحوض ونحوه.

والخُلّة عند السّالكين أخصّ من المحبة، وهي عندهم تخلية القلب عمّا سوى المحبوب. والخُلّة: الصّديق تستعمل للذكر والأنثى والواحد والجمع، تقول: هو وهي وهم وهُنّ خُلّتي.

لأنّه في الأصل مصدر، لقولك: فلان خليل بين الخُلّة والخَلولة، والخليل: الصديق المختصّ، جمعه أخلاّء، أو الخليل الصّادق، أو من أصفى المودّة وأصحّها، وشيءٌ خليل: أي مثقوب منفوذٌ. والخليلة مؤنث الخليل.

من أقوال صاحب (محيط المحيط) هذه ندرك صحّة مابيّناه من أنّ الخُلّة أخصّ من المحبّة، وتنبع من داخل جسم المرء من جميع أعضائه، ولاتأتي كالمحبة من خارجه.

وقد وردت كلمة الخُلّة في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿**ومن أحسن ديناً، ممن أسلم وجهه لله، وهو محسن واتبع ملّة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾ النساء (١٢٥).

والآن نلخص، وبعد أن أتينا على دلالات الرغبة والأنس والود والمحبّة والخلة ونقول: إنّ القرآن الكريم في حين خصّ استعمال لفظي الرغبة والأنس

للتعبير بهما عن محبّة العبد و لم يستعملهما الله جل شأنه، فهو استعمل كلمات: الودّ والمحبّة والخلّة لله ولعباده المؤمنين فلم يفرّق بينهم في استعمالات هذه الألفاظ، وهذا الأمر يعدُّ مؤشّراً كبيراً على دقّة انتقاء الوحي القرآني لألفاظه العربيّة، وعلى عظمة بلاغته في أداء معانيه.

❀❀❀

البـــاب الثـــانـي

الفصل الأول

١ـ الولادة الروحية :

هذا وإنّ ماأتيت على ذكره آنفاً يتّفق معي من أنّ هناك ولادة روحيّة يلدها المؤمن المبايع إثر بيعته شبيهة بولادة الأم لجنينها. وألفاظ محبة المذكورة تعطي فكرة عن الارتقاء والنمو والتقدم الروحي الذي يمرّ المؤمن من خلاله على طريق سعيه لمعرفة ربّه والتّعامل معه. فهو يبدأ من مقام الرغبة فالأنس فالودّ فالمحبّة فالخُلّة. ولكل مرحلةٍ من هذه المراحل مقوّماتها وشروطها الموضوعية. ولايتجاوزها المؤمن السّالك إلا ويفاجأ في مرتبه المحبّة، بتدخّل العناية الإلهية لتغرس بذرة محبّة الله جل وعلا في فؤاد هذا المؤمن بشكل يدهش له ويميّز مقامه عمّا دون ذلك من مقامات روحية. هذا مأفادتنا به هذه الألفاظ من حقائق غابت عن أذهان كثيرين من متدبريّ آي الذكر الحكيم.

والذي نستخلصه ممّا ذكرناه هو أنّ الولادتين الجسمانية والرّوحية تخضعان لقوانين واحدة على المستويين.

٢ـ أثار بعثة أدم عليه السلام :

ولابدّ من التّذكير بهذه المناسبة أنّ الناس انقسموا زمن بعثة أوّل نبيّ في منطقتنا العربيّة، وهو آدم عليه السّلام، إلى فريقين متمايزين وشكّل كل فريق منهما أتباعاً له وسلسلة مترابطة الحلقات حتى يومنا هذا. فالفريق الذي آمن بآدم واطّلع على مافي هذا الكون من قوانين قدريةٍ إلى جانب القوانين الطبيعية الماديّة. فقد أضحى هذا الفريق يحلّل مايواجهه من ظواهر على اختلاف أشكالها، تحليلاً يستند فيه إلى كلا النوعين من القوانين المادية والروحية، أي بات يتّسم تحليل هذا الفريق للظّواهر بالتفكير ذي السّمة الروحيّة القائمة على أساس الإيمان بوجود خالقٍ لهذا العالم، وأنّ حكومة المملكة السماويّة وراء أحداث كل شيء في هذا الوجود.

بينما راح الفريق من الذين لم يؤمنوا بآدم ورسالته ولاعما أتت به من حقائق وتعاليم. راح هذا الفريق يفسّر ظواهر مايحدث في هذا العالم تفسيراً مادياً محضاً، وهذا الانقسام الذي حدث هو في حقيقته أساس جميع مايجري اليوم في عالمنا المعاصر من اضطرابات وانقسامات وصراعات.

فالفريق صاحب التفكير المادي، يعسُرُ عليه فهم موضوع العرفان الإلهي الذي يأتي تحت هذا الباب من هذا الكتاب، يعسُرُ عليه التسليم بوجود ولادتين جسمانية وروحانية، ويعسر عليه فهم قوانين الولادة الروحية التي دلّت عليها الألفاظ المعبّرة عن المحبة والتي أتيت على بيان دلالاتها لغوياً وقرآنياً. والمؤمن الذي يعمل على قول ربّه: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتّبعني وسبحان الله ومأأنا من المشركين.**﴾ يوسف ١٠٥، من واجبه ألاّ يدخل مع الذين يدعوهم هذا المدخل الذي ينطوي تحت عنوان العِرفان الإلهي. ذلك أنّ هذا الموضوع يخصّ المؤمنين بصورة مباشرة. ويساعد هذا المؤمن إذا فاز بثمار هذا العِرفان الإلهي على التحدّث بنعمة الله إذا جاءت مناسبة ذلك نزولاً عند قول ربّنا: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدّث**﴾ الضحى.

أفلم نقرأ قول ربنا عزوجل في سورة الاعراف (١٩٨): ﴿**وإن تدعوهم إلى الهُدى لايسمعوا، وتراهم ينظرون إليك وهم لايُبصرون.**﴾ فكيف ينظر هؤلاء ولايبصرون؟

يكمن السّبب في التفكير المادي الذي ورثه هؤلاء عن الفريق الذي خالف آدم وقاومه. فالمعنى أنّك تدعوهم إلى الهدى أي تسوقهم إليه. وهم لايُبصرون أي لايفهمون حقيقة محاولاتك الجادّة النابعة من تفكيرك الرّوحي ومحاولاتك الجادة الخيّرة التي هي في صالحهم لو فكروا تفكيراً روحياً، وهم لايعقلون محاولاتك هذه وماوراءها من حقائق، لذلك تراهم ينظرون إليك ويتأمّلونك، (وهم لايُبصرون) أي لايساعدهم تفكيرهم المادي على تبيّن حقيقة شخصيتك ونوعية مساعيها الخيّرة وماتحمله أنت من مزايا وصفات.

وصاحب التفكير الماديّ لايرى لوجوده في هذا العالم من مقصد، ولايدري ما تحمله هذه العبادات من خواصّ روحيّة تفيد في بناء كيانه الروحي.

وأنا عندما أُعلن عن هذين النّوعين من الولادات، لأستند فيه إلى دلالات هذه الألفاظ التي بحثناها وحسب. بل إنني سأثبت صحّة ماذهبت إليه من زوايا مختلفة أتى القرآن على بيانه لهذه الحقيقة مع ماقدّمه لإثبات طرحه المذكور من حججٍ وبراهين . سأثبت ذلك في الوقت المناسب والمكان المناسب من هذا الكتاب.فترتيب آيات سورة المؤمنون استندت إلى هذا المُنطلق الذي بيّناه. وأنّ جميع الآيات التي بحثت موضوع النفس البشرية بحثته من هذا المنطلق أيضاً.

وأعود الآن إلى موضوع المحبّة ومقامها الذي دلّتنا عليه كلمة (محبّة) لأتوسّع في الكلام عن مقام المحبّة الإلهية هذا الذي استنبطناه من قوله تعالى (يُحبّهم ويحبونه) فلا أمرّ عليه مرّ الكرام. لأهميته من جهة، ولدلالات كلمة محبّة من جهة أخرى والتي تشير إلى انسياب شيء في شيء آخر وتداخُل هذين الشّيئين وتشكيل علاقةٍ بينهما لها دلالاتها ونتائجها. والعاقل الذي يسمع أن الذي خلقه يُحبّ، يسعى دون إبطاء إلى كسب محبّته سعياً دؤوباً؟

❀❀❀

الفصل الثاني :
الأصول التي تقوم عليها المحبّة الإلهية:

والقرآن الكريم هذا الكتاب الذي أورد لفظ المحبة منسوباً إلى الله ومنسوباً إلى عباده المؤمنين، بحث موضوع المحبّة الإلهية بحثاً مستفيضاً وأتى على جميع جوانبه وبشكل يذهل عقول المفكرين الذين يتدبّرون آيات هذا القرآن، ويتصيّدون من خلالها عناصر هذا الموضوع. وسأبيّن فيما يلي الأصول التي اشترطها القرآن الكريم والمعتمدة في السّماء لتنمية بذرة هذه المحبة فيما إذا فاز عبد مؤمن ببذرها في فؤاده من جانب إلهه ومحبوبه وهو يسير على درب عِرفانه.

١. القانون الأول : وأول هذه الأصول والقوانين هو ضرورة التزام هذا المؤمن خلال سعيه لمعرفة ربه، التزامه بالسير سيراً طبيعياً ووفق قوانين النشوء والارتقاء. فلايقفز ولايتجاوز هذه المراحل التي دلّت عليها الألفاظ التي بحثناها.

أي أن من واجب المؤمن بعد إيمانه وبيعته، أن يبدأ من مقام الرغبة صعوداً ومروراً من مقامات الأنس والود والمحبة. ولايُفترض فيه أن يقفز إلى حيث لم يتأهل بعد روحيّاً لبلوغه .

فلماذا أوجب القرآن الكريم أن يلتزم المؤمن القانون المنصوص عليه في سورة الانشراح من خلال وصيّة الله عزوجلّ لرسوله الكريم، قوله: ﴿**فإذا فرغت فانصب ۞ وإلى ربّك فارغب**﴾؟ الجواب يأتي من خلال فهم مضمون هاتين الآيتين الكريمتين.

تقول فرغ من عمله أي خلا ذرعه منه، وتقول نصبه الهمّ أي أتعبه، وتقول رغب فيه أي أحبه وأراده بالحرص عليه. ورغب إليه: ابتهل وتضرّع وسأله (محيط المحيط).

وعلى ضوء هذه الدّلالات لألفاظ هاتين الآيتين يصبح المعنى أنّ الله عزوجلّ يخاطب رسوله الكريم وكلّ مؤمن يتأسّى به ويسير على خطواته،

ويقول له ناصحاً أن يامحمّد إن أردت أن تستمر في تلقي محبتي وأعطياتي فمن واجبك أنّك كلما فرغت من أداء واجبات الدعوة والوعظ ووجدت سُنحة راحة، إيّاك أن تستلم لها كما يفعل من لم يتعرف إلى وجود ربّه ولايطلب محبّته . بل إنّ من واجبك أن (تنصب) أي أن تبدأ بنوع جديد من التّعب وإجهاد النّفس وهو ﴿**وإلى ربك فارغب**﴾ أي تعود تتوجه إلى محبوبك بكليّتك وأن تحرصَ على الاستزادة من معرفته ومحبّته، وأن تبتهل إليه وتتضرّع بين يديه أن يُنمّي محبّته في فؤادك لتزداد قُرباً منه وعُرفاناً.

إن هذه المعاني توضّح لنا سرّ هذا القانون الأول الذي يتطلّبه مقام المحبة الإلهية، فهي تحثّ المؤمن أن ينطلق على درب العِرفان الإلهي من مقام الرّغبة وبشكل طبيعي.

وهذا القانون الذي استند إليه موضوع المحبّة الإلهيّة، ماهو بشيء جديد أتى به الإسلام. بل أشارت سورة الأنبياء في الآية (٩٠) إلى أنّ جميع الأنبياء التزموا بهذا القانون وهم يطلبون معرفة الله ومحبّته. فالله جل شأنه، وفي معرض كلامه عن استجابته لدعاء زكريا عليه السلام، قال: ﴿**فاستجبنا له، ووهبنا له يحي، وأصلحنا له زوجه، إنّهم كانوا يُسارعون في الخَيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين.**﴾ موضّحاً لنا أنّ هؤلاء الصالحين من عباد الله تعالى كانت لاتفارقهم رغبتهم للتعرّف على خالقهم، وكانوا يخشون دوماً أن تغيب عن أفئدتهم لحظات لذلك كانوا منطلقين دوماً من مقام الرغبة إلينا والرّهبة خشية أن تبدُر عنهم مخالفة واحدة لتعاليمنا. فقد كانوا يواظبون على دعائنا من صميم أفئدتهم. هذا على اعتبار الخشوع يعني الخضوع.

وهذا القانون الذي يتطلّب من المؤمن الانطلاق خلال سعيه لمعرفة ربّه بشكل طبيعيّ لاتكلُّف فيه ومن مقام الرغبة للقاء الله عزوجلّ ونيل قربه ومحبّته. هو من الأهميّة بمكان، بحيث يؤدي إلى إصابة كل مؤمن لايأخذ به بأمراض روحيّة ونفسيّة قد تحرفه عن ملّة أبي الأنبياء إبراهيم الحنيفيّة التي أعاد محمد رسول الله (ﷺ) وجهها الحقيقيّ.

فهاكم راقبوا متصوّفة زماننا الذّين بَعُدُوا عن الالتزام بهذا الأصل، ولاحظوا كيف أنّهم انغمسوا في أداء رياضاتٍ روحيةٍ لاأصل لها في تعاليم

القرآن، وماأنزل الله بها من سلطان. وليخالط الواحد منكم هؤلاء في زواياهم وتكاياهم، وليدقّق مايجري في داخلها، فلابد أن ينتهي به الأمر إلى الجزم بأنّ هؤلاء وبنتيجة تركهم العمل بهذا القانون المذكور انحرفوا عن ملّة إبراهيم الحنيفية التي جدّدها لنا محمد رسول الله بوحيٍ وأمر من ربه، فسفّهوا أنفسهم، وأصابهم ماأصاب أهل الكتاب من قبلهم.

وأنا حين شبّهت الإيمان والبيعة بولادةٍ روحيّة على شاكلة الولادة الجسمانية. ففي هذا التشبيه إشارة صريحة إلى ضرورة الالتزام بهذا القانون الذي ينظّم وعي هذا المبايع، على شاكلة مايحتاجه المولود لينمُوَ ببطءٍ وليأخذ أخيراً شكله الطبيعي.

فكما أنّ المولود الرضيع بحاجةٍ إلى ثدي أمه ومايدرُّه عليه من حليب. فالمبايع يحتاج إلى مايشبه حالة الرضاعة هذه. لذلك ابتدأت سورة المؤمنون تشترط لفلاح هذا المؤمن قيامه بصلاة خاشعةٍ بين يدي ربّه يرضع عن طريقها محبّة ربّه ووصاله كما يرضع المولود من حليب أمه. فهذا ماأشار إليه ربّنا حين استهل سورة المؤمنون بقوله: ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون.**﴾ وهلاّ يلاحظ المرء حالة الخشوع التي تُهيمنُ على الرّضيع وهو يرشُف غذاءه من ثدي أُمّه؟

٢. القانون الثاني: والقانون الثاني الذي يتطلّبه مقام المحبّة الإلهية، هو أن يعود هذا السّالك على درب العِرفان الإلهي، لايفارق خياله ذكر الله عزوجل في جميع حالاته يقظة كانت أو نوماً أو حالة جهد أو راحة أو أي وضع آخر له.

وقد نبّهنا القرآن الكريم إلى هذا الأصل أو القانون الثاني الذي يتطلّبه مقام المحبّة الإلهية وذلك في الآية (١٩١) من سورة آل عمران حيث قال تعالى فيها: ﴿**إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكّرون في خلق السموات والأرض، ربّنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار.**﴾. وهو تعالى عندما قال (يذكرون الله) من الذكر وهو حفظ الشيء والتّفوه به وإجراؤه على اللسان من ثناء ودعاء (محيط المحيط).

أي ليدأب هؤلاء المؤمنون على حفظ مارغبوا في تعلّمه من علوم الدّين، وأن تظلّ تلك العلوم والمعارف حاضرة في أذهانهم، تهديهم عند كل خطوةٍ يخطونها، وليلتزموا التضّرع والدعاء بين يدي خالقهم والثناء عليه شريطة أن تدوم حالتهم هذه (قياماً) أي ضمن ساعات عملهم. (وقعوداً) أي ساعات لجوئهم إلى الراحة ولتناول الطعام وعلى (جنوبهم) أي ساعات الاستلقاء والإخلاد إلى النّوم.

وهذا القانون كما يلاحظ القارىء يعسر أن يلتزم به المؤمن من أوّل أيّام بيعته، لذلك كان عليه أن يقطع أولاً مقامات الرغبة فالأنس فالوّد، فإذا مااستكمل متطلباتها وبلغ مرتبة المحبة الإلهية فسيجد نفسه ملتزماً بهذا الأصل الثاني من نفسه وبصورة طبيعيّة جدّاً ودون تكلّفٍ أو عناء. على شاكلة المولود ينمو وينمو إلى أن يشبّ وتكتمل قواه ولايعود يبدر منه ضعف الأطفال وعثراتهم ولهوهم وعبثهم.

والله السّتار الغفور الرحيم يتجلى بستره وغفرانه ورحمته على هذا المؤمن في جميع المراحل الروحية التي يقطعها قبل أن يبلغ هذا المقام الذي يجذب إليه محبّة ربّه عزوجل إن هو سار سيراً طبيعياً، وبلغ هذا المستوى من ذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم والذي شرحناه. فحين يبلغ هذا المقام يعود ربّه عزوجلّ يحاسبه حينئذٍ حساباً عسيراً على غفلته وزلاّته. ذلك أنّ زلاّته عند هذا المقام من المحبّة تترك في كيانه الرّوحي أمراضاً يُسأل عنها نفسه لتهاونه بعد بلوغه ورشاده في أمر نفسه وهل بإمكان الفلاّح السّكوت عن أيّ خطرٍ يتهدّد أشجاره المثمرة؟

وهذا القانون الثاني الذي يستلزمه مقام المحبة الإلهية، استلهمناه ممّا قاله إبراهيم عليه السّلام وهو يقدم لعبدة الكواكب دليله القاطع على كونها مخلوقة وليست خالقة. وذلك في سورة الأنعام حيث قال: ﴿**لاأحبّ الآفلين**﴾ أي لايُعقل أن يغيب الخالق عن أعين مُحبيه في أيّ حالٍ من أحواله قياماً وقعوداً وفي حالة الاستلقاء والنّوم.

وهل يحدث أن تفارق الأم رضيعها إلاّ مُضطرة؟ وهل يغمض لها جفنٌ إلاّ وتظلّ مستوفزة الشعور تجاه رضيعها؟ فهذه هي ظاهرة المحبّة الحقيقية.

ألا إن المحبّة الحقيقية عاطفة جيّاشه لاتعرف السّكون ولا الانقطاع، ولاتتعلق عاطفة المحبّة الحقيقية بدماغ صاحبها وعقله، ولكنها تنبع من فؤاده.

إلى هنا أكون قد وضعت بين يديّ قارىء هذا المؤلّف قانونين هامّين جدّاً، إذا ماتفهّمها المؤمن وراعاهما تتفتّح له أبواب السّماء ويحظى بمعرفة ربّه وبمحبّته ويدخل زمرة من صرّح الله تعالى بحقّهم أنه ﴿**يُحبُّهم ويحبّونه**﴾. وهذان القانونان مُستمدّان كما لاحظ القارىء من آي الذكر الحكيم، ولم أستمدُّها من أقوال أحدٍ من المتصوّفين أوغير المتصوّفين.

فهذا هو سبيل نيل محبّة خالقنا عزوجلّ، هذا السّبيل الذي سار عليه أصحاب رسول الله (ﷺ)، وصاروا مضرب المثل في حياتهم الإيمانية، الأمر الذي أذهل أعداءهم ممّا قدّمه هؤلاء الصّحابة من تضحياتٍ في سبيل الإسلام، وهل يستسيغ العقل أن يصبح المرء محبوب خالقه، ولاتظهر على أيديه الأعاجيب؟

ولابُدّ لي من التنويه هنا إلى أن مقام المحبة الإلهية منه مايكون كسبيّاً ذكرناه: ومنه مايكون وهبيّاً أشارت إليه الآية من سورة التوبة ﴿**ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.**﴾.

ومقام المحبّة هذا وبأصوله التي ذكرناها يفسّر للمرء موضوع عصمة الأنبياء والصّلحاء. فالذي يبلغ هذا المقام الرّوحي يعصمه مقامه عن ارتكاب السيّئات، حتى لايعود يصدر عنه ذنبٌ مُتعمّد. يعني قولي هذا عصمة الأنبياء والصّلحاء من الخطأ والنّسيان.

أفلا نتلو قوله تعالى بحقّ آدم ﴿**فنسي آدم ولم نجد له عزماً**﴾ وبحقّ محمّدٍ خاتم النبيين: ﴿**ليغفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وماتأخّر**﴾. والمعلوم من معاجم النحويين أن الذّنب يكون مُتعمّداً ويكون غير متعمّد. وقد أشرت إلى هذه الحقيقة في كتاب الرأي أيضاً.

الفصل الثالث :
مراحل العِرفان الإلهي

تدرّجنا في بحث العِرفان الإلهي، ففهمنا دلالة ألفاظه لغوياً، ودلالات الألفاظ التي تعبّر عن مراحله، واطّلعنا على القانونين اللّذين يضبطان مقام (يُحبّهم ويحبّونه)، وهو المقام الأساس الذي يدفعنا كتاب الله القرآن لبلوغه.

أولاً. مقام الرغبة :

وأبدأ بالكلام عن أولى مراحل العِرفان وهي مقام الرّغبة إلى الله عزوجلّ الذي يعقب البيعة والانخراط في صفوف المؤمنين . ولابُدّ من التنويه هنا إلى أن البيعة هذه لاتُشبه في حقيقتها ورقة انتسابٍ إلى حزبٍ سياسيّ.

بل هي بيعة ذات طابعٍ روحيّ محض لاينبغي الرجوع عنها إلى أن يفارق المؤمن هذه الحياة. وهي بيعةٌ يدُ الله فوقها، وعهدٌ مع الله أن نسعى للتعرّف عليه والتعلّق بأهدابه.

ولنعلم المؤمن الرّاغب أنّ الله ربّه رسم له طريقه إلى عِرفانه في الآيات الأوائل من سورة المؤمنون. وأقدّم لهذا الرّاغب ثلاثة أدلّة تثبت له صحّة مأقول:

الدليل الأول: فلو عاد هذا الرّاغب إلى الآية قبل الأخيرة من سورة الحجّ، وهي قوله عزوجلّ: ﴿**يأيّها الذين آمنوا اركعوا واسجُدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون.**﴾. فقد أجمل الله تعالى فيها أوصاف المؤمنين بمحمّدٍ رسول الله (ﷺ) الذّين كتب الله أن يُحقّق على أيديهم التّحول الجذري الذي بعثه من أجل تحقيقه. وهذه الأوصاف وردت مُجملةً كما لاحظنا وهي بحاجةٍ إلى التوضيح. ولذلك استهلّ الله تعالى سورة (المؤمنون) التي تأتي بعد سورة الحجّ من حيث ترتيب التلاوة بالآيات التي تشرح مأجمله وقال: ﴿**قد**

أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو مُعرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانُهم فإنّهم غيرُ مَلومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صَلَواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.﴾. فقد قال جل شأنه آخر سورة الحجّ ﴿**لعلكم تفلحون**﴾. واستهلّ هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ فربط بين المضمونين ربطاً موضوعياً وفصّل هنا ماأجمله هناك. وجاء بترتيب مايقتضيه سلوك طريق معرفة الله عزوجلّ. ونبّه إلى أنّ أولى مراحل العرفان ـ أي مرحلة الرغبة إلى الله ـ ومن الوجهة الرّوحية تنحصر فيما تضمنه قوله تعالى: ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾. أي أن يتفهّم هذا المؤمن الرّاغب حقيقة الصّلاة الإسلاميّة المفروضة عليه: حركاتها وقراءاتها وأدعيتها والفلسفة العلمية التي قامت عليها هذه الحركات والقراءات والأدعية. وأن يؤدّي هذا المؤمن صلواته المفروضة عليه بخشوع وليس كرسمٍ وتقليد. وأتبع جلّ شأنه ذلك يقول: ﴿**والذين هم عن اللغو معرضون.**﴾. ذلك أنّ اللغو يُبطل الآثار الروحية التي تُخلّفها الصلاة الخاشعة، وسأعود في حينه للتوسّع في الشرح. والمهم الآن أن يُدرك القارىء المؤمن هذا الدليل الذي يثبت منه صحّة ماذكرت وهو أنّ الآيات الأوائل من سورة (المؤمنون) رسمت للمؤمن الرّاغب الخطوات التي ينبغي عليه أن يخطوها وبشكل طبيعّي لتمكنه من التعرّف إلى ربّه وخالقه، وليُفلح ويفوز بمطلبه ويحقق مايهدف إليه.

الدليل الثاني: والدليل الثاني الذي يثبت منه ماذكرته، هو أنّ الله عزوجلّ راح يشرح لهذا المؤمن أطوار ولادته الجسمانية، في مقابل أطوار ولادته الرّوحيّة بعد هذه الآيات الكريمة مباشرة ويقول: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طين. ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين. ثم خلقنا النّطفة علقةً، فخلقنا العلقة مُضغةً، فخلقنا المُضغة عظاماً، فكَسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.**﴾. هذا وقد سبق لي أن وضّحت أنّ بيعة

المؤمن هي بمثابة ولادةٍ روحيّة له. وليفكر أحَدُنا ماالضّرورة لذكر مراحل الولادة الجسمانية في هذا المقام إلاّ أن يفسّر حقيقة ماذكرته للقارىء وبيّنت؟

الدليل الثالث: والدليل الثالث الذي يثبت منه ماذكرته في مقدّمة هذا البحث هو أنه جل شأنه لم يقف عند حدّ بيان المراحل التي تمرّ بها الولادة الروحية والولادة الجسمانية، بل راح تعالى وبعد أن وضّح لنا من خلال قوله تعالى: ﴿**ثم إنّكم بعد ذلك لميّتون، ثم إنكّم يوم القيامة تُبعثون**﴾. وضّح أن هاتين الولادتين تنموان وتبلغان كمال نموهما في هذه الحياة، ويطرأ عليهما الموت وينتقل صاحبهما إلى حياةٍ برزخيةٍ، وستبعثان من جديد يوم القيامة، وسُيكتب لصاحب هاتين الولادتين حياةٌ جديدة وفي عالم جديد، أقول: إنّ ربنا وقد انتهى من بيان هذه الحقيقة، عاد إلى أصل الموضوع وقال: ﴿**ولقد خلقنا فوقكم سَبْع طرائق وماكُنّا عن الخلق غافلين. وأنزلنا من السّماء ماءً بقدرٍ فأسكنّاه في الأرض، وإنّا على ذهابٍ به لقادرون**﴾. فهو جل شأنه وضّح أنّه أُوجد لتطوير هذا الكيان الرّوحي وترقيته ﴿**سَبع طرائق**﴾ وعدد السّبع هنا للكثرة، أي فتحنا أبواب رقيٍّ غير محدود من أجل تطوير هذا المولود الروحي. وأنزلنا من السّماء ماءً بقدرٍ لإنبات ماتحتاجه الولادة الجسمانية من غذاءٍ يجانسها. وليفكّر أحدُنا ماالضرورة لذكر ذلك كُلّه إلاّ أن يكون بينه وبين مضمون الآيات الأوائل من هذه السّورة ارتباطٌ موضوعيّ ؟.

هذه أدلة ثلاثة تؤكّد أنّ لترتيب آيات سورة (المؤمنون) حكمةً بالغةً متعلقةً بالموضوع الذي نحن بصدده وهو موضوع التعاليم القرآنية التي ترسم للمؤمن طريقة معرفة ربّه والتّعلق به والاندفاع في محبّته والدفاع عن دينه القويم.

وقد بات واضحاً أيضاً أن واجب السالك تفهّم حقيقة الصلاة الإسلامية حركاتٍ وقراءات وفلسفات وتأدية هذه الصلاة بخشوع تام، فهذا أهم واجبٍ تقتضيه مرحلة الرغبة إلى الله عزوجل وأن يرافقها ابتعاد هذا المؤمن الرّاغب عن الأمور اللاغية بجميع أنواعها وسلوك طريق جدّي خلال السّير على طريق العِرفان الإلهي. لينمو كيانه الروحي نمّواً طبيعيّاً خالصاً من شوائب الأمراض التي تهدد هذا الكيان. على شاكلة المولود الذي تلده أمّه يُغذى بحليبها سنتين ومن ثم يُنوعّ له غذاؤه. فالصلاة الخاشعة هي بمثابة حليب هذا الرّضيع،

لذلك وإشارة إليه ورد قوله تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾. لذلك أعمد إلى الكلام عن هذه الصلاة .

٤. ماهي حقيقة الصلاة ؟

الصّلاة تعني الدّعاء. وهي اسمٌ يوضع مَوْضع المصدر. واشتقاقها من الصّلا، وهو العظم الذي عليه الإليتان. لأنّ المصلّي يُحرّك صَلَويه في الركوع والسّجود. والصّلاة مأخوذة من معنى العطف وطلب الإصغاء من الله واستمالته إلى هذا المُصلّي. أي أنّ الصّلاة في حقيقتها مطيّة المؤمن الخاشع لجذبِ محبّة الله تعالى إليه. ولاتكون إلاّ في الخير. أما لفظ الدّعاء فيكون في الخير كما يكون في الشّر. يُقال: دعا له، ودعا عليه (محيط المحيط). وبناءً على ماتحمله الصّلاة الخاشعة من دلالة تمكين المؤمن من استمالة محبّة ربّه إليه، والفوز بمكان مكين لديه، فقد ورد هذا الطّور من العرفان الروحي في مقابل الطور الأول لِلولادةً الجسمانية والمُعبّر عنه: ﴿**ثُمّ جعلناه في قرارٍ مكين.**﴾.

وليعلم القارىء أنّه ماسبق لدين سماويّ قبل الإسلام أن أتى بصلاةٍ شبيهةٍ بالصّلاة الخاشعة التي أتى بها الإسلام، والتي جعلها مطيّة قرب المخلوق من خالقه. وسأختصر معاني ومقاصد ودلالات حركات الصّلاة الإسلامية وقراءاتها وماقامت عليه من فلسفاتٍ علميّةٍ عظيمة وماتحمله من خواص. أقوم بذلك تسهيلاً للمؤمن الرّاغب سلوك طريق الصّلاة الخاشعة بين يدي ربه عزوجلّ عن وعي لما يقوم به وإدراك. وليستفيد بصورة عمليّة من هداية ربّه القائل: ﴿**قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾.

فليعلم هذا المؤمن الرّاغب أنّ الحركات والقراءات التي اشتملت عليها الصلاة الإسلامية الخاشعة، لم تكن هي المقصودة بحدّ ذاتها، ذلك أنّ الله غنيٌّ عن العالمين. بل المقصود هو ماترْمُز إليه هذه الحركات والقراءات وماتؤدّيه من مقاصد وأغراض. وهل يحتاج القائد إلى تحيةِ مرؤوسه الجُندي إلا أن يكون الغرض من هذه التحيّة إبداء الطاعة والولاء؟

فالإسلام طالب هذا المُصلّي أن يتوجّه في صلاتهِ قِبَلَ البيت الحرام الذي أعاد بناءه أبوالأنبياء إبراهيم عليه السّلام. فلماذا أمرنا الإسلام بذلك؟ أمرنا بهذا

التَوجّه في صلاتنا لنتذكّر أنّ إسلامنا هو ملّة إبراهيم الحنيف، ومن واجبنا الاعتصام بحبل الله جميعاً وتحت قيادةٍ روحيّةٍ واحدة.

والإسلام إذ طالب هذا المُصلّي حين يتوجّه قِبَلَ الكعبة أن يرفع يديه ويقول الله أكبر. لم يأمره بذلك الأمر عَبَثاً. بل يطالبه بهذه الحركة من يديه ليرمز بها إلى أنّه ألقى بهذه الدنيا ومشاغلها وراء ظهره معتقداً أنّ الله الذي وقف بين يديه ضارعاً هو أكبر من كلّ كبير عرفته دُنياه.

والإسلام وقد طالب هذا المؤمن بالوقوف بين يدي ربّه وقفة تأدّب، واحترام وتعظيم. أمره بذلك ليعبّر بذلك عن خضوعه لربّه وإعطاءه حقّ قدره من الإجلال والإكبار. وليعبّر أيضاً عن خضوعه لأوامره وهو أن يسير على طريق عِرفانه سيراً طبيعياً يتلاءم وقوانين النشوء والارتقاء. لذلك أمره أن يركع بعد ذلك ويقول (سبحان ربّي العظيم) أي أن يعبّر عن تدرّجه في معرفة ربّه فهو ينتقل من حالة الوقوف إلى حالة الانحناء التي هي أعظم دلالة على التعظيم. ومن ثم أمره أن يسجد ويقول (سبحان ربّي الأعلى) أي أن يعبّر عن كامل خضوعه وتوحيده وتنزيهه في آخر مراحلم ارتقائه الرّوحي. وعليه فلحركات الصّلاة وقراءاتها رموزُها ودلالاتُها ومقاصدُها، ولم يسبق لدين سماوي أن أتى بمثل هذه الحركات والقراءات.

والإسلام وقد طالب هذا المؤمن المُصلّي أن يجلس ليقرأ التحيّات والصّلوات الإبراهيمية قبل تسليمه. فقد كان المقصد من التحيات أن يؤدي تحيات وداع ربّه الذي وقف بين يديه. وقد كان المقصد من الصلوات الإبراهيمية الدعاء لمحمد خاتم النبيين (ﷺ) أن يُعطيه ربّه ماأعطى جدّه إبراهيم من عطاءات.

والإسلام إذ أمر المؤمن المصلّي أن يتوجّه بوجهه ذات اليمين بعد تحيّات الوداع ويقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فليرمز بذلك إلى أنّ يتوجّه إلى إخوانه المؤمنين أصحاب اليمين يبشرّهم أنّه تزوّد بروح المسالمة والمحبّة لهم وهو بين يدي ربّه. ومن ثم يلتفت بوجهه ذات الشّمال نحو غير المؤمنين من عباد الله تعالى ليعلن لهم أنّه تزوّد بروح المسالمة والمحبة لهم أيضاً وهو بين يدي ربه، فلن يؤذي أحداً منهم بلسانه ولابيديه، ولذلك ماإن ينتهي هذا المؤمن المُصلّي من

صلاته حتى يذكر ربّه ويقول: اللهم أنت السّلام ومنك السلام وإليك يعود السلام تعاليت ياذا الجلال والإكرام.

والصلاة الإسلامية الخاشعة، المفروضة على هذا المؤمن، تدفعه، بما تفرضه عليه من غُسل ووضوء تلازمه أدعيته ومن نظافه ثياب وتزيين مظهر المؤمن حين يسعى إلى صلاته هذه، أقول تدفعه ليكون طاهر الثوب والبدن والنّفس.

والصلاة إذا اشْتُرِطَ على القائم بها وعيه لما يقول. هذا الشرط الذي تضمنّه قوله تعالى: ﴿**لاتقربوا الصّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ماتقولون**﴾. فقد كان المقصد من هذا الشرط وعي عقله وكيانه الروحي مايتلوه في صلاته تدعيماً لنمُوه الروحي.

والصّلاة الجامعة تُعمّق في نفوس المُصلّين الرّوح الاجتماعية بينهم على أساس أن الإنسان اجتماعي بفطرته. وتُنمّي بذلك روح الأخوة والتعارف بين المُصلّين.

والصّلاة الإسلامية الخاشعة تنهى عن الفحشاء والمنكر، تربط هذا المصلّي بربّه وتنمّي علاقته به وتغرس في نفسه روح الخير وحُبّ العباد.

ولاننسى أنّ الله عزوجلّ الذي صاغ لنا هذه الصلاة بحركاتها وسكناتها وقراءاتها، قد أسّسها لصالح عباده المؤمنين وعلى أسس علميّةٍ فلسفية. فمن المعلوم أن ظاهر الإنسان يؤثّر في نفسه وباطنه. كما يتأثّر ظاهر هذا الإنسان بحالة نفسه الباطنة. والمثال على ذلك أن الخبر المفجع المحزن تكتئب له النّفس والجسد معاً ممّا يُلقيه هذا الخبر من ظلال على هذا الجسد. والعكس هو الصحيح. فالذي أوذي جسده تكتئب نفسه من جرّاء هذا الإيذاء ويضمحل سروره ونشاطه النفسي. وعليه فقد تأسست حركات وقراءات الصلاة الخاشعة وصيغت على هذا الأساس العلمي ، أي على أساس أن يؤثّر ظاهر حركاتها وقراءاتها في باطنه.

ثم إنّ الغُسل والوُضوء استندا في فرضهما وصياغتهما على أساس قانونٍ علميّ أيضاً، وهو تهدئة الأعصاب بالماء وإعادة صاحبها إلى توازنه الطبيعي. تمكيناً للمصلي من أن يَعيَ مايقوم به ويقرأه في صلاته.

وخلاصة القول هو أنّ الصلاة الإسلامية الخاشعة التي فرضها الإسلام، تشكّل فيما لها وماعليها مُعجزة غذاء روحيّ لايعادِلُها في ذلك أيّ غذاء روحيّ أتى به دين من الأديان السماوية قبل الدين الإسلامي. وتشكّل بذلك مطيّة ومعراجاً لهذا المؤمن على طريق عِرفان ربّه وخالقه.

وقد لاحظ القارىء تشديد قوله تعالى : ﴿**الذّين هم في صلاتهم خاشعون.**﴾ تشديده على ضرورة الخشوع في الصّلاة. فما معنى الخشوع وماهي أوصافه من كتاب الله عزوجلّ؟

٥ـ الخشوع وأحواله :

قال اللغويون إنّ الخشوع من خشع الرّجل إذا سكن وتذلّل. وسكون هذا الخاشع يعني ابتعاده عن وضعيّة الاستهتار والنشوز والتّصنع، وليقف بين يدي ربّه مُتذلّلاً متضرّعاً معبّراً عن احتياجه لله ربه الذي وقف بين يديه بخضوع ويقين تام لاستمالة محبّته نحوه ونيل كرمه وعطاءاته.

ثم إنّ القرآن الكريم زوّدنا بمعالم الأوصاف التي تتملّك هذا الخاشع. فأفادنا في سورة الأنفال من خلال قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم.**﴾ أي أن الوَجَل ووقفة الخوف من الله ربّنا الذي نقف بين يديه في صلاتنا هي أوّل صفات هذا الخشوع المطلوب للفلاح.

كما أفادنا القرآن الكريم في سورة الزّمر من خلال قوله تعالى: ﴿**تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم**﴾، أنّ وقفة الخوف من الله وتهيّبه على وجه الحقيقة لها أثر القشعريرة على جلد هذا المصلّي الخاشع. فإذا تملكته هذه القشعريرة واقعيّاً تتحول القشعريرة لتصبح كما ورد في الآية الكريمة ﴿**ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾. أي تنفرج أسارير هؤلاء الخاشعين بما يستشعرونه من قربهم من هذا الإله الذي وقفوا بين يديه.

ونبهنّا القرآن الكريم إلى الحالة الأخيرة التي ينتقل إليها المصلي الخاشع في صلاته وذلك من خلال قوله عزوجل في سورة مريم: ﴿**وإذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّاً.**﴾.

ولابدّ من التذكير هنا بحال المولود الرضيع، إذ لاتكون كمية الحليب التي يتغذّى بها في أوّل أيام ولادته، بمعدّل لايتغيّر. بل إن الخط البياني لهذه الكمية يتجّه صعوداً كلّما نما وكَبُر وازداد صِحّةً ووعياً. كذلك يكون حال هذا المصلّي الرّاغب، لايشترط فيه أن تتوفّر خشيته في صلاته إلاّ وفقاً للخطّ البيانيّ المذكور. وتبعاً لقانون النّشوء والارتقاء.

فهذا هو المطلوب من هذا المبايع السالك الذي يبدأ عِرفانه من مقام الرغبة، أن يتفهم حقيقة الصلاة الخاشعة، فيصلّي خاشعاً لإنماء كيانه الروحي حسب قوله تعالى: ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾.

أما على صعيد سلوكه اليومي العمليّ والذي صرّح به قول ربنا عزوجل: ﴿**والذين هم عن اللّغو مُعرضون.**﴾، والذي يُقابله جسمانياً: ﴿**ثم جعلنا النطفة علقةً.**﴾. فإن سورة المؤمنون نبهّت هذا الراغب الخاشع إلى ضرورة اعتزال حياة اللغو مبتعداً عن الحركات والأقوال التي لانفع من ورائها ولاجدوى، وهي كل قولٍ وفعلٍ لاغٍ من أقواله وأفعاله.

فاللغّو من حيث دلالته اللّغوية مصدرٌ يشير إلى كلّ مالايُعتدّ به من كلام وحركاتٍ ومُجالساتٍ وصُحباتٍ وعلاقات (محيط المحيط) أي أنّ المُصلّي الرّاغب إلى ربّه الذي يُصلّي صلاةً خاشعةً يؤديها خمس مرّاتٍ يوميّاً، لايخرج من صلاته الخاشعة ليُبطل مفعولها الرّوحي باللّغو في كلامه وحركاته وصُحباته وعلاقاته.

بل ليسعى هذا الرّاغب الخاشع في صلاته إلى تعديل سلوكه الذي كان يسلكه قبل إيمانه وبيعته. فينتهي عن فعل أيّ شيء لاتثبت فائدته علميّاً كي لايلحق الضرر بنموه الرّوحي. فليقاطع مجالس اللّهو وليمتنع عن مصاحبة الأشرار، ولايعود يُقدم على أمرٍ إلاّ بعد التّحقق من فوائده بصورة علميّة. وباختصار فإنّه يعود يلتزم بنهجٍ علمي في سلوكه وعلاقاته ليفترق بذلك عن مشابهة الأطفال شيئاً فشيئاً، وتكتمل بذلك نظرته إلى الأشياء من حوله من خلال هذا المنظار العلمي السلوكي. ويبقى بذلك محافظاً على نمو كيانه الرّوحي، فلايعرّضه لمختلف أنواع الأمراض والأخطار.

ذلك أنّ الأمراض والأخطار لاتهدّد كيان المولود جسدياً فقط، بل تهدّد كيان المولود روحياً أيضاً، والقرآن الكريم نبّه أذهان المؤمنين إلى ذلك صراحةً، وأطلق على الأمراض التي تهدد الكيان الرّوحي اسم النّفاق.

أفلم نقرأ قوله تعالى: ﴿**إن المنافقين يُخادعون الله وهو خادِعُهم، وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كُسالى، يُراؤون النّاس ولايذكرون الله إلاّ قليلاً.**﴾ النساء ١٤٢.

٦ـ مرض النفاق وأثره الروحي القتّال :

إنّ كلمة نَفاق على حسب ماورد في معجم محيط المحيط، موضوعة دلالةً على المضيّ والنّفوذ، وباقي المعاني متفرّع عنها، والنّفق سَرَبٌ في الأرض له مخرجٌ إلى مكان. وقال صاحب معجم المقاييس إن لكلمة النّفاق أصلين صحيحين. يدل أحدهما على انقضاع شيء وذهابه، والآخر يدلّ على إخفاء شيء وإغماضه. تقول: نَفَقَتِ الدّابة أي ماتت. ويكتم صاحب النفاق خلاف مايُظهر. فكأن إيمانه يخرج منه أو يخرُجُ هُو من الإيمان في خَفاء. هذه هي دلالات كلمة نفاق.

ومن واجب المؤمن الرّاغب الذي يسير على درب العرفان الإلهي أن يُحيط علماً بالأمراض النفسيّة التي تهدد كيانه الرّوحي وتذهب بنور هدايته، وتحول بذلك دون رغبته بالتعرّف إلى خالقه. خصوصاً أنّ القرآن الكريم فرض عليه أن يصلّي صلاته بخشوع، فمن واجبه أن يسارع دوماً إلى تلبية نداء المؤذّن "حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح" أما إذا أحسّ بالكسل في تلك اللّحظات، فليعلم أنّها بوادر مرض النّفاق الخطر على كيانه الروحي لقول ربنا عزوجل في سورة النساء ١٤٢ ﴿**وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كُسالى..**﴾. وليعالج بوادر كسله هذا باستغفار ربّه مرّات عديدة والتوبة إلى الله تعالى سائلاً إيّاه أن يشفيه من مرض كسله الذي يتهدّد صلاته الخاشعة ويحرمه من جَنْي ثمارها الروحية.

هذا المُنطلق المتعلّق بالمنافقين وعلاماتهم المرضية ابتدأه ربّنا عزوجل من الآية الثامنة وانتهى عند الآية العشرين. أي من قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ومن النّاس مَن يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا، ومايخدعون إلاّ أنفسهم ومايشعرون. في قلوبهم مرضٌ، فزادهم الله مرضاً، ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون.﴾ إلى قوله تعالى ﴿أولئك الذين اشتروا الضّلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وماكانوا مُهتدين. مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً، فلّما أضاءت ماحوله، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظُلمات لايُبصرون. صمٌّ بُكْمٌ عميٌ فهم لايرجعون.﴾ فإلى هنا أنهى الله تعالى كلامه عن الفريق الأول من المنافقين مشيراً بذلك إلى فئة منافقي البعثة الأولى للإسلام. وانتقل تعالى بعد ذلك فأنبأ عن الفريق المنافق الذي سيظهر عند البعثة الثانية للإسلام، وقال: ﴿أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظُلماتٌ ورعدٌ وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت، والله محيطٌ بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كُلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيءٍ قدير.﴾.

فليلاحظ القارىء كاف التشبيه التي أتى الله جل شأنه بها أوّل الآية. هذه الكاف التي تعني ضرورة توفير عناصر ثلاثة في كل مثال هي المشبّه والمشبه به ونقطة الشبه بينهما. فإن عُدنا إلى هذين المثالين الذين أوردتهما الآيات من سورة البقرة، فلانجد انبطباقهما على فريق واحدٍ من المنافقين، بل على فريقين مختلفين. وإلى القارىء الأدلة على صدق استنتاجي المذكور:

أولاً ـ فعلى حين وُصِفَ الفريق الأول بقوله تعالى: ﴿ **مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً، فلّما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظُلماتٍ لايُبصرون.**﴾ مشيراً بهذا الوصف إلى جماعة المنافقين من أهل المدينة المُنورة الذين استوقدوا شعلة الإسلام. فلما انتشر الإسلام على اكتافهم واكتاف المهاجرين، تملّك الحسد والبغض قلوب هؤلاء المنافقين من أتباع عبد الله ابن سلّول، وراحوا يشيرون الاشاعات الكاذبة ضدّ الرّسول، ووادّوا أعداء الله وأعداء رسوله واستشرى بذلك مرض النفاق في قلوبهم ﴿ **فذهب الله بنورهم وتركهم في ظُلماتٍ لايُبصرون.**﴾.

ثانياً: وقد وُصِف الفريق الثاني بقوله تعالى: ﴿**أو كصيّبٍ من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت.**﴾ وأشار بذلك الوصف إلى جماعة المنافقين من جماعة البعثة الثانية للإسلام الذين يخشون مايتطلبه إيمانهم منهم من تضحيات ماليّةٍ ومعنوية، في وقتٍ آمنوا فيه بنزول صيّبٍ من السّماء إنّما يخشون مايرافقه من ظلمات ورعد وبرق. هذه الظواهر التي ترافق على العموم كلّ صيّبٍ أي مطرٍ نافعٍ للمزروعات.

ثالثاً ـ ثم إننا حين نتناول المثالين من حيث نتائجهما نلاحظ عدم انطباقهما أيضاً على فريق واحدٍ بل على فريقين. فعلى حين جاءت عاقبة الفريق الأول من المثال الأول: ﴿**صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لايرجعون.**﴾. فقد جاءت عاقبة الفريق الثاني من المثال الثاني: ﴿**يكاد البرق يخطفُ أبصارهم، كلّما أضاء لهم مَشَوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم.**﴾ أي كلّما استقرّت الأمور لصالح الدعوة التي انضموا إليها نشطوا في دعوتهم إلى الله تعالى وكلّما اشتدت المقاومة ضدّ هذه الدّعوة قاموا من بين صفوف الدّاعين.

يقول تعالى إنّه يراعي ضعفهم فلو يشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم كما فعل مع فئة الفريق الأول من منافقي صدر الإسلام.

رابعاً ـ وعلّل الله عزوجلّ سبب ضعف إيمان الفريق الثاني من المنافقين بقوله عزوجلّ: ﴿**إنّ الله على كل شيء قدير.**﴾ أي أنّ هؤلاء لم يسلكوا درب العِرفان الإلهي ويصلوا إلى درجة اليقين من أنه جل شأنه هو على كل شيء قدير. بل ظلّ يشوب إيمانهم الشرك الخفي ويخشون الشيطان، ونعذرهم أنهم لايزالون في بدايات هذا الدّرب الطويل لذلك لو شئنا لذهبنا بسمعهم وأبصارهم وسلبنا من قلوبهم نور الإيمان كما فعلنا مع الفريق الأول من المنافقين.

وهكذا يتبيّن لنا اختلاف هذين المثلين وعدم انطباقهما على فريقٍ واحدٍ من المنافقين: بل انطباقهما على فريقين. فريق منافقي صدر الإسلام وفريق منافقي البعثة الثانية المعاصرة للإسلام. وهاكم القرائن التي تؤيّد هذا المنطلق الذي قدّمته لنا الآيات الأوائل من سورة البقرة:

القرينة الأولى: هو أنّ الله تعالى ابتدأ هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين.**﴾ وهذا النّفي لإيمان هؤلاء ورد عامّ الدّلالة غير مُخصصّ بفريقٍ معيّن. على حين أتى تعالى في آخر هذه الآيات بمثلين متعلّقين بفريقين منافقين ولاينطبقان على فريقٍ واحد. الأمر الذي يضطر الباحث إلى الرجوع إلى جميع سور القرآن واستلهامها عن حقيقة هذين الفريقين وإلى أيّة الأزمنة يعودان.

القرينة الثانية: والذي يطالع مؤلّف (فنّ الاختزال) سيدرك لامحالة معالم بعثتين للإسلام. ولابدّ أن يوجد بالتالي فريقٌ منافقٌ في البعثة الأولى للإسلام، وفريقٌ منافقٌ ثانٍ في البعثة الإسلامية الثانية. وهذه القرينة تؤكد أنّ الله تعالى قصد من هذين المثالين في المنطلقين من سورة البقرة هذين الفريقين من المنافقين.

القرينة الثالثة: والتي تشير وتؤكّد ماذهبت إليه، هو أنّه جل شأنه أتى بحرف العطف (أو) بين هذين المثالين قائلاً: (كذا أو كذا). ولم يأت الله تعالى بهذا الحرف عبثاً دون حكمة بالغة.

فإن نحن عُدنا إلى معجم محيط المحيط نجده ينبّه إلى أن المتأخرين من النّحاة ذكروا لحرف (أو) أحد عشر معنى. فأو تعني الشّك أي تردد المتكلم واشتباهه في ماأخبر به نحو لبثنا يوماً أو بعض يوم. والله تعالى منزه عن التردّد والاشتباه. فلايجوز الأخذ بهذا المعنى لحرف أو الوارد بين هذين المثالين. وكمثله دلالة (أو) على التخيير بعد الطّلب فلا طلب هنا ولاتخيير. وكمثله معنى الإباحة بعد الطلب فلا طلب هنا ولاإباحة. وكمثله الجمع المطلق فلا يصحُّ الجمع المطلق لاختلاف المثالين. وكمثله معنى الإضراب كبل المشترط فيه تقدّم نفي أو نهي، فلا نفي تقدّم على هذين المثالين ولانهي. وكمثله معنى التقسيم نحو: الكلمة اسمٌ أو فعل أو حرف، ولايوجد في المثالين هذا النوع من التقسيم، وكمثله معنى الاستثناء ولااستثناء في هذين المثالين. وكمثله أو بمعنى إلى فلايصح في هذا المقام. وكمثله معنى التّقريب وهو الاشتباه في هذا المقام. وكمثله معنى الشّرطيّة نحو: لأضربنّه عاش أو مات، فلاشرط في هذا المقام.

وهكذا فلايبقى لدينا إلاّ معنى واحد نأخذ به لحرف العطف (أو) الوارد بين هذين المثالين، وهو معنى الإبهام على المخاطب لغرضٍ من الأغراض. فقد

شاء جل شأنه أن يُبهم على القارىء دلالة هذين المثالين على فريق منافقي صدر الإسلام وفريق البعثة الثانية للإسلام لحكمتين بالغتين: الحكمة الأولى أنّه يأتي هنا بأمر غيبيّ كمنطلق، لايحتاج للتخصيص، والحكمة الثانية أنه تعالى أبهم ذلك حثّاً منه للقارىء ليتدبّر كلام الله بإمعان رصين، وهو مافعلناه حتى الآن. ليؤجر هذا القارىء عند ربّه، ويثبت بالتالي إعجاز دلالات القرآن العظيم، وأن الله تعالى هو علاّم الغيوب.

أمّا وقد فرغنا من الإحاطة بالمنطلق القرآني المنبىء عن ظهور فريقين من المرضى بمرض النّفاق. فقد وجب على المؤمن الرّاغب أن يعي هذه الحقيقة صيانةً لكيانه الرّوحي من أن يتآكل إن هو فرّط في حقّه.

ولمّا كنت أوضحّت أن من علامات النفاق كسل هذا المؤمن الراغب حين يسمع نداء المؤذن للصلاة والفلاح. ذلك أنّ كسله هذا يعقبه مرض نفاق في قلبه. لأن سورة التوبة نبهتنا إلى هذه الحقيقة من خلال قوله تعالى في الآيات (٧٤-٧٦) منها: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنكونن من الصالحين. فلّما آتاهم من فضله بخلوا به وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرّهم ونجواهم وأنّ الله علاّم الغيوب؟**﴾. فقد حذرتنا هذه الآيات من أنّ الإخلاف مع الله يعقبه مرض نفاق يصيب فؤاد هذا المؤمن المخلف لوعده مع ربّه الذي بسط له رزقه استجابةً لماً وعده به وبسبب أنّه عاهد على البذل والعطاء والتصدّق والاندفاع على طريق التقوى والعرفان. ذلك أنّ الإخلاف بالوعد يُصيب قلبه بمرض يأكل كيانه الروحي كما يفعل السّوس الذي ينخر في جذوع الأشجار.

ولنعد إلى سورة الحديد التي وضّح الله عزوجل في آياتها (١١-١٤) الحرمان الذي يُصاب به المنافقون يوم القيامة، حيث قال تعالى بحقّ المتصدقين وبحقّ المنافقين البخلاء: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجرٌ كريم، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بُشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذّين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم،**

قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. فضُرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب. يُنادونهم ألم نكُن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتُم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني، حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور.﴾. فالإنفاق في سبيل الله هو بمثابة إقراض الله قرضاً حسناً، يردّه له أضعافاً بتدابير خفيّة وأسباب، ويكافئه على هذا الإنفاق بأجرٍ كريم نور يسعى بين يدي هذا المنفق وبأيمانه وجناتٍ خالداً فيها. على حين يُحرم المنافق البخيل نفسه من هذا الفضل الإلهي وهذا الأجر الكريم. وقد نبّه جل شأنه إلى أن هذا البُخل الذي بخله هذا المؤمن المنافق يعود إلى أربعة أسبابٍ رئيسية: الأوّل منها عبر عنه بقوله تعالى (فتنتُم أنفسكم) من فتنه المال استمالاه إليه وحرص عليه (محيط المحيط). والثاني منها عبر عنه بقوله تعالى (وتربّصتم) من ربص بفلانٍ انتظر (محيط المحيط) والثالث من هذه الأسباب قوله تعالى (وارتبتم) من رابَ تشكك بوعود الله تعالى. والسبب الرابع عبّر عنه بقوله تعالى (وغرتكم الأماني) أي خدعتكم أمانيكم أن تصبحوا أصحاب ثرواتٍ عظيمة فاوقعتكم في مرض الحرص والنفاق.

كذلك نبّهنا كتاب الله تعالى إلى أنّ الذين يبتغون العزّة عند غير الله تعالى، ويوادّون الذين يستهزئون بآيات الله عزوجلّ، يُصابون بأمراض النفاق التي تقضي على إيمانهم فلايعود بينهم وبين الكافرين من فروق. هذا ماعبّرت عنه الآيات (١٣٨-١٤٠) من سورة النساء من خلال قوله تعالى: ﴿**بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً، الذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أيبتغون عندهم العزّة، فإنّ العزّة لله جميعاً، وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفَر بها ويُستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، إنكّم إذاً مثلُهم، إنّ الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً.**﴾. ذلك أنّ الإيمان يُنوّر قلب المؤمن بإذن ربّه. أمّا النفاق المشتق من النّفق الدّال على الظّلمة، فإنه يأكل نور الإيمان ويورث ظلمة في قلب صاحبه، إلى أن يستشري ويقضي على النور الذي أورثه هذا الإيمان في القلب.

من هذا كله ندرك أنّه في حين اختصّ الأطبّاء البشريون بمعالجة الأمراض التي تصيب الأجساد. فإن معالجة الأمراض التي تصيب الكيان الروحي لايقدر

على القيام بها إلا الأنبياء والمصلحون الروحيون الحقيقيّون بما يتلقونه من علوم علاجٍ لهذه الأمراض من لَدُن الله عزوجل.

وزبدة الكلام هو أنّ على المؤمن الراغب سلوك درب العِرفان الإلهي أن يُحيط علماً بكل مانبّه إليه القرآن الكريم بما يتعلّق بأمراض النّفاق، ليحذرها ويصون بذلك ولادته الرّوحية التي تأتّت له تلقاء إيمانه وبيعته. هذا وإني لم آتِ على ذكر جميع الأمراض التي تؤدي إلى النفاق حصراً خشية الإطالة على هذا الراغب والإطناب. والذي أدعو هذا المؤمن الراغب إليه بل كُلّ مؤمن في زماننا هو أن يحْذَرَ أن يشمله قوله تعالى : ﴿**أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلمات ورعدٌ وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعِق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مَشَوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير**.﴾. أن يظلّ هذا التشبيه القرآني نصب أعين المؤمن الرّاغب إلى الله من إخواننا أفراد البعثة الثانية للإسلام. ليذكّرهم هذا التشبيه على الدّوام أنّ هذا المؤمن المبايع لمحدّد هذا الزمان لابُدّ أن تعترضه ظُلُمات ورعدٌ وبرق يخطف الأبصار. فهذه ظواهر طبيعية ترافق نزول كلّ صيّبٍ أي مطرٍ نافع نازل من السّماء، وهي مؤشّر صحّي وبشارة، وليست هذه الظواهر بنذير شؤم وإنذار. ذلك أنّ على هذا المؤمن الرّاغب أن يسير قُدُماً على طريق معرفته لربّه فيواجه جميع هذه الأخطار بصدر رحبٍ وصبر ومثابرةٍ واحتمال، مُعتقداً من صميم فؤاده أنّ ربّه يحيط بالكافرين من جهة، وأنه من جهة أخرى على كل شيء قدير. فمثل هذا المؤمن الرّاغب يبلغ أخيراً مقام جذب محبة ربه إليه ويُدخله ربه في زمرة من يحبّهم ويحبّونه أيضاً.

أعود الآن إلى الآيات الأوائل من سورة (المؤمنون)، حيث طالب الله تعالى المؤمن الراغب أن يُتقن فهم صلاته، ويصليها بخشوع، ويعرض بعد ذلك عن الأمور اللاّغيات من أقوال وحركات وعلاقات بالآخرين تبعده عن درب معرفته لربّه. وأن يتلّمس في الوقت نفسه حالة الأنس بربّه ليكسب ودّه ومحبته. فإذا تقيّد المؤمن السالك بهذه القيود من صلاة خاشعة إلى الابتعاد عن اللاغيات، يتمكّن الأنس بالله من نفسه وينتقل بذلك إلى مرحلة عبّر الله تعالى عنها:

﴿**والذين هم للزكاة فاعلون.**﴾ أي لايعود يجدُ في نفسه حرجاً من أن يبذل مايترتّب عليه من مالٍ لدعم مسيرته الإيمانية.

ثانياً ـ مقام الأنس فالودّ :

نتساءل هنا: لماذا قال تعالى ﴿**للزكاة فاعلون**﴾ و لم يقل مؤدّون للزكاة؟ وهذا السؤال أجاب عليه صاحب الكليات حيث قال: (العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح، ويُستعمل لما كان مع امتداد الزمان. وفعل بخلافه.) (محيط المحيط). أي أنّ أداء زكاة الأموال هو من فعل الجوارح وتتطلّب المداومة على أدائها طيلة الحياة. فإلى هذه المعاني ورد قوله تعالى (للزكاة فاعلون).

ونتساءل ثانية عن حكمة تأجيل قوله تعالى: ﴿**والذين هم للزكاة فاعلون**﴾ إلى مابعد قوله تعالى ﴿**والذين هم عن اللغو معرضون.**﴾. وحكمة ذلك أنّ تزكية المال والتضحية به ليست بالأمر الهيّن على كل إنسان. فلا يُقدم عليه ولايلتزم بأحكامه إلاّ الذي قطع أشواط أداء صلواته بخشوع وابتعد عن الأمور اللاغيات وحاول ربط نفسه بربّه عزوجلّ. ليستحق بذلك الأجر الكريم الذي وعده الله هذا المؤمن السالك درب عِرفانه في سورة الحديد بقوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجرٌ كريم.**﴾ ثم إنّ المؤمن الذي أنس ربّه وطلب ودّه، يُطالبه ربّه أن يلتزم بأمر جديد عبّر عنه بقوله: ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون. إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين.**﴾. فهذه المطالبة وهذا المقام الجديد يأتي بعد مرحلة الالتزام بفعل الزكاة، ويقابل ذلك مرحلتي ﴿**فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً.**﴾ على صعيد التكوين الجسدي لهذا الإنسان المؤمن.

فإذا مابلغ المؤمن السّالك مقام الوّد الذي ذكرناه والذي تطلّب من هذا السالك حفظ فرجه إلا على أزواجه أو ماملكت أيمانه. يسمع إنذاراً ربانياً أنذره به ربه في سورة المؤمنون يقول: ﴿**فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون.**﴾.

أي أنّ المؤمن السّالك الذي يبلغ مقام الودّ رهبةً من ربّه ويصون نفسه من جميع أمراض النفاق بصورة موضوعية. من واجبه أن يعاهد ربّه هناك عهداً لاينكص عنه. وهو أن يثابر على طلب عِرفان ربّه ومحبّته، فلا ينكص بعدها على عقبيه مهما واجهته السماء بابتلاءات، بل أن يمضي إليه قُدُماً يستعطفه ويطلب محبّته لينشئه الله نشأة ثانية مقابل النشأة الجسمانية التي عبّر تعالى عنها بقوله ﴿**ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.**﴾.

أمّا إذا لم يتعّظ هذا المؤمن بالإنذار الرباني المذكور، وأخلّ بتعهدّه، يحرمه الله تعالى من ودّه إياه ويصبح من زمرة ﴿**فأولئك هم العادون**﴾ أي زمرة الظالمي لأنفسهم الخاسرين صداقة ربّهم وودّه إياهم وولايته لهم. ويكون حال هذا كحال الذي بلغ شاطيء النهر وعاد أدراجه وهو يشكو الظّمأ والعطش.

ثالثاً ـ مقام المحبة :

فإن ثبت الله تعالى فؤاد السالك درب عِرفانه على هذا الصعيد يجذب بعدها محبّة ربّه نحوه، ويدخل بعدها في زمرة الذين قال الله تعالى بحقّهم: ﴿**يُحبّهم ويحبّونه**﴾. فإذا بلغ هذه المرحلة من العرفان توجب عليه هناك أن يلتزم بالقانونين اللذين يقتيضهما مقام المحبة وقد سبق شرحهما من قبل أيضاً.

هذان القانونان تضمّنتهما الآيات من سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾.

والآن نلقي نظرةً على مافهمناه من آيات سورة المؤمنون، ونُجمل ماأوردَهُ الله حل شأنه في هذه الآيات التي نوّرت المؤمن الراغب بالمراحل والخطوات التي ينبغي عليه أن يقطعها على طريق عِرفانه لربه، والرّكائز المفروضة عليه ومُرتّبة بشكل يتلاءم وتطوره روحياً بشكل طبيعي. فهذه الآيات قسّمت حياة المؤمنين إلى مرحلتين رئيسيتين.

مرحلة ماقبل قوله تعالى: ﴿**فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون.**﴾. ومرحلة مابعد هذه الآية وماأشارت إليه. أي أنّ المؤمن السالك

درب العِرفان الإلهي يبلغ مابين هاتين المرحلتين حدّاً فاصلاً لارجعة معه. ومن واجبه أن يسير في عِرفانه قبل هذه المرحلة الفاصلة بشكلٍ طبيعي وفق ترتيب ماتضمنته تلك الآيات، فلا يتجاوز ترتيبه وإلاّ فإنه يصبح من (العادون) مِن عَدا طوره وقدره إذا جاوزه وتركه (محيط المحيط).

فإن سار هذا المؤمن المبايع ضمن هذه الوصيّة وبلغ مرحلة المحافظة على فرجه يُمسي تطبيقه لهذه الفروض والأوامر طبيعيّاً جدّاً لايُخالطه حرجٌ ولاضعف. ويكون بذلك قد تدرّج من الرّغبة فالأنس فالودّ على طريق معرفته لربّه ويكون بذلك من

﴿الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.﴾.

فما معنى لأماناتهم وعهدهم راعون؟

الأمانات جمع أمانة، وخلاف الخيانة. علماً بأنّ جميع مافرضه الله تعالى على عبده المؤمن يُعد من قبيل الأمانة. أمّا كلمة (وعهدهم) فمن عَهِدَ إليه: أوصاه، وعهد الحُرمة رعاها وحفظها. والعهد هو الوفاء والمودّة والذّمة والضمان. وأمّا (راعون) فمن رعا الرّجل أي نزع عن الجهل، وحَسُنَ رجوعه عنه (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني لتلك الألفاظ، يصبح معنى **﴿لأماناتهم وعهدهم راعون.﴾** هو أنّ المؤمن الذي تدّرج على طريق التعرّف إلى ربّه من الصلاة الخاشعة إلى الإعراض عن حياة اللّغو إلى فعل الزكاة إلى الحفاظ على فرجه، بحيث سار سيراً طبيعيّاً وأضحى عمله على هذه الفروض دستوراً لحياته اليومية. فابتدأ راغباً إلى الله إلى أن يأنس بوجوده ويجعل الله له ودّاً. ويتأهّل بذلك ليصبح محباً لربه ومحبوباً عند ربه. فيصبح عندئذٍ مستعدّاً للتخلّي عن أيّ نوعٍ من أنواع الجهالة، ويُحسن رُجوعه إلى ربّه قائماً بجميع أماناته المفروضة عليه وعاملاً على جميع وصاياه التي أوصاه بها محبوبه وإلهه بلا استثناء. على اعتبار أنّ هذا المؤمن قد بلغ سنّ رشده الروحي، وعاد مسؤولاً عن أقواله وأفعاله وبصورة قانونيّة.

فإن نحن حاولنا تفسير القرآن بالقرآن. بإمكاننا القول: إنّ هذا المؤمن صارع نفسه الأمّارة بالسّوء، فتجاوزها إلى مرحلة النّفس اللّوامة. حيث كان يبدر منه خلال مراحل الرغبة والأنس والودّ سقطاتٌ وضعفٌ دون قصدٍ منه لحداثة كيانه الرّوحي، فتلومه نفسه على مايبدُر منه من سقطاتٍ وضعف. أقول: إنّ هذا المؤمن الذي تجاوز مرحلتي النّفس الأمارة بالسّوء والنّفس اللّوامة، وماعاد من (العادون) الذين يتجاوزون حدود الله المرسومة لهم ليسيروا عليها بشكلٍ طبيعي. إذا بلغ هذا المؤمن آخر مراحل نفسه اللّوامة. يدخل سنّ رشده وتُصبح نفسه التي جذبت إليها محبّة ربّها عزوجلّ مطمئنّةً بهذا الرّب الإله المحبوب، فلايعود يبدر عن هذا المؤمن خيانة لأماناته المفروضة عليه في كتاب الله الفرقان العظيم، ولايعود يبدر عنه أيّة مخالفة لوصاياه عزوجلّ التي أوصاه بها في هذا القرآن الكريم. ذلك لأنه بلغ سنّ رشده الروحي من جهة. ودخل في الذين يحبّهم الله ويحبّونه من جهة أخرى. وماعاد له رجوع إلاّ إلى ربّه عزوجل وفق قوله تعالى: ﴿**ياأيّتها النّفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّة، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.**﴾ الفجر ٢٨.

وبإمكاننا تشبيه صاحب النّفس المطمئنّة بالسّمك الذي لايعيش إلا في الماء. أي أنّه يعود على درجة من الانجذاب نحو ربّه بحيث لايعود يجد سلواناً إلا في أحضانه.ويعود على درجةٍ من تقوى الله بحيث يُشار إليه بالبَنان. لاتبدّل عنه خيانة لأماناته، ولانكوث عن العمل بوصايا ربّه عزوجلّ، أي أنّ كلمة (راعون) استعملت في هذه الآيات من سورة (المؤمنون) في مقابل كلمة (التّقوى) في بقيّة الآيات من كتاب الله تعالى وتحمل نفس دلالة التّقوى من حيث الموضوع والغاية معاً.

وهذا الفريق المؤمن الذي بلغ النّفس المطمئنّة وهذا الحدّ من تقوى الله تعالى. وصفه جل شأنه أيضاً بقوله: ﴿**والذين هم على صلواتهم يُحافظون.**﴾. أي أنّه قبل هذه المرحلة قد يبدر عنه خلال أدائه لصلواته المفروضة ضعف وترك وتقصير . أمّا إذا بلغ سنّ رشده الرّوحي، فلايعود يبدر منه مثل هذا الضعف والتّقصير عن قصد ولاعن غير قصد. ويكون بذلك من الذين هم على صلواتهم يُحافظون.

ولاينبغي أن نأخذ كلمة (صلواتهم) هنا دلالتها على الصّلاة المفروضة وحسب. بل من واجبنا أن نفهم هذه الكلمة هنا بدلالتها الأشمل. دلالتها على الصلوات المفروضة وعلى الذكر الإلهيّ المطلوب في الآية (١٩١) من سورة آل عمران: ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربّنا ماخلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار.**﴾. أن نفهم دلالة قوله تعالى ﴿**على صلواتهم يحافظون**﴾ على الصلاة المفروضة وعلى الذكر الإلهي المطلوب من المؤمن من هذه الآيةمن سورة آل عمران، بقرينة أنّ مقام المحبّة يقتضي ألاّ يغيب هذا الرّب المحبوب عن أعين هذا المؤمن المحبّ لربه. فهذا قانون أساسيّ يقوم عليه موضوع المحبّة نفسه.

فالمؤمن الذي لايخون أماناته ولايترك وصايا ربّه دون العمل بها، والذي يؤدّي صلواته المفروضة عليه بخشوع تام، ويعيش على ذكر ربه عزوجلّ، هو من الوارثين الرّوحيين الذين نصّت على تسميتهم الآية ﴿**أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.**﴾ وهذا المؤمن وهو في هذا المقام الأخير من عِرفان ربّه، يُحدث الله عزوجلّ في كيانه الداخلي الرّوحي تبدُّلاً محسوساً، ويُنشئه نشأة أخرى روحيّة في مقابل النشأة الأخرى الجسمية فتبارك الله أحسن الخالقين. وهذا المقام هو المقام الذي اصطلح القرآن على تسميته بالنفخ في الرّوح.

وحين نصل إلى هذا الحدّ من البيان، نشعر بضرورة الكلام على الذكر الإلهي الذي يشمله قوله تعالى: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون.**﴾.

❀❀❀

الباب الثالث

الفصل الأول
أولاً ـ الذكر الإلهي وتعريفه:

لابدّ أنّنا علمنا من خلال قوله تعالى: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون.**﴾ أنّه تعالى وَضّح لنا السّمة التي تميّز العارفين به ومحبوبيه عن سواهم من المؤمنين السالكين. كما علمنا أنّ (صلواتهم) كلمة لم يُقصد بها الصلوات الخمس المفروضة وحدها، بل وشملت الذكر الإلهي بجميع أشكاله.

فالصلاة في اللغة تعني الدّعاء المؤطّر بحركاتٍ وأدعية وتلاوات وتسابيح ورموز وتعابير. فهي شكل من أشكال الذكر الإلهي الذي هو مجرّد أدعيةٍ ومناجاة بأشكال متعدّدة نبّهنا إليها القرآن المجيد، وميّزنا بها عن أتباع بقيّة الديانات.

ثم إن القرآن الكريم أطلق على الصلاة مصطلح الذكر الإلهي وذلك في الآية الثامنة من سورة الجمعة التي قال تعالى فيها: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا نودي إلى الصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله..**﴾ وماقال فاسعوا إلى الصّلاة. تنبيهاً لذهن هذا المؤمن إلى أن الصّلاة ماهي إلا شكل مؤطّر من أشكال الذكر الإلهي، ليس إلا. وإلا فللذكر الإلهي أشكال أخرى غير الصّلاة. أفلم يُعلّمنا محمد رسول الله (ﷺ) أن نَدعو مع كل حركة وضوء بدعاء؟ مثلا ندعو مع غسل وجوهنا "اللهم بيضّ وجهي يوم تسودّ الوجوه" فهذا شكل من أشكال الذكر الإلهي. وأو لم يعلّمنا القرآن الكريم ألاّ نتناول شيئاً لنأكله إلا بعد أن نقول "بسم الله الرحمن الرحيم" فهذا شكل ثالث من أشكال الذكر الإلهي. هذا وإن كل دُعاء ندعو الله تعالى به ونتوسّل إليه عن طريقه فهو ذكر إلهي وصلاةٌ أيضاً. على اعتبار أنّ الصلاة هي الدعاء في لغة الضّاد.

ثم إنّ الآية من سورة الجمعة التي استعملت للصلاة مُصطلح الذكر الإلهي، هي نفسها نبّهت ذهن هذا القارىء إلى وجود أشكالٍ أخرى للذكر

الإلهي. حيث أنّ تتمة الآية: ﴿**فإذا قضيت الصّلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون.**﴾ أي أنّ هذا طريق الفلاح أيضاً.

وقد ظنّ فريق المتصوّفة أنّ ذكر الله هو أن يجلس المرء يردّد اسم الله بمئات وألوف المرّات. في الوقت الذي لم يتدبّروا فيه موضوع الذكر الإلهي على ضوء سيرة سيّد المرسلين محمد (ﷺ) والمُعتبر شرعاً أعظم الذاكرين. فلم يرد عنه (ﷺ) أنّه جلس يمضي ساعات يردّد اسم الله عزوجلّ. بل رسم للمؤمنين منهجاً لذكر الله وكان بهذا المنهج الأسوة الحسنة للذّاكرين وهو ماسآتي على بيانه في حينه.

والمُتصوّفون ظنوا من قول الله تعالى في الآية (٤٥) من سورة العنكبوت: ﴿**اتلُ ماأوحي إليك من الكتاب وأقم الصّلاة، إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمُنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ماتصنعون**﴾، أفضلية الذكر وأفضليّة ترديد اسم الجلالة (الله) على الصّلاة، ودليلهم قوله (ولذكر الله أكبر). وذهبوا هذا المذهب لعدم أخذهم بأصول تفسير القرآن الكريم من جهة، ولعدم تدبّرهم دلالات الآيات من سورة المؤمنون.

فمن حيث الأصول، لابدّ من تفسير القرآن بالقرآن وإلاّ يقع المتدبّر لآيات الله في متاهات والخرافات. فهذه الآية من سورة العنكبوت تفسّر الآية (٤١) من سورة آل عمران: ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم..**﴾ وتنبه المؤمن إلى أن المواظبة على إقامة صلواته الخمس المفروضة عليه ليست بكافية بل وتُعدّ الصلاة أحد أشكال الذكر الإلهي.

وأن من واجبه أن يذكر الله في جميع أحواله ووفق المنهج المحمدي الذي استنّه لنا رسول الله (ﷺ) فذكر الله على هذه الشاكلة أي الجمع بين الصلوات الخمسه وبين الذكر وفق المنهج المحمدي هو " أكبر" من اقتصار هذا المؤمن على أداء صلواته المفروضة عليه.

ثم إن الآيات من سورة المؤمنون، على حين كان أولها ﴿**قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون.**﴾ جاء آخرها يقول ﴿**والذين هم**

على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون.﴾. و لم يكن المقصد بذلك تذكير المؤمن ضرورة محافظته على صلواته المفروضة. فهذا أمر استوفته آية ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون.﴾** لكون المواظبة من مستلزمات أداء الصّلاة. بل كان المقصد من قوله: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون.﴾**. المحافظة على "ذكر الله كثيراً" غير الصلوات المفروضة المشار إليها في الشطر الثاني من آية سورة الجمعة التي أوردناها، وليصبح هؤلاء الذين يحافظون على صلواتهم بجميع أشكالها من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فيستوفون بذلك الأصل الثاني الذي تقوم عليه المحبّة الإلهية وهو ألاّ يعود الله تعالى يغيب عن أعين هؤلاء العارفين له والمحبين والمحبوبين.

واستناداً إلى ماذكرناه بإمكاننا وضع مفهوم للذكر الإلهي الذي حثّ عليه كتاب الله القرآن، وهو أنّ المقصود بذكر الله هو الدّعاء والتوسّل بين يدي ربّنا عزوجل ومناجاته بوسيلة أسمائه الحُسنى بأشكال مختلفة منها الصلاة المفروضة، ومنها الأدعية المسنونة في القرآن وماوصلنا من أدعية رسول الله (ﷺ) تتعلّق بكل وضع من أوضاعنا.معتقدين اعتقاداً يقينياً أنّ ذات الله تعالى تحمل هذه الأسماء الحسنى وتتصف بها، وهي وسيلتنا لاستجابة دعواتنا كلّ حين.

ثانياً ـ فلسفة الذكر الإلهي :

وقبل أن أتناول بالذكر توضيح الفلسفة التي أُسِسَ عليها تعليم الذكر الإلهي في الإسلام. أجد من المناسب التّنبيه إلى أنّ الذكر الإلهي لايؤتي ثماره إلاّ إذا كان الذّاكر تقيّاً، وأن تتصف سلوكيته اليومية بالصلاح والاستقامة، وفق ماطالبت به الآيات من سورة المؤمنون.

هذه الآيات التي طالبت المؤمن السالك درب معرفة ربّه أن يؤدي صلواته المفروضة بخشوع ماستطاع، ويتدرّج فيهجر كلّ شكل من أشكال اللغو وحركاته وألفاظه. فإذا ماتميّز بذلك عوّد نفسه على التضحية المالية بجميع أنواعها. فإذا اعتاد فعل الزكاة يسعى لحفظ فرجه إلى حدّ العفّة والشرف، محاولاً وقاية نفسه من جميع أمراض النّفاق. ويكون بذلك كلّه قد أعدّ نفسه ليصبح

عارفاً با لله، ومحبوباً من محبوبيه، فيحافظ بصورة تامّة وقتئذ على أماناته وعهوده التي قطعها مع ربّه ويكون من الذّاكرين الله، والذين لايغفلون عن وجود ربّهم وملاحظة تصرّفاته في جميع أحوالهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فلا ينبغي للمؤمن أن ينسى مانبّهته إليه ووضّحته له في هذا المقام.

والآن أتناول الكلام عن فلسفة الذكر الإلهي وأقول: إنّ كلّ إنسان بإمكانه إدراك وتبيّن الأساس والفلسفة التي تأسّس عليها موضوع الذكر الإلهي سواء بنفسه أو بالأسلوب العلمي. فبالتجربة الذاتيّة يتّضح لنا أن لأصواتنا وأفكارنا آثارها التي تتركها في مخيّلتنا. فالذي يدأب على ذكر شيء بلسانه يعود يفكّر به، فتنتقش صورة هذا الشيء في مخيّلته إلى أن يأتي عليه وقت يشعر فيه أنّه أصبح هذا الشيء الذي دأب على ذكره والتفكير به صورة في مخيّلته. حتى وأنّه يتراءى هذا الشيء أحياناً لهذا الإنسان في منامه أيضاً.

والعكس هو الصحيح. فالشيء الذي نكره ذكره، نحاول تناسيه، وتغيب مع الأيام صورته من مخيّلاتنا. فهذه حقيقة لابدّ أن يكون قد جرّبها أكثر الناس بصورة عملية. وعلى هذه الحقيقة العلمية تأسست فلسفة الذّكر الإلهي بجميع أشكاله الإسلامية.

هذا وإن الذكر الإلهي يخلق حالة خشوع في نفس الذّاكر حالة خشوع على حين أنّ الأغنيات تترك حالة الطرب. حتى أن الأفاعي تتمايل طرباً إذا عودتها هذه العادة على عزف النّاي. وقد وصف القرآن الكريم أحوال الذاكرين الخاشعين ، الأمر الذي سبق لي أن وضّحته وقت التحدّث عن الصّلاة الخاشعة.

ولنعد إلى كتب السيرة فماحدث أنّ رسول الله (ﷺ) جلس يذكر ربّه بطريق الإنشاد أو الرّقص أو الصياح أوالمزمار. ولاعن طريق الإغماء وهزّ الرؤوس وسواها من حركات المتصوّفين المعاصرين. ولايتعارض ذكر الله أن يستمع رسول الله (ﷺ) لشعر حسّان بن ثابت الذي كان يعظمه ردّاً على قصائد المشركين.

ألا إن القرآن الكريم استعمل لحالة الوجد التي يولّدها الذكر الإلهي في الصلاة الخاشعة وفي بقية أشكال الذكر في نفس الذّاكر عدّة ألفاظ هي :

(وَجلت، تقشعر، تلين جلودهم، سُجّداً وبكياً.). وإن جميع هذه الألفاظ لاتفيد مايفعله الطرب في نفس المطروبين من حركة واضطراب. بل تفيد من حيث دلالاتها اللغوية معاني السّكون واللطافة والهدوء. وهذا أمر بإمكان النحويين تدبّره بشكل جيّد ليُدركوا حقيقة ماذكرت.

من هذا ندرك أنّ مايقوم به المتصوّفون في زماننا من حركات في مجالس ذكرهم، إنّما هو أبعد مايكون عن تعاليم القرآن الكريم. خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ قد أنزل هذا القرآن ليقوم بتعاليمه ضعف عقولنا وليضع أرجلنا على الصّراط المستقيم. ولم يُنزل الله هذا القرآن ليذهب بعقولنا وبصوابنا وليُظهرنا بمظهر الجهالة والطّيش. ومن منّا لايدري أن رسول الله (ﷺ)عندما فقد ابنه إبراهيم لم يبلغ حُزنه عليه حدّ الصّياح والعويل؟

وهكذا ندرك معالم الفلسفة التي تأسّس عليها مبدأ الذكر الإلهي فذكر الله ينقش في مُخيلّة هذا المؤمن الذّاكر صورة زاهية عن الصّفات التي تتصّف بها هذه الذّات الإلهية التي يقوم على عبادتها. فترسم أسماء الله الحسنى في مخيّلة هذا المؤمن الذاكر صورة لما تحمله الذات الإلهية من قدراتٍ لايطالها خيال المرء، ولاتحدّها حدود. ويتعرّف عن هذا الطريق إلى محبوبه الذي يسير على درب عِرفانه الطويل.

ثالثاً ـ أشكال الذكر الإلهي :

والذي يتدبّر كتاب الله يتبيّن له أنّ وجود أربعة أشكال لذكر الله عزّوجلّ. وقد أمر الله المؤمن السّالك درب عرفانه أن يذكره بهذه الأشكال للذكر. فإن لم يفعل ذلك، وابتدع من عند نفسه طرقاً وأشكالاً أخرى يحسب أنها تؤدي إلى عبادة الله تعالى فقد استوجب الحرمان من معرفته، وإنزال العقاب به على معصيته، وحرمانه من الفوز بالأجر الكريم الذي وعد الله تعالى به عباده المؤمنين المُتّقين. أمّا إذا ذكر ربّه بهذه الأشكال من الذكر الإلهي فُتّحَت له أبواب العروج الروحاني، وهذه الأشكال هي:

١. الصلاة ذكر إلهي :

نصّت على هذا الشكل من ذكر الله تعالى الآية الرابعة عشرة من سورة طه، والتي خاطب الله جل شأنه رسوله الكريم فيها آمراً إيّاه بقوله: ﴿**وأنا اخترتُك فاستمع لما يُوحى. إنّني أنا الله لاإله إلاّ أنا فاعبدني، وأقم الصّلاة لذكري.**﴾. ذلك أنّ سورة طه نزلت في مكة المكرّمة في السنوات الأولى للدعوة الإسلامية ، وأوجب تعالى بها على المؤمنين ذكر الله بالشكل المعروف باسم الصّلاة المؤطّرة بالحركات والأذكار المعلومة. علماً بأنه تعالى أتى بلام الاختصاص فأدخلها على كلمة ذكري وقال ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾ منبّها بذلك إلى أنّ الصلاة المفروضة تعتبر في نظره تعالى شكلا من أشكال ذكر الله عزوجل.

وحينما أوجب الله تعالى على المؤمن صلاة خمسة أوقات في اليوم ، فكأنه أمر هذا العبد أن يفرّغ نفسه في هذه الأوقات ليذكر ربّه بهذا الشكل من أشكال الذكر الإلهي وعليه فقد سُميّت الصلاة ذكراً إلهياً في سورة طه التي كانت من أوائل مانزل من سور قرآنيةٍ في مكّة المكرّمة. هذا النص ورد حسب ترتيب نزول القرآن المجيد. فإن نحن عُدنا إلى ترتيب تلاوة هذا القرآن نُلاحظ نفس مالاحظناه في سورة طه. فقد سُميّت الصّلاة في سورة البقرة أيضاً ذكراً إلهياً. أفلم نقرأ الآية (٢٣٨) التي يقول تعالى فيها: ﴿**حافظوا على الصلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالاً أو رُكباناً، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمَكُم مالم تكونوا تعلمون.**﴾؟ فهاهو جلّ شأنه قد استبدل لفظ الصلاة هنا بقوله: ﴿**فاذكروا الله كما علمكّم مالم تكونوا تعلمون.**﴾ فلم يقل فإذا أمنتم فصلّوا. أو أدّوا فرض الصلاة. بل قال (فاذكروا الله) وسمّى الصلاة بذلك ذكراً إلهياً منبّهاً جل شأنه إلى أن هذا الشكل من ذكره ماعلمت البشرية مثيلاً له في تاريخها الطويل.

٢. تلاوة القرآن ذكرٌ إلهي : وإن نحن عُدنا إلى سورة الحجر، وقرأنا قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.**﴾ لابُدّ أن يخطر ببالنا سؤال وهو لماذا أتى الله تعالى في هذه الآية بكلمة الذّكر ولم يقل (إنا نحن نزّلنا القرآن) وهو الاسم المشهور لكتابه العزيز؟ والحكمة من ذلك تنبيه عقولنا إلى ضرورة

ذكر الله تعالى عن طريق تلاوة آيات القرآن الكريم. ذلك أن تلاوة القرآن تعدّ وفقاً لهذا النّص القرآني، شكلاً ثانياً من أشكال الذكر الإلهي.

وهذا الشكل الثاني من الذكّر وهو تلاوة شيئ من آيات القرآن الكريم يُعدّ شكلاً مباركاً من أشكال الذكر الإلهي. أفلم نقرأ الآية (٥٠) من سورة الأنبياء التي قال تعالى فيها: ﴿**وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه، أفأنتم له مُنكرون.**﴾؟ فها أنّ هذه الآية من سورة الأنبياء صرحت بهذا الشكل الثاني لذكر الله وأطلقت عليه صفة ذكرٍ مبارك أيضاً. وهذا النصّ يؤيد ماأوردته الآية من سورة الحجر التي قال تعالى فيها ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.**﴾.

وعليه فإنّ المؤمن الذي يعتاد أن يتلو شيئاً من القرآن يومياً، فهو يذكر ربّه يوميّاً بهذه التّلاوة وتحفّ به الملائكة أيضاً الأمر الذي تشير إليه كلمة (مبارك)، فهذا من بركات تلاوته لآيات القرآن الكريم. وكثيرة هي أحاديث رسول الله (ﷺ) التي تفيد هذا المعنى الذي ذكرت.

٣ ـ التوسّل بأسماء الله الحسنى ذكر إلهي : وهناك شكل ثالث لذكر الله نبهتنا إليه آيات كثيرة. إحداها الآية (٢٠٥) من سورة الأعراف التي قال الله تعالى فيها: ﴿**واذكر ربّك في نفسك تضرُّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول، بالغدّو والآصال ولاتكن من الغافلين. إنّ الذين عند ربّك لايستكبرون عن عبادته، ويسبّحونه، وله يسجدون.**﴾. فإن تساءل القارىء عن ماهيّة هذا الذّكر؟ تجيبه الآية (١٨٠) من سورة الأعراف: ﴿**و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يُلحدون في أسمائه، سيُجزون ماكانوا يفعلون.**﴾ أي إذا تساءل المؤمن :كيف أذكر الله في نفسي تضرُّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدّو والآصال كيلا يُعدّ في نظر ربّه من الغافلين. الجواب هو أن يفترض نفسه في جميع أحواله واقفاً بين يدي ربّه الذي يفتح له خزائن عطائه، فليغتنم هذه الفرص السانحة له وليذكر ربّه بالدّعاء منه عن طريق توسُّلِهِ بأسماء الله الحسنى طمعاً في عطائه وخيفة أي خشية من بقائه بعيداً عن ربّه ومن غير المُقرّبين، وليكن توسّله ودعاؤه هذا دون الجهر من القول لايسمعه أحدٌ سواه، وبالغدّو والآصال أي في جميع الأوقات السانحة له من الصباح إلى المساء.

وهذا الشّكل من الذّكر مطلوب من المؤمن بإلحاحٍ من الله جلّ شأنه نفسه أفلم نقرأ التهديد الذي وجّهه الله تعالى لهؤلاء الغافلين عن هذا الشكل من ذكر الله تعالى وذلك في الآية (٣٦) من سورة الزخرف، قوله: ﴿**ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقيّض له شيطاناً فهو له قرين.**﴾؟ وإلى هذا الشكل من الذّكر أشار قول الله تعالى في سورة النور: ﴿**رجالٌ لاتلهيهم تجارة ولابيعٌ عن ذكر الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار.**﴾.

٤ ـ الدعوة إلى سبيل الله ذكر إلهي: ونحن إذا عُدنا إلى السّور الأوائل التي نزلت في مكة المكرمة، نلاحظ أنّ الله عزوجلّ أمر رسوله الكريم في سورة المدثّر قائلاً: ﴿**ياأيّها المدّثر. قم فأنذر. وربّك فكبّر.**﴾ ففي (محيط المحيط) كبّر الشيء عظّمه وجعله كبيراً في أعين المخاطبين. وفي هذه الآية الكريمة توجيه إلى شكلٍ رابع من أشكال الذكر الإلهي وهو القيام بدعوة النّاس إلى دين الله والتدليل على عظمته تعالى وماتحمله ذاته من أسماء حسنى، حاثّاً النّاس على الإيمان بالله والتخلّق بصفاته عزوجلّ. هذا وإنّ كلّ خطوةنقوم بها على طريق الدعوة إلى سبيل الله تعالى، هي بمثابة ذكر الله في عُرف القرآن الكريم. ومن البديهي القول إنه لايستطيع تعريف النّاس على الله تعالى بشكل صحيح إلا المؤمن العارف بالله والمتعامل معه والذي تُستجاب أدعيته، ويحظى ببشارات الله وتعليمه وأعطياته.

رابعاً ـ كيف نذكر الله تعالى؟

ومادمنا قد اطلعنا على الأشكال الأربعة للذكر الإلهي التي أتى بها كتاب الله نفسه، وماكانت من اختلاق أحدٍ من النّاس. فلابد أن تتوق نفس المؤمن لمعرفة الوجه التطبيقي لهذه الأشكال المذكورة. خصوصاً وأنه عاد يعيش في عصرٍ فسدت فيه مجتمعات المسلمين، وفقدت بذلك أسوة سيّد المرسلين (ﷺ).

أولاً ـ أما مايتعلّق بالشكل الأوّل للذكر وهو المعروف بالصّلاة التي هي مجموعة أذكارٍ مؤطّرة، بحركاتٍ وقراءات وتعابير. والمنسّقة تنسيقاً فنيّاً

رائعاً يزيدها تأثيراً وفعالية. الصّلاة التي منها الفروض ومنها السّنن ومنها النّوافل. فإن بعض جهلاء المسلمين المعاصرين يفرّقون بين صلاة فرض وصلاة سُنة، ويتكاسلون في القيام بصلوات السّنن وكأنّها تقلّ منزلةً عن صلاة الفرض. ومُشعراً كأنّ رسول الله (ﷺ) قد أثقل كاهل أمّته بما استنّه من ركعات إضافية على صلوات الفروض.

هذا الأمر يدعوني لتبيان أعظم حكمة في هذا المجال. وهذه الحكمة يدركها المؤمن الذي يوجّه إلى نفسه سؤالاً وهو: هل يؤدي في حقيقة أمره جميع ركعات صلوات الفروض بخشوعٍ وعلى حسب ماأقره ربّه به؟ أم أنّه يزيغ في بعض الرّكعات؟ وقد علم هذا المؤمن أنّ الصلاة الإسلامية هي غذاء رواحي يتغذّى به من بعد ولادته الروحيّة عن طريق إيمانه وبيعته، على شاكلة مايتغذّى الرّضيع بحليب ثدي أمّه.

فالمؤمن يستحيل عليه في بادىء الطريق أن يخشع بصورة صحيحة في جميع ركعات الفروض. ويكون بذلك مثله كمثل الرّضيع الذي لايُشبعه حليب أمّه ويحتاج إلى وجبةٍ إضافية من حليب البقر أو سواه، ليسدّ بذلك حاجته من الغذاء كيلا يُصاب بأمراض سوء التغذية.

وقد استن محمد رسول الله (ﷺ) لأمّته هذه السّنن التي وصلتنا بالتواتر عنه؛ لتقوم هذه السنن بنفس ماتقوم به وجبات الحليب الإضافية، فتسدّ مسدّ الزيغ الحاصل في صلاة الفرض. وبما يناسب كل وقت من الأوقات المكتوبة للصّلاة، فالسنّن تساعد المؤمن على صيانة نفسه من سوء التغذية الروحي ومن شرور الأمراض التي يسفر عنها.

هذا هو الأمر الذي أخذه محمد العظيم (ﷺ) بعين الاعتبار، لذلك استّن لكل فرض من السُّنَن مايعوّض نقص الخشوع المطلوب، وبما يناسب الأوقات أيضاً. أي أنّ المؤمن الذي خشع في ركعتين من ركعات الفرض، وزاغ فكره على سبيل الفرض في ركعة ثالثة، وعاد فخشع في الركعة الأخيرة، لايكون كيانه الروحي قد استوفى نصيبه من غذائه الرّوحي الذي قدّره له ربّه.

فإذا صلّى السّنن التي استنّها له رسول الله وهو الأسوة الحسنة له، يعوّض بهذه السّنن النّقص الحاصل، وقد يفيض. ولايُخشى من الغذاء الروحي الفائض، فهو خيرٌ ونافلة. على حين تُحدث كمية الغذاء المادي الفائضة تُخمةً في المعدة. وهذا الفارق بين الغذاء الرّوحي والغذاء المادي من حيث الكمية، يحدُث بسبب اختلاف الماهيّتين والقوانين الناظمة لهما. ذلك أنّ النمو الروحي، لن يقف عند حدود، لذلك يكون المؤمن من الخالدين في الحياة الأخروية الجنّية. وإن اختلاف القوانين الناظمة لكلا الكيانين يتجلّى في حالة النوم، حيث يقوم النائم بما يستطيع القيام به في يقظته.

من هذا ندرك عظمة الحكمة التي دفعت محمداً سيد المرسلين ليسنّ لنا هذه السّنن التي هي بمثابة الأجنحة لصلوات الفروض. وبذلك فقد أحسن هذا الرّسول إلى أمته إحساناً عظيماً ستمتد آثاره الروحية إلى يوم القيامة. وهذا الإحسان يدفع فؤاد كل مسلم سالك درب عرفان ربّه ليلهج بالصلاة والتّسليم عليه (ﷺ) مادام حيّاً اللهم صلّ وسلم وبارك على محمد إنّك حميد مجيد.

هذا وإن لصلاة النّافلة نفس فائدة صلاة السُّنة، وتعين هذا المؤمن أكثر على بلوغ أسمى مراتب الروحانية. وتصّح صلاة النوافل في الليل وفي النهار. إنّما أكدّت سورة المزّمل على نافلة الليل حيث قال تعالى فيها: ﴿**إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلاً**﴾. ولفظ (أقوم) من قوّم الشّيء: عدّله وأزال عِوجه (محيط المحيط) أي أنّ ناشئة اللّيل، وهي صلاة نافلة الليل تفيد في تقويم نفس المؤمن وتحدث فيه انقلاباً روحياً، وتكسبه قُوّةً وطاقة روحية لايستطيع تحصيلها بأسلوبٍ آخر. لذلك كان صحابة رسول الله (ﷺ) رضوان الله عليهم يواظبون على صلاة التهجّد. حتى أنّه ورد أنّ رسول الله (ﷺ) كان يتفقدّهم ليعلم من منهم يقوم للتهجّد، ومن منهم يتكاسل عن أدائها. وقد ثبت من أحاديث رسول الله (ﷺ) أنّ الله تعالى يكون أقرب مايكون من

عباده في آخر حصّةٍ من اللّيل، حيث يتقبّل وقتها كثيراً من أدعية الصالحين.

ثانياً ـ وأما الطريق العملي للشكل الثاني لذكر الله، وهو تلاوة القرآن الكريم. فلابد للمؤمن أن يضع في حُسبانه عدّة أمور. منها أنّ الله تعالى قد أمره بتدبّر كتابه العزيز في الآية (٨٢) من سورة النساء حيث قال: ﴿**أفلا يتدبّرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾. ومعنى تدبّر القرآن: حاول تفهّمه والتفكير فيه والتأمّل فيما يرمي إليه، والتفكير في عواقب إهمال العمل على أوامره. (محيط المحيط).

ومن هذه الأمور التي ينبغي للمؤمن التحسّب لها عند تلاوة شيء من القرآن الكريم هو أن الله الذي أنزل هذا القرآن اشترط توفّر أمرين اثنين لاستخراج لآلىء هذا القرآن ومعارفه وعلومه.

الأول تضمّنه قوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة الواقعة: ﴿**فلا أقسم بمواقع النّجوم. وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم. إنّه لقرآن كريم. في كتابٍ مكنون. لايمسُّه إلا المطهرون. تنزيل من ربّ العالمين.**﴾. وقوله لايمسُّه أيّ لايصل إلى إدراك حقائقه وأسراره ومعارفه إلا المُطّهرون، ولم يقل إلا الطّاهرون. إشارةٌ منه تعالى إلى أن هذا المؤمن ينبغي أن يكون سائراً على درب عِرفانه تعالى متطهّراً من الوساوس والهواجس والتعلّق بالأغيار، وماعاد يذهل عن الله طرفة عين وأدّى حقوق الحق وحقوق الخلق.

والأساس الثاني تضمّنه قوله تعالى في آية الكرسي (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿**الله لاإله إلاّ هو الحيُّ القيّوم، لاتأخُذُه سِنَةٌ ولانوم، له مافي السماوات ومافي الأرض، مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم مابين أيديهم وماخلفهم، ولايُحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء، وسع كرسيُّه السموات والأرض، ولايؤودُه حِفظهما، وهو العليُّ العظيم.**﴾. وعلوم هذا القرآن من علم الله، فلا يستطيع أن يحيط بشيءٍ من علم القرآن إلاّ بما شاء صاحب هذا الكتاب. ومعنى أحاط به

علماً أي أدركه بكماله (محيط المحيط) بمعنى أنّ علم القرآن الحقيقي وبكماله لايتكشّف إلاّ على (المُطهّرون).

فإن أخذ المؤمن هذين الأساسين بعين اعتباره، كان عليه وهو يتلو القرآن بتدبّر أن يدعو ربه في قلبه أن يكشف له معارف وعلوم مايتلوه وعلى حسب مشيئته. وألاّ يُعجل في التلاوة لقوله تعالى في الآية (١٦) من سورة القيامة: ﴿**لاتحرّك به لسانك لتعجل به.**﴾ فهذا هو أحد أوجه دلالات هذه الآية الكريمة. وأن يرتّل مايتلوه بصوتٍ يناسب الوقت والمقام لقوله تعالى في الآية الرابعة من سورة المزّمل ﴿.. **ورتّل القرآن ترتيلاً.**﴾.

ثم إنّ الله تعالى لم يحدّد لهذا المؤمن مقدار التلاوة، وترك الخيرة للمؤمن نفسه فالمؤمن هو الذي يقدّر ماتسمح له ظروفه به من تلاوة. وهو جلّ شأنه لم يحدّد وقتاً مُعيّناً للتلاوة. فالمؤمن يحدّد هذا التوقيت، إنّما من واجبه أن يواظب على التلاوة كلّ يوم بنفس المقدار ونفس التوقيت إلاّ أن يحول بينه وبين ذلك عُذرٌ قاهر. والوضوء قبل التلاوة من أبسط ضرورات شرط (المُطهّرون)، وهذا لايعني أنّ التلاوة لاتصّح بدون وضوء.

ونصيحه شخصيّة أنصح بها كل مؤمن مُبايع، وهو أن يعمد إلى مُطالعة مؤلّفاتي، وإذا ما أحاط من خلال قراءته لها بمعنى آية، فليدوّن على هامش هذه الآية في نفس القرآن الكريم الذي يحتفظ به للتلاوة، وإضافةً لذلك ليدّون اسم الكتاب ورقم الصفحة بجانب المعنى للرجوع إليها عند الضرورة، وليعينه ذلك في المستقبل على الإحاطة بالتّسلسل الموضوعي لآيات القرآن الكريم.

هذا، ولايعني هذا كُلّه ألا يُصغي هذا المؤمن لتلاوة سواه. بل لايمانع القرآن الكريم بذلك وعلى العكس اشترط على هذا المؤمن أن يستمع للتلاوة متدبّراً مايسمعه وينصتُ فلا يتكلم ولايلغو، ويحصل بذلك على رحمة من ربّه عزوجل أيضاً لقوله تعالى في الآية (٢٠٤) من سورة الأعراف: ﴿**وإذا قُرىء القُرآن، فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم**

تُرحمون﴾. أمرنا تعالى بذلك الإنصات لنتلقّى الأثر الرّوحي للتّلاوة، بسبب امتياز وحي الله بهذا الأثر على قول البشر.

ثالثاً ـ أمّا مايتعلق بالطريق العمليّ للشكل الثالث من الذكر الإلهي، الذي هو الدّعاء من الله تعالى بتوسّط أسمائه الحُسنى. فهذا الشكّل من الذكّر الإلهي قسمان: ذكر فروض وذكر نوافل.

فما يتعلّق بذكر الفروض، فمنه مانصّت عليه الآية (١١٨) من سورة الأنعام التي قال تعالى فيها: ﴿**فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين.. ولاتأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه، وإنّه لفسق، وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعمتوهم إنكّم لمشركون. أوَ مَنْ كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس، كمن مَثَلُه في الظّلمات ليس بخارجٍ منها، كذلك زُيّن للكافرين ماكانوا يعملون**﴾. وتبعاً لمضمون هذه الآيات فلابد من البسملة على كل مايُريد المؤمن تناوله من الطّعام كذكر فرضٍ واجب عليه، لأهميّته فهذا النّوع من الفروض يفيده في تنمية كيانه الرّوحي .

وقد شدّد الله تعالى على المؤمن الذي لايذكر ربّه مبتدئاً باسم الله كلّما تناول طعامه واعتبره فاسقاً عن أمره تعالى، الأمر الذي يوقع هذا الفاسق في مرض الشرك الخفيّ. ويُحرم بذلك من فضل البسملة التي تولّد له نوراً مع الأيام يمشي به في النّاس.

ومن أنواع ذكر الفروض مانصّت عليه الآية (٩٨) من سورة البقرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشْعر الحرام، واذكروه كما هداكم، وإنْ كنتم من قبله لمن الضّالين، ثم أفيضوا من حيث أفاض النّاس واستغفروا الله، إن الله غفورٌ رحيم، فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً. فمن الناس من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا، وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيبٌ مما كسبوا والله سريع الحساب. واذكروا الله في أيّامٍ معدودات، فمن تعجّل في يومين فلا إثم**

عليه، ومن تأخّر فلا إثم عليه لمن اتّقى. واتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه تُحشرون.﴾. وتبعاً لمضمون هذه الآيات فإنّ من واجب المؤمن أن يدعو ماستطاع: ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار. والإكثار من هذا الاستغفار والدعاء عند المشعر الحرام، وبعد قضاء مناسك الحج لعدّة أيّام. وأن يقوم بهذا الاستغفار والدعاء بتضرّع بين يدي الله تعالى ، وكأن هذا المؤمن يطلب شيئاً من والده أو أشد ضراعة، فهذا ذكر فرض، فرضه الله تعالى على المؤمن الذي يؤدي مناسك الحجّ. وهذه الآيات نبّهت هذا المؤمن إلى أنّه إذا استغلّ حجّه للدعاء لأمور دنياه، ولم يستغفر ولم يدع بالدّعاء الذي علّمه إياه، فلا يستفيد من حجّه وهو ماله في الآخرة من خلاق، بسبب أنه حرم نفسه من بركات هذا الذكر الفرض في الحجّ.

أما مايتعلّق بذكر النوافل. فهذه أذكار أورادٍ خصّها الله عزوجل بأوقاتٍ معلومة من كتاب الله تعالى. وهذه الأذكار تصون المؤمن من أن يصبح غافلاً عن ربّه عزوجلّ.

والذي يتدبر كتاب الله يفطن إلى ضرورة ذكر الله تعالى في أوقاتٍ خمسة حدّدتها الآية (١٣٠) من سورة طه، التي يقول تعالى فيها: **﴿فاصبر على مايقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها، ومن آناء اللّيل فسبّح وأطراف النهار لعلّك ترضى.﴾**.

فذكر النّافلة المشتملُ على التّسبيح وحمد الله بتوقيته (قبل طلوع الشّمس) أي مابين بزوغ الفجر وحتى طلوع الشّمس. والوقت الثاني لهذا النوع من الذكر (وقبل غروبها) أي في فترة مابين أذان العصر وحتى غياب الشمس. وقد استعملت سورة الدّهر لهذين الوقتين كلمتي (بُكرةً وأصيلاً). حيث قال تعالى هناك: **﴿واذكر اسم ربّك بُكرةً وأصيلاً.﴾**.

والوقت الثالث لهذا النّوع من ذكر النافلة تضمنه قوله تعالى **﴿ومن آناء اللّيل فسبّح﴾** والآناء جمع إنو وهو الوقت أو السّاعة من الليل أو نصف الليل أو مايقاربه (محيط المحيط). أي ليخصّص المؤمن أيّ وقتٍ من أوقات الليل يشاء لذكر الله وتسبيحه وليداوم كلّ يوم على هذا الذكر.

والوقت المحدّد قرآنياً لذكر النافلة أيضاً تضمنّه قوله تعالى : ﴿**وأطراف النّهار**﴾. أي أنّ الدقائق الأولى من البكرة مع بزوغ الفجر، والدقائق الأخيرة من الأصيل قرب غروب الشّمس هي أصلح الأوقات لذكر الله وتسبيحه، وعلى المؤمن أن يستغل هذه الأوقات لذكر الله وتسبيحه.

وأضاف الله تعالى يقول: ﴿**لعلّك ترضى**﴾ مشيراً بذلك إلى أنّ ذكر الله في الأوقات الخمسة المذكورة له خواصه الروحية وهي غذاء كيان المؤمن الروحاني، وهي تجذب فضل الله تعالى على هذا الذاكر المسبح بحمد ربه عزوجلّ. ومع توالي الأيام والسنين يقطف ثمار هذا الذكر وفضله ويرضى حينئذ بهذا الذاكرون والمسبّحون بهذا الفضل الإلهي.

ولاننس هنا تدخّل محمد رسول الله (ﷺ) كعادته ولصالح أمتّه في هذا المجال أيضاً فهو حاول سدّ النّقص المُحتمل من جراء تفريط المؤمن في هذا الشكل الثالث من الذكر الإلهي، فعلّم أمتّه أذكاراً تعوّض ذلك. من هذه الأذكار أنّ المؤمن إذا فرغ من صلاته، عليه أن يجلس ليذكر ربه ويقول: (اللّهم أنت السّلام ومنك السّلام ياذا الجلال والإكرام). ويُتبع ذلك بقولةِ (سبحان الله) ثلاثاً وثلاثين مرّة. و (الحمد لله) ثلاثاً وثلاثين مرّة. و (الله أكبر) ثلاثاً وثلاثين مرّة. هذا بعد فراغه من كلّ صلاة. إذا كان يبتغي وجه الله وعِرفانه.

كما أنّ رسول الله (ﷺ) علّم صحابته أن يذكروا ربّهم في كلّ مناسبة من مناسبات تحرُّكاتهم اليومية. فاستنّ لوقت مغادرة الدار ذكراً دعاءً. ولوقت العودة إليه ذكراً دعاءً. ولدخول الأسواق ذكراً دعاء. ولدخول المدن والقرى ذكراً دعاء وغير ذلك. وحثّ (ﷺ) صحابته على حفظ هذه الأذكار والأدعية لتدوم يقظة قلوبهم مع ربهم عزوجل فلا يُكتبون من الغافلين عن ذكره. ولابدّ من التّذكير في هذه المناسبة أنّ من واجب المؤمن الراغب معرفة ربّه أن يتدرّج في جميع هذه الأذكار بشكلٍ طبيعي وليس دفعة واحدة.

وليعلم أنّ كل شيء في هذا العالم خاضعٌ لقانون النشوء والارتقاء . فلا يتأتى كمال أيّ شيء دفعةً واحدة، ولايتعلّم الطالب فنّاً من الفنون في يوم واحد. ولابدّ من تعويد المؤمن نفسه وترييضها لتنسلك في هذا الإطار تدريجيّاً

وحسب استطاعتها. ذلك أنّ لكل إنسانٍ مقدرته واستطاعته وأهليته، كالمعادن لكلٍ منها خواصه واستطاعته.

وإنّ الذي يرغب التعرّف على ربّه الذي خلقه بخالص العزم والشّوق، ويثبت على درب العرفان الإلهي يعوضّه الله ربّه عن كل عقبةٍ تحول بينه وبين تحقيق أمنيته هذه حتى ولو كانت عقبة موت وفقدان ذاكرة أو عقل، ذلك أن الله ذو الفضل العظيم. وهذه الحقيقة مختبئة بين ثنايا قوله عز وجل ﴿**لعلك ترضى**﴾. أمّا إذا ركب القنوط رأس هذا المؤمن فيئس من رحمة ربّه وعَشا عن ذكر الله، يُقيّض له الرحمن شيطاناً فهو له قرين.

ولاينبغي أن نُعطي أُذُنَا فنصغي إلى متصوّفة زماننا الذين يطلبون الوجد والغرام واللّذة بذكر الله تعالى. فلا أصل في كتاب الله لما يصْبُونه. بل إنّ الله جل شأنه خلقنا لعبادته تعالى. ومن واجب الذاكر ربّه أن يتعبّد ربّه بهذا الذكر على شاكلة مايتعبّده في الصلوات الخمس المفروضة. يتعبّد ربه بذكره إياه، موقناً أنّه يؤدي ماعليه من واجب الشّكر والثّناء على ربّه الذي خلقه وهداه سبيل عبادته ومعرفته.

وقد نبّهنا إمام زماننا إلى حقيقة وهي أنّ النّفس البشرية لاتستمّر على وتيرة واحدةٍ، بل تخضع لقانونٍ طبيعي يهيمن على كل شيء في عالمنا الدنيويّ. وهو أنّ كل شيء يتراوح دوماً بين مدٍ وجزرٍ وانخفاض وارتفاع وتقدّم وجمود. ولهذا السّبب لابد أن تَمُرّ نفس المؤمن السالك درب عرفان ربّه بمراحل انقباضٍ وانشراح يمتد كلٌّ منها أياماً تقصر وتطول.

فإن شعر هذا المؤمن بهذه الحالات، فهي مؤشّر صحّيٌ وليس بمؤشّرٍ مرضي، إنما على هذا المؤمن ألاّ يترك حدوث تفاوتٍ كبير بين هاتين الحالتين، ومن واجبه تدارك ذلك بإعادة النظر في تصرفاته اليومية والمؤثرات الخارجية وإجراء الإصلاح والتغيير اللازمين.

رابعاً ـ وأمّا مايتعلّق بالطريق العمليّ للشكل الرابع من الذكر الإلهي المتمثّل في الدّعوة إلى الله عزوجلّ وتعظيمه في أعين عباده، والذي حثّ عليه قوله تعالى في سورة المدثّر: ﴿**ياأيّها المدّثر. قم فأنذر. وربّك فكبّر**﴾. هذه

الآيات الكريمة التي تعني أن ياهحمّدُ الـذي أعددتـك قُرابـة عشـر سـنواتٍ في غـار حيراء، قم فأنذر وأعلم النا س بوجود ربّـك الـذي عرّفـك على نفسـه وجعلـك العارف الأوّل با لله خالقك، وحذّرهم أيضاً من عواقب تكذيبهم لما تدعوهم إليه وقبل حلوله مخوّفاً إيّـاهم في هـذا الإبـلاغ. ﴿**وربّـك فكبّر**﴾. أي وضّـح للنـاس ما لله من عظمة وقدرات، هذا على أساس أنّ الإنسان عدّو ماجهل.

فإن تسـاءل امـرؤ كيـف يعظّـم عظيمـاً؟ أقـول: يعظّمـه بإطلاعـه على مايتّصف به هذا العظيم مـن صفـات بإمكانـه الاتّصـاف بهـا على سـبيل الظلّيـة ليصبح عظيماً. ويعدّد له ماقام به هذا العظيم من إنجازات، ويصـف مـالدى هـذا العظيم من خزائن وإمكانات.

وعليه فإن الأمر: ﴿**وربّك فكبّر**﴾. يُطالب المؤمن السالك درب عِرفـان ربّه، بتحقيق أمرين اثنين. الأمر الأول أن يُعدّ نفسه إعداداً قويمـاً فكـراً وسـلوكاً، فيؤهّل بذلـك نفسـه لحمـل عـبء الدعـوة إلى ا لله وتعظيمـه. والأمـر الثـاني، أن نُعرّف الناس على ربّنـا ومالـه مـن الأسمـاء الحسنى. وإثبـات أنّ ربّنـا هـو خـالق السموات والأرض ومالكها أيضاً.

وأنّـه هـو ا لله ربّ العـالمين الرحمـن الرحيـم ومـالك يـوم الديـن. هـــذه الصّفات التي نمدحه ونثني عليه جل شأنه بها في كل ركعة من ركعات صلواتنـا. وعلى هذا المؤمن السالك أن يعرّف الناس علـى الإنجـازات الإلهيـة الـتي حصلـت بتجلّي صفاته الأربع التي ذكرناها. كذلك فإن من واجـب هـذا المؤمـن السّـالك التّحديث بنعمة ا لله الـتي أنعمهـا ويُنعمهـا عليـه منبّهـاً إلى أنّ طريـق عِرفـان ا لله الأكبر هذا مفتوح لجميع الطّالبين.

ولانَنْـس أنّ محمـداً رسـول ا لله (ﷺ) وقـد تلقّـى هـــذه الآيـــات الـــتي ذكرناها من ربّه. تلقّاها في زمان لم يكن العلم قد بلغ هـذا المبلـغ الـذي بلغـه في زماننا. أمّـا في عصرنـا هـذا فقـدّ توفّرت لنـا مـن الأدلّـة العلميـة والأمثلـة الحيّـة والأسباب مايُيسّر للمؤمـن السـالك المعظـم لربّـه طريقـه ووسـائله، وهـاأنّ درب عرفان ا لله أمسى واضحاً للعيان، فياسعد المؤمن الذي يسخّر قلمـه ومالـه لذكـر ا لله بهذا الشكّل الرابع من أشكال ذكر ا لله عزوجلّ، فيعظّم ربّه ويُكبّره ويتقرّب بذلك إليه، ويصبح بالتالي عظيماً في ظلّ ا لله الأعزّ الأكبر.

الفصل الثاني :
١ً ـ البركات الروحية للذكر الإلهي

محمداً رسول الله ﷺ يتلو علينا آيات الله ربّنا ويزكّينا ويعلمنا الكتاب والحكمة ويعلمنا ما لم نكن نعلم عن طريقه. فهو تعالى أضاف بعد ذلك يقول: ﴿**فاذكروني أذكركم، واشكروا لي ولاتكفرون.**﴾ ومعنى اذكروني سبّحوني ومجّدوني (محيط المحيط) وقد علمنا جل شأنه في كتابه العزيز أشكال الذكر الإلهي الأربعة التي أحطنا بها علماً.

والسؤال الذي يخطر ببال المؤمن هنا: مامعنى وماالمقصود من قوله تعالى (أذكركم)؟ والحقيقة هي أنّه تعالى أوجز في هذه الكلمة بركات الذكر الإلهي، وراح ففصّل هذه البركات التي يحصل عليها الذّاكرون في مقامات عدّة من كتابه العزيز.

فالصّلاة، التي تمثل الشكل الأول لذكر الله تعالى. نبهّت الآية (٤٥) من سورة العنكبوت إلى بركات هذا الشكل من الذكر الإلهي، حيث قال تعالى: ﴿**اتل ماأوحي اليك من الكتاب، وأقم الصّلاة، إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ماتصنعون.**﴾.

فإن أمعن المؤمن نظره في ألفاظ هذه الآية الكريمة وتدبّرها، يصل إلى أنّ الله ربّه قد وضع بين يديه عصاً غليظة ليطرد بها الشيطان عن نفسه. فبالصّلاة يطرد شرود ذهنه نحو الأمور التافهة، ويطرد بالصلاة نوازع السّوء، والميول الدّنيئة، وبالصّلاة يصدّ هجوم شهوات جسده التي تبعده عن ربه وتقواه. فالمؤمن الذي يصلّي صلاةً خاشعة بشروطها التي سبق أن بيّنتها، يحصد جميع هذه البركات.

وتلاوة القرآن الكريم التي تمثّل الشكل الثاني للذكر، لها بركاتها أيضاً. ونبهتنا إلى هذه البركات الآية (٥٠) من سورة الأنبياء التي قال تعالى فيها: ﴿**وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه، أفأنتم له منكرون؟**﴾ بمعنى أن لتلاوة القرآن الكريم

بركاتها. هذه البركات التي تضمّنتها كلمة (مبارك) التي وصف جل شأنه بها كتابه العزيز. والمؤمن الذي يجلس يتلو شيئاً من هذا الذكر بالشروط التي سبق أن بيّناها، وبحضور ذهنه وفؤاده تحفُّ به ملائكة الله ويقطف من ثمار هذه البركات.

وذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى وتسبيحه وتمجيده في الأوقات التي حدّدها، وهو الشكل الثالث للذكر الإلهي، تعرّضت لبيان بركاته آيات عدّة من كتاب الله العزيز.

من هذه البركات أن تسبيح الله وتمجيده يكسب المؤمن الذّاكر روح الصمود تجاه الأزمات التي تواجهه في حياته اليوميّة. فالمؤمن الذي يردد دوماً أسماء الله: العزيز القادر العليم الرزاق والشافي وسواها من الأسماء الحسنى، ويتوسّع في فهم دلالاتها، تستوعب مخيّلته على مرّ الأيام هذه الدلالات وتنتقل لتصبح تصوّرات لذات الله عزوجلّ، وبذلك يعود هذا المؤمن يوقن أنّه يعبد إلهاً له هذه الأسماء والقدرات، وتتولّد بذلك في نفسه روح الصمود في الأزمات. فإذا ألّمت به نائبةٌ من النوائب في وقتٍ من الأوقات، تصمد نفسه في مواجهتها، فلا يهلع ولايخاف ولايضطرب عند مواجهتها. وتخاطبه نفسه وقتئذٍ قائلة: وكيف تخاف وتضطرب وإلهك المحبوب يحمل هذه الأسماء وهذه القدرات؟

على هذه الشاكلة يهدأ الذاكر في المُلمّات وتسكن نفسه بذكر الله تعالى. بذكر ربّه الذي وعده بالدفاع عن المؤمنين، وأن يكون بهم رؤوفاً رحيماً. وهذه الحقيقة وضّحها لنا جلّ شأنه في الآية (٢٧) من سورة الرعد بقوله: ﴿**الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.**﴾ فأتى بحرف (ألا) الذي يفيد التنبيه والإيقاظ وقال: ﴿**ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب.**﴾. أي تصمد إذا ماألّمت بها النوائب والمصائب والمؤذيات.

وقد نبّه الله عزوجلّ ذهن المؤمن أيضاً إلى أن روح الصمود هذه يجد بركاتها في ساحات القتال أيضاً، حيث لايُعقد النّصر إلاّ للصّابرين والصامدين. نبّه إلى ذلك في سورة الأنفال حيث قال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتُم فئةً فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً، لعلكم تفلحون.**﴾.

والقرآن الكريم قد نبّه هذا المؤمن إلى أنه إذا دأب على ذكر ربّه في جميع أحواله وبحضور ذهنه وفؤاده، يعود ذلك على عقله بالبركات وينيره بمعارف وعلوم تُحيّر المتفكرين. أفلم يقل في الآية (١٩٠) من آل عمران: ﴿**إنّ**

في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.﴾؟ فلا يُلمّ بآيات وعجائب هذه الأمور إلا العقلاء ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً فقنا عذاب النار.**﴾. فهذا مايبيّنه ربّنا عزوجل في هذه الآية التي أتى بها بعد الآية السابقة.

ثم إنّ الدّعوة إلى الله وتكبيره وتعظيمه في أعين عباده، والذي يمثل الشكّل الرابع من أشكال الذكر الإلهي، يحمل للمؤمن جميع البركات التي سبق أن ذكرناها، وإضافة إليها فإنّ من أعظم بركات ذلك هو أنّ الله عزوجلّ يثبّت هذا المؤمن في المواقف الحرجة بالقول الثابت.

أفلا نقرأ الآية (٢٧) من سورة إبراهيم التي يعد تعالى فيها المؤمن بهذا الوعد؟ يقول تعالى: ﴿**يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضلُّ الله الظالمين، ويفعل الله مايشاء**﴾.

والقول الثابت اسم فاعل من ثبت بمعنى دام واستقرّ وتحقّق وتأكّد. أي أن الله تعالى يُلهم هذا المؤمن في الموقف الحرج القول الثابت المستقرّ الدائم واليقيني. وذلك بإلقاء الإجابة الصحيحة الأكيدة في ذهنه. ولطالما جرّبت أنا وأمثالي هذا الأمر بأنفسنا. فقد أحرجني شخص في يوم من الأيام بسؤال علمي ماكنت قد حضّرت له ولاطالعت بشأنه كتاباً من الكتب. ودعوت الله في نفسي، وإذ بالله جل شأنه يستجيب لي ويثبّتني بإجابة علمية أدهشتني وأفحمت السّائل في آن واحد.

٢ ـ علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء

وهناك حقيقة تتعلّق بموضوع الدّعاء، مرتبطة بالذكر الإلهي، لفتتنا إليها الآية الأولى من سورة الفاتحة، وهي قوله تعالى: ﴿**الحمد لله ربّ العالمين**﴾. فهذه الصّيغة التي صيغت بها هذه الآية الكريمة هي صيغة ذكر إلهي. إقرار بأنّ جميع أنواع الحمد والثناء مختصّة بذات الله عزوجلّ. فإن حُمِّد أي عظيم من دونه سبحانه، فلايُحمد على سبيل الأصالة، بل على سبيل الظّلية. ذلك على اعتبار أنّ المنّة جميعها لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

ونُلاحظ أنّ الله تعالى بعد أن أجرى على ألسنتنا ذكره بحمده والثناء عليه وتعداد أسمائه الحُسنى، دفعنا لندعوه: ﴿**إيّاك نعبد وإياك نستعين.**﴾. فماهي حكمة تقديم ذكر الله وحمده على الدّعاء بين يديه؟

الجواب هو لتنبيهنا إلى حقيقة علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء. فالذي يريد أن يدعو ربّه ويسأله عطاءه. ينبغي عليه أن يحمد الله أولاً ويستغفره ويتوب إليه ويسبّحه ومن ثمّ يدعوه ويسأله مايريد أن يطلب منه جلّ وعلا.

هذا الأمر على شاكلة مايفعله الشّعراء في مجالس الملوك يكيلون لهم المديح ومن ثمّ يسألونهم العطاء والمسألة. فالذكر الإلهي على شاكلة المديح يحرّك عواطف الممدوح نحو السّائل ويدفعه إلى إجابة طلبه. علماً بأنّ الله تعالى هو ملك الملوك.

هذه الحكمة التي تشرح لنا علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء، تفسّر هذا القانون الطبيعي الذي انتهجه الشعراء، وإليه أشار الحديث القدسي عن الله تعالى: ﴿**من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ماأُعطي السّائلين**﴾. بمعنى أنّ الله تعالى يتفضّل ويستجيب للمؤمن الذاكر ربّه، أفضل ممّا يستجيب للمؤمن الذي يدعو ربه دون أن يسبق دعاءه بذكره عزوجلّ.

إلى هنا أكون قد فصّلتُ ماقتضاه قول الله تعالى في الآيتين الأخيرتين من سورة المؤمنون. وهو قوله تعالى: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.**﴾. أقول: فصّلت الكلام عن ضرورة تدرّج المؤمن على درب عِرفان ربّه بشكلٍ طبيعي جداً من جهة. وأن يصل إلى درجة يعود فيها يذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنبه مستريحاً أو نائماً. حتى لايعود يُعدُّ في نظر ربّه من الغافلين منجهة أخرى.

البـــاب الـــرابـع

الفصل الأول
المذمومون في القرآن الكريم

لابدّ أن يتذكّر القارىء الأمور التي نبّه القرآن الكريم إلى أنّها تورث النّفاق، وتأكل إيمان المرء المؤمن على شاكلة مايفعله السّوس في الأشجار المخضرّة المثمرة.

ولقد نبّه القرآن الكريم أيضاً إلى صفاتٍ إن اتّصف بها هذا المؤمن يقف تطوّره الروحاني ويعود مكروهاً في نظر ربّه عزوجلّ، حتى ولو واظب على صلواته وابتعد عن اللاّغيات وفعل الزكاة وحفظ الفروج. أي يكرهه الله ربّه ولو عمل على ماتتطلّبه منه الآيات الأوائل من سورة المؤمنون. أي أنّ هذه الصفّات المذمومة في عين الله تعالى توقف نموّ كيان المؤمن الروحي وتُبطل مفعول وخواص جميع هذه الأعمال المفروضة.

وهذه الصّفات المذمومة، حصرها القرآن الكريم في عشر صفات وهي: المختال والفخور والمعتدي والخوّان والأثيم والفَرِح والمفسد والكفور والمسرف والظالم.

فهذه صفات عشر مذمومة في نظر الله تعالى، وتستدعي كُره الله تعالى للذي اتّصف بهذه الصفات سواء أكان هذا شخصاً أو مجتمعاً. وليس ضرورياً أن يكون الذي لم يتّصف بإحدى هذه الصفات محبوباً من ربّه أيضاً بالضرورة. ذلك أن الابتعاد عن هذه الصفات تؤهّل المرء لجذب محبة خالقه إن هو اتّصف بصفاتٍ عشر أخرى سآتي على ذكرها في حينه. فالمهم هو أن يعي المؤمن السّالك حقيقة هذه الصفات المذمومة مُعتبراً إياها قوى سلبيّة تحول دونه ودون نيل محبة ربه والحظوة بقربه عزوجل. وأتناول هنا كُلّ صفة من هذه الصّفات المذمومة، وعلى ضوء ماأرشدنا إليه كتاب الله عزوجلّ:

١ ـ الله لايُحبُّ كُلَّ مُختالٍ فخور

هذا ماأكّده لنا وحي الله القرآني من أنّه تعالى لايُحبُّ كلّ مُختالٍ فخور.

فما معنى المُختال؟ قال صاحب (محيط المحيط) المختال هو المتكبّر والمُعجب بنفسه والمتبختر في سيره. أما الفخور فهو مَنْ تمدّح بالخصال وباهي بالمناقب والمكارم من حسبٍ ونسب وغير ذلك إمّا فيه أو في آبائه، ويُسمّى هذا فاخراً وفخوراً. وبألفاظٍ أخرى فالذي يُبتلى بصفة الاختيال والفخر، يتناقض مع نفسه ولو كان مؤمناً يؤدّي واجباته الدينيّة. وهو باختياله وفخره هذين ينسى أو يتناسى أنّ الألف واللاّم المُعرّف بها كلمة الحمد في قوله تعالى ﴿**الحمد لله ربّ العالمين**﴾، تفيد الاستغراق بمعنى أنّ جميع أنواع الحمد لايستحقّها على وجه الحقيقة إلاّ ذات الله عزوجلّ.

وفيها يكمن سرّ توحيد الله تعالى. ومن الشرك الخفي أن يتكبّر امرء مهما بلغ مالاً وولداً وجاهاً وحسباً، وأن يُعجب بنفسه أو يتبختر في سيره أو يتمدّح بالخصال ويتباهى بالمناقب والمكارم.

يتناسى هذا المختال الفخور قول ربّه عزوجلّ في سورة النّحل وبكلّ صراحة: ﴿**ومابكم من نعمةٍ من الله ثم إذا مسّكم الضُّر إليه تجأرون. ثم إذا كشف الضُّر عنكم إذا فريقٌ منكم بربّهم يُشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا، فسوف تعلمون. ويجعلون لِما لايعلمون نصيباً ممّا رزقناهم، تالله لَتُسألُنّ عمّا كنتم تفترون.**﴾. فها هو جلّ شأنه قد حصر مابنا من نعمة بعطاء رحمانيّته. وهو الذي يكشف عنّا الضُّر، ومن أنكر هذه الحقائق فقد أشرك بربّه شركاً خفيّاً وافترى على الله ماليس له من حقّ. وقد أنذره جلّ شأنه بقوله: ﴿**لتُسألُنّ عمّا كنتم تفترون.**﴾، ولذلك فلا يستحق من جانب ربّه، هذا المُختال الفخور إلاّ النّبذ والكره، فلايستحق عنده المحبّة والتقريب.

وعليه فمن واجب المؤمن السّائر على درب عِرفان الله تعالى، والسّاعي لكسب محبّته، أن يُحيط علماً بهذه الحقائق، وينأى خلال مسيرته عن الاختيال والفخر، ليظلّ موحّداً الله توحيداً مُبرّأً من جميع أنواع الشرك. لكيلا يُعدّ في نظر ربّه مشركاً ومسؤولاً يوم القيامة عن فخره واختياله.

ثم إنّنا إذا تناولنا صفتيّ الاختيال والفخر بميزان العقل، نصل عن طريق الملاحظة والتجربة العلميتين إلى نتيجة وهي أن هذا المختال الفخور يُعميه اختياله وفخره عن إدراك إحسان الله عليه ويتناسى عظمته وكبرياءه. حيث تتضاءل هذه العظمة الإلهية في نظره.

ثم إنّنا إذا نظرنا بمنظار الواقع العمليّ نلاحظ أنّه لايوجد ملك من الملوك يحتمل أن يُواجهه أحد رعيته مختالاً وفخوراً. وهكذا فإن صفة الاختيال والفخر صفة ذميمة من الوجهتين الدينية والعقلية في آن واحد.

هذا وإن خطورة هذه الصّفة على المؤمنين السّالكين استدعت من الله ربّهم أن ينبّههم إلى خطرها من زوايا عدّة. فقد نبّههم في الآية (٢٣) من سورة الحديد إلى قانون قدري وهو أنّه تعالى هو الذي قدّر لعمل كل امرىء نتائجه. وهذه النتائج هيّ من عطاء الله أصلاً. فإن أصبح الإنسان ثريّاً من جرّاء سعيه، فلا ينبغي له أن ينسب لنفسه هذا الإنجاز والعطاء، فلا يختال به مهما كان عبقريّاً، ولايبخل بما آتاه الله ولايهضم مالسّائل والمحروم من حق في ماله. فهذه الحقيقة تضمنها قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿**مأأصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولافي أنفسكم إلاّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها، إنّ ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم، والله لايُحبّ كُلّ مُختال فخور. الذين يبخلون ويأمُرون الناس بالبُخل، ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنيُّ الحميد.**﴾.

فالمؤمن السّالك إذا أدرك هذه الحقيقة، ووازن مابين العطاء المادي الذي أوتيه، ومابين حرمانه من محبّة الله خالقه التي سيُحرم منها إن هو تفاخر واختال بماله، وفكّر ملّياً في هذا الأمر، يفضّل عطاء محبّة الله على عطاء المال المادي الزائل.

وقد وضّح الله عزوجلّ هذه الحقيقة بأسلوب آخر، وبلسان لُقمان الحكيم وهو يعظ ابنه ناصحاً إيّاه، إذ قال له: ﴿**يابني أقم الصلاة وامُرْ بالمعروف وانْهَ عن المُنكر واصبر على مأأصابك إنّ ذلك من عزم الأمور. ولاتُصعّر خدّك للنّاس ولاتمش في الأرض مرحاً، إنّ الله لايحبّ كَلّ مُختال فخور. واقصد في مَشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحَمير.**﴾

لقمان (١٨). وصعّر خدّه : أماله عن النظر إلى النّاس تهاوناً من كِبر (محيط المحيط).

أي بابنيّ لاتولّ صفحة وجهك عن النّاس عند شاكلة مايفعل المختالون المتكبّرون، ولاتمشِ في الأرض مرحاً، أي لاتمش بطراً مختالاً متبختراً. هذا إن كنت تبغي الفوز بمحبّة ربّك عزوجلّ، لأنّ الله لايحب كلّ مُختال فخور.

هذا واشعاراً منه عزوجلّ إيّانا بخطورة الاختيال والفخر، راح فوضّح لنا ذلك بأسلوبٍ ثالثٍ في سورة النساء الآية (٣٦) حيث قال: ﴿**واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القُربى والجار الجُنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ومامَلكت أيمانكم، إنّ الله لايحب من كان مُختالاً فخوراً**﴾. أي أنّ التكبّر والعُجب بالنفس والتّبختر إذا اتصف بها المرء، يفقده ذلك شعوره بمسؤولياته تجاه الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار بالجنب والصّاحب بالجَنب وابن السّبيل ومامَلكت يمينه من بهائم ودوابّ.

في الوقت الذي جعل الله تعالى لهؤلاء جميعهم حقّاً معلوماً في أموال هذا البخيل المتكبّر المُعجب بنفسه والمتبختر بين الناس. فما دام هذا المختال الفخور قد أُصيب بمثل هذا البُخل، وحرم هؤلاء من حقّهم المعلوم في أمواله، فقد أصبح مكروهاً في نظر خالقه عزوجلّ ومحروماً من محبّته.

وزبدة الكلام هو أنّ الله تعالى قد نبّه المؤمن الّسالك الذي يطلب ودّ ربّه ومحبّته، إلى أن جميع مايملك إن هي إلاّ مِنن الله عليه، وهذا الأمر لايمنحه حقّاً أن يصبح مُختالاً فخوراً، بل يُطالبه ذلك العطاء وتلك المنّة أن يصبح متواضعاً ومقرّاً بعطاء ربّه، ويؤدي ماللسّائل والمحروم من حق في أمواله. وأن يعترف في الوقت نفسه أنّ الله عزوجلّ وحده يملك الأسماء الحُسنى من دون عباده. وهذا هو التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك بالله تعالى.

٢ ـ والله لايحب المعتدين

والاعتداء يعني تجاوز الحدود، قال صاحب الكلّيات: العَدْوُ: التجاوز ومنافاة الالتئام (محيط المحيط) هذا وقد نبّه الله تعالى عباده المؤمنين الذين يحرصون على السير على درب عرفانه ويفوزوا أخيراً بمحبته حثهم أن يحذروا حدودهم،

فلا يعتدوا على حقوق سواهم من عباده. وقد شرح لهم أخطار الاعتداء وتجاوز الحدود من زوايا ثلاث أيضاً.

فهو جلّ شأنه طلب من المؤمنين الساكنين درب عرفانه أن يلجؤوا إليه ويدعوه تضرُّعاً وخُفيةً إن وقع اعتداء على حقوقهم، فلا يردّوا على الاعتداء باعتداء مثله، دفعاً للإفساد في الأرض، وطمعاً في جذب محبّة الله وإحسانه نحوهم، هذا ماأكّده تعالى في الآية (٥٥) من سورة الأعراف حيث قال هناك: **﴿ادعوا ربّكم تضرّعاً وخيفة إنّه لايحب المعتدين. ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين.﴾**. فالمعتدي مكروه في نظر ربّه تعالى، ومحروم من جذب محبّة ربّه إليه.

فإن بلغ الحدّ بالمعتدي حدّ استعمال سلاحه ومقاتلة المؤمنين، فقد أوجب الله تعالى على هؤلاء المؤمنين أن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ويعتدون عليهم على ألاّ يبلغوا في ذلك حدّ الاعتداء على هؤلاء المعتدين. هذا إن كانوا يريدون وجه ربّهم ومحبّته وقربه. وإلى هذا الأمر نزل قول الله تعالى في الآية (١٩٠) من سورة البقرة: **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولاتعتدوا، إنّ الله لايحبّ المعتدين.﴾**. فهذه ناحية أخرى وضحّها الله تعالى للمؤمنين أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم لتجاوز هؤلاء حدودهم واغتصابهم حقوق المؤمنين . فهذا هو شأن من كان مؤمناً ويريد وجه ربّه ويسعى للفوز بمحبّته.

وتناول جلّ شأنه موضوع الاعتداء من زاوية ثالثة وهي زاوية تقوى الله المطلوب الأخذ بمنهجه حياتياً من قبل المؤمنين. تناول هذا في الآية (٨٧) من سورة المائدة حيث قال: **﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم. ياأيّها الذين آمنوا لاتحرّموا طيّبات ماأحلّ الله لكم ولاتعتدوا، إنّ الله لايحبّ المعتدين. وكلوا ممّا رزقكم الله طيّباً، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.﴾**.

أي أن من المفروغ منه أنّ الذين كفروا بوجود ربّهم وكذّبوا رسوله والآيات التي أُنزلت عليه، من المفروغ منه أن أولئك فضّلوا الجحيم على رضا ربّهم ومحبّته ورضاه، أمّا أنتم يامن آمنوا بي وبآياتي إياكم أن تحرّموا طيّبات ماأحللت لكم، وإياكم تجاوز حدودكم المرسومة لكم في كتاب الله ربّكم. **﴿وكلوا ممّا رزقكم الله طيباً﴾** أي حلالاً **﴿واتقوا الله الذي أنتم به**

مؤمنون.﴾ أي ضعوا منهج تقوى الله دوما نصب أعينكم في كلّ أمر تُقدمون عليه غير متجاوزي حدود الله وحدودكم فهذا هو مايأمركم به الله الّذي أنتم به مؤمنون.

من هذا كله ندرك أن المؤمن الذي يقوم بواجباته العبادية، ويتجاوز حدوده ويعتدي على حقوق الآخرين ولو كانوا من الكافرين المكذّبين، يقف نموّ كيانه الرّوحي بسبب اعتدائه، ويمسي مكروهاً في نظر ربّه، ويستحيل عليه الفوز بمحبته وقربه ورضاه. هذا على اعتبار أنّ لفعل الاعتداء آثاره السلبيّة منها أن الله تعالى يطبع على قلبه فلا يعود بمقدرة هذا القلب يتلمّس نور ربّه وقربه. فهذا مالمح الله عزوجلّ إليه في الآية (٧٤) من سورة يونس حيث قال هناك: ﴿**ثمّ بعثنا من بعده رسُلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبّينات، فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل، كذلك نطبع على قلوب المُعتدين**.﴾.

وزبدة الكلام هي أنّ الله عزوجلّ نبّه المؤمن السالك درب عرفانه إلى أنّه وضّح له في سورة المؤمنون ركائز مسيرته العرفانية. وإلا فمن واجبه أيضاً أن يتخلّق بصفات ربّه الحقّ العدل فلا يتجاوز حدوده ولاتبدر عنه أيّة بادرة اعتداء على سواه مهما كان الداعي إلى ذلك قويّاً. هذا إذا أحب أن يكسب ودّ ربه ومحبته ويفوز بقربه ولقائه.

٣ ـ الله لايحبُّ الخوّان

وكلمة الخوّان مبالغة من الخائن: أي كثير الخيانة ومُصرّاً عليها. والخيانة خلاف الأمانة. وخانه في كذا: أوتمن فلم ينصح. وخان العهد: نقضه. وفي الكليّات: الخيانة تُقال اعتباراً بالعهد والأمانة. والنّفاق يُقال اعتباراً بالدّين.

ونلاحظ من خلال دلالات كلمة "الخوّان" تعلّقه بالعهد والأمانة. وهي صفة مذمومة لمنافاتها لقوله تعالى في سورة "المؤمنون": ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**.﴾ وهي الأمور المتعلّقة بمتطلّبات السّلوك الروحاني ومن مقتضيات مقام المحبّة الإلهية ليصبح السّالك من الوارثين.

فالخوّان يخون أماناته وعهوده التي قطعها مع ربّه عند بيعته، ويُمسي بالتّالي مكروهاً من الله خالقه عزوجلّ. هذا لأنّ المحبّة والخيانة صفتان متناقضتان.

أفلا نلاحظ كيف أنّ المعشوقة إذا ماأحسّت من عشيقها خيانة بصقت في وجهه وأدارت له ظهرها وهجرتـه؟ يحدث هذا على اعتبار أن الخوّان يقطع بخيانته لأماناته وعهده أواصر الودّ والمحبّة مع ربّه بشكلٍ ضبيعي جدّاً.

لهذا السّبب الجوهري راح تعالى، وإشفاقاً منه على المؤمنين السالكين، يحثّهم على الحذر من أن يصبحوا من الخوّانين لأماناتهم وعهودهم، ماداموا يسعون للفوز بمحبّة ربّهم، وذلك في الآية (٢٧) من سورة الأنفال، حيث قال: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرّسول، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون.**﴾ أي أنّكم تعلمون أنّ الفوز بمحبّتي اشترطت له في سورة المؤمنون: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.**﴾.

كما أنّ الله تعالى وعد هؤلاء المؤمنين السّالكين درب معرفته أنّه تعالى كتب على نفسه الدّفاع عنهم في المآزق وحين الأخطار ماداموا يشكرونه على ماأنعم عليهم ولايخونون أماناتهم وعهدهم معه. هذا الوعد الإلهي نصّت عليه الآية (٣٨) من سورة الحجّ التي قال تعالى فيها: ﴿**إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا، إنّ الله لايحبّ كُلّ خوّان كفور.**﴾.

وراح تعالى فضرب لهؤلاء المؤمنين السّالكين مَثَل ماحدث ليوسف عليه السّلام. هذا النبي الذي لم يعرف الخيانة في حياته، وماحان ربيب نعمته في غيابه، وكيف أنّ ربّه كافأه على أمانته بأن هيّأ من عالم غيبه أسباب براءته وحرّك ربيب نعمته لأن يسند إليه أعظم منصب في حكومته. فهو جلّ شأنه نقل عن لسان يوسف قوله لربيب نعمته وذلك في الآية (٥٢) من سورة يوسف: ﴿**ذلك ليَعلم أنّي لم أخُنه بالغيب، وأنّ الله لايهدي كيد الخائنين.**﴾ موضحاً جل شأنه من خلال ذلك القول أنّ الله تعالى لايهدي كيد الخائنين، ولايحبّ كلّ خوّانٍ كفور.

وفي سورة الأنفال في الآية (٢٧) حثّ الله تعالى رسوله الكريم على ألاّ يخشى الخوّانين من الكافرين، لأنهم بخياناتهم أضحوا مكروهين في نظر ربّهم. كما حذّر الكافرين في الوقت نفسه من أنهم إذا نقضوا عهودهم مع رسوله وخانوا هذا الرسول وحاولوا الغدر به، فلن يعجزوا الله ورسوله مهما تفوّقوا عليه عُدّةً وعدداً. وقال تعالى: ﴿**وإمّا تخافنّ من قومٍ خيانةً فانبُذ إليهم على**

سواء، إنّ الله لايحبّ الخائنين. ولاتحسبّن الذين كفروا سبقوا، إنهم لايُعجزون.﴾.

قال تعالى هذا، ونصح رسوله الكريم في الآية (٦١) بالتّوكل على الله واحتسابه في وجه الخوّانين الكافرين، وقال: ﴿**فإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكّل على الله، إنه هو السّميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين. وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ماألّفت بين قلوبهم، ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم. ياأيها النّبي حسبُك الله ومن اتّبعك من المؤمنين.﴾**.

٤ ـ والله لايُحبّ كل كفّار أثيم

والصّفة الخامسة المذمومة جدّاً في نظر الله عزوجلّ، والتي تحرم من يتّصف بها من محبّة ربه وعِرفانه وقربه هي صفة "الكفّار الأثيم". الكفّار بنعم ربه وعطاءاته بسبب اتّصافه بصفة الأثيم. فما معنى الأثيم في لغة الضّاد؟

الأثيم هو الإنسان الذي يعمل مالايحلّ له أن يعمله ويُقدم عليه. أي أنّ الأثيم هو الذي يرتكب ذنباً متعمّداً ارتكابه ولذلك يستحق هذا الآثم عقاباً على فعله. أي أنّ الإثم من حيث الدلالة بخلاف كلمة الذّنب التي تُطلق على مطلق الجُرم عمداً كان أو سهواً. فهذا هو ماأورده صاحب الكليات في (محيط المحيط).

والإثم بهذا المعنى الذي أوردناه من السُّخف أن نقول إنّ له ظاهراً وباطناً فهو إثم. وهو مُجرّد معصية ومخالفة لأوامره جلّ وعلا. وعليه فكيف نفهم مضمون الآية (١٢٠) من سورة الأنعام: ﴿**وذروا ظاهر الإثم وباطنه إنّ الذين يكسبون الإثم سيُجزون بما كانوا يقترفون.﴾**؟

أقول: إنّ لفظ الباطن أتى من بطن الشيء: خفي فهو باطن أي خفّي. والخفاء ضدّ الظّهور. والمراد من قوله تعالى: ﴿**وذروا ظاهر الإثم وباطنه..﴾** أي بدّدوا ونقّوا ماتكسبونه من أعمال الظاهر منها لأعين النّاس وماخفي منها عن أعينهم، لعدم فالإثم علاقته بالله وبأوامره وبمعصيته لأوامره. والله لايخفى عليه شيء فهو يعلم ماظهر من الإثم ومأأخفاه الآثم عن سواه. فالإثم إثمٌ ظهر للأعين أو خفي عنها.

ثم إن القرآن الكريم، من أصوله أنّه يفسّر بعضه بعضاً. فهو صاغ هذا الأمر في الآية (١٥١) من سورة الأنعام نفسها بأسلوب آخر وقال: ﴿**قل تعالوا أتل عليكم ماحرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن، ولاتقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ذلك وصّاكم به لعلّكم تعقلون.**﴾ فهاهو تعالى قال: ﴿**ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن**﴾ أي الظاهر من الفواحش والخفيّ منها عن أعين النّاس و لم يقل ولاتقربوا ظاهر الفواحش وبواطنها. ذلك أن الفاحشة فعل شيء وليست شيئاً بعينه حتى يكون لها ظاهر وباطن.

و لم يُدرك الدكتور البوطي هذه الحقيقة التي وضّحتها، وإنّ جهله بهذه الحقيقة دفعه إلى تأليف كتاب عنوانه: (باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين) ودلّ من خلال عنوانه على جهله بالحقيقة التي ذكرناها. فليس لفعل الإثم أوفعل الفاحشة ظاهر وباطن.

ولأحدٍ أن يتساءل عن سرّ كراهة الله تعالى "للكَفّار الأثيم"؟ والجواب على هذا السؤال احتوته الآية الثانية من سورة المائدة حيث قال تعالى: ﴿**يأيّها الذين آمنوا لاتُحلّوا شعائر الله ولاالشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولاآمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربّهم ورضواناً، وإذا حَلَلتُم فاصطادوا، ولايجر منّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولاتعاونوا على الإثم والعُدوان، واتّقوا الله، إنّ الله شديد العقاب.**﴾. فهو تعالى أتى في هذه الآية الكريمة بلفظ الإثم نقيضاً للفظ البر. والبرّ من حيث دلالته اللّغوية يعني الطّاعة لشريعة الله ظاهراً وباطناً وضدّ العُقوق. الأمر الذي يعني أن الإثم هو عدم الالتزام بأوامر الله ظاهراً وباطناً. فالآثم كفور بنعم ربه وإحساناته عليه وعاقٌّ أيضاً. على شاكلة عاقّ الوالدين. من هنا أتت حكمة وسرّ كراهية الله تعالى للكفّار الأثيم. وكيف بإمكان الإنسان العاقّ ربّه أن يكسب محبّته وعِرفانه وقربه ووصاله؟ ذلك أن الله عزوجلّ أمرنا بإطاعته وإطاعة رسوله واطاعة أولي الأمر منا. والإنسان المؤمن لايعصي الله ورسوله وأولي الأمر.

فلايخالف أحكام شريعة الله ولاقوانين بلاده. وهذا مانبّهنا إليه قوله تعالى في الآية (١٧٣) من سورة البقرة: ﴿**إنّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وماأُهلّ لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولاعادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم.**﴾. فكلمة (باغ) تشير إلى البغي على قوانين الوطن. وكلمة (عاد) تشير إلى مخالفة قوانين الشريعة.

ثم إنّ القرآن الكريم نبّه إلى أن مفهوم الإثم يشمل محاولات الغش والرشوة، وهذا التنبيه تضمّنته الآية (١٨٨) من سورة البقرة حيث قال تعالى: ﴿**ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحُكّام، لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون.**﴾. فالمعلوم أنّ أكل أموال الناس هو من قبيل الباطل. وأنّ الرشوة هي التي يُدلى بها إلى الحُكّام، في حال مخالفة الشرائع والقوانين النّافذة.

وقد نبّه القرآن الكريم الأذهان إلى أنّ الإثم يشكّل باباً للإفساد في الأرض، فهذا ماأشارت إليه الآية (٢٠٦) من سورة البقرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿**وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل، والله لايحب الفساد. وإذا قيل له اتّق الله، أخذته العزّة بالإثم، فحسبه جهنّم ولبئس المهاد.**﴾. فقوله (إذا تولى) أي إذا تسنّم مقاليد الحكم. ﴿**سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل**﴾ ضارّاً باقتصاد الدّولة التي تسلّم مقاليد حكمها ومسيئاً إلى أبنائها. ﴿**وإذا قيل له اتقّ الله**﴾ أي إذا انتقد مواطنوه تصرّفاته بشكل ديموقراطي، ﴿**أخذته العزّة بالإثم**﴾. وإنّ مثل هذا الحاكم مكروه من ربّه ومستوجب العقاب ﴿**فحسبه جهنّم ولبئس المهاد.**﴾. فلا تنفع مثل هذا الحاكم الآثم صلاته ولازكاته ولاماشاكلها من عبادات، ولايستحق محبة ربّه وقربه ووصاله، ولو كان من المؤمنين.

والقرآن الكريم استعار لاستعمال الأشياء الضارّة كلمة الإثم، وذلك في الآية (٢١٨) من سورة البقرة وقال: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للنّاس، وإثمهما أكبر من نفعهما. ويسألونك ماذا ينفقون، قل العفو، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾ فشرب الخمر فيه إثم كبير أي ضررٌ كبير. وهذا أمرٌ أثبته العلم الحديث، فهو يتسبب لشاربه بتشمّع كبده، وخمول عقله وسواهما من الأمراض. وقوله ﴿**ومنافع للنّاس**﴾ فقد أتى

بكلمة منافع مقابل ﴿**فيه إثم كبير**﴾ ولينبّه إلى أنّ الخمر ليس بشر كلّه. فبإمكان الأطباء إجراء التجارب والتحاليل للاستفادة ممّا في الخمر من منافع للنّاس. واستدرك جلّ شأنه وقال: ﴿**وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾ أي أنّ الغالب على الخمره ضررها وقلّة نفعها.

ولنلاحظ أنّه مادام الله عزوجل قد وضّح للمؤمن حقيقة الخمر، فقد استلزم ذلك ألاّ يُنزل آية صريحةً تحرّم شرب الخمر، وهذا هو سبب اكتفائه جل شأنه بالقول في الآية (٩٠) من سورة المائدة: ﴿**يأيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيّطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون.**﴾. فالله عزوجل يخاطب هنا المؤمنين السالكين درب عرفانه والطّامعين بالفوز بمحبّته وقربه ووصاله، ويقول لهم أنه يكفيهم ماوضّحته لكم حول حقيقة الخمر وكثره مضارّه، لذلك أنصحكم باجتنابه وعدم احتسائه ﴿**لعلكم تُفلحون**﴾ موضّحاً لهؤلاء المؤمنين أن الخمر ﴿**رجسٌ من عمل الشيطان**﴾، والرّجس هو العمل المؤدي إلى العذاب وغضب الله وعقابه على حسب ماورد في (محيط المحيط). وبهذا الأسلوب من البيان يظهر للعيان تكامل الآيات من الوجهة الموضوعية، وهو إعجاز يخلب قلوب أولي الألباب.

ثم إنّ القرآن الكريم حثّ على سلوك سبيل البحث العلمي، واجتناب أخذ الأمور بالظنون حفاظاً على سلامة المحاكمة العقلية للإنسان واجتناباً من الوقوع في متاهات الشرك والأحكام الباطلة. وقد وضّح لنا القرآن هذا الأمر بشكل منقطع النظير، ومُنبّهاً في الوقت نفسه إلى أنّ مخالفة ذلك تدخل في باب الإثم وتستوجب العقاب.

فهو جلّ شأنه قال في الآية (٣٦) من سورة يونس: ﴿**ومايتبّع أكثرهم إلاّ ظنّاً، إنّ الظنّ لايُغني من الحقّ شيئاً، إنّ الله عليم بما تفعلون.**﴾ أي أنّ الصدق والعدل واليقين لايقوم على أساس من الظّنون. بل لايستقيم إلا بالتحقيق العلمي. فهذه حقيقة لاينبغي أن تغيب عن أذهان المؤمنين السالكين درب العِرفان الإلهي، وألا يقعوا فيما وقع فيه أكثر أعدائهم من غير المؤمنين.

ولقد اعتبر جلّ شأنه مخالفة المؤمن لهذه القاعدة العامة إثماً يستوجب العقاب. على اعتبار أنّ الظنّ نقيض الحق، وأغلب الظنون لايقوم على أساس واقعيّ. لذلك نلاحظه تعالى يخاطب المؤمنين السالكين درب عِرفانه في الآية

(١٢) من سورة الحجرات قائلاً: ﴿**يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظّن، إنّ بعض الظن إثم، ولاتجسّسوا ولايغتب بعضكم بعضاً، أيُحبّ أحدكُم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتّقوا الله، إنّ الله توّابٌ رحيم.**﴾ وإن قوله ﴿**اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظّن إثم**﴾ أتبعه تعالى بقوله (ولاتجسّسوا) على اعتبار أن التجسّس غالباً مايعتمد على الظّنون. وأتبع تعالى ذلك أيضاً قوله (ولايغتب بعضكم بعضاً) على اعتبار أنّ المغيبة يخالطها كثير من الظنون. وهكذا عُدّ الظنّ في نظر الله تعالى إثماً، لايحل للمؤمن الإقدام عليه والأخذ به منهجيّاً في حياته اليومية. هذا كيلا يُحرم بالتالي من الفوز بمحبّة ربّه وعرفانه وكسب قربه والحصول على رضاه.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بهذا البيان كلّه بشأن الإثم وأثره السلبيّ على نموّ كيان المؤمن الروحاني، إن هو أضحى من زمرة الآثمين. بل وراح تعالى يوضّح لهذا المؤمن السّالك الآثار القتالة التي تخلّفها الآثام في الكيان الروحي للمؤمن. وذلك في الآيات (٤٣ــ٤٦) من سورة الدّخان التي قال فيها: ﴿**إنّ شجرة الزّقوم. طعام الأثيم كالمُهل يغلي في البطون كغلي الحميم.**﴾. وكلمة الزّقوم تعني المرارة، كما تعني الطاعون (محيط المحيط).

فالله جل شأنه قد نبّه في هذه الآيات إلى أن فعل الإثم فعلٌ مكروه في نظر الله تعالى وشديد المرارة وله تأثير الطاعون في الكيان الروحي للمؤمن الآثم. وتوضيحاً منه جلّ شأنه لهذا الأمر، أتى بكاف التشبيه ليقرّب ذلك من فهمنا وقال: ﴿**كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم.**﴾ أي أنّ للإثم في الكيان الرّوحي كالماء الساخن المغليّ جدّاً من فعل في البطون. فهو يتلف أغشية الجهاز الهضمي وقد يسبّب الوفاة. وهل يرضى المؤمن السالك درب عرفان ربّه إهلاك كيانه الرّوحي الذي تكوّن نتيجة لإيمانه بربه وبيعته لرسوله الكريم؟

ولم يقف تعالى عند هذا الحدّ من بيان تأثير الآثام في كياننا الرّوحي في هذه الحياة الدنيا. بل أضاف تعالى يوضّح مصير هذا الآثم في الحياة الآخرة وقال أنّه يأمر يومئذٍ ملائكته ويقول: ﴿**خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صُبّوا فوق رأسه من عذاب الجحيم. ذُق إنّك أنت العزيز الحكيم.**﴾. وهذه الآية الأخيرة ﴿**ذق إنّك أنت العزيز الحكيم**﴾ تحمل في طيّاتها معنى التهكّم بهذا الآثم المستهتر بإطاعة ربه عزوجلّ في دُنياه.

وهكذا نلاحظ كيف أنّ القرآن الكريم بحث موضوع الإثم من جميع جوانبه، خوفاً على المؤمنين السالكين درب عِرفانه من أن تزلّ أقدامهم ويظنّوا أنّهم باكتفائهم بإقامة العبادات تتحقّق لهم النجاة دنيا وآخرة ويكونون بذلك من الفائزين المفلحين.

فقد حذر الله تعالى هؤلاء المؤمنين السالكين درب عِرفانه من ارتكاب الآثام ومخالفة الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، على أساس أنّ الابن البارّ لوالديه لايعصي أوامرهما ولايخرج عن طاعتهما. فما بالك بالمؤمن الذي يعترف أنّ جميع مابه من منّة فمن الله عزوجلّ؟

وحذّر تعالى المؤمنين من الإثم، على اعتبار أنّه يفقد الآثم المناعة ضدّ التعدّي على حقوق سواه من العباد. ويسهّل الإثم على صاحبه غشّ بضاعته وهضم حقوق الآخرين. ولايعود يرتدع عن القيام برشوة المسؤولين والإدلاء بأمواله إلى الحُكّام، ويسعى بذلك إلى تجاوز حدوده وهضم حقوق سواه.

والقرآن الكريم حذّر المؤمنين من الإقدام على ارتكاب الآثام، لأن الحاكم الذي تُسْنَدُ إليه مقاليد حكم بلدٍ من البلدان، ولايكون تقيّاً، ويستمرىء الإثم يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنّسل، علماً بأنّ الله لايحبّ الفساد.

والقرآن الكريم وضّح للمؤمن السّالك حقيقة علمية وهي أنّ كل شيء فيه منافع وفيه مضار، وأنّ من الإثم أن يقدم المؤمن على تناول ماغلبت مضارّه على نفعه. فإن هو أقدم على تناول المُحرّمات، ينتهي أمر كيانيه الجسماني والروحي إلى الهلاك والزوال. ويبوء بغضب الله وكرهه إيّاه، ويستحق بالتالي العذاب والعقاب.

ووعّى القرآن الكريم المؤمن السالك، من خطر أخذ الأمور بالظّنون. وعّاه من أنّ أسلوب محاكمة الأمور بطريق الظنّ، يضعف جهاز المحاكمة العقلية وينأى بالظّان عن السّبيل العلمي. وينأى به بالتّالي عن الحق واليقين.

ولم يدع الله جل شأنه هذا المؤمن السالك دون أن يُوعّيه لِما للإثم من مضارَّ سلبية تضرّ بكيانه الروحي. فوضّح تعالى لهذا المؤمن السالك أنّ الإثم يهلك الكيان الرّوحي للمؤمن على شاكلة مايفعله الماء الساخن بدرجة عالية، في أحشاء المرء وجهازه الهضمي.

وفي الآية (٤٨) من سورة النساء اعتبر الله عزوجلّ من يشرك به آثماً وقال: ﴿**ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً**﴾. علماً بأنّ الشرك أنواع منها مايُسمى بالشرك الخفّي. كذلك فإنّ الله تعالى عدّ الذي يكتم الشهادة آثما قلبه. وهذا في الآية (٢٨٣) من سورة البقرة بقوله: ﴿**ولاتكتموا الشّهادة، ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه**﴾. كذلك نبّهنا الله عزوجلّ في الآية (٢٢٠) من سورة الشّعراء إلى أن الأثيم يحرم نفسه من تنزّل ملائكة الله عليه بالرحمة والبركات، ويكله ربّه إلى همزات الشياطين. وقال: ﴿**هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين. تنزّل على كلّ أفّاك أثيم**﴾. والأفّاك من أفك الرّجل كذب. وأفك الرجل ضعف عقله. أي أن كلّ كذاب يكون ضعيف العقل وكثير الذّنب المُتعمّد. ولاشكّ أن مَنْ كان هذا حاله يكون كفّاراً بنعم الله وأثيماً ومكروها عند الله والنّاس معاً.

وزبدة الكلام هو أن المؤمن السّالك الذي بايع وتولّد له كيان روحي لاتراه العين وليحسّ به صاحبه. إنّ هذا المؤمن لسالك سيسعى للتعرّف على ربّه الذي آمن به عقليّاً. ويطلب محبّته وقُربه ووصاله ليتخذه وكيله ولمحتسبه في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والمؤمن السّالك الذي يكون هذا حاله لايُذنب متعمّداً مخالفة أوامره ربّه ووصاياه وليجرّ بذلك على نفسه ويلات الإثم والكفر بنعم الله عزوجلّ ليصبح أفّاكا أثيماً وقريناً للشياطين. ولن تعود تنفعه إن هو مال إلى الإثم : لاصلاته ولازكاته ولاأية عبادة من العبادات. إلاّ أن يستغفر ربه ويتوب توبة نصوحاً ومن صميم فؤاده ويعود إلى الالتزام بالطّاعات وتجنّب المخالفات وفق مانصّت عليه آيات كتاب ربّ العالمين.

٥ ـ والله لايُحبّ الفَرحين :

والصّفة السادسة المكروهة والمذمومة في نظر ربّنا عزوجلّ هي صفة الفَرح بمعنى البطر وبمعنى الجمود على الباطل. وليس بمعاني الفرح الأخرى. ذلك أنّ صاحب (محيط المحيط) نبّه إلى عدّة معان يُستعمل لها لفظ الفرح. فقد يستعمل الفرح للبطر كقوله تعالى: ﴿**إن الله لايحبّ الفرحين**﴾ أي لايحب البطرين. وقد يستعمل الفرح بمعنى الجمود على الباطل والرّضا به لقوله تعالى ﴿**كل حزبٍ بما**

لديهم فرحون.﴾. وقد يستعمل الفرح بمعنى السّرور لقوله تعالى ﴿**فرحين بما آتاهم الله من فضله**﴾، إلى جانب استعماله لوصف اللّذة القلبيّة (محيط المحيط).

والمؤمن الذي يتدبّر كتاب الله القرآن الكريم يتبيّن له أنّه تعالى حضّ على الفرح بفضل الله على هذا المؤمن، ونهاه عن الرّضا بالباطل وترك سبيل الرّقي والعروج. فلايشابه الذين يلهثون وراء طلب اللّذات العارضة الزائلة والبطرين بما حصلوا عليه من لذّاتٍ وأولاد وأموال.

ففي الآية (٧٦) من سورة القصص قال تعالى: ﴿**إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوء بالعُصبة أولي القوّة، إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحبّ الفرحين.**﴾. فقد ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة مثلاً يُنبّه من خلاله إلى حالة الفرح والبطر التي تتملّك الذي يُؤتى وجاهةً ومالاً ومركزاً مرموقاً. ضرب مَثَلَ قارون اليهودي الذي ائتمنه فرعون على بعض خزائنه وعاد بين يديه مفاتيح هذه الخزائن يصعب على الرجل القوي حملها بسبب أن المفتاح كان قديماً من الخشب وكبير الحجم على عكس ماهو حاله في زماننا. وقد أبطر ذلك هذا اليهودي ودفعه للاستعلاء على قومه المستضعفين المستعبدين.

وقد قال له قومه إنك تسعى لكسب محبّة فرعون بما تفعله وتخسر في الوقت نفسه محبّة ربّك الذي فضّل على جدّك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهذا الأمر يتأتّى عنه خسارة محبّة الله ووصاله ورضاه فالله لايحب الفرحين.

وضرب الله تعالى للمؤمن السالك في الآية (٨٣) من سورة غافر مثلاً آخر على نوع الفرح الذي يمقته ويمقت صاحبه ويحرمه من الفوز بمحبّته وقُربه، وقال: ﴿ **فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون.**﴾ فنبّه تعالى من خلال هذه الآية الكريمة ذهن المؤمن السالك إلى أنّ العلم لاسقف له ولاحدود. دنيوياً كان هذا العلم أو دينيّاً. على اعتبار أن العلم بنوعيه هو من علم الله تعالى الذي لاتُعرف له حدود، والله تعالى لايسمح بالإحاطة بشيء من العلم إلا بماشاءت به واقتضته ربوبيّته لهذا الكون المادي الذي نعيش في ظلاله. والله جل شأنه لفت ذهن هذا المؤمن السالك إلى علماء الأديان الذين لم يدركوا هذه الحقيقة وفرحوا بما عندهم من العلم حين جاءتهم رُسُل ربّهم بالبيّنات، متناسين ماتقتضيه ربوبيّة ربّهم من إرسال رسله

وأنبيائه. فهؤلاء العلماء من أصحاب الأديان قزّموا بمواقفهم تلك علم الله ومشيئة. فهذا المثال متعلّق بالصّعيد الديني. أما على الصعيد الدنيوي فكلّ مثقف وباحث لابّد أن اطلّع على الفارق الكبير مابين علوم أوربة في القرن التاسع عشر ومابين ماوصلت إليه هذه العلوم في القرن العشرين.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد حذّر المؤمن السّالك من مغبّة الاتّصاف بصفة الفرح بمعنى البطر والفخر والكبرياء إن هو أمسى ثرياً وذا جاه وسُلطان. وقد حضّه في الوقت نفسه على طلب العلم دون قيود وطلب الرقي الرّوحي بكل طموحه. علّمه ألاّ يفرح بعلم ولامال حصل عليه بجهده وقدرته. داعيًا ربّه على الدّوام أن ﴿**وقل ربّي زدني علماً**﴾. أي أن القرآن الكريم غرس روح الطموح في قلب المؤمن السالك على صعيد الدنيا والدّين، وطلب منه أن يستسهل المستحيل ويُحلّق بفكره وروحه في أجواز الفضاء بصورة لاتعرف لها من حدود.

فالمؤمن السّالك درب عِرفان ربّه يفرح يقيناً كل آن، ولايكون وجهه عبوساً قمطريراً. إنما لايكون فرحه بمال أو جاه أو ولدٍ أو تحصيل ملذّات. بل يكون فرحه فرحاً بما يتلقاه من فضل ربّه عليه وبما يسبغه عليه من رحمة يتفرّد بها من بين الناس. ذلك أن المال الزائل بالإمكان الحصول عليه بجهده وقوّته. أما الفضل الإلهي والعلم اللدّني والرحمة الإلهية المخصوصة، فلا تفيد في تحصيلها قوّة ولاجهد عضليّ.

وعليه فإن المؤمن السّالك يفرح بهذا النوع الرّوحي الذي حصل عليه من جانب ربه ولايفرح بالنوع المادي المتحصّل عن جهد وقدرة ذاتية. هذا ماأفادت به الآية (٥٨) من سورة يونس التي قال تعالى فيها: ﴿**قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا، هو خيرٌ مما يجمعون**﴾. قال تعالى قوله هذا مُنطلقاً من أنّ الرّقي المادّي يكون دوماً تابعاً للرّقي العلمي.

والذي يلقي نظرة عابرة متفحصّةً على تاريخ البشر، مُنطلقاً من هذا الوعظ القرآني الذي تبيّناه. يلاحظ تأييده تأييداً مطلقاً بمنطق هذا التاريخ الطويل. وعليه فالذي يُبطره المال والأولاد وينهمك طالباً الملذّات العارضة المادية، يصبح مكروهاً في نظر ربّه عزوجل ويعسر عليه جذب محبته وعِرفانه والتقرّب

منه. ويُصاب بمرض التقليد الأعمى والجمود الفكري، وينتهي به الأمر إلى العمى الرّوحي. فمن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً.

٦ ـ والله لايحب المُفسدين :

وصفة المفسد والإفساد، صفة مكروهة في نظر الله ربّ العالمين. والمؤمن السالك درب العرفان الإلهي يتجنّب مايكرهه ربّه، مادام يسعى ليفوز بمحبّة ربه ورضاه.

ذلك وإن الله تعالى قال في كتابه العزيز في سورة البقرة الآية (٢٠٥): ﴿**وإذا تولّى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرث والنّسل، والله لايحبّ الفساد.**﴾. كذلك قال من جهة أخرى في سورة القصص (٧٧): ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدّار الآخرة، ولاتنس نصيبك من الدّنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد في الأرض، إنّ الله لايحبّ المفسدين.**﴾.

وكلمة المُفسد مأخوذة من فَسَد اللّحم إذا أنتن بحيث لايمكن الانتفاع به على حسب ماوضّح صاحب الكليّات. ففسد ضد صَلُح. وأفسد ضد أصلح. وتفاسد القوم قطعوا الأرحام (محيط المحيط).

فمن مُنطلق دلالة لفظ الفساد والمفسد الواردين في الآيتين اللّتين أوردتهما للمؤمن السّالك، يسعى هذا المؤمن ليتعرّف على جذور الفساد فيتجنّبها، وعلى طريق الصلاح والإصلاح فيسلكه طلباً للفوز بمحبّة ربّه إيّاه وليحصل على قربه ورضاه. والله تعالى وهو علاّم الغيوب الذي يعلم سرّ المؤمن وأخفى من ذلك، لايترك هذا المؤمن يبحث هذا البحث ويتجّه هذا الاتجاه، ولايدله على مايريد معرفته ولايأخذ بيديه، بل يقيناً يرشده ويأخذ بيديه أيضاً.

والذي يتدبّر القرآن الكريم يلحظ أنّ ربّه قد عرّفه على جذور الفساد ودوافع الإفساد في الأرض. وذلك في الآيات ٢٠ إلى ٢٥ من سورة الرعد، حيث قال هناك:

﴿**أفمن يعلم أنّما أُنزل إليك من ربّك الحقّ كمن هو أعمى، إنما يتذكّر أولو الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرؤون**

بالحسنة السّيئة أولئك لهم عُقبى الدار. جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدّار. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدّار. الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وفرحوا بالحياة الدنيا، ومالحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع.﴾.

فالمؤمن الذي يتدبّر هذه الآيات الكريمة يدرك أنّ الله تعالى ربّه وضّح له من خلالها جذور وأصول الفساد بشكل منقطع النظير. فقد وضح تعالى في الآية الأولى أنّه جل شأنه ميّز الإنسان على غيره من مخلوقاته بميّزة العقل وجعله بذلك من أولي الألباب. بينما ترك بقيّة مخلوقاته غريزيّين في تصرفاتهم ومسلكهم في هذه الحياة الدنيا. فما معنى "أولي الألباب"؟

الألباب جمع لبيب وهو الإنسان العاقل الذي لايفترُ عن مُلازمة أمر ربه (محيط المحيط) ويزيدنا جل شأنه في هذه الآية الأولى توضيحاً ويقول أنّ من لايستعمل عقله استعمالاً صحيحاً يكون في هذه الدنيا أعمى لأنّه لايتعظ بما أنزل الله في كتابه العزيز ولايتذكره، لذلك يظلّ أعمى محروماً من سلوك درب عِرفان ربه ومن كسب محبته وقربه ورضاه.

أمّا أولو الألباب الذين يستعملون عقولهم بعيدين عن عواطفهم وميولهم وعن التقليد الأعمى الموروث من عادات مجتمعهم ورسومه وتقاليده يتذكّرون ويتّعظون بما احتواه هذا القرآن الكريم من مواعظ وتعاليم، ويهتدون إلى سبيل الحقّ الذي أتى به هذا الرّسول الصّادق الأمين، فيسلكون درب عِرفان ربّهم ويفوزون بمحبته وقربه ورضاه.

وراح تعالى يعدّد في الآية الثالثة صفةً أخرى من صفات أولي الألباب موضّحاً أهمّ صفة ويقول: ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق**﴾ أي أن أصحاب العقول لاتخدعهم القشور بل يبتعدون عنها ويغوصون إلى اللُباب استجابة منهم لعهد الله الذي أخذه عليهم حين ميّزهم بميزة العقل عن سواهم من المخلوقات. فأصحاب العقول يقدّرون هذه النّعمة ويوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق المذكور. لذلك تُلاحظهم يسلكون في حياتهم مسلكاً

عقلانيّاً، فيوازنون بين الأشياء فيأخذون بما يرضي ربّهم، ويحذرون مايكرهه ويُغضبه.

وراح تعالى يعدّد في الآية الثالثة صفةً أخرى من صفات أولي الألباب وقال: ﴿**والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل**﴾ أي لاتعود القشور في هذه الحياة الدنيا تُلهيهم بل يطيعون الله ربّهم في كلّ مأمرهم به أن يوصل. ولايُطيعونه ظاهراً وقلوبهم لاهية عن ربّهم، بل يطيعونه ﴿**ويخشون ربّهم**﴾ والخشية تعني الخوف من ضياع شيء على حسب ماوضحه صاحب (محيط المحيط) أي يُطيع أولو الألباب ربّهم خائفين أن يخسروا بعدم اطاعتهم لأوامره محبّته وقربه ورضاه. ليس هذا وحسب، بل ﴿**ويخافون يوم الحساب**﴾ أي يعلمون علم اليقين أنّ العاقل إن هو لم يقدّر نعمة العقل التي أنعم بها ربّه عليه، لابُدّ أن يُحاسبه ربّه على ذلك يخافون الآخرة ويحسبون ليوم الحساب حسابه، ويلتحفون بلباس تقوى الله على الدوام.

وقد أضاف جل شأنه صفة ثالثة من صفات أولي الألباب، وذلك في الآية الرابعة حيث قال: ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم**﴾ والصّبر معناه المثابرة والدّوام على طاعة الله، والثبات في المكاره وتحمل الأذى ابتغاء وجه الله عزوجلّ فأولو الألباب المؤمنون السالكون درب عرفان الله تعالى يثابرون على طاعة ربّهم ويثبتون في المكاره وحين البأس ويتحمّلون كل أذى على هذا الدّرب ابتغاء وجه ربّهم يقيناً.

وعلامتهم الرّابعة كما عبّرت عنها الآية الرابعة هي ﴿**أقاموا الصّلاة**﴾ ولفظ الإقامة يحمل معنى الصّلاة جماعة أي يسعون إلى أداء صلواتهم على أوقاتها، وبشروطها جماعة مع سواهم من المؤمنين وتحت قيادة واحدة.

وعلامتهم الخامسة تضمّنها قوله تعالى مضيفاً: ﴿**وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية**﴾. فهم يُنفقون سرّاً حفاظاً على كرامة من يُحسنون إليه. وينفقون علانية تشجيعاً منهم لسواهم من النّاس على فعل الخيرات والتبّرع بالصدقات.

وراح تعالى في آخر هذه الآية الرابعة يوضّح حكمة اتّصاف أولي الألباب بهذه الصفات ويقول: ﴿**ويدرؤون بالحسنة السّيئة**﴾ أي أنّ وجود مثل هؤلاء النّاس في المجتمع يدفع عنه سيئاته ونواقصه ومعايبه.

وقد بشرّ الله تعالى أولي الألباب من المؤمنين السالكين الذين يتصفون بجميع هذه الصفات التي عدّدها لهم ، وقال: ﴿**أولئك لهم عُقبى الدّار**﴾. وراح تعالى ففسّر المراد من قوله "عُقبى الدار"، بقوله تعالى، في الآية التي بعدها: ﴿**جنّات عدن يدخلونها ومَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدّار**﴾.

وخلاصة القول إنّ الله تعالى عرّف المؤمن السالك من خلال هذه الآيات من سورة الرعد على جذور الفساد وأصوله، ووسائل تدارك ذلك فردياً واجتماعياً. مُرجعاً الفساد إلى عامل أساسي وهو عدم استعمال الإنسان لعقله بعيداً عن عواطفه وميوله وعادات مجتمعه الموروثة. وأن هذا الإنسان بقدر مايكون عقلانيّاً في سلوكه وتفكيره وتصرفاته، يبتعد عن كل فساد وإفساد يغضب ربه ويحرمه بالتالي من كسب محبّته ورضاه. ويهنئ جميع ماميّزه الله خالقه به من مزايا وصفات على ماعداه من المخلوقات.

كذلك نبّهت هذه الآيات الكريمة إلى أنّ الذي يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً لاتعود تخدعه سفاسف الأمور وقشورها، بل يغوص إلى لُبابها نزولاً ووفاء لعهد الله وميثاقه وإطاعة لتعاليمه ومواعظه. واضعاً نصب عينيه على الدّوام خشية ربه وتحسُّبه ليوم الحساب.

مثابراً على ذلك وصابراً على مايتأتى عنه ابتغاء وجه ربّه وكسب محبته وقربه ومرضاته. مقيماً الصلاة، مُنفقاً ممّا رزقه الله ربه سرّاً وعلانية.

فلما انتهى جلّ شأنه من توضيح ذلك كلّه راح يتكلم عن الذين لايستعملون عقولهم، ولايكونون من أولي الألباب. أولئك الذين يستسلمون لعواطفهم وميولهم ولتقليد ماورثوه من رسوم وعادات فوصفهم بقوله: ﴿**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدّار.**﴾ أي أنّ الذين لايعقلون يعتبرون في نظر ربّهم ناقضي عهد الله وميثاقه خصوصاً وأنهم لايضيعون الله الذي خلقهم ومنحهم هبة العقل، وهؤلاء وهم على هذه الحال يفسدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون. أولئك يُحرمون من محبة ربّهم وعرفانه فلهم اللعنة أي البعد عن الله عزوجلّ، ولهم سوء الدّار أي سوء المصير الذي سيصيرون إليه.

وراح تعالى يغمز جانب هؤلاء المفسدين ويقول: ﴿**الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وفرحوا بالحياة الدنيا، ومالحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع.**﴾ أي أن هؤلاء المنحرفين عن صراط الله، يجعلون همّهم الحصول على متاع الدنيا أي الحصول على كلّ ماينتفع به من الحوائج كالطعام واللباس وأثاث البيت والأدوات والسّلع. فهذه الأشياء يُطلق عليها اسم المتاع على حسب ماورد في (محيط المحيط). وقال في الكليّات: المتاع والمُتعة مايُنتفع به انتفاعاً قليلاً غير باق، بل ينقضي عن قريب. يسعون وراء تحصيل متاع الدنيا ظنّاً منهم أنّهم يحصّلون مايحصلون عليه بسواعدهم في حين أنّ الله خالقهم هو الذي يمدّهم بهذا الرزق ليبلوهم به. فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وإن هؤلاء المنحرفين المكتفين بمتاع الدنيا، يخسرون في الوقت نفسه ماأعدّ الله تعالى لأولي الألباب من جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم كما يُحرمون من أدعيةُ ملائكة الله الذين يدخلون على أولي الألباب من كلّ باب إشارة إلى أنواع الصالحات التي اشتهروا بأدائها في الحياة الدنيا سعياً وراء كسب محبّة ربهم ورضاه.

وبعد أن وضح الله جلّ شأنه لعباده المؤمنين السّالكين درب عرفانه جذور الفساد وأصوله. راح يُعلن لهم في الآيات ٢٧ ـ ٢٩ من سورة (ن) اختلاف تعامل الله ربّهم مع هؤلاء الفريقين من النّاس، وتمييزه المؤمنين أولي الألباب على الناكثين عهد الله من الذين لايستعملون عقولهم وينتهجون نهج تقليد ما هو موروث في مجتمعاتهم، وقال: ﴿**وماخلقنا السّماء والأرض ومابينهما باطلاً، ذلك ظنّ الذين كفروا، فويلٌ للّذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصّالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتّقين كالفُجّار. كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب.**﴾.

أي أنّ فريق أولي الألباب يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً ويتفكّرون في أمر سماء هذا الكون وأرضه ومابينهما، ويحاكمون مايتفكرون به ومايلاحظونه، ويتبيّن لهم بأسلوب علمي أن الله تعالى هو خالق هذا الكون، وأنّه لم يخلقه باطلاً وبدون مقصد، بل خلقه لمقصد هداهم إليه هذا القرآن العظيم. على حين أن فريق الكافرين الناكثين لعهد الله والذين لايستعملون هبة العقل بعيداً عن العواطف والميول والتّقليد الأعمى، هؤلاء تختلط عليهم الأمور

ويظنّون أن هذا الكون وُجد من نفسه ولامقصد لوجودهم في هذه الحياة، وبالتّالي فلاتعود طاعة أوامر الله تعنيهم في شيء ويندفعون وراء قضاء شهواتهم دون وازع ولاضابط. وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف وقال منذراً هذا الفريق الثاني ﴿**فويل للذين كفروا من النّار**﴾ أي أنّهم يسلكون بذلك السبيل الموصل إلى نار النّدم والفجيعة في آخر المطاف. ثم أتى جل شأنه بحرف العطف (أم) الذي يفيد الإضراب وأعلن: ﴿**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتّقين كالفُجّار.**﴾ أي أن المنطق يقتضي ألاّ نسوّي بين المؤمنين الذين استجابوا لربهم وعملوا الصّالحات، وبين الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات وكانوا من المفسدين في الأرض. وكيف نسوّي بين الفريق الذي كانت تقوى الله تعمر أفئدته وبين الفريق المفسد الذين كانوا فجّاراً تفجّرت المعاصي والآثام والافساد في الأرض في أعماقهم وحبّ التمّول والسّحر والتنجيم (محيط المحيط) بسبب كفرهم وابتعادهم عن طاعة الله وهدايته. كيف نسوّي بين فريقين كان العاقل المؤمن من الفريق الأول يتّقي مواقع الزّلل بُهدى تعاليمنا، وكان غير العاقل الكافر من الفريق الثاني غافلاً عن خالقه ومندفعاً وراء شهواته وميوله وأهوائه بلا وازع أو ضمير؟

وبعد أن أعلن جلّ شأنه هذا الإعلان الذي تبيّناه. استدرك وقال: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب.**﴾. أي أننا أنزلنا إليك يامحمّد يأكمل العقلاء وأعظم رجل بين أولي الألباب، أنزلنا هذا الكتاب القرآن المبارك أي المُقدّس والمفعم بالبركات (محيط المحيط) أنزلناه إليك ليتدبّره جميع الذين وهبناهم هبة العقل وميّزناهم عن جميع بقية المخلوقات، ونحن نعلم أنّه لايتعظ بهذا الكتاب وتعاليمه ولايحصد من بركاته إلاّ أولو الألباب أي النّاس الذين يستعملون عقولهم بعيداً عن عواطفهم وميولهم وعن تقليد ماورثوه من رسوم وتقاليد. فأولو الألباب هؤلاء يستجيبون لك يامحمد يأكمل العقلاء، ويسلكون سبيل عرفان ربّهم ويفوزون بمحبّته وقربه ورضاه.

والله جل شأنه راح يضرب لرسوله الكريم ﷺ في مختلف سور القرآن الأمثلة على هذا التفريق بين هذين الفريقين من النّاس من حيث تجليّاته عليهم والعاقبة التي آلوا إليها، بشكل مثير ومدهش لعقول المتبصّرين.

ففي الآية (١٠١) من سورة الأعراف، وعلى سبيل المثال قال تعالى: ﴿**تلك القُرى نقصّ عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات، فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وماوجدنا لأكثرهم من عهدٍ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين.**﴾ أي أنّ مثال مايجري معك ياسيّد العقلاء قد جرى مع من أرسلنا من قبلك من رسلنا بالبيّنات فها أن تاريخ تلك القرى شاهد على مانقول.

وفي الآية (٩٠) من سورة الأعراف ضرب مثل قوم شعيب عليه السّلام وقال: ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتّبعتم شُعيباً إنكم إذاً خاسرون. فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.**﴾. أي انظر ياسيّد العقلاء كيف كانت عاقبة الذين كذّبوا شعيباً، ونكثوا عهدهم ولم يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً بعيداً عن عواطفهم وميولهم وعن تقليد ماورثوه من رسوم وتقاليد وكانوا بذلك من المفسدين في الأرض ومن الفجّار.

بهذا الأسلوب نبّه كتاب الله ذهن المؤمن السالك درب عِرفان ربّه والآمل أن يفوز بمحبة ربه وكسب قربه ورضاه، نبّهه إلى حقيقة عظيمة وهي أن يكون عقلانيّاً في مسلكه وتعامله وتفكيره، فلا يستسلم إلى عواطفه وميوله ولا إلى ماورثه من رسوم وعادات وتقاليد، وأن يحافظ على صلواته اليومية وذكر ربّه، وخشيته وتقوى الله تعمر فؤاده في كل خطوة يخطوها في حياته، ويحسب للحياة الآخرة حسابها ويتزوّد لها، فيصل مأمر الله تعالى به أن يوصل، فلا يخالف أوامر ربه ولايعصيه. فإن داوم هذا المؤمن السالك وصبر على هذا وثبت في الشدائد فلابدّ أن يفوز بمحبّة ربّه الذي خلقه لعبادته ومعرفته وقربه. ولابدّ أن يعرّفه على نفسه ولابدّ أن ينعم عليه بأعطياته، ولابدّ أن يعصمه من أن يكون من فئة الفجّار المفسدين في الأرض.

سابعاً و ثامناً ـ والله لايحبّ الخوّان والكفور :

والكفور صيغة مبالغة من الكافر بنعمة الله وجحدها وسترها، وفي الكليات: الكفر تغطية نِعم المُنعم بالجحود. ويستعمل الكفر في أمور الدّين أكثر. بينما أن لفظ الكفران أكثر استعمالاً في جحود النعمة. ولفظ الكُفور يستعمل فيها جميعاً. (محيط المحيط).

من هذا ندرك أن لفظ كفور الوارد في الآية (٣٨) من سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿**إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا، إنّ الله لايحب كلّ خوّان كفور**.﴾ القصد منه دلالة كفور على جحود نعمة الله تعالى وسترها، بدليل الإيتاء بهذا اللفظ في مقابل الإيمان من جهة، وبسبقه بكلمة خوّان من جهة أخرى، فالخوّان صيغة مبالغة من خان بمعنى لم يؤتمن على نعمة العقل التي ميّز الله تعالى بها الإنسان على مَنْ سواه من المخلوقات. وعدم الائتمان هذا جرّ صاحبه ليكفر بأنعم الله الخالق الذي أنعم عليه بنعمة العقل.

ذلك أن الله تعالى وعد المؤمنين المؤتمنين على هبة عقولهم والمستعملين لها استعمالاً صحيحاً، أنْ يدافع عنهم لأنهم أضحوا من أحبائه ومقربيه. على حين أنه أمسى يكره الذين خانوا أمانة العقل، فلم يستعملوا عقولهم بعيداً عن عواطفهم وماتوارثوه، وكفروا بالتالي بأنعمه عزوجلّ. فهذا هو معنى قوله تعالى في الآية التي أوردناها: ﴿**إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا، إنّ الله لايحب كل خوّانٍ كفور**.﴾.

وإنّ الحقيقة التي طالما ألمحت إليها في مؤلّفاتي، هي أن الناس انقسموا منذ بعثة آدم عليه السلام إلى هذين الفريقين من الناس. وقد ثبت من معطيات تاريخهم صدق ماأعلنت عنه الآية من سورة الحج التي أوردناها.

هذا وإني نبّهت مراراً وتكراراً إلى قانون الاحتياج العام المهيمن في هذا الكون. والذي يثبت منه وجود الله تعالى ووحدانيته، واحتياج كل شيء إليه سبحانه وتعالى. وأنّ الله تعالى وفقاً لهذا القانون، قد جعل لكلّ حاسّةٍ من حواس الإنسان عاملاً مساعداً يساعدها على أداء عملها. وقد جعل للعقل عوامل ثلاثة تساعده ليعمل ويصدر أحكاماً صحيحة وسليمة على مستوى الماضي والحاضر والمستقبل. فالعامل الثالث الذي يعمل على مستوى الغيبيّات، هو الوحي السّماوي. وهاأنّ الوحي القرآني قد أنبأنا بنصوص صريحة واضحة عن أنّ كل شيء في عالمنا مخلوق ولوجوده مقصد أيضاً. وأن الله تعالى خلق هذا الكون ومافيه بما يساعد على استمرار حياتنا وتحقيق مقصد وجودنا أيضاً.

وقد أنبأ جل شأنه في سورة الدّهر عن أنّه صاغ فطرتنا على صورة تدع لكلّ منا حرية التفكير والاختيار ومنحنا الإرادة للسعي لتحقيق هذا المقصد. فالإنسان بإمكانه اختيار أحد طريقين: إما أن يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً

فيهديه الله إلى وجوده وإلى الإيمان برسله تعالى وكتبه. وأما أن يُهمل الإنسان استعمال عقله بالأسلوب الذي ذكرناه، فيضّل بالتالي عن سبيل الله ويكفر بوجود خالقه وكتبه ورسله وبكلّ ماأنعم الله تعالى به عليه. وهذا ماعبّرت عنه الآية الثالثة من سورة الدهر: ﴿ **إنّا هديناه السّبيل إما شاكراً وإما كفوراً**.﴾.

كذلك فإن الله عزوجلّ نبّه أذهان عباده إلى أنّ جميع مافي هذا العالم من أشياء ونعماء فمن عطاء الله الرحمن الرحيم. لقوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة إبراهيم: ﴿**وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها، إن الإنسان لظلوم كفّار**.﴾ أي أن الإنسان الذي لايستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، يبيت كافراً بخالقه وظالماً لنفسه وكفّاراً بأنعم الله تعالى عليه.

وقد نبّه الله تعالى الأذهان في الآية (٤٠) من سورة النمل وعلى لسان سليمان الحكيم إلى أن الله هو في حقيقة أمره غنّي عن شكرنا إياه. وأنّ من يشكر الله على أنعمه إنما يشكر لصالح نفسه، ليكسب بهذا الشكر محبّة هذا الإله المنعم والمحسن إليه، ويفوز بالتالي بعرفانه وقربه ووصاله. أفلم نقرأ مانطق به سليمان عليه السلام وقال: ﴿.. **ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم**﴾؟

من هذا كله ندرك أن من واجب المؤمن السالك درب عِرفان ربّه والسّاعي لكسب محبته تعالى وقربه، أن يحذر عند كل خطوة يخطوها في حياته اليومية من أن يصبح مُتّهماً عند ربّه بأنّه أصبح "خواناً كفوراً".

٩ ـ والله لايحبّ المسرفين

والصفة التاسعة التي يكره الله عزوجل أن يتّصف بها عبده المؤمن السالك درب التّعرف إليه والساعي إلى جذب محبته وكسب رضاه، هي صفة الإسراف بسبب العواقب الوخيمة المحتمل وقوعها نتيجة للاتّصاف بهذه الصّفة الذميمة.

فمن هم المسرفون؟ المسرفون جمع مسرف من أسرف ماله أي أنفقه وبذّره في غير طاعة ولاضابط لإنفاقه. أي أنّ المسرف هو من ينفق حدّ الهدر والتبذير ويشكل هدرُهُ وتبذيرُه معصيةً لأوامر ربّه عزوجلّ. أمّا إذا أكل هذا

المؤمن كفاية بطنه وشرب حاجته الطبيعية ولبس مايستر عورته ويسدي حشمته فلا يُسمى إنفاقه هذا من قبيل الإسراف والتبذير.

والسؤال هنا: ماهي حكمة وضرورة هذا التّقنين؟ وفي الجواب أقول: لقد أمر الإسلام المؤمنين باجتناب الإسراف دفعاً للنتائج التي يسفر عنها بمعناه الذي ذكرناه. وبالإمكان اختصار هذه النتائج حيث تتضمّنها الأمور الأربعة التالية:

أولاً ـ والنتيجة الأولى التي يُسفر عنها الإسراف هي معصية هذا المُسرف ربّه وخسارة محبته إيّاه. هذه نتيجة نصّ عليها كتاب الله عزوجلّ في سورة الأنعام بألفاظ صريحة حيث قال: ﴿.. **ولاتسرفوا إنّه لايحبّ المسرفين.**﴾. وهذه وصيّة لم ينفرد الإسلام بالتوصية بها. بل إنه تعالى وصّى عباده بضرورة الالتزام بهذه الوصيّة وعدم الإسراف منذ بعثة آدم عليه السلام. أو لم تقرأ ماتضمّنته الآيات (١٢٣ ـ ١٢٧) من سورة طه التي خاطب الله تعالى فيها آدم وزوجه قائلاً: (قال اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ فإمّا يأتينكم منّي هدىً فمن اتّبع هُداي فلا يضلّ ولايشقى. ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.).

هذا وإن الخطأ الذي ارتكبه آدم وزوجه سُمّي في هذه الآية الكريمة إسرافاً، أي تجاوزاً لكفايتهما إلى حدّ معصية الله تعالى ومخالفتهما لأوامره عن غير قصد.

وحينما قلت "عن غير قصد" استدللت على ذلك بالقرآن الكريم نفسه حيث ورد في نفس سورة طه الآية (١١٥) قوله تعالى: ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً؟**﴾ أي أنّ إسراف آدم وذنبه الذي بدر عنه، صدر عن حُسن نيّةٍ وعن غير قصد منه. فلم يكن يسعى إلى معصيةٍ أوامرنا بشكل من الأشكال.

ثانياً ـ والنتيجة الثانية التي يسفر عنها الإسراف، هي تأثيره الخطر على الاقتصاد الوطني في كلّ دولة من دول الأرض. فالإسراف في كلّ شيء من

الأشياء يُعدّ أحد العوامل الرئيسية التي تزعزع أركان الاقتصاد. وقد أدرك الأوربيون هذه الحقيقة متأخرين لذلك راح المتخصّصون عندهم يعيدون النظر في معالجة مُعطيات هذا الإسراف وماأسفر عنه حتى الآن. فلو أنّهم رجعوا إلى تعاليم هذا القرآن الكريم الذي أنزله خالقهم قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، لكانوا وفرّوا على أنفسهم ماأضاعوه وكسبوا في الوقت نفسه محبة هذا الخالق الهادي علاّم الغيوب.

هذا وبعمليّة بسيطة يدرك العاقل أخطار الإسراف على اقتصاده. فلو أسرف كل إنسان في تناول البيض على سبيل المثال، وتناول بيضة واحدة زيادة عن حاجته اليومية.

وكان عدد البالغين في الدولة الواحدة عشرة ملايين، فمعنى ذلك أنّ هذا الشّعب يُتلف عشرة ملايين بيضة عن طريق الاستهلاك المخالف للعلم في اليوم الواحد فإن ضُرب هذا العدد في عدد أيام السّنة فإنّ هذا الرقم يبلغ ٣,٦٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ثلاثة آلاف وستمائة وخمسين مليون بيضة تُستهلك هدراً وإسرافاً. وعلى شاكلة ذلك يقاس كل نوع من أنواع الهدر والإسراف وعلى صعد الطعام والشراب واللباس والتبرّج بالحليّ والتزيّن.. الخ.

فإن وعى البشر ضرورة الابتعاد عن الإسراف والهدر، وبلغوا في ذلك حدّ تقوى الله وخشيته، وردّ هذا المؤمن مايُوفّره عن طريق التزامه بهذه الموعظة القرآنية على السائل والمحروم، لاتعود بعد ذلك من ضرورة للحدّ من النّسل وسواه من المطالبات.

ثالثاً ـ والنتيجة الثالثة التي يُسفر عنها الإسراف، هي أنّ الإنسان المليء المُسرف، تتضاءل في نفسه إحساساته بإخوانه من الفقراء والمعوزين من بني البشر. وبالتالي يتولّد عن ذلك فوارق اجتماعية وإحساس بطبقية وحقد اجتماعي ينخر في جسم الأمة الواحدة إلى درجة تعمل على تفكك مجتمعها، وتولّد بُؤر الثورات والفساد فيتآكل جسم هذا المجتمع كما ينخر السوس والدود في الأشجار والمزروعات. وذلك لفقدان روح التكامل والتضامن الاجتماعي نتيجة لإسراف الأثرياء أيضاً. وتفقد تلك الأمة محبة ربّها ورضاه فيدعها تتناهبها رياح الزّوال.

والإسلام فرض الصّيام لتدعيم روح التكافل والتضامن الاجتماعي المذكور. فهذه إحدى فوائد شهر الصيّام. إنّما للمؤمنين الذين يدركون فلسفة الصيام ويصومون لتحقيق حِكمه وأهدافه المادية والرّوحية.

رابعاً ـ ثم إنّ النتيجة الرابعة التي يسفر عنها الإسراف، شديدة الخطورة إلى درجة كبيرة جدّاً. إذ أنّ من المعلوم أنّ كلّ حال لايدوم. والأفراد والأمم يتعرّضون بين الحين والحين لنكبات وشدائد ودواهٍ. والإنسان الذي اعتاد الترف والإسراف وواجهته مثل هذه النكّبات، يستشعر في تلك الأيام أنّه كان قد فقد المناعة النفسية والجسدية التي يحتاجها المرء لمواجهة نكبةٍ تُلمُّ به، فيتهالك ويذلّ ويشقى دون أن يسمع صوتاً يقول ارحموا عزيز قوم ذلّ. ولاتغنيه في مداواة حاله تلك الكلمات.

أمّا المؤمنون الأتقياء الذين لم يُسرفوا ولم يقتُروا وكانوا بين ذلك قواماً. أولئك يأخذ الله بأيديهم، فلا يواجهون ضعف المناعة المذكورة عند الشدائد، بل إنّ الشّدائد تزيدهم صقلاً ولمعاناً وقُرباً من ربهم ورضواناً.

فهذه نتائج أربع خطيرة لابدّ أن يسفر عنها إسراف شعب من الشعوب، أو فرد من الأفراد. ولذلك يدخل موضوع الإسراف في دائرة الإفساد في الأرض، خصوصاً وأنّ حذر الإسراف هو معصية الله وقطع مأمر الله به أن يوصل، وهذا أحد جذور الإفساد في الأرض كما تبيّناه سابقاً.

وهذه النتائج الخطيرة التي يسفر عنها الإسراف في المأكل والملبس وسواه من الأمور المعاشية، استدعت من ربّنا عزوجلّ أن ينبهنا إلى ذلك نحن المؤمنين السالكين سبيل عِرفانه، إلى تنبيهنا إلى خطورة الإسراف، وبأسلوبٍ علميٍ رائعٍ عديم المثال، وبمنطق ربّنا الرؤوف الرحيم بالمؤمنين.

وليُصغ كلّ مؤمن سالك إلى ماأورده جل شأنه في الآية (١٤١) من سورة الأنعام، فهو قدّم لنا بادىء ذي بدء دليلاً علميّاً، يعطيه الحقّ لنُصحنا وإنذارنا وقال وعزّ من قائل: ﴿**وهو الذي أنشأ جنّاتٍ معروشاتٍ وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أُكُله والزيتون والرّمان متشابهاً وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقّه يوم حصاده**..﴾. وهذه الكلمات تحوي دليلاً علمياً على وجود الله الخالق لهذا الكون ومافي هذه الأرض من حياة،

ولهذا الإنسان الذي توجّه الله تعالى إليه يهديه بهذه الكلمات وخلاصة هذا الدليل العلمي، هو أنّ من يزعم وجود هذا الكون من نفسه، يحتجُّ بالصّدفة والضرورة التي تتنافى والعلم موضوعيّاً. ففي هذه الكلمات من هذا الشطر من الآية الكريمة عدّد الذي أنزل القرآن الكريم عناصر تعد بالعشرات وتصبّ في بوتقة واحدة ولتحقيق غاية سامية. فهو تعالى ابتدأ بضمير (هو) تحريكاً لعقول المفكرين، واستعمل فعل (أنشأ) المتعدي ومن نشأ الذي يفيد حَيِيَ وحَدَثَ وتجدّد. ليدفع القارىء ليتساءل عمّن أخرج هذه الأشياء وأحياها من الأرض الجامدة الموات وعن حدوثها بهذه الأنواع والألوان والأشكال ومايحمل كُلٌّ منها من خواصّ ومنافع.

وليتساءل أيضاً كيف تضّمنت أنّ هذه الأشياء أعضاء تناسلها وتجددها؟ فهذه التساؤلات والمعاني تضمّنها فعل أنشأ وحده على حسب ماأفاده من معانٍ تضمّنها معجم (محيط المحيط) وسواه من المعاجم اللغوية.

وأضاف إلى هذا وذاك إصدار الأمر بالقول (كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقّه يوم حصاده..). إشعاراً منه عزوجلّ للقارىء أن جميع هذه النعماء، إنما سخّرها الله تعالى لصالح هذا الإنسان. وأن على هذا الإنسان أن يعالج زراعة وحصد وقطف ثمار هذه الأشياء بأسلوبٍ علميّ وليس بأسلوبٍ بدائيٍّ عشوائي.

فلما انتهى جل شأنه من تقديم هذا الدليل العلمي يثبت وجوده، ووجود مقصدٍ من حياة الإنسان ومن وجود هذه الأشياء جميعها، أضاف تعالى ناصحاً ومحذراً وقال: ﴿**ولاتسرفوا، إنّه لايحبّ المسرفين.**﴾ أي استعملوا جميع هذه الأشياء بأسلوب علمي وبنهج السالكين درب عرفان ربّهم والطالبين الفوز بمحبته ورضوانه، واعلموا أنكم إذا انتهجتم سبيل الإسراف تخسرون في مقابل ذلك محبة هذا الخالق وعِرفانه. فهو لايحبّ المسرفين.

وراح جل شأنه يزيدنا إيضاحاً وقال: ﴿**ومن الأنعام حمولةً وفرشاً، كلوا ممّا رزقكم الله، ولاتتبّعوا خطوات الشّيطان، إنّه لكم عدوٌّ مبين.**﴾ أي لاتقولوا إنّ هذه الثمار وحدها لاتكفي لتأثيث بيوت تقطنونها. وأنكم بحاجةٍ إلى مايساعد على حملها ونقلها إلى دوركم. بل خلق لكم ﴿**ومن الأنعام حمولة وفرشاً**﴾ وهذا جميعه رزق سبق أن هيّأه الله الخالق من أجل وجودكم ودوامه، ومن أجل تعريفكم على الله الذي رزقكم جميع هذا الرزق الكامل المتكامل لذا

يأمركم ﴿**كلوا مما رزقكم الله**﴾ وهنا أتى باسم الجلالة الله الجامع لجميع الأسماء الحسنى تدعيماً منه تعالى لضمير (هو) الذي افتتح به هذا الدليل والكلام على وهذا الرزق كله؟ فمن ينكر هذه الحقائق إلاّ الشيطان؟ أي إلاّ الوجود الذي لابدّ أن يؤول إلى الهلاك والاحتراق بالنّار؟

فلما بلغ جل شأنه هذا الحدّ من البيان حذّر هذا المؤمن السالك درب عرفان ربه والطالب ودّه ومحبته، وقال: ﴿.. **ولاتتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين.**﴾ وبهذه الألفاظ أعاد إلى ذهن هذا المؤمن السّالك ماحدث عند بعثة أول نبي وهو آدم عليه السلام وكيف أنّ من أنكر ماجاء به وقاومه وسلك سبيل الإسراف آل أمره إلى الهلاك والدمار.

وأن جميع من سلك مسلك ذاك الشيطان وكان من ذريته أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وماأثبتوا في يوم من الأيام إلا أنهم عدّو للإنسان المؤمن، وعدّو مبين.

أي أنّه جل شأنه ذكّر المؤمن السالك من خلال هذه الألفاظ ماأورده من إنذار وتحذير لآدم ومن سار مساره وذلك في الآية (١٢٣) من سورة طه ﴿**وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.**﴾.

هذا الدّليل على وجود الخالق وهذا التحذير من الإسراف وأخطاره يكشف لنا السّتار عن سرّ مخاطبة الله عزوجل بني آدم في الآية (٣١) من سورة الأعراف حيث قال: ﴿**يابني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد، وكلوا واشربوا ولاتُسرفوا، إنّه لايحبّ المسرفين.**﴾ فهو جلّ شأنه ربط موضوع التزّين ظاهراً وباطناً عند كلّ مسجد في هذه الآية الكريمة بأمرين ظاهرين الأول هو التذكير بعهد بعثة آدم ومأنزله عليه من تعاليم. والأمر الثاني علاقة هذا التزّين أي نظافة الثياب الظاهرية ونظافة الصفات الباطنة المتعلقة بالقلوب والصّدور بموضوع الطعام والشراب والاعتدال فيهما. بمعنى أنّ الذي يُسرف في طعامه وشرابه يكون عاصياً ربّه ولايكون نظيفاً معنوياً على كلّ حال. ولو لم يكُنِ المقصود من هذا الربط هذه الدّلالة فلايكون من معنى للجمع بين خذوا زينتكم عند كلّ مسجد وبين كلوا واشربوا ولاتسرفوا في هذا المقام. وبألفاظ أخرى يقول جلّ شأنه لاتكتمل تقوى المؤمن السالك درب عرفان ربّه وزينته إلاّ

إذا امتاز باعتداله في طعامه وشرابه ولم يسرف ولم يبذّر ولم يتتبّع خطوات الشيّطان الذي عادى آدم وكان رأس الحربة لنسلٍ مفسدٍ في الأرض.

أمّا إذا جمع هذا المؤمن السالك بين اتخاذ الزّينة ظاهراً وباطناً، وبين الاعتدال في الطعام والشراب وعدم الإسراف فيهما يُعد في نظر ربّه محبوباً ومن المقرّبين.

وإشارة إلى هذه الحقيقة التي وضّحناها ورد وصف الله عزوجل المؤمنين الصادقين في الآية (٦٧) من سورة الفرقان بقوله تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قَواماً.**﴾. وإشارة إلى الحقيقة نفسها ذكّرنا جلّ شأنه بما كان يدعو به رسله والذين آمنوا معهم دوماً بقوله تعالى: ﴿**وكأيّن من نبيٍّ قاتل معه ربيّون كثير فما وَهنوا لِما أصابهم في سبيل الله وماضُعفوا وماستكانوا والله يحبّ الصّابرين. وماكان قولهم إلاّ أن قالوا: ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصُرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة والله يُحبُّ المحسنين.**﴾.

وقد يطرح المسرفون سؤالاً ويقولون إنّنا ممّن أنعم الله عليهم وزادهم سعة في الرّزق. ونحن نؤتي السائل والمحروم حقّه في أموالنا، وإذ نحن نبذخ ونسرف لايكون بذخنا وإسرافنا بقصد التبذير والإسراف وإنما بقصد التنعّم بما رزقنا الله من فضله. فهل يشملنا التحذير من الإسراف الذي تضمّنته الآيات التي أوردناها؟

وقد أخذ القرآن الكريم مثل هذا السؤال بعين اعتباره، وأجاب الله تعالى فيه على هذا السؤال في الآية (١٢) من سورة يونس بقوله عزوجلّ: ﴿**وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلّما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرّ مسّه، كذلك زُيّن للمسرفين ماكانوا يعملون.**﴾. علماً بأن الضُّر معناه على حسب ماأورده أصحاب المعاجم: سوء الحال والشّدة (محيط المحيط). وورد في الكُلّيات: الضُّر بالضّم خاص بما في النّفس كمرضٍ وهُزال. وعليه فإنّ الله عزوجلّ يجيب على السؤال الذي ذكرناه بأنّ من سيئات ومخاطر الإسراف على المُسرفين أن يمرضوا ويصابوا بالهُزال نتيجةً لإسرافهم في طعامهم وشرابهم وعدم تقيّدهم في ذلك كلّه بأسسٍ علمية.

فإذا مسّ مثل هؤلاء الضرّ الناتج عن الإسراف يدعوننا مهما اعتراهم من مرض ومهما كانوا فيه من حال لنتغاضى عن معصيتهم التي أبعدتهم عنّا، يدعوننا لجنبهم.

وحين نكشف عنهم هذا الضّر الذي ألمّ بهم، لايرتدعون بل يعودون إلى سابق سيرتهم كأن لم يدعونا إلى ضُرّ مسّهم. فإن تساءل أحدهم عن سبب هذا الضرّ وماآل إليه حالهم مع أنهم يتقّون ربّهم ولاينوون معصيته فيما يسرفون به من طعام وشراب فليعلموا أن لادخل للنيّة في هذا الأمر على شاكلة القاضي لايأخذ بعين اعتباره جهل المذنب بالقانون. والحقيقة هي ﴿**كذلك زُيّن للمسرفين ماكانوا يعملون**﴾ بمعنى أنّ الله تعالى لايحاسب في مجال الإسراف عن النيّات بل عن مخالفة النهج العلمي في السلوك ومعصية الله على هذا الصعيد. فقد زُيّن للمسرفين ماكانوا يعملونه دون سندٍ شرعيّ. ذلك أنّ للإسراف أخطاره الوخيمة على جميع صُعد الحياة ومنها صعيد أجساد المسرفين.

وإلى هنا لابدّ أن يكون المؤمن السالك درب عِرفان ربّه قد علم بأخطار الإسراف في الطعام والشراب واللّباس وسواه من الأمور الحياتية، ولابدّ أن يكون قد أدرك أنّ الإسراف يدخل في باب الإفساد في الأرض. على اعتبار أن جذر الإسراف وجذر الفساد واحد وهو قطع ماأمر الله به أن يوصل. ولابدّ لهذا المؤمن السالك أن يكون قد أيقن أن إسرافه سيُبعده عن ربّه ويفقده ودّه ومحبّته ويجلب عليه كرهه وبغضه والويلات التي تنتظر المسرفين. لذلك يحاول هذا المؤمن السّالك الحذر كل الحذر من أخطار هذا الوباء الخطر على كيانه الروحاني والجسماني ومجتمعه واقتصاد بلده أينما كان. آخذاً بعين اعتباره الوعد الذي قطعه ربه على نفسه في الآية التاسعة من سورة الأنبياء بحق المؤمنين السالكين درب عرفانه والبعيدين عن الإسراف وعن معصيته تعالى بقوله عزّ وجلّ : ﴿ **ثم صدقناهم الوَعْد، فأنجيناهم ومن نشاء، وأهلكنا المسرفين.**﴾.

١٠ ـ والله لايحبّ الظّالمين :

والصفة العاشرة والمذمومة في نظر الله عزوجلّ، والتي يكره تعالى أن يتّصف بها عبده المؤمن السالك درب عِرفانه والمجاهد للفوز بمحبة ربه وكسب رضاه هي صفة الظّلم، ذلك أنّ الله تعالى يقول ﴿.**والله لايحبّ الظالمين.**﴾.

فماهي دلالة هذا اللّفظ؟ الظلم اشتق من ظلم بمعنى وضع الشيء في غير موضعه. وهو اسمٌ من ظلم، ومصدره الظَلَم (معجم القاموس). ومعنى ظلم فلانٌ فلاناً أي جار عليه وانتقص من حقّه. وظلم الأرض: حفرها في غير موضع حفرها. وظلم البعير: نحره من غير داءٍ ولاعلّة. وكلّ ماأعجلته عن أوانه فقد ظلمته. فإن قلت: ماظلمك أن تفعل أي مامنعك أن تفعل. (محيط المحيط).

وقد يتساءل المرء: لماذا يظلم الإنسان أخاه في الإنسانية؟ والجواب يكمن في مرض الأنانية وحبّ الذّات وبشكلها المفرطِ البعيدِ عن الاعتدال. فالأناني لايحبّ لأخيه مايحبّه لنفسه بسبب محبّته ذاته أكثر من محبّته سواه. فمن كان أنانيّاً ومحبّاً لذاته أكثر من محبته لسواه من الناس، تعميه أنانيته وتدفعه على طريق ظلم أخيه. أي تدفعه أنانيته لينقص من حقوق سواه ليضمّ ذلك إلى حقوقه ويظلم بذلك أخاه.

والأناني وهو على هذه الصورة من التّعامل يتسبّب في كره الناس إياه وبالتالي يجلب كُره ربّه إياه أيضاً ويخسر محبته وقربه ورضاه.

والظّلم بمعنى الانتقاص من حقوق الآخرين يمثل أساساً عاطفة عنفٍ واغتصاب. على حين أن المحبّة تمثل عاطفة سلام ومسالمة وأداة تعايش بين الأحبّاء. فلايكون محبّاً حقيقياً من لايضحّي بشيء ما في سبيل محبوبه. ويستحيل أن يتحابّ مسالم وأنانيّ.

من هذا ندرك أن عاطفتي المحبّة والظّلم هما على طرفي نقيضٍ تماماً. المحبّة تحمل معها روح التعايش والسّلام على حين يحمل الظلم روح العنف والاغتصاب لحقوق الآخرين. وعليه فلاسبيل للظالم ليكسب محبّة ربه. بل على العكس من ذلك إنّ ظلم وأنانيّة هذا الشخص تجلب عليه كُره خالقه وكره الذين ظُلموا على يديه.

أمّا الإنسان المؤمن السالك درب عِرفان ربّه وتقوى الله وخشيته، والذي يحاسب نفسه على كل صغيرةٍ وكبيرة تصدر عنه ولاينقص حق أحد من الناس فهو الإنسان الذي أشار إليه البيان الإلهي في الآيات (١٣٨ ـ ١٤٠) من سورة آل عمران والتي قال تعالى فيها: ﴿**هذا بيانٌ للنّاس وهدىً وموعظةٌ للمتّقين. ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين. إن يمْسسكُمْ قرْحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثلُه، وتلك الأيّام نُداولها بين النّاس وليعلم الله الذين**

آمنوا، ويتّخذَ منكم شُهداء، والله لايحبّ الظالمين.﴾ أي أنّه طالما دأب المؤمن السالك سبيل معرفتي وهو يطلب ودّي ومحبتي ورضاي، وطالما تجنب انتقاص حق سواه من النّاس فلم يظلم أحداً منهم وطالما وضع خشيتي وتقواي نصب عينيه. فهذا بيان إلهيٌّ أُعلنه لكل مؤمن سالك ولكل إنسان ليكون هدى وموعظة للمتّقين.

ففيه أعلن الله تعالى للناس جميعاً أنه يستحيل أن يفوز بمحبتي وقربي إلا الإنسان المؤمن بما أقول والسالك درب عرفاني والذي يكون تقيّاً. وأتوجّه ببياني هذا إلى الذي يوقّر بياني هذا ويعمل عليه. اعلمْ يامن استجبت لبياني ونداءي أنت وكلّ مؤمن به أنّكم أنتم الذين ستكونون الأعنين والفائزين بمحبتي وقربي ورضاي، وستكون لكم وحدكم العاقبة الحميدة دنيا وآخرة، فلا يوهنكم ولايُحزنكم مـاأبتليكم به وأمتحنكم وأصيبكم بقرح أي نقص في الأموال والأنفس والثمرات. فقد امتحنت وأصبت بهذا القرح أي بهذا النقص في الأموال والأنفس والثمرات هؤلاء الظالمين أيضاً الذين خسروا ودّي ومحبتي وقربي ورضاي وساءت عاقبتهم دنيا وآخرة. ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ فهذا قانون استننته ليُهيمن على وجود الإنسان الذي خلقته، لأمحّص به الذي يؤمن ببياني هذا ويأخذ بهداي وموعظتي، ممّن يكفر به ويستغرق في أنانيته وظلمه وانتقاصه من حقوق سواه من العباد.

والله عزوجلّ الذي أدلى بهذا البيان الإلهي الذي احتوى على هدى وموعظة للمتّقين. وبألفاظٍ موجزة وبليغة. جاء بما يشرح هذا البيان بألفاظٍ أخرى في سورة (المؤمنون) التي استهلها بالكلام عن المؤمنين الفائزين. وقال في الآيات (٥٧ و ٦٢) منها: ﴿**إنّ الذين هم من خشية ربّهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربّهم لايشركون. والذين يؤتون ماأتوا وقلوبهم وجلةٌ إنّهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون. ولانُكلّفُ نفساً إلاّ وُسعها ولدينا كتاب ينطق بالحقّ وهم لايُظلمون.**﴾. أي أنّ قانون الابتلاء العام الذي نبّهنا إليه في الآية (١٣٨) من سورة آل عمران، يضبط ذاك القانون ضابطان: الأول هو أننا لانكلّف نفساً إلا وُسعها. والثاني أننا ألزمنا كل إنسان طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً ينطق بالحقّ، ويكشف أعمال الإنسان التي عملها في دنياه، بالحق، أي بالعدل

والصّدق وهذا هو معنى "الحق". وإن هؤلاء الأنانيين الذين يظلمون سواهم من الناس وينتقصون من حقوقهم، "لايُظلمون" فيما سيلاحظونه مكتوباً في كتابهم الذي أحصى أعمالهم، لأننا لانعامل هؤلاء الظالمين بالموازين التي يعاملون بها إخوانهم من البشر أمثالهم بل إنّ ميزاننا هو الحقّ أيْ يتّصف بالصدق فيما سجّله وبالعدل في إصداره النتائج والأحكام التي يُصدرها ضدّهم.

❀❀❀

الفصل الثاني
كيف تفوز بمحبّة الله تعالى ؟

أولاً ـ أن تتجنّب الاتصاف بالصّفات العشر المذمومة في كتاب الله وهي المختال الفخور والمعتدي والخوّان والأثيم والفَرِح والمفسد والخوّان والكفور والمسرف والظالم.

وهي الصّفات التي حذّر القرآن الكريم المؤمن السالك سبيل عِرفان ربه والطالب بالفوز بمحبّه خالقه ورضوانه، حذّره من أن يتصف بهذه الصفات المذمومة في نظر ربه عزوجل.

ثانياً ـ أن تتذكّر أنّك ستمرّ بمراحل أربع للفوز بمحبة ربّك وهي : الرغبة والأنس والودّ والمحبة. هذه الألفاظ التي أتى بها القرآن الكريم ليشير ويعبّر بها عن مراحل العرفان الإلهي الذي يوصل المؤمن السالك إلى الفوز بمحبّة الله عزّوجل .

ثالثاً ـ أن تعمد إلى الذرائع التالية :

١ ـ تمتين القاعدة : إن أول هذه المراحل وهي مرحلة الرغبة إلى الله تعالى والوارد ذكرها في الآية (٩٠) من سورة الأنبياء، بقوله تعالى: ﴿**إنّهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً**.﴾ وبمناسبة الكلام عن أنبياء بني اسرائيل. إنّ في ذكر هذه المرحلة إشارة إلى أنّ المؤمن السالك بعد إيمانه وبيعته يمرّ بمرحلةٍ ضبابيةٍ تتراوح بين رغبةٍ للتعرّف على الخالق، ورهبةٍ من جلال هذا الخالق. وبالإمكان إطلاق عبارة "قاعدة الانطلاق" أو حالة التّحفّز" على هذه المرحلة من العِرفان الإلهي.

وكلمة القاعدة أو الحافز، استلهمتُها من قانون طبيعي يسود عمله كل الأصعدة. فلو أننا أمعنا نظرنا في بناء المجتمع، أيّ مُجتمع، لاحظنا أنّه عبارة عن مجموعةٍ من الأُسَر تكوّن منها هذا المجتمع المذكور. فإذا عُدنا إلى الأسرة الواحدة لاحظنا تكوّنها من اجتماع ذكَرٍ وأنثى وتوالدهما وتكاثرهما عن طريق الجماع.

وإذا ازددنا إمعان نظرٍ نصل إلى وجود قاعدة أو حافز يشكّل أساس عملية الجماع وثمارها، وهي هذه الشّهوة الجنسيّة لدى الذكر والأنثى في آن واحد. فلولا وجود هذه الشهوة وهذه القاعدة التي شكّلت الحافز الطبيعي على اجتماع الذكر والأنثى، لاستحالت إمكانية الاستجابة لتشكيل أسرة وبالتالي لكان استحال تشكيل المجتمعات.

ثم إننا لو أمعنّا نظرنا في علم الرياضيات نلاحظ أنّ نفس القانون يعمل على صعيده. فلابدّ من إيجاد معادلات لحلّ أعقد المسائل الرياضية، وتشكل القاعدة والحافز على حلّها.

وفي المتاجرة لابدّ من توفّر رأسمالٍ يشكل القاعدة والحافز على صعيد المتاجرة ومضاعفة الأموال.

المهّم أنّ ملامح هذا القانون الطبيعي تتراءى للباحث على صعد الحياة جميعها، وليس الدّين بمنأى عن هذا القانون الطبيعي. هذا وإنّ مقام الرغبة الذي يعقُب الإيمان والبيعة والذي صرحت به الآية (٩٠) من سورة الأنبياء التي أوردناها، إنّما يشكّل هذه القاعدة وهذا الحافز للانطلاق منه على درب معرفة الخالق والتقرّب منه والفوز بمحبته ورضوانه.

ودور الرّغبة إلى الله على قدر فعاليته يشكل بمجموع مايرتّبه على هذا المؤمن المبايع من مسؤوليات، الأساس والقاعدة والحافز الذي يساعد هذا المؤمن على الانطلاق، انطلاقة صحيحة على درب العرفان الإلهي الطويل واللانهائي.

وكما أنّ الشهوة الجنسية تثمر تشكيل أسرة ومجتمعاتٍ إنسانية. فإنّ مقام الرغبة ومسؤولياته لابد أن يعطي ثماره اليانعة التي أشارت إليها الآية (٩٦) من سورة مريم في قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً.**﴾ أي ستثمر الفوز بودّ الله ومحبّته. ذلك أن صفة الرحمن الواردة في هذه الآية الكريمة تفيد منبع العطاء والكرم والرحمة. وهذه الآية صيغت بأسلوب تصريف معانيها بمختلف الاتجاهات على حسب ماوضحته في حينه من شروح سابقة. فقد أتى تعالى في هذه الآية الكريمة بلام شبه التمليك (لهم). وأتى بلفظ (ودّاً) غير معرّف أيضاً.

وعليه فإنّ مسؤلية القيام بالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من أشكال الذكر الإلهي تشكّل وفقاً للقانون الطبيعي الذي ذكرناه القاعدة التي

ينطلق منها المؤمن على درب عرفان ربّه عزوجلّ. فمقام الرغبة يشكّل الحافز على درب معرفة ربّنا عز وجلّ. وبقدر تمتين هذه القاعدة وتأسيسها على خشية الله وتقواه ، يكون الإثمار أعظم وأكثر لذّة ومذاقاً.

فهذا المقام وهذه القاعدة والحافز تشكّل الذريعة الأولى لجذب محبّة الله ورضوانه وبالإمكان تسميته بذريعة الذكر الإلهي. وقد سبق لي أن شبّهت هذا المقام بدحرجة طين على طين آخر، لايتمازجان، بل تلتقط إحدى الكُتلتين ذرات طين من جسم الكتلة الأخرى.

أو يشبه مايصل إلى فم الإنسان من ذرات سكّر متطايرة حين يصبّ محتويات كيس من السكّر في كيس آخر سواه. وهذا المقام هو مقام مسؤوليات وعمل لابدّ من الاستعانة بالصبّر للثبات عليه لندرة مايفيد من أثمار. ولذلك فإنّ الذّاكر لايستشعر الصلة المطلوبة بربّه عزوجل. ولابدّ له من أن يعمد إلى الأخذ بذرائع أخرى غير ذريعة الذّكر بأشكاله المختلفة، لتكون له الوسيلة التي تساعده على جذب محبّة وكسب قرب ربّه ورضوانه. والذريعة الثانية المساعدة على هذا الطريق، هي مرحلة الفكر والتدبّر لكلّ مانقوم به من ذكر إلهي.

٢ ـ أن تعتاد التفكّر وبنهج روحي : إن مرحلة ذريعة الذكر تضمنتها الآية (١٥٢) من سورة البقرة ﴿.. **فاذكروني أذكركم**..﴾ وكلمة (فاذكروني) أشارت إلى جميع أشكال الذكر الإلهي كما سلف أن بيّناه من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وسواها من العبادات. وإن كلمة (أذكركم) نبّهت إلى ثمار هذه الأذكار المحدودة فلم يقل تعالى: فاذكروني أحبّكم بل أذكركم وهي كلمة لاتفيد المحبة. بل التوجّه والتذكّر ليس إلاّ.

وقد أضاف جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة قوله: ﴿**ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة، إنّ الله مع الصّابرين**.﴾ ليشير من خلال ذلك إلى الذريعة الثانية لكسب محبّته وهي مرحلة التفكّر فيما نقوم به من أشكال ذكر إلهي وأن نداوم على ذلك أيضاً. أمّا كيف استنبطت ذلك فآتي على بيانه فيما بعد.

والذي أرغب ببيانه أولاً هو أنّه كما أنّ ذريعة مرحلة الذّكر استندت إلى قانون طبيعي ذكرته في حينه. فإنّ مرحلة الفكر التي تشكل الذريعة الثانية قد استندت إلى قانونٍ طبيعي آخر هو أنّ لكلّ فعل ردّ فعل. أي أن كل شيء يترك

آثاره سلباً أو إيجاباً. وإنّ ذريعة الفكر التي تضمنتها الآية التي ذكرتها لها آثارها الإيجابيّة في أدمغة المؤمنين الذّاكرين. ففي حين تُعدّ مسؤوليات الذكر الإلهي أداة تذكير، فإنّ عملية الفكر هي أيضاً عملية جراحيّة لدماغ المؤمن الذّاكر بشكلٍ من الأشكال.

أعود إلى قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة إنّ الله مع الصابرين.**﴾ وأتساءل: لماذا قال تعالى (استعينوا) ولم يقل (ثابروا)، بعد أن قال: ﴿..**فاذكروني أذكركم..**﴾؟ خصوصاً وأن الصّبر والصّلاة ليسا بشيئين ماديين.

ورأيي هنا أن الله تعالى أراد بفعل (استعينوا) لفت ذهن المؤمن السّالك إلى أنّ الذكر الإلهي كذريعة على درب العرفان يحتاج إلى دعمه بذريعةٍ أخرى، وهي أن يداوم هذا المؤمن السالك على حمل المسؤوليات التي ترتّبها على كاهله أشكال الذكر العديدة، وأن يركّز على جانب الفكر المأمور بالأخذ به في صلاته خاصة، ليكسبه ذلك قرب ربّه ومعيّته، فالله مع الصابرين.

ودليلي على صحّة ماذهبت إليه من معنى، هو أنّه جل شأنه جاء بقوله هذا استدراكاً منه لدلالة (فاذكروني أذكركم) التي لاتفيد إلا معنى التذكّر وليس المعية والصّحبة.

والأمر الثاني هو أنّ من المعروف أنّ الصلاة في حقيقتها هي ذكرٌ إلهيّ ولقوله تعالى في سورة طه: ﴿**أقم الصّلاة لذكري**﴾. لذلك يُعدّ الإيتاء بلفظ الصّلاة هنا تنبيهاً منه جل شأنه إلى جانب الفكر المأمورين بالأخذ به في صلواتنا. هذا الشرط المطلوب لتصحّ صلاتنا والذي تضمنته الآية (٤٣) من سورة النساء حيث قال تعالى هناك: ﴿**يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصّلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون..**﴾ أي حتى تزدادوا علماً بما يحمله ربكم من صفاتٍ وأسماء حسنى ودلالات هذه الصفات والأسماء. ذلك أنّه كلّما ازداد علمكم بهذه الحقائق، ازدادت معرفتكم بربّكم الذي تعبدونه وبشكلٍ طبيعي ووفقاً لقانونٍ طبيعي مسنون من أن لكلّ فعلٍ ردّة فعل وتأثيراً.

والله جل شأنه وقد أنهى الآية بقوله تعالى:﴿ **إن الله مع الصابرين.**﴾، ولم ينهها بقوله إن الله مع المصلين أو يحب الصابرين المصلين، لم يفعل ذلك دون حكمة ودلالة، بل إنه حين أتى بكلمة (مع) الدّالة على الاجتماع والمصاحبة كما

ذكر ذلك صاحب محيط المحيط. أتى جل شأنه بكلمة (مع) هذه تنبيهاً إلى أنّ الذي يتفكّر فيما يقرأه ويذكر به ربّه في صلاته، إنّما يفيد في تقريب هذا المؤمن من ذات ربّه ومصاحبته على طريق السّعي الدّائب للتعرف إليه عزوجل. فإذا تعوّد المؤمن السالك درب عرفان ربّه على التفكّر فيما يقرؤه ويسبح به ربه، تعود عادة التفكّر هذه ذريعة ثانية لجذب محبة هذا الخلاق والفوز بقربه ورضوانه ويدخله الله تعالى في معيّته ويشمله بمحبته.

وعلى هذه الصورة يكون الله جل شأنه قد جعل مرحلة الفكر هذه الذريعة الثانية التي تتلو ذريعة الذكر الإلهي للفوز بمحبة الله وعرفانه وقربه ورضاه أي أن هذا المؤمن السالك إذا جعل ذريعة الذكر قاعدة انطلاق على طريق العرفان الإلهي فعليه أن يجعل مرحلة التفكّر في كل مايذكر به ربّه ذريعة ثانية على طريق العرفان الإلهي أيضاً. كيلا يبقى هذا الذاكر يردّد قراءاتٍ وتسابيح وأذكاراً كالببغاء ولايتفكّر فيما تضمّنته من معارف ودلالات تفيده على درب العرفان الإلهي. ذلك أنّ الله تعالى لايقصد من وراء تحميلنا مسؤوليات العبادات والذكر الإلهي، إنهاك أجسادنا وإتلاف أموالنا.

وإنّما يهدف بها دفعنا للتفكّير والبحث في كل جزئياتها ترويضاً منه تعالى لعقولنا، وتنمية منه تعالى للقوة المفكّرة لدينا، لنقطع بذلك أشواطاً على درب معرفتنا لربّنا بأسلوب علمّي وعن قناعةٍ ودراية وأسلوبٍ مثمرٍ فعّال.

وإننا إذا ردّدت ألسنتنا المطلوب من قراءاتٍ وتسابيح وحمدٍ ربّنا عزّوجل بمثابة أوراد أذكار وبشكل تقليديّ دون الانتقال من ذلك إلى مرحلة الفكر هذه، فلا نعود نجني ممّا نقرأه ونذكر ربّنا به شيئاً من محبّة ربنا عزوجلّ إلاّ بقدر ماتتركه هذه من آثار هامشية لاقيمة لها، ولاتؤدي الغرض الذي أوجدت وفرضت علينا من أجل تحقيقه.

فالمؤمن الذي يذكر ربّه بكلماتٍ يردّدها لمجرد الترديد. والذي يصلّي ويقرأ مايقرأه في صلاته من قراءات وأدعية وتسابيح لمجرّد الترديد. فإن انطوى على نفسه بعد ذلك يستشعر مافعلته هذه القراءات والأذكار التقليدية في نفسه من آثار، فلا يحسّ أنّها فعلت شيئاً ممّاأريد لها أن تفعله في فؤاده من زيادةٍ في اليقين بوجود ربّه وجذبٍ لمحبّة ربّه وتوسيع في معرفة هذا الخالق الخلاّق العظيم. بل لايتحسّس إلاّ شيئاً يسيراً جداً من ذلك ومُتصنّعاً لايُجديه فتيلاً. أي أنّ هذه

الأذكار والتسابيح التي تُردّد دون إعمال الفكر لاتُجدي إلاّ عمليّة تذكير بالله الخالق ولذلك سُميّت أذكاراً.

وعليه فإنّ هذا الشرط الذي اشترطه الله عزوجلّ لصحّة صلاتنا من خلال قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النّساء: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا لاتقربوا الصّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ماتقولون**..﴾، وهو شرط التفكّر فيما نتلوه في صلواتنا من قراءات وتسابيح، كان الغرض منه ألاّ نكتفي بمرحلة ذكر الله لجذب محبّة الله وسيراً على درب عرفانه.

بل كان الغرض من هذا الشرط أن نستعين بذريعة أخرى هي ماسمّيناه ذريعة الفكر والتي تسند وتدعم ذريعة الفكر على طريق العِرفان الإلهي. فتوسّع ذريعة الفكر هذه مدارك الذّاكرين، وتصبغ تفكيرهم بصبغةٍ روحيّة وتعوّدهم في حياتهم اليوميّة على التفكير بأسلوبٍ روحاني، وليس التفكير بأسلوبٍ ماديّ محض، لايقرّبهم من الحقيقة شيئاً.

ألا إنّ النّاس انقسموا إلى فريقين من البشر منذ بعثة آدم: فريق يحلل الأمور والظواهر ويبحث ويفكّر بأسلوبٍ روحاني. والفريق الآخر يحلّل نفس الأمور والظواهر، ويبحث ويفكر إنما بأسلوب ماديّ محض. هذه الحقيقة التي طالما لفتَ إليها أنظار القُرّاء فيما كتبته وألّفته. فما انقسموا إلى هذين الفريقين إلاّ بداعي هذه الذريعة الفكرية التي تطلبتها الأديان من فئات المؤمنين.

فهذا كتاب الله القرآن الكريم إذا تدّبرنا آياته الكريمة، نصل من خلال ماتضمنته إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها. لذلك عودوا بأذهانكم إلى ماأورده الله تعالى عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السّلام الذي قال الله تعالى بحقه في الآية (٦٨) من سورة آل عمران: ﴿**إنّ أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتّبعوه وهذا النّبي**..﴾. والذي قال تعالى عنه أيضاً في سورة البقرة الآية (١٣٠): ﴿**ومن يرغبْ عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسه**..﴾.

أفلم يقل الله تعالى في سياق كلامه عن هذا النّبي في الآيات (٧٤) ومابعدها من سورة الأنعام: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزَرَ أتتخذُ أصناماً آلهةً، إنّي أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلّما جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً، قال هذا ربّي، فلّما أفَلَ قال لاأحبّ الآفلين. فلّما رآى القمر بازغاً قال هذا ربّي، فلّما**

أفَلَ قال لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين. فلّما رآى الشّمس بازغةً، قال هذا ربّي هذا أكبر، فلّما أفَلَت قال ياقوم إني بريء ممّا تشركون. إنّي وجّهت وجهي للذّي فطر السموات والأرض حنيفاً، ومأأنا من المشركين﴾؟ وهل يُعقل أن يأتي الله تعالى في وحيه العظيم بهذه المعلومات التاريخيّة لمجرّد الرّواية إلاّ أن تكون له من ورائها مقاصد وحكم تنفع المؤمنين؟

ويكفي أن تكون من جملة مقاصد إنزال هذه الآيات الكريمة التذكير أولاً أنّ القوّة الفكرية كانت نامية جداً لدى إبراهيم عليه السّلام. وأن إبراهيم كان يفكّر بأسلوبٍ روحانيٍّ غير ماديّ ثانياً. وأنّ ذريعة الفكر هذه غرست في نفس إبراهيم اليقين الكامل بوجود خالقه ثالثاً لقوله تعالى عنه ﴿**وليكون من الموقنين**﴾. وأنّ إبراهيم انطلق في مجال تطوّره الفكري هذا من فرضية أن يكون لهذا الكون خالق وليس من فرضية أن يكون هذا الكون قد أوجد نفسه بنفسه رابعاً. والله عزوجلّ إذ أضاف بعد ذلك قوله: ﴿**وتلك حُجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجاتٍ من نشاء، إنّ ربك حكيم عليم**﴾، قد نبّه أذهاننا خامساً إلى أنّ طريق الفوز والعروج ونيل القرب والحظوة عند الله الخالق، إنّما يكمن في هذا الأسلوب من التفكير الروحاني. وأن في هذا النّمط من التفكير تجلّت عظمة حكمة الله عزوجل وواسع علمه أيضاً.

وليلاحظ القارىء معي جيّداً. أفلا يرى كيف أنّ مفكّري أوربة وأمريكا الذين اتّصف تفكيرهم بصفة التفكير المادي المحض، أنّهم بلغوا شأواً كبيراً على مستوى الرّقي المادي، هذا التقدّم الكبير الذي أحرزوه فيما أضافوه من علوم وإيجادات تقنيّة لاتُنكر عظمتها.

فهل أفاد أسلوب التفكير المادي أصحابه من هؤلاء في التوصّل إلى معرفة الله الخالق والاستيقان بوجوده، وطلب ودّه ومحبته وعرفانه؟ هذا في الوقت الذي لاحظناه من خلال الآيات التي تلوناها من أنّ إبراهيم عليه السّلام، وهو الجدّ الأكبر لأنبياء شعوب أمريكا وأوربا، قد أيقن بوجود ربه وفاز بمحبته وقربه، وفي زمان لم يكن عصر إبراهيم عصر تقدّم علميّ، بل كان عصر تحجّرٍ عقليّ وجاهليّ. فلماذا يحدث هذا الفرق الكبير مابين هذه الشعوب الأوربية وبين جدّ أنبيائهم إبراهيم عليه السلام. إلاّ أن يكمن سرّ ذلك في اختلاف نمطي تفكير هذين الفريقين من الناس؟

ثم إنّ الذي ينظر إلى عظمة أمريكا المادية وإلى عظمة هيمنتها على عالم اليوم، وينظر بمنظار مادّي محض، يظنّ أنّ أسلوب التفكير المادي المحض الذي انتهجته شعوب أوربة وأمريكا هو الأسلوب الأمثل لتقدّم الإنسان ورقيه، على حين أنّ تلك الشّعوب انغمست من جرّاء هذا الأسلوب في التفكير وهذا التقدم المادي الذي أحرزوه، أقول: إن شعوبهم انغمست في بلبال الحياة الدّنيا والاستسلام للرغبات والميول والشهوات الجنسية وإلى درجة تناست معها أنّ خالقها اقتضت مشيئته أن يحقّق على أيديهم مايساعد إمام هذا الزّمان على تيسير نشر تعاليم الإسلام ورفع راية توحيد الله في المستقبل القريب كما تبيّن لنا من الآيات الآواخر من سورة الكهف، وهو الأمر الذي تضمنه تفسيري لها في مؤلف " في ظلال دلالات سورة الكهف" .

أي أنّ الذي يتدبّر حال أمريكا المعاصرة وبأسلوب التفكير الروحاني يصل إلى نتيجة هامة وهي أنّ مشيئة الله الخالق اقتضت في عصرنا أن يحقق على أيديها أشياء وأشياء. وستثبت الأعوام القادمة صحّة هذه النتيجة الهامّة التي توصّل إليها من يتدبّر ويفكّر بأسلوب تفكير روحاني.

وهكذا يتبين لنا أنّ ذريعة الذّكر الإلهي بأشكاله العديدة لاتفي المؤمن السالك ولاتكفيه لبلوغ مرحلة اليقين بوجود ربّه ومعرفته وكسب محبته وقربه ورضاه. بل لابدّ له من الأخذ بذريعة الفكر، والتفكير بأسلوب روحاني. وإشارة إلى هذه الحقيقة خاطب الله تعالى المؤمنين في سورة المائدة وقال : ﴿**ياأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم، فكفّ أيديهم عنكم، واتّقوا الله، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون.**﴾.

وكأنه جلّ شأنه قد قال للمؤمنين السالكين درب عرفانه ألاّ يكتفوا بذريعة تذكّر نعمة الله عليهم. بل من واجبهم الانتقال منها إلى ذريعة الفكر التي تشدّهم أكثر من ذريعة الذّكر إلى التعرّف على خالقهم والفوز بمحبّته. وتجزئة عملية هذه النعمة التي أنعمها الله عليكم إلى مكوّناتها ودواعيها. فقد جمع عدوّكم يومها كلّ مالديه من قوّة وعتاد وهدفه من ذلك مهاجمتكم والقضاء عليكم لإثبات صدق معتقده وكذب معتقداتكم. فلو أنّ الله ترك هذا العدّو يفلح فيما خطّط له وسعى إليه. لانقلبت الموازين ولانقلب الحقّ باطلاً. وقد تدخل ربكّم في الوقت المناسب وكّف أيدي أعداءكم عنكم وفشّل مخطّطه